الدفاع الوطني اللبناني

LEBANESE NATIONAL DEFENCE

مجلة
الدفاع الوطني اللبناني
LEBANESE NATIONAL DEFENCE

العدد الحادي عشر ـ كانون الثاني ١٩٩٥

أمن العرب بتكاملهم

في الوقت الذي نقرأ فيه كثيراً عن الأمن الأميركي والأمن الأوروبي والأمن الإسرائيلي، فإننا لا نكاد نقرأ شيئاً عن الأمن العربي، رغم انه في خطر حقيقي. وفجوة الأمن العربي سببها غياب الارادة العربية وتضاؤل قوتها الذاتية من جهة، وتعاظم الخطر الإسرائيلي من جهة أخرى. فلا معاهدات الصلح، ولا الأراضي المنزوعة السلاح، ولا القوات الدولية، ولا ضمانات الدول الكبرى، تحقق لنا الأمن القومي في غياب قوتنا الذاتية، التي في ظلها فقط تصبح الإتفاقات المعقودة مقبولة من وجهة نظر الأمن لأنها تكون اتفاقات بين أقوياء.

فالسياسة الدولية لا ترتكز على القواعد الأخلاقية، ولا على العدالة، بل هي سوق تجارية نشطة، فيها البائع والشاري والسمسار، وفيها البضاعة الطازجة والفاسدة والمحفوظة. عملتها الأمر الواقع، وعلى قدر ما في جيبك من أوراق تشتري. ويجب الإنتباه فقد تعطى بضاعة فاسدة، وقد تعطى أقل مما تستحق، أو يؤخذ كل ما في جيبك من أوراق دون أن تعطى شيئاً. فلا العيون السود تغري، ولا الإبتسامة الجذابة تجذب العطف والحنان، بل إن الأمور تسير بطريقة واقعية بعيدا عن العاطفة. أرقام تتصارع مع أرقام، وأوراق مع أوراق.

وبعد أن ضاعت جميع الأوراق التي كانت في جيوب العرب لاستخدامها اليوم في المعركة الفاصلة، من ورقة الإتحاد السوفياتي، الى ورقة قناة السويس، الى ورقة البترول، الى ورقة التماسك العربي، نقول ان الفرصة لم تضع نهائياً بعد، والتكامل العربي في القدرات الإقتصادية والسياسية والعسكرية هو السلاح النووي للعرب في معركتهم ضد العدو الإسرائيلي، سواء أكانت هذه المعركة من أجل الحرب أو من أجل السلام. وسوريا ولبنان مصممان على متابعة التكامل والتنسيق والتعاون في شتى المجالات، من أجل ان يكون السلام القادم، سلاماً شاملاً وعادلاً ودائماً، وإلا فإنه سيكون استسلاماً شاملاً ودائماً.

العميد الركن علي حرب
مدير التوجيه

الفهرست

العدد الحادي عشر ـ كانون الثانـي ١٩٩٥

كلمة التحرير ١

الستراتـيجية غير المباشرة
تحسم الحرب العالمية الثالثة ..... **العميد الركن أديب سعد** ٥

الاتحاد الأوروبي الى أين؟ ..... **العميد الركن سامي ريـحانا** ٢٥

الأمن الاسرائيلي
في المفهوم الستراتـيجي الجديد ..... **العميد الركن نزار عبد القادر** ٦٣
الكلام الحر في الاعلام الصهيوني ..... **د. نسيم الخوري** ٨٩
المسألة الكردية ..... **د. ميشال سلامة** ١١٩
كيف تساهم الجامعة في بعث مفهوم الثقافة الأمنية
وتحسين الأداء الشرطي ..... **د. فضل ضاهر** ١٤٥
المركزية واللامركزية الادارية ..... **العقيد د. فؤاد البيطار** ١٦٧
البعثة الفرنسية لتدريب الضابطية اللبنانية
في عهد المتصرفية ..... **الرائد أديب حرب** ١٨٧
دور علم النفس في مواجهة قضايا المجتمع
الجريمة بصفة خاصة ..... **د. عبد الفتاح دويدار** ٢١٣
الانسان بين العلم والحضارة ..... **د. حسين سبيتي** ٢٤١

مراجعة كتب
لـلاستثمار في لبنان: الحوافز الضريبية والتشريعية ٢٦٩
احتلال صيدا في العام ١٨٤٠ ..... **فارس عيد** ٢٧٧

الستراتيجية غير المباشرة تحسم الحرب العالمية الثالثة

العميد الركن اديب سعد(*)

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، كان قد تمّ القضاء على النازية والفاشية، كما تم استعمال الطاقة النووية لاغراض عسكرية واستسلمت الامبراطورية اليابانية. كانت هذه الحرب كتلك التي سبقتها قد تميزت بالعنف والشراسة والمواجهات المباشرة بين الجيوش الجرارة المتقاتلة بأسلحتها المدمرة. فقضى فيها عشرات الملايين من عسكريين ومدنيين وعم الدمار والخراب مدناً كثيرة. ومع حلول منظمة الأمم المتحدة القوية مكان عصبة الأمم الضعيفة، اعتقد العالم ان زمن الحرب قد ولى وأن الدول قد استخلصت مما عانته ما فيه الكفاية كي لا تلجأ مجدداً الى السلاح في حل خلافاتها.

وقبل ان تضع الحرب أوزارها بصورة نهائية، يتسارع ابطال الحرب، تشرشل وستالين وروزفلت، الى يالطا في شباط ١٩٤٥ ليعقدوا مؤتمراً يتقاسمون فيه المكاسب والمغانم بما في ذلك الدول والمناطق التي سوف تخضع لنفوذهم. وفي يالطا، رسموا لأوروبا خريطة سياسية جديدة أصبحت بموجبها دول أوروبا الوسطى والشرقية اشتراكية بزعامة الاتحاد السوفياتي، فيما حافظت دول اوروبا الغربية على نظامها الرأسمالي ولكن تحت الهيمنة الاميركية. وبعدما كانت السياسة العالمية تتقرر في باريس ولندن، انتقل مركز قرارها الى موسكو وواشنطن.

وما طال ان بدأ بين حليفي الامس ما سمي بـ «الحرب الباردة» كاشفين أن تحالفهما أثناء الحرب لم يكن سوى «رفقة طريق» للتمكن من دحر عدو مشترك يعود بعدها كل الى ما كان عليه من عقيدة وسياسة ونظام وعداوة للآخر. وهذا ما أدى الى القطبية الثنائية للعالم وفق نظامين شيوعي ورأسمالي وضمن معسكرين

(*) عميد متقاعد، قائد المدرسة الحربية سابقاً.

شرقي وغربي. ويدخل المعسكران معركة سباق التسلح ليصبح بحوزة كل منهما من السلاح التقليدي وسلاح الدمار الشامل ما يكفي لتدمير الكرة الأرضية بكاملها.

ومع وجود هذه الترسانات من الأسلحة وهول مفعولها المدمر، أصبح اتخاذ قرار بإعلان حرب ما صعباً على من يريد اتخاذه، لأن الحرب سوف لا تكون حسب المفهوم التقليدي، بل ستتحول الى حرب نووية يكون فيها الجميع خاسراً. **وربما كان هذا ما دفع القطبين طيلة مدة ما بعد يالطا الى العمل جادين لتحاشي الاحتكاك المباشر، مستعيضين عن ذلك بما يعرف بالقاموس العسكري بـ «الستراتيجية غير المباشرة»** حيث يمكن بهذه الطريقة محو الفشل أو التعويض عنه لاحقاً والشيء الذي لا يؤدي حتماً الى كوارث على المستوى العالمي لكنه قد لا يحسم الأمر ويؤدي الى نصر نهائي سريع. وكان للخصمين جولات في هذا المجال وفي كافة انحاء العالم نجحا فيها حيناً واخفقا حيناً، وتسببا للغير بعدة نزاعات وحروب محدودة.

لمعرفة اهمية هذا الأسلوب الستراتيجي ودوره في تأمين ما حققه من مكاسب للجبارين، لا بد من تحديد طبيعته وماهيته وما هو مكانه بين سائر الأساليب الستراتيجية؛ بعدها يمكن الغوص في معرفة ما حققه من انتصارات لأنه حسب رأي كلوزفيتز: «ليس بالامكان التقدم بسهولة ووضوح في تحليل المسائل الا بعد الاتفاق على معاني التعابير والمبادىء[١].

اولاً: مفاهيم ستراتيجية

تشتق كلمة ستراتيجية من كلمتين يونانيتين: كلمة Stratos وتعني الجيش وكلمة (AGEIN) وتعني القيادة، فهي في الأصل كلمة عسكرية تطلق على فن القيادة Art of General Ship[٢]. **ويتفق معلمو الستراتيجية، امثال الجنرال (بوفر) والجنرال «بواريه» مع كلوزفيتز في مؤلفاتهم بما معناه «أنها علم وفن استعمال الوسائل بغية تحقيق الأهداف التي ترسمها السلطة السياسية العليا»[٣].** اذن فالسياسة هي الاساس والمنطلق، وهي التي تحدد الأهداف فتأتي الستراتيجية في خدمة السياسة لتنفذ غاياتها. وتصدر السياسة عن اعلى

---

(١) CLAUSWITZ. **«De la Guerre»**. Edition francaise de minuit. Paris 1970. Livre II chap. 1. p. 124.

(٢) The International Encyclopedia of Sochial Sciences vol 15 - New-York 1968 p 281.

(٣) Général BEAUFRE. **«Introduction à la Stratégie»**. A. Colin 1962.
Général POIRIER **«Essaie de Stratégie Théorique»** 1982.
CLAUSWITZ. **«De la Guerre»**. op. cit.

سلطة في الدولة لتصبح الستراتيجية من صلاحية السلطة التي تلي، كرئيس مجلس الوزراء أو مجلس الوزراء مجتمعاً أو الوزير ضمن نطاق وزارته.

أما حالياً فلم تعد الستراتيجية مقتصرة على المجال العسكري، إذ أصبح التعبير هذا مستعملاً في مجال الاقتصاد والديبلوماسية والسيكولوجيا والثقافة وغيرها. **هذه القطاعات التي تمثل مجتمعة كافة قدرات الدولة، تشكل ما يطلق عليه الفرنسيون اسم «الستراتيجية الشاملة» والبريطانيون «الستراتيجية الكبرى» والاميركيون «الستراتيجية القومية»**(٤).

ومنذ اكتشاف الذرة واستخدامها في الحقل العسكري وحصول أكثر من طرف على هذا السلاح، بوشر بالكلام عن «ستراتيجية الردع» التي تقضي بمنع الخصم من اتخاذ قرار او تحقيق عمل ما لا نريده أن يقوم به»(٥).

وفي وضع معين، يرى رجل القرار نفسه أمام عدة أساليب عمل ستراتيجية عليه أن يختار منها الأسلوب الأفضل لبلوغ هدفه. والستراتيجية تكون اما مباشرة واما غير مباشرة.

«ترتكز الستراتيجية المباشرة على استعمال أو وجود قوى عسكرية تشكل بحد ذاتها الوسيلة الأساسية لتنفيذ مهمة ما، في حين أن الستراتيجية غير المباشرة تشمل كافة اشكال النزاعات التي لا تسعى مباشرة الى الحسم بمجابهة القوى العسكرية ولكن بالطرق السياسية والاقتصادية والديبلوماسية والحروب الثورية...»(٦) وهذا يشكل دليلاً على ان الستراتيجية غير المباشرة تحتوي على القسم الأكبر من الستراتيجية الشاملة كونها تستعمل كافة الوسائل باستثناء العسكرية منها. وحتى هذه الأخيرة قد يتم استعمالها أيضاً ولكن بنسبة ضئيلة.

وعبارة «ستراتيجية غير مباشرة»، وان كانت حديثة الاستعمال في المعجم العسكري، إلا أن ما تعنيه ليس حديثاً، اذ أن صن تزو Sun Tze صرّح منذ ستة قرون قبل الميلاد: **«ان السياسة الفضلى تبقى تلك التي تقضي باستلام الدولة سالمة بمهاجمتها في خططها، في مشاريعها، في تحالفاتها، في معنوياتها حتى يخضع جيشها بدون قتال»**(٧). وقد اهمل القادة العسكريون عبر التاريخ هذا المبدأ، لظروف بيئية ربما أو تنظيمية تتعلق بتشكيل الدول والجيوش، فلجأوا

---

(٤) Colonel BREM. **«Politique - Stratégie - Tactique»** - ESG - Paris oct. 1975 p. 4.

(٥) Idem.

(٦) Général BEAUFRE op. cit. p. 37.

(٧) SUN TZE **«l'Art de la Guerre»**. Edition française-Flamarion 1972. livre III p. 112.

الى المبادىء التـي بشرت بالعنف كالتـي صدرت عن ماركس وكلوزفيتز ولينـين ونابليون وفوش وغيرهم.

وتدعو مبادىء كلوزفيتز بمجملها الى العنف: فالمبدأ الأول ينصح بتصعيد القوة حتى بلوغ الذروة واستعمال كافة الوسائل في نزاع يصل حتى الموت. وهو يترك امر تحديد درجة العنف للسلطة السياسية. والمبدأ الثانـي ينصح بتدمير القوى العسكرية العدوة بالسلاح. وبرأيه أن تدمير القوة هذه يبقى بين أهداف الحرب، الهدف الأهم(٨). أما بالنسبة الى فوش Foch فالهجوم يشكل قانون الحرب الرئيسي(٩). وبالنسبة الى الستراتـيجيين السوفيات امثال غراتشكو Gretchko وسوكولوفسكي Sokolovsky وفولكوغونوف Volkogonov، فلا غرو اذا بشروا بالعنف أيضاً لأن اراءهم الستراتـيجية مستمدة من العقيدة الماركسية ـ اللينينية وقد عبروا عن ذلك في ما تركوه من مؤلفات(١٠).

اذن فالستراتـيجية، مباشرة كانت أو غير مباشرة بعنف أو بدون عنف، هي من الأساليب المتبعة ووفقاً للمبادىء التـي ترعاها، تسعى دوماً الى بلوغ الأهداف التـي ترسمها السلطة السياسية. فماذا كانت أهداف القوتـين العظميين منذ نشوء الخلاف بينهما؟

ثانياً: الاهداف المرسومة

من الصعوبة بمكان تحديد أهداف دولة ما بدقة، لأن القسم الأهم منها غالباً ما يبقى سرياً لا يعلن عنه بصراحة حفاظاً على أمن تحقيق هذه الأهداف. لكن مراقبة ميدانية لما ينشر في الكتب والصحف وتتناقله وسائل الاعلام من بيانات وتصاريـح صادرة عن المسؤولين، إضافة الى اعمال هؤلاء وتصرفاتهم خلال نصف قرن من الزمن، تساعدنا في اعطاء فكرة عن هذه الأهداف.

في خطاب موجه للحزب الشيوعي سنة ١٩١٩، اعلن لينين ما يلي: «لا نعيش في دولة ولكن في نظام دول، ووجود اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتـية الى جانب الدول الامبريالية لا يمكن ان يستمر الى الأبد، ففي النهاية سوف يتغلب واحد على الآخر. **وطالما ان الاشتراكية والامبريالية موجودتان، لا يمكننا**

---

(٨) CIAUSWITZ. op. cit. p 58-702-82 et 279.

(٩) FOCH «**Des Principes de la Guerre**». Berger Leurault. Paris 1906 p. 31 et 264.

(١٠) GRETCHKO «**Les forces armées de l'état soviétique**» Moscou 1975
SOKOLOVSKY «**Stratégie Militaire**». Moscou 1963.
VOLKOGON OV «**La guerre et l'Armée**». Moscou 1977.

العيش بأمان. ففي النهاية سوف ينتصر فريق ويعزف نشيد الموت للفريق الآخر الذي سوف يكون أما الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية واما الرأسمالية العالمية(١١).

ويبدو هنا الهدف واضحاً. فمن الناحية العقائدية، ما زالت الماركسية ـ اللينينية تسعى الى القضاء على الرأسمالية من خلال فهمها للطبيعة الطبقية للحرب كـ «امتداد للسياسة بوسائل العنف». يضاف الى ذلك ما أدخل لاحقاً في دستور العام ١٩٧٧ الذي ينص في المادة ٢٨ «**ان الاتحاد السوفياتي هو مجبر بمساعدة كل الحركات المناهضة للامبريالية، أي مساندة كل من يقاتل الغربيين**».

وبالنسبة للغرب، فالصراع مع الشيوعية هو عقائدي ومزمن يعود الى العام ١٩١٧ تاريخ نشأة الثورة البولشفية. وهو صراع فلسفي ايديولوجي وسياسي. فكما تريد الشيوعية القضاء على الرأسمالية، فإن هذه الأخيرة تشاطر الأولى نواياها كاملة. ويبقى مبدأ «ترومن» الشهير اكبر دليل على ذلك. فهو يتضمن تعهداً صريحاً اعلنه في ١٩٤٧/٣/١٢. تلتزم بموجبه الولايات المتحدة الاميركية «**التصدي للمد الشيوعي وللنفوذ السوفياتي في أوروبا وفي أي مكان آخر من العالم، بكافة الوسائل بما في ذلك الوسائل العسكرية وحتى النووية منها**»(١٢).

هكذا يظهر جلياً ان هدف كل من الخصمين هو القضاء على الآخر، وما تكدُّس الاسلحة لدى كل منهما سوى اكبر دليل على أهمية هذا الهدف المتمثل بحماية النظام وديمومته والتخلص من الخصم. **انها معركة موت أو حياة حضّر لها كل فريق بكل ما أوتي من قوة كونها برأيه ستشكل الحرب العالمية الثالثة** التي من خلالها سيتمكن من تدمير خصمه وفرض السلام عليه. لكن هذه الحرب لم تحصل على غرار سابقاتها **لأن الأساليب الستراتيجية المتبعة كانت مختلفة، والمعارك التي تخللتها كانت عبارة عن جولات ديبلوماسية وحروب محدودة (بالتفويض)** (Par Personne Interposée) **وحروب ثورية وحركات تحررية ومنافسات اقتصادية.. وصولاً الى الاعمال الارهابية**. هذه الجولات تتوجت بالنجاح حيناً وعرفت انتكاسات أحياناً، وهي تمكنت من تحقيق بعض الأهداف المرسومة كما بقي قسم بدون تحقيق لكنها، في النهاية، سمحت بانتصار فريق على الآخر.

---

(١١) Oeuvres complètes. Moscou 1973. Repris par le Général J. SALVAN «**La Paix et la Guerre**». Eriterion Paris 1992, p. 430.

(١٢) Voir Quid 1986 p. 971.

ثالثاً: الستراتيجية السوفياتية تتوصل الى اقامة امبراطورية عالمية

تميزت الستراتيجية السوفياتية بتوجهها العالمي تماشياً مع الأهداف المرسومة. فعمدت الى تشديد قبضتها على الدول الاعضاء في المعسكر الشرقي لارغامها على عدم التخلي عنه ومغادرته. وعملت دوماً للمحافظة على التفوق العسكري في القارة القديمة تحسباً لأي طارىء، لأن خط التماس بين الشرق والغرب يمر في هذه القارة. كما سعت الى الانتشار العسكري في سائر بحار ومناطق العالم لتحقق حلم بطرس الأول الكبير بالوصول الى المياه الدافئة ولتصبح في موقع يمكنها من دعم مناصريها في العالم الثالث في تحركاتهم التحررية والثورية ضد الغرب. وقد ساعد في ذلك أهمية الاتحاد السوفياتي من ناحية «الجيوبوليتيك»، فهو يشكل عالماً بحد ذاته يمتد من البلطيق الى الهادىء ومن بوهيميا الى كماتشتكا Kamatchatka. وتبلغ مساحته نحو ثلاثين مليون كيلومتراً مربعاً، وعدد سكانه نحو ثلاثمائة مليون نسمة. وقد تحمل خلال الحرب العالمية الثانية القسط الأكبر من الضحايا البشرية اذ بلغت خسارته في الأرواح سبعة ملايين ونصف من العسكريين وعشرة ملايين من المدنيين[١٣]. وقد حاول بعد الحرب توسيع رقعة اراضيه وبناء امبراطورية له في أوروبا وخارجها وحقق عدة انجازات في هذا المجال.

أ ـ انجازات في أوروبا

منح مؤتمر يالطا الاتحاد السوفياتي كسباً ملحوظاً في أوروبا، إذ اصبحت الأراضي التي اجتاحها جيشه في الحرب وطرد النازيين منها تحت نفوذه. وكانت موسكو في الهجوم النهائي على ألمانيا حثت جيوشها على التقدم بسرعة دون الأخذ كثيراً بعامل الامان، وذلك بغية كسب المزيد من المساحات. لكن تلك الخطة لم يعتمدها باقي الحلفاء. بعد يالطا، تنبهت واشنطن للكسب الذي حققته موسكو وكانت هذه بداية الحرب الباردة بين الاثنتين.

وكان السلاح الذري لا يزال حكراً على الولايات المتحدة الاميركية، وأية مواجهة مباشرة مع دولة تملك هذا السلاح، بعتاد حربي تقليدي، لا تجدي نفعاً. لذلك كان لا بد للضعيف في هذا المجال من اعتماد ستراتيجية غير مباشرة، كالحروب الثورية والحركات الداعية الى تصفية الاستعمار لعزل الدول الغربية عن مستعمراتها التي تمدها بالمواد الدولية، والتجسس للحصول على تكنولوجية الاختراعات. ولم يمضِ

---

(١٣) idem p. 581.

وقت طويل حتى اعطى التجسس ثماره بالحصول من الولايات المتحدة الاميركية على أسرار القنبلة الذرية، فكان لموسكو اول سلاح من هذا النوع سنة ١٩٤٩ وأول قنبلة هيدروجينية العام ١٩٥٢.

وتتابع موسكو تشديد قبضتها على الدول الاوروبية السائرة في فلكها، وعندما حاولت تشيكوسلوفاكيا العام ١٩٤٨ الانسحاب من المعسكر الشيوعي، تعرضت لانقلاب أعادها اليه. وبعد ارسال فرق عسكرية لمساعدة المحاربين في الدولة المنتفضة، تم اعلانها نهائياً جمهورية اشتراكية. ولم يمر عشرون عاماً على هذه الأحداث حتى ظهرت من جديد بوادر تحرر في تشيكوسلوفاكيا. عندها قامت قوات من حلف وارسو بالايعاز من موسكو باجتياحها في ٢٠ آب ١٩٦٨. واكتفى الحلف الأطلسي آنذاك بتوجيه تحذير الى الكرملين مدعياً أن ذلك يخالف مبادىء الامم المتحدة(١٤).

وكانت دول البلطيق ودول اوروبا الوسطى ينتابها من وقت الى آخر تململ لأنها كانت لا تزال تأمل الافلات من مخالب الشيوعية بمساعدة من الغرب. وقد دام ذلك حتى مؤتمر هلسنكي للأمن الأوروبي الذي انعقد في ١٩٧٥/١/٣٠. في هذا المؤتمر، طالب الغرب بحرية تنقل الاشخاص والافكار داخل الاتحاد السوفياتي وبسهولة حصول الاشخاص على تأشيرات الدخول الى اراضيه. وتخلى الغرب مقابل ذلك نهائياً عن مساندة دول البلطيق وعن قسم من رومانيا وبولندا الشرقية بدون الأخذ برأي هذه الدول(١٥). وهكذا أصبح الاتحاد السوفياتي المنتصر الأكبر في الحرب العالمية الثانية حيث زاد مساحةً وسكاناً. وفي هذا الوقت، كانت قواه التقليدية قد وصلت نسبتها الى ٣ مقابل ١ للغرب، ولم يعد بامكان هذا الأخير احتواءه الا بالردع النووي.

ب ـ انجازات في آسيا

أول كسب حققته موسكو في آسيا كان من خلال الحرب الكورية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٣)، حيث قاطع ستالين مجلس الأمن بدون ان يرسل جيشاً نظامياً الى الشرق الأقصى اعتقاداً منه انه بهذا السلوك سوف لن تتدخل واشنطن ضده. وكان النصف مليون مقاتل الذين تدفقوا من الصين الشعبية وكوريا الشمالية قد تمكنوا من السيطرة على الوضع، اذ لم تتمكن القوات العاملة هناك، بايعاز من الأمم المتحدة وبقيادة الجنرال الأميركي ماك ارثر، من ايقاف المد الشيوعي الا على خط

---

(١٤) Manuel de l'Otan. Bruxelles. sept. 75 p.25.

(١٥) DE MONTYAMONT Pierre. Ecole supérieure de guerre. Paris Bulletin trimestriel n° 115. 4e trimestre 1987. P.57.

العرض ٥٣٨. وطلب ماك آرثر استعمال السلاح الذري، لكن الرئيس ترومن لم يسمح باستعمال هذا السلاح. ولم توقع معاهدة الصلح بين الكوريتين إلا بكفالة واشنطن وموسكو. وهكذا تكون هذه الأخيرة قد حققت نصراً معنوياً، سيما وأن ترومن لم ينفذ مبدأه الشهير باستعمال السلاح النووي لوقف المد الشيوعي(١٦).

ثم تأتي **حرب فيتنام** لتزيد من توغل الشيوعية في جنوب شرقي آسيا. ففي ٢٥ نيسان ١٩٧٥، في حين كان الجيش الاميركي يغادر سايغون، كان الفيتناميون الشماليون يدخلون المدينة بواسطة الدبابات الروسية الصنع T-34. وبعد أن اصبحت سايغون تدور في فلك موسكو، وبدعم من هذه الأخيرة، تم الاستيلاء على **لاووس وكمبوديا**. بهذا الاسلوب، تمكن الاتحاد السوفياتي من ربح حرب الهند الصينية وأمّن لصالحه موانىء وقواعد في المياه الدافئة من بينها قاعدة كام ران Cam Ranh الشهيرة والتي كانت في السابق اميركية. ومع الوصول الى هذه الموانىء الدافئة، يكون قد تحقق حلم القياصرة وتأمنت الملاحة بين غرب وشرق الاتحاد السوفياتي طيلة أيام السنة، الشيء الذي لا يؤمنه المحيط المتجمد الشمالي بسبب الجليد.

ومع وصول حكومة ماركسية ـ لينينية الى سدة الحكم في **اليمن الجنوبي** العام ١٩٧٨، مدت موسكو نفوذها نحو البحر الأحمر واصبح لها في عدن قاعدة بحرية وجوية تتحكم بالبحر وما يحيط به.

وفي الشرق الأوسط العربي، وبعد حرب السويس العام ١٩٥٦، حل المعسكر الشرقي مكان الدول الغربية «المعتدية» في مجال تزويد دول المنطقة بالأسلحة والذخائر والعتاد الحربي على أنواعه. ومع العتاد، كان لا بد من ارسال مدربين ومستشارين وخبراء وتأمين الدعم لهذه الدول الصديقة، خاصة في المحافل الدولية.

وكان من البديهي أن يفكر الاتحاد السوفياتي بالمناطق القريبة منه على الحدود الجنوبية ومن بينها **افغانستان وباكستان والهند وايران**. وحاولت موسكو الافادة من سوء العلاقات الاميركية ـ الايرانية بعد الثورة الاصولية واحتجاز الرهائن في السفارة الأميركية، لكن طهران لم تبالِ بهذا التقارب الملحد ولم تستفد موسكو من الضغوطات الاميركية على بلاد فارس.

أما تدخلها المباشر في افغانستان، فقد شذ عن القاعدة وكلفها خسائر بشرية. وكان الحكم الشيوعي في افغانستان ضعيفاً وكذلك جيشه الذي عجز عن القضاء على ثغر قليل من الثوار. بمساعدة الحكم الضعيف هذا، دفعت موسكو في ٢٧ و٢٩ كانون الأول ١٩٧٩ بمائة الف جندي الى داخل البلاد، لكن تقدير قوة المقاومة

---

(١٦) راجع المرجع رقم (١٢).

الافغانية كان خاطئاً مما ادى الى الفشل. والجدير بالذكر هنا هو اقدام واشنطن على محاربة موسكو باستعمال الستراتيجية غير المباشرة وذلك بتقديم العون للثوار وتزويدهم بالسلاح والذخائر عن طريق باكستان. كذلك فعلت بكين. وقد استمر وجود القوات السوفياتية على الأراضي الافغانية كما استمر تكبدها خسائر بالأرواح الى حين اصدر غورباتشوف قراراً يقضي بسحبها في ١٥ شباط ١٩٨٩.

وتجد موسكو نفسها أمام عدوين: الغرب والصين، فتحاول اضعاف هذه الأخيرة للتخلص منها نهائياً وذلك بتجزئتها وتوزيعها على الآخرين. فحسب الدكتور سمير أمين، احد المشرفين على برنامج بحوث ستراتيجية تابع للأمم المتحدة، «ان هناك علامات واضحة تثبت أنه في عقد الستينات، واجهت الصين مشروعاً عدوانياً سوفياتياً حقيقياً اعلن عن هدفه وهو تقسيم الصين الى مناطق نفوذ لكل من الاتحاد السوفياتي واليابان والغرب»[١٧] لكن هذا المشروع لم يرَ النور.

ج ـ انجازات في اميركا الوسطى

مع اقتناع الكرملين بصعوبة الحصول على نتائج ايجابية في تعاطيه مع دول قريبة من الولايات المتحدة الاميركية، حاول تحقيق مكاسب هناك مخالفاً ما اتفق عليه في يالطا بأن تكون تلك المنطقة خاضعة لنفوذ واشنطن. وقد يكون نجاح الثورة **الكوبية** العام ١٩٥٨ واعتناقها الايديولوجية الماركسية ـ اللينينية، قد شجع موسكو على الحصول على المزيد من الفتوحات، فما كان عليه سوى دعم نظام كاسترو كي يشجع الحركات الثورية في دول اميركا اللاتينية، مستفيداً من الوضع الفوضوي القائم في تلك الدول بسبب التدهور الاقتصادي والاجتماعي. وبعد جهد طويل، تحقق النجاح الأول في نيكارغوا العام ١٩٧٩، فاعتنقت الشيوعية. وكان على وشك تحقيق عدة نجاحات اخرى في غواتيمالا والسلفادور، لكن المحاولات باءت بالفشل، وقد يكون ذلك بفضل الارجنتين التي لعبت دوراً هاماً كوسيط للولايات المتحدة في صمود هاتين الدولتين ودول اخرى من اميركا اللاتينية[١٨].

أما الحادثة الأهم في هذه المنطقة، فتبقى تلك التي عُرفت **بأزمة كوبا سنة ١٩٦٢**، والتي أوصلت البشرية الى شفير الحرب النووية. ففي هذه السنة، اكتشفت الاستخبارات الأميركية وجود صواريخ ستراتيجية سوفياتية على

---

(١٧) الدكتور سمير امين ـ الفكر الستراتيجي العربي عدد ٤ نيسان ١٩٩٢ ص ٣٠.

(١٨) JEKINS Brian Michael. «New Modes of Conflicts». California, June 1983. p.17.

أرض الجزيرة. اعتُبرت عملية نقل الصواريخ هذه من الاتحاد السوفياتي الى مقربة من الاراضي الأميركية محاولة للتدخل المباشر، لأن مدى تلك الصواريخ اصبح يغطي كافة اراضي الولايات المتحدة وقسماً من الأراضي الكندية شمالاً ليصل جنوباً الى البرازيل. وبعد تأزم الوضع وفرض الحصار البحري والجوي على الجزيرة من قبل الولايات المتحدة، اضطرت موسكو لسحب صواريخها بسبب ضعف موقعها في تلك المنطقة النائية. وقد استنتجت موسكو من العملية هذه عدة امثولات كان من بينها: خطورة الصدام المباشر وضرورة تلافيه، وضعف الاتحاد السوفياتي بحراً لعدم وجود اساطيل وقواعد بحرية تمكنه من التدخل. لذلك سوف يعمل لاحقاً لتقوية نقاط ضعفه هذه في كافة أنحاء العالم.

د ـ انجازات في افريقيا

عمدت موسكو في السبعينات الى مساعدة حركة تحرير **انغولا** (MPLA) ذات الصبغة الشيوعية، فقدمت لها الأموال والمساعدات العسكرية على أنواعها من ذخائر واسلحة ومدربين وخبراء ومستشارين. وكانت الامدادات تصل عن طريق كوبا في رحلات جوية عابرة للقارات ادهشت العالم بضخامتها وطريقة إنجازها. وبعد عدة مناوشات داخلية واحياناً خارجية مع جيش جنوب افريقيا حيث قتل عدة مستشارين سوفيات وكوبيين، توصلت حركة تحرير انغولا الشيوعية الى استلام الحكم العام ١٩٧٦، فشكلت انغولا قاعدة انطلاق تتوزع منها الاعانات على الحركات الثورية في افريقيا. وهكذا سادت الاضطرابات معظم القارة السوداء. فانضمت **اثيوبيا والموزمبيق** الى النظام الشيوعي واصبحت افريقيا، من الرجاء الصالح الى القرن الافريقي الى مضيق الموزمبيق، مسرحاً آمناً للأساطيل السوفياتية.

وقد توصل الاتحاد السوفياتي خلال الستينات والسبعينات الى تحقيق امبراطورية عالمية لها هيمنة في أوروبا وجذور وقواعد في آسيا وافريقيا واميركا، نتيجة اعتماده الستراتيجية غير المباشرة. أما عهد الازدهار، فكان إبان حكم بريجينيف ما بين ١٩٦٤ و١٩٨٢. عن هذه الحقبة، كتب سورين بيالير، وهو من أبرز المتخصصين الاميركيين بالاتحاد السوفياتي، ما يلي: «انني ارى في مرحلة الستينات والسبعينات مرحلة مميزة في التاريخ السوفياتي... انها المرحلة الأولى التي استطاع فيها هذا المجتمع أن ينتج المدافع والزبدة، وأن يرفع مستوى المعيشة، وإن بشكل محدود، وأن يبلغ التوازن مع الغرب»[١٩].

وجاءت تقارير الحلف الأطلسي في تلك المرحلة لتثبت ما قاله بيالير: ففي تقرير

(١٩) هيلر ميشال. «**السكرتير السابع والأخير**». الطبعة العربية الاولى بيروت ١٩٩٢ ص ١٠٦.

صدر في كانون الأول ١٩٦٧، يدعي فيه الحلف الأطلسي انه لعب دوراً هاماً بوقف التوسع السوفياتي في أوروبا، ليضيف أن الاتحاد السوفياتي توصل إلى أن يكون احدى القوتين العظميين في العالم[٢٠]. وفي تقرير لاحق صادر العام ١٩٧٤، يقول الحلف الأطلسي إنه بدأ يخشى من ازدياد قوى حلف وارسو وإن ميزان القوى الستراتيجي بين الحلفين قد بلغ شبه المساواة[٢١]. أما التقرير الصادر في منتصف السبعينات، فقد جاء فيه ان الاتحاد السوفياتي توصل الى قدرة ستراتيجية نووية كالتي يمتلكها الغرب، في حين انه في السلاح التقليدي يفوق قوة الحلف الاطلسي، وأن باقي قواته، وخاصة البحرية منها، ازدادت بمقدار هائل بدون أن يقابل ذلك أي تقدم من قبل الغرب[٢٢].

رابعاً: كلفة بناء الامبراطورية وتعهدها

ان بناء امبراطورية بضخامة تلك التي بلغها الاتحاد السوفياتي في نهاية السبعينات وتعهدها ليسا بالأمر السهل، سيما وأنها ذات دعوة عقائدية ثورية وأن الأنظمة في الدول التي تسير في فلك موسكو والمنتشرة في كافة أنحاء العالم لم يكن لديها من القوة والمتانة ما يكفيها لحماية نفسها. فمنذ عهد خروتشوف، لم تعد طاعة الأنظمة لموسكو كما كانت في عهد ستالين، بل اعتراها نوع من التحرر والفوضى وضع موسكو أمام التزامات هائلة للمحافظة على ما حققته من مكاسب في مختلف اقطار العالم. وكان الانفاق كبيراً جداً إذ بلغت كلفة إرساء نظام شيوعي في اثيوبيا ثلاثة مليارات دولار، كما بلغت تكاليف ارسال اسلحة الى الدول الافريقية سبعة مليارات دولار. وكان تعهد كوبا يكلفها يومياً العام ١٩٧٩ ستة ملايين دولار[٢٣]. وحتى بعد انسحاب الجيش السوفياتي من افغانستان، بلغت كلفة الامدادات العسكرية الى حكومة كابول من ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون دولار شهرياً[٢٤]. في موازاة هذا، كان الجمود قد بدأ منذ مطلع الثمانينات يخيم على النمو الاقتصادي. وفي حين كان الغرب يحقق التقدم تلو الآخر في التكنولوجيا ومجالات الافادة منها، كان الشرق يتابع انتاجه للأسلحة غير مكترث بما يحققه خصمه في مجالات أكثر حيوية. وفي هذا النطاق، يؤكد الجنرال جون غافان، وهو قائد سابق لقوات الحلف الأطلسي في أوروبا: «إن الصناعة السوفياتية انتجت بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٨ من الآليات والاسلحة، اكثر مما بحوزة الجيش الفرنسي

---

(٢٠) Manuel de l'Otan op. cit p. 60.
(٢١) idem p.33.
(٢٢) idem p. 18.
(٢٣) Quid 86 p. 971.
(٢٤) هيللر ميشال. مرجع سابق، ص ٣٣٩.

والالماني مجتمعين.. وحتى وقت قريب جداً، كان الاتحاد السوفياتي ينتج سنوياً قرابة ٧٠٠ طائرة مقاتلة، وغواصة نووية كل ٣٧ يوماً. وقد بلغ الانتاج السنوي من دبابات T-80 نحو ٣٤٠٠ دبابة»[٢٥].

وهكذا أمسى الاقتصاد السوفياتي ضعيفاً بعدما انهكته نفقات الدفاع والمساعدات الخارجية. علماً أن القوة العسكرية السوفياتية الهائلة لم تكن تدعمها قوة اقتصادية موازية لها. فالكتلة الشرقية كانت قوة عظمى عسكرياً فقط. وكانت النفقات الخارجية عبئاً على الداخل بحيث رأى الكسندر يافوف ان مليارات الروبلات التي يتقاضاها المستفيدون من المساعدات السوفياتية في العالم الثالث، بامكانها أن تُدخل إلى الموازنة السوفياتية ما يكفي لاستقرار الوضع المالي والسوق الداخلي للاتحاد السوفياتي[٢٦].

خامساً: الستراتيجية الاميركية في مواجهة المخططات السوفياتية

تُرجم مبدأ ترومن الشهير الذي يعود الى العام ١٩٤٧، والذي يدعو الى التصدي للمد الشيوعي بكافة الوسائل، ستراتيجيةً تهدف الى مواجهة التوسع السوفياتي عرفت بـ «ستراتيجية الاحتواء» (Containment). وهي ترتكز على احكام الطوق حول الكتلة الشرقية بإقامة الأحلاف والقواعد التي تحول دون توسعه وانتشاره، وبالتالي دون فرض هيمنته ونفوذه على العالم، الأمر الذي يؤدي حسب جورج كنان (George kennan) المنظر الأميركي وصاحب هذه النظرية، الى انحلال الاتحاد السوفياتي[*]. ومنذ العام ١٩٤٩، انتظمت معظم الدول في أوروبا الغربية اضافة الى الولايات المتحدة وكندا، في ما سمي بحلف شمال الاطلسي. وكان للمناطق الأخرى احلافها ايضاً، كحلف جنوب شرق آسيا وحلف جنوب غرب آسيا. وقد قابل الاتحاد السوفياتي هذه الستراتيجية بالاعلان رسمياً عن قيام حلف وارسو سنة ١٩٥٥، كما عقد اتفاقات ثنائية مع عدة دول.

وبغية مساعدة أوروبا مالياً للنهوض من معاناة الحرب، وتحاشياً لانزلاق دول منها نحو المعسكر الشرقي، اقرت واشنطن العام ١٩٤٨ ما عرف بـ «خطة مارشال» التي قبلتها ست عشرة دولة ورفضتها دول الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية.

---

(٢٥) مماثل.

(٢٦) YANON SPOTRIK Alexandre. n° 3, mars 1990, repris par Général SALVAN. J «**La Paix et la Guerre**» op. cit p.447.

(*) Le Monde. n° special - La Guerre Froide 1944 - 1994. Oct. 1994. p.8.

والتقت في الخمسينات والستينات الستراتيجية الاميركية مع مثيلتها السوفياتية في ما سمي بتصفية الاستعمار. فقد ساعدت الولايات المتحدة الكونغو للتخلص من الاستعمار البلجيكي، كما ساعدت انغولا والموزامبيق للتخلص من حكم البرتغال. وهذا التصرف كان ينقلب احياناً لصالح موسكو، اذ كان يسهل توغل الشيوعية مكان الدول المستعمرة لتنطلق منها نحو القارة السوداء.

وقد عملت واشنطن في الشرق الأوسط مع الاتحاد السوفياتي على وقف الاعتداء الثلاثي على مصر العام ١٩٥٦، بعدما هدد خروتشوف بقصف لندن وباريس بالصواريخ الستراتيجية النووية. وأفاد الاتحاد السوفياتي، دون الولايات المتحدة، من الحلول مكان فرنسا وبريطانيا في الشرق الأوسط حيث بقي طيلة خمسة وثلاثين عاماً المصدر الأكبر والأهم للأسلحة والذخائر، بفضل التسهيلات التي قدمها من قروض طويلة الأمد وبأسعار أدنى بكثير من تلك التي يقدمها الغرب. وقد رافق تدفق العتاد الحربي، عدد كبير من المستشارين والمدربين والخبراء العسكريين وبقيت «اميركا» في هذه المنطقة رمزاً للمستعمرين.

وكان يتخلل السلوك الاميركي، من وقت الى آخر، تدخلات مباشرة في نزاعات محدودة كان ينجح فيها حيناً ويخفق أحياناً. ففي العام ١٩٥٠، تسلمت واشنطن وتحت مظلة الامم المتحدة، قيادة القوى العاملة لصد المد الشيوعي في كوريا. وقد اعتبرت هذه العملية فاشلة بالنسبة الى واشنطن. كذلك كانت الحال بالنسبة الى تدخلها في فيتنام بين ١٩٦٥ و١٩٧٥، حيث اضطرت الى إخلاء المنطقة تاركة المجال للشيوعيين للحلول مكانها. كذلك فشلت في عهد الرئيس كارتر في عملية كوماندو مجوقلة كانت تهدف الى تخليص رهائن من رعاياها محتجزين في ايران، كما أن وجودها في لبنان من ضمن القوة المتعددة الجنسيات إثر الاجتياح الاسرائيلي سنة ١٩٨٢، عرّض قواتها لعملية انتحارية قام بها متطرفون وكلفتها الكثير من الضحايا.

وعمدت الولايات المتحدة، شأنها شأن الاتحاد السوفياتي، الى تقديم المساعدات التكنولوجية والمالية للدول المحتاجة. وقد بلغت هذه الاعانات العام ١٩٨٣، خمسة مليارات وستمائة مليون دولار، استفادت منها دول في الشرق الأوسط، وبشكل خاص اسرائيل، وفي أوروبا (اسبانيا والبرتغال) وفي شمال افريقيا وأوقيانيا واميركا اللاتينية[٢٧].

وتبقى الحرب الاقتصادية الجهد الرئيسي في ستراتيجية واشنطن الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي لاضعافه. فالكتلة الشرقية لم تكن قد نهضت بعد من آثار ما

---

(٢٧) Quid 1986 p. 854.

دمرته الحرب، حين أجبرها الغرب على خوض معركة سباق تسلح لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

وفي الستينات، أقر الحلف الأطلسي ستراتيجية عُرفت بـ «الرد المرن» وترتكز على مستويات ثلاثة: إستعمال الوسائل التقليدية، وفي حال فشلها استعمال النووي التكتي، ومن ثم السلاح النووي الستراتيجي. وقد قابل ذلك اعادة نظر حلف وارسو بخططه العسكرية والعمل على تطوير وتوسيع القوات التقليدية كي يصبح بمقدورها خوض المعركة وربحها في المستوى الأول، أي قبل بلوغ درجة استعمال النووي، ما أدى الى المزيد من المصاريف التي من شأنها انهاك الاقتصاد السوفياتي.

ومع استمرار الحرب الباردة، يستمر سباق التسلح وكلفته الباهظة والمتزايدة.

وقد توّج سباق التسلح هذا الذي فرضته ستراتيجية واشنطن في القطاعين التقليدي والنووي بـ «مبادرة الدفاع الستراتيجية» التي اطلقها الرئيس ريغن العام ١٩٨٣، هذه الستراتيجية التي عرفت ايضاً بـ «حرب النجوم»، تخالف بمضمونها اتفاقات سالت ـ ١ المعقودة مع الرئيس نيكسون العام ١٩٧٢ والتي «تحدّد نشر الاسلحة المضادة للصواريخ». مبادرة ريغن هذه، وضعت الكرملين في مأزق، لأنه اذا لم يُقدم على العمل بالمث. يُمسي متخلفاً في مجال الصواريخ المضادة للصواريخ، وفي هذه الحالة تنتفي مقولة «الردع النووي المتبادل»، لأن الصواريخ الشرقية تصبح معرضة للتدمير قبل بلوغها الهدف في حين أن الصواريخ الغربية تسلم من خطر اعتراضها وهي في طريقها الى اهدافها.

وتُضطر موسكو الى الانسحاب في هذه المرحلة من سباق التسلح، بعدما أرهق اقتصادها بالمصاريف الباهظة التي رتبتها عليه موازنة الدفاع والمساعدات الخارجية وتكاليف تدخلها في الخارج.

سادساً: إنهيار الاتحاد السوفياتي

جاء في كتاب الأمير «Le Prince»، للكاتب الايطالي نيكولا ميكيافيلي «إن الأنبياء المسلحين استطاعوا دائماً الانتصار، أما غير المسلحين فمنوا دائماً بالهزيمة»(٢٨). وميكيافيلي في نظريته الشهيرة ان «الغاية تبرر الوسيلة»، ليس بعيداً عن النظرية المادية الماركسية ـ اللينينية، وقد يكون توجُّه الاتحاد السوفياتي غير المنافي للدعوة الى التسلح هو الذي قاده في النهاية الى الهزيمة.

وكان بعض المفكرين توقّعوا تفكك الاتحاد السوفياتي قبل عدة سنوات من

(٢٨) هيلر ميشال. مرجع سابق ص ٢٥٩، نقلاً عن: Le prince Ch VI Paris. p. 305.

سقوطه. فالمنظِّر الاميركي جورج كنان (George Kennan)، صاحب نظرية «الاحتواء» (Containment)، رأى أنه سوف يدوم عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً(*)، والكاتب اندريه أملريك تساءل في كتاب له اذا كان «سيبقى قائماً حتى العام ١٩٨٤»، مستنداً بذلك الى تعدد التنظيمات المتطرفة والى تناقض الاتجاهات القومية في بلدان البلطيق والقوقاز واوكرانيا والتي ليس بامكانها التعايش ضمن نظام يجمعها في بوتقة واحدة. أما الكاتبة والمؤرخة الفرنسية «هيلين كارير دانكوس»، فقد توقعت نهاية الاتحاد قبل حصولها بعشر سنوات في كتاب «الامبراطورية المتفجرة» (L'Empire Eclaté) الذي صدر العام ١٩٧٨.

ويشهد العام ١٩٨٥ حدثين هامين: التجديد للرئيس ريغن لولاية ثانية، ووصول غورباتشوف على رأس الاتحاد السوفياتي خلفاً لتشرننكو. وفيما يُعلن الرئيس السوفياتي عن خطته في «البيروستريكا» أي اعادة البناء، والـ «غلسنوت» أي الشفافية، يتابع الرئيس الاميركي حملته على ما اسماه «امبراطورية الشر»، ويعلن متابعة العمل في «مبادرة الدفاع الستراتيجية». وكان العجز قد بدأ يظهر على الامبراطورية السوفياتية من خلال إلحاح قادتها على الغرب لعقد اتفاقيات للحد من التسلح توخياً منهم عصر النفقات وعدم ترك المجال لخصومهم لإحراز تقدم عليهم في حال حصول نزاع مسلح. وربما تنبهت واشنطن لنوايا موسكو، فبادرت الى التملص من ارتباطاتها معها كما فعلت باتفاقية (سالت ـ ٢) وما تبعها من محاولات لخفض التسلح. فكان أن أعلنت موسكو من طرف واحد عن وقف تجاربها النووية وتجارب الأسلحة المضادة للاقمار الفضائية الاصطناعية، فيما تابعت واشنطن السير قدماً في انتاج هذه الاسلحة من ضمن برنامج ريغن بالمعروف بـ «حرب النجوم».

وبغية الحد من النفقات، عمدت موسكو الى اعادة نشر قواتها في الخارج. فبقرار من غورباتشوف، انسحب الجيش السوفياتي من افغانستان العام ١٩٨٩ تاركاً وراءه احتمال نشوب حرب أهلية. كما أعيد النظر في السياسة المتبعة في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية، حيث انهكت النزاعات المحلية والمساعدات الطائلة الاقتصاد السوفياتي. وكان دعم فيتنام يكلف في كل سنة من السنوات الأخيرة ملياري دولار لقاء نتائج مخيبة للآمال. وقد رافق هذا التدبير تخفيض الأساطيل المنتشرة في المياه الدافئة، وتخفيض الجيوش المرابطة في أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى، ونزع الصواريخ النووية المتوسطة والقصيرة المدى من المسرح الأوروبي.

(*) Le monde N° special. op. cit. p. 146.

وكانت اعادة الانتشار هذه تهدف، اضافة الى الحد من النفقات، الى تحصين الجبهة الداخلية التي كانت قد بدأت تهتز منذ العام ١٩٨٨ بسبب الاضطرابات الاتنية والحركات القومية. وقد بدأت تلك الاضطرابات في دول البلطيق ودول القوقاز واستمرت حتى العام ١٩٩٠ بسعي كل من هذه الدول الى ايجاد مطلق وسيلة «تسهل لها الذهاب»(٢٩). ولما لم تكن التدابير المتخذة بمستوى الاخطار التي تهدد بنية الاتحاد، حصل الانهيار بسرعة لم يتوقعها احد(٣٠).

● في قمة دول حلف وارسو التي عقدت في بوخارست في ١٧ تموز ١٩٨٩، إتفق على أن تترك الحرية لكل دولة باتباع النظام الذي تختاره وان لا تتدخل هذه الدول في شؤون بعضها البعض(*).

● في خريف ١٩٨٩، بدأت المانيا الشرقية تحركها، فسقط جدار برلين في التاسع من تشرين الثاني. ولم تمضِ سنة على هذا التحرك، حتى توحدت الالمانيتان في دولة واحدة.

● تلا توحيد المانيا، انعتاق بولونيا والمجر، والثورة التشيكوسلوفاكية المخملية، فمأساة رومانيا، ثم استفاقة دول البلقان وانحلال ما كان يسمى بالاتحاد السوفياتي(٣٠).

● شهد العام ١٩٩٠ (بين شهري آذار وآيار) إعلان استقلال دول البلطيق التي كانت قد ضمت قسراً الى الاتحاد السوفياتي العام ١٩٤٠، فكانت ليتوانيا أول من اعلنت استقلالها، تلتها استونيا ثم ليتونيا. وقد ساعد تحرر هذه الدول دعم واشنطن لها، في وقت كانت موسكو بحاجة الى المساعدات الغربية وليس بامكانها رفض أي طلب للولايات المتحدة.

● كانت الدول الشرقية تنتظم في سوق اقتصادية مشتركة (Comecon) أنشئت منذ العام ١٩٤٩. وفي اجتماع عقد في بودابست في ٢٨ حزيران ١٩٩١، اعلن ممثلو الدول الأعضاء في هذه السوق حلها(**).

● تلا حل التنظيم الاقتصادي هذا، حل حلف وارسو في أول تموز ١٩٩١، بعد مرور ستة وثلاثين عاماً على انشائه، وذلك في حفل اقيم في براغ حضره ممثلو الدول الاعضاء باستثناء غورباتشوف(***).

---

(٢٩) مماثل ص ٣٦٠.

(*) Idem. N° special. op. cit. p 148.

(**) Idem. N° special. op. cit. p. 158.

(***) Idem. N° special. op. cit. p. 158.

(٣٠) لمزيد من التفاصيل يراجع SEDILLOT René. **«La Chute des Empires»**. Paris 1992, p. 134 à 241.

● مع فشل انقلاب ١٩ آب ١٩٩١، تم انفصال المزيد من الجمهوريات عن موسكو وقيام نزاعات قومية وعرقية وانهيار الروح المعنوية. وتم، كما يقول «رينه ساديو»، سقوط آخر معاقل الشيوعية[٣١]. ولم يمضِ اربعة أيام على فشل الانقلاب، إلا وأصدر مجلس السوفيات الأعلى قراراً بتعليق نشاط الحزب الشيوعي على كافة الأراضي السوفياتية[٣٢].

هكذا زال الاتحاد السوفياتي من الوجود، بتركيبته السياسية والعقائدية والاقتصادية والعسكرية بدون قتال ولكن بفضل الستراتيجية غير المباشرة التي بشر بها صن تزو Sun Tze منذ الفين وستمائة سنة[٣٣].

الخاتمة:

ليس الاتحاد السوفياتي أول قوة عظمى تزول من عالم عرف في تاريخه أفول عدة امبراطوريات كان من بينها الرومانية والجرمانية والعثمانية؛ لكن زوال تلك الامبراطوريات لم يكن يحصل فجأة بل يمر بعهد انحطاط يسبق الانهيار ويدوم احياناً اكثر من مائة سنة. وبالرغم من توقعات بعض المفكرين زوال الاتحاد السوفياتي، فقد دُهش العالم لزواله في فترة قصيرة لم تبلغ ثلاثة أرباع القرن. وكانت الدهشة أكبر في السرعة التي زال فيها والتي لم تتعدّ السنتين (من عام ١٩٨٩ حتى ١٩٩١).

وقد جاءت نهاية الاتحاد السوفياتي تعيسة على الذين عملوا لبنائه واعلاء شأنه. وكان بالامكان أن تأتي تعيسة على هؤلاء وعلى اعدائهم وربما على البشرية جمعاء لو اعتمدت الستراتيجية المباشرة بدلاً من غير المباشرة.

وفي تحاشي الجبارين النزاع المباشر بينهما، نقلاه الى دول العالم الثالث. فبدلاً من مساعدة هذه الدول الفقيرة على النهوض من معاناة البؤس والتشرد باعطائها المؤن والمواد الغذائية، كانت تصلها الاسلحة والذخائر لمزيد من الاقتتال المحلي ولاختبار الاسلحة الحديثة، وقد يكون لبنان من بين ضحايا هذا التصرف.

كان على الاتحاد السوفياتي القتال على عدة جبهات: ففي الداخل، لم يكن بعد قد انتهى من بناء ما دمرته الحرب، ولم يكن قد اكمل تنميته الاقتصادية، ولم تكن دوله قد اكملت الانصهار اللازم اجتماعياً وسياسياً في داخلها وبين بعضها البعض. كل هذا كان داخل مجتمع مغلق عمّه في الفترة الأخيرة الفساد والرشوة. وكان عليه أن يتصدى على الجبهة الخارجية للولايات المتحدة ولحلفائها الغربيين

---

(٣١) مماثل ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٣٢) مماثل ص ٢٦٧.
(٣٣) المرجع (٧) من هذه الدراسة.

وللصين ولما يوجهه هؤلاء من شائعات وحملات نفسية ضده.

وقد خاضت موسكو مع واشنطن مباراة اقتصادية خاسرة، لأنه كان عليها التصدي لاقتصاد اميركي قوي لا يتأثر كثيراً في الخارج، ولم تدمره الحرب السابقة التي لم تدر رحاها على أراضيه، اقتصاد يؤمن للاميركيين اكتفاءً ذاتياً، وجل ما ينقصه من الخارج لا يتعدى النفط وبعض المواد المستعملة في الطاقة النووية. هذا الوضع الاقتصادي المميز، مكن القادة الاميركيين من المضي قدماً في سباق التسلح ومنح المساعدات دون أن يكون لذلك أثر كبير على الاقتصاد العام. وكان الوضع الاقتصادي السوفياتي عكس الاميركي غير مهيأ لخوض سباق التسلح على مدى اربعين سنة، الأمر الذي جعله ينسحب من هذا السباق ويعلن انهزامه عسكرياً واقتصادياً ومعنوياً دون الافادة من ترسانات الأسلحة التي كان قد حققها ولا من الموازنات الضخمة التي خصصها للقوات المسلحة وللمساعدات الخارجية. وقد عملت موسكو على تصفية الاستعمار في العالم، وعلى الايقاع بين واشنطن ودول اوروبا الغربية لسلخ هذه الأخيرة عن الولايات المتحدة، لكنها لم تنجح. فالأوروبيون، منذ نشأة الاتحاد السوفياتي، لم يتنازلوا البتة عن العمل للقضاء عليه، فهم اعداؤه قبل الاميركيين، ومنذ العام ١٩١٧ تاريخ الثورة البولشفية. واذا انتظمت الدول الأوروبية داخل الحلف الأطلسي، فذلك عن اقتناع ورضى عكس دور البلطيق وأوروبا الوسطى التي دخلت حلف وارسو مرغمة فكانت عبئاً عليه. وأكبر دليل على ذلك تهافت دول حلف وارسو، بعد أن افلتت من اغلال موسكو، على طلب الانتساب الى الاتحاد الاوروبي او الانخراط في الحلف الأطلسي.

لقد نجحت الستراتيجية الاميركية غير المباشرة، في النهاية، في تدمير الاتحاد السوفياتي. ولكن لو لم تتوفر لها الوسائل للتدخل المباشر حين دعت الحاجة، لما قُيض لها ذلك. بالمقابل، يعتقد القادة السوفيات أن الحرب العالمية الثالثة كانت واقعة بدون شك لو لم يعمدوا الى التسلح وامتلاك اسلحة الردع. وهكذا فإن الحرب العالمية الثالثة لم تحصل عسكرياً وعلنياً كالحروب السابقة حيث سادت الستراتيجية المباشرة، بل بأسلوب جديد يختلف عن الأساليب السابقة هو الستراتيجية غير المباشرة التي اعطت نتائج واضحة تثبت أن الولايات المتحدة الاميركية هي التي ربحت هذه الحرب فأزاحت قطباً بكامله وأصبح العالم بنظامه الجديد اميركياً «أحادي القطب». وهكذا تكون الامبراطورية السوفياتية العملاقة قد انهارت بدون اطلاق رصاصة واحدة محطمة بسقوطها آمال ماركس ولينين وستالين.

يبقى أن دولة روسيا الاتحادية، وريثة الاتحاد السوفياتي، وإن لم تكن دولة عظمى، لا تزال قوة عسكرية تحتفظ بترسانتها من الأسلحة التقليدية

والستراتيجية، كما أنها لا تزال قوة دولية لها وزنها على الساحة العالمية. فهي ترعى مع الولايات المتحدة الاميركية عملية السلام في الشرق الأوسط، وهي التي اقنعت العراق مؤخراً بالاعتراف بدولة الكويت وحدودها الدولية، وهي التي عادت لتفرض وجودها داخل منظمة الامم المتحدة باستعمال حق النقض لصالح العرب في حربهم الأخيرة مع البوسنة.

مَدْخَلك إلى الصّلابة والثقة

يوم تاسيسنا عام ١٩٤٩، إعتمدنا في البنك اللبناني للتجارة نهجاً تقليدياً في سياستنا المصرفية، قوامه الثقة والاستثمار المضمون.

اليوم، بعد خمسة واربعين عاما، بفروعنا الاثنين والثلاثين المنتشرة في جميع انحاء لبنان واموالنا الخاصة البالغة ١٠ مليارات ليرة لبنانية، واكبنا التطور وتاقلمنا مع الزمن المتغيّر.

اما نهجنا التقليدي المحافظ فلم نمسّه، لأن صحّته وفعاليّته اكسبتنا الاستمرارية والثبات والثقة التي نتمتع بها.

البنك اللبناني للتجارة ش.م.ل.

الاتحاد الأوروبي: إلى أين؟

العميد الركن سامي ريحانا(*)

أوروبا، تلك القارة القديمة المتجذرة في التاريخ، والتي كانت محور العالم خلال القرون الوسطى وشعّت حضارتها مع النهضة والإصلاحات الدينية والأفكار الوطنية التي جسدتها الثورة الفرنسية بمفكريها وفلاسفتها، والتي كانت محور الأحداث الدولية حتى منتصف هذا القرن، والتي تقع حالياً في حقل المنافسة الاقتصادية بين كل من اليابان والولايات المتحدة؛ هذه القارة هي من الأهمية بمكان تجعل دراستها ضرورية وجادة.

فالمجموعة الأوروبية، التي بلغ عدد سكانها حالياً ٣٤٠ مليون نسمة أي نحو ٧٪ من العالم، متقدمة بذلك على الاتحاد السوفياتي السابق (٢٧٩ مليون) والولايات المتحدة (٢٣٩ مليون) واليابان (١٢١ مليون)، تتمتع بثلث التجارة العالمية وتملك مصادر مالية هائلة وأكبر بنوك العالم وشركات تأمينه وبيوتاته المالية. فمن بين أكبر عشرة بلدان تجارية في العالم، سبعة هي أوروبية. كما تنتج المجموعة الأوروبية معاً أكثر من أي بلد آخر في العالم في مجالات صناعة السيارات والمعدات الهندسية والصيدلة. وهي أكبر سوق مشتركة في العالم، وتنفق أموالاً هائلة على الصناعات التكنولوجية المتطورة وعلى المؤسسات الثقافية الجبارة والمكتبات الضخمة ومراكز الأبحاث والجامعات وغيرها.

هذا العالم الأوروبي الجبار الذي برز منذ منتصف القرن الحالي والذي اتجهت حالياً الأنظار نحوه في وقت إنهار فيه الاتحاد السوفياتي الذي كان يقوم بدور الموازن للتأثير الأميركي في العالم، وفي وقت لم تتمكن أي من القوى الكبرى من أخذ هذا الدور، هل سيتوصل إلى إقامة التوازن العالمي المطلوب بهدف استبدال النظام

(*) دكتور في التاريخ.

الأوحد بنظام ثنائي أو متعدد الهويات؟ وهل سيشهد المستقبل القريب اكتمال الاندماج الأوروبي سياسياً واقتصادياً ومالياً وأمنياً بحيث تغدو القارة القديمة أماً متحدة تشكل دولة ضخمة تمسي من أبرز محاور عالمنا المستقبلي؟ وهل ان استكمال الوحدة الأوروبية يخدم السلام العالمي وأمن المجتمع الدولي ويساهم في تخفيف الأزمات المستعصية كأزمات البيئة والدفء الكوني والهجرة نحو العالم المتطور والعلاقات بين الشمال والجنوب وغيرها من المشاكل المعترضة لعالمنا الحالي؟

تساؤلات يطرحها المفكرون المعاصرون وتعتبر الإجابة عليها من باب النبوءات. إنما يمكننا طرح بعض الأفكار الواقعية التي تساهم في تبيان المسيرة التي تحاول الأمم الأوروبية اتباعها، بهدف تحقيق الأفضل لشعوبها والمساهمة في الاستقرار الدولي، ومعالجة المشكلات الكبرى التي تعترض البشرية اليوم.

أولاً: الوحدة الأوروبية الحالية

مشروع الوحدة الأوروبية الذي تحقق بالفعل منذ العام ١٩٥٧، لم يكن الأول في تاريخ القارة التي اكتسبت الأهمية القصوى منذ بداية القرون الحديثة مع انتشار أفكار الثورة الفرنسية في أرجاء العالم، مما حرك الثورات الكبرى وحركات التحرر العالمية. من الامبراطورية الرومانية إلى التفتت الأوروبي اثر الهجمات البربرية على أطرافها، إلى الامبراطورية الجرمانية ـ الرومانية المقدسة، إلى الأحلاف الأوروبية المضادة للامبراطور الفرنسي نابوليون بونابرت الراغب في التوسع، إلى المحاولة الهتلرية لجمع أوروبا الغربية تحت رايته؛ كلها محاولات لجمع الأمم الأوروبية تحت بيرق واحد وهوية واحدة ومرجعية واحدة.

لكن أبرز نتائج الحربين العالميتين هي أن الأمم الأوروبية أحرزت تفوقاً على الأمبراطوريات الكبرى. فمقارنة سريعة للخريطة الأوروبية بين ١٩١٤ و١٩٢٠، تعطينا صورة واضحة عن الرغبة في الاستقلال الإتني والأممي داخل القارة القديمة. لقد تفككت الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، وتراجعت مساحة السلطنة العثمانية إلى حدود تركيا، وسقطت الامبراطورية الروسية تحت ضربات البلاشفة فتحولت إلى اتحاد جمهوريات[١]. أما الرايخ الثالث فاضطر لإعادة الإلزاس واللورين إلى فرنسا والشلزفيك إلى الدانمارك[٢]. وفي أوروبا الشرقية، برزت

(١) LEGRAND, Jacques **Chroniques du 20 ème siècle,** éd. Larousse Paris, 1988, P.263.

(٢) VALLUY, J.E Général, **«La Première Guerre Mondiale»**, éd. Larousse, Paris, 1968, Tome II, PP. 291-300.

تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وبولونيا وهنغاريا ولتوانيا واستونيا وليتونيا وفنلندا وغيرها.

وهكذا ظهر وكأن مبدأ الوطنيات القومية والاستقلال الاتني قد انتصر في أوروبا مع نهاية الحرب العالمية الثانية، إنما إلى حين. لقد جاء أول نداء رسمي أوروبي معاصر للاتحاد سنة ١٩٤٦ من زوريخ على لسان ونستون تشرشل من أجل المصالحة الفرنسية الالمانية وقيام الولايات المتحدة. وانعقد تحت رئاسة تشرشل مؤتمر في لاهاي العام ١٩٤٨ ضم كبار ساسة أوروبا ومفكريها، فأرسى الأسس الأولى للاتحاد الأوروبي من خلال ما سمي يومذاك بـ «**مجلس أوروبا**» ومقره ستراسبورغ[٣].

ورغم أن الدول الأوروبية وضعت نفسها دفاعياً تحت المظلة الأميركية من خلال توقيع الحلف الأطلسي في ٤ نيسان ١٩٤٩، فإن تصاعد الخطر الشيوعي أبرز الحاجة إلى معاهدة أوروبية للدفاع تم توقيعها في ٢٧ أيار ١٩٥٢ وإلى المعاهدة الأوروبية للفحم والفولاذ التي وقعت في ٢٣ تموز ١٩٥٢[٤] وكانت تحضيراً للسوق الأوروبية المشتركة. أخيراً، وفي ٢٥ آذار ١٩٥٧، شهدت مدينة روما التاريخية توقيع الاتفاق الأوروبي النهائي الذي فتح الطريق أمام الوحدة الفعلية.

أ ـ مراحل الوحدة الأوروبية

الوحدة الأوروبية التي لم تكتمل فصولها بعد، مرت بمراحل متعددة بادئة مسيرتها في ٢٥ آذار ١٩٥٧. ففي هذا التاريخ، الذي اعتُبر بداية الوحدة الأوروبية، اجتمع رؤساء الدول الست: فرنسا ـ اللوكسمبورغ ـ إيطاليا ـ المانيا ـ هولندا وبلجيكا في روما ووقعوا المعاهدة التي نصت على ولادة كل من «المجموعة الاقتصادية الاوروبية» و«منظمة الطاقة النووية الاوروبية» (EURATOM)[٥]. هذه المجموعة عرفت منذ ذلك التاريخ باسم السوق الأوروبية المشتركة CEE، وكانت امتدادا للمجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ CECA وهدفها إقامة سوق موحدة لجميع الخدمات والمنتوجات خاصة الفحم والفولاذ.

وأهم هيئة من هيئات المجموعة كانت «المفوضية الأوروبية» وأبرز مهامها تقديم الاقتراحات الآيلة إلى دفع الأمور نحو الوحدة النهائية والشاملة.

وكانت أبرز الأفكار المطروحة تأسيس مصرف أوروبي للاستثمار يقدم العون

---

(٣) LEGRAND, Idem, P.710.

(٤) LEGRAND, Idem, P.778.

(٥) الحياة ـ العدد ١١٣٦٠ ـ الجمعة ١٩٩٤/٣/٢٥ ـ ص ١٨.

للبلدان النامية، وقيام الاتحاد الجمركي بين الدول الأعضاء ضمن مهلة عام واحد وتوحيد الأسواق الزراعية. وفي هذا المجال، تقررت بعض الاستثناءات التي ما زالت نتائجها تثير الصدامات لا سيما في أوساط المزارعين الفرنسيين.

أما المراحل اللاحقة فنختصرها بإنشاء البرلمان الأوروبي العام ١٩٥٨، ودمج الهيئات الثلاث، أي السوق المشتركة ومنظمة الطاقة النووية والمجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ، ضمن إطار المجموعة الاقتصادية سنة ١٩٦٩، وتقرير النظام المالي سنة ١٩٧٢، وانضمام كل من الدانمارك وبريطانيا وايرلندا إلى المجموعة مع اتفاق تبادل تجاري حر مع النمسا والبرتغال والسويد وسويسرا، وتأسيس المجلس الأوروبي سنة ١٩٧٢، وانهاء عملية الاتفاق الجمركي سنة ١٩٧٧، ووضع النظام المالي موضع التنفيذ، واعتماد الـ ECU (ايكو) كعملة موحدة العام ١٩٧٩، وانضمام اليونان العام ١٩٨١ والبرتغال وأسبانيا العام ١٩٨٦، كما تقرر في اجتماع بروكسل المنعقد بين ٢٥ شباط وأول آذار ١٩٩٤، انضمام كل من النمسا واسوج وفنلندا والسويد إلى المجموعة الأوروبية اعتباراً من أول كانون الثاني ١٩٩٥[٦]. وبالفعل، انضمت النمسا وفنلندا واسوج منذ اول هذا العام، ورفض الشعب السويدي في استفتاء عام موضوع الانضمام، فأصبح عدد دول المجموعة ١٥ دولة.

وهكذا توضحت صورة أوروبا الخمس عشرة دولة والتي تتجه مبدئياً نحو الوحدة الشاملة، باعتماد مبدأ فتح الحدود وجواز السفر الموحد والعملة الواحدة. ويبقى أمام الاتحاد طريق طويل لاجتيازه قبل تحقيق الوحدة النهائية والشاملة ولا سيما الوحدة المالية والاقتصادية. فقد صرح رئيس وزراء بريطانيا جون ميجر في مقال له[٧]:

«آمل أن يقاوم زملائي رؤساء الحكومات، إغراء ترتيل فعل الإيمان بالوحدة الأوروبية الاقتصادية والمالية الكاملة...».

كما رأى بعض السياسيين الأوروبيين الحاليين أن الجدول الزمني الذي نصت عليه معاهدة ماستريخت لم يعد عملياً أو واقعياً، وصرح وزير الاقتصاد الألماني غونتر روكسرت في حزيران ١٩٩٤ ان طرح عملة أوروبية واحدة قد لا يحصل قبل العام ٢٠٠١. أما المستشار الألماني كول فصرح بدوره أن «الابقاء على استقرار العملات أمر أكثر أهمية من التقيد غير المرن بجدول معاهدة ماستريخت الزمني»[٨].

---

(٦) Le Point, N.°1145, 22 août 1999 P.35-39 et
Le Point, N.° 1120, 5 Mars 1994, P.14.

(٧) The Economist, September 1993.

(٨) الحياة ـ العدد ١١٤٩٣ ـ السبت ٦ آب ١٩٩٤ ـ صفحة ١١.

ب ـ المنظمات الأوروبية المتنوعة

لم تقتصر فكرة التوحيد الأوروبي على السوق الأوروبية المشتركة، بل تعدتها لتشمل منظمات أخرى تخصصت كل منها بموضوع عام أو عملت على توحيد مجموعة جغرافية متقاربة ضمن إطار واحد.

أبرز هذه المنظمات:

ـ في ١٨ آذار ١٩٥١: المجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ CECA التي ولدت بموجب خطة شومان. مركزها اللوكسمبورغ وهدفها تقريب الدول المنضمة إليها وخلق سوق مشتركة، والغاء الحواجز الجمركية بينها.

ـ منذ ٢٥ آذار ١٩٥٧: السوق الأوروبية المشتركة CEE، ومركزها بروكسل.

ـ منذ الأول من كانون الثاني ١٩٥٨: السوق الأوروبية للطاقة النووية CEEA أو EURATOM، مركزها بروكسل وهدفها تنشيط الطاقة النووية بين الأعضاء وتسهيل إنشاء المعامل النووية المنتجة الطاقة.

ـ منذ الخامس من آذار ١٩٤٩: المجلس الأوروبي، ومركزه ستراسبورغ ويحق لكل دولة أوروبية أن تصبح عضواً فيه. أما هدفه فتحقيق وحدة أكثر تقارباً بين الأعضاء بهدف ملاحقة تنفيذ التطور الاقتصادي والاجتماعي في إطار أوروبي.

ـ في ٢٦ تشرين الأول ١٩٥٠: المجموعة الأوروبية للدفاع CED وتهدف إلى خلق جيش أوروبي متعدد الجنسيات لأهداف دفاعية بالتنسيق مع حلف شمالي الأطلسي.

ـ منذ ١٩٥٩: الرابطة الأوروبية للتبادل الحر EFTA، ومركزها بروكسل. غايتها الغاء الحواجز الجمركية أمام التبادل الحر.

ـ منذ ١٩٧٢: مجلس البلطيق ويضم الدول المجاورة لبحر البلطيق.

ـ منذ ١٩٩٢: البعد الاقتصادي الأوروبي. ويهدف إلى تنمية المناطق المتخلفة في أوروبا.

ـ منذ ١٩٩٢: لجنة التعاون لأوروبا الوسطى التي اعتبرت هذه المنطقة منطقة تبادل حر بين الدول الأعضاء.

أما الأجهزة التابعة للسوق المشتركة فنذكر منها مجلس وزراء السوق، وهو الجهاز التنفيذي له، ولجنة السوق التي تقترح على مجلس الوزراء التدابير الآيلة إلى تحسين الاداء، والبرلمان الأوروبي الذي يراقب عمل مجلس الوزراء، والمحكمة واللجنة الاقتصادية ـ الاجتماعية، وديوان المحاسبة الذي يتمتع بصلاحيات المراقبة،

والمصرف الأوروبي للاستثمار الذي يساهم في التنمية المتوازنة للدول الأعضاء[٩].

ثانياً: التدخل الأوروبي في الشؤون الدولية

مما لا شك فيه ان الإمكانات الاقتصادية والعسكرية والسياسة للعالم الأوروبي مجتمعاً تؤهله للعب دور بارز في الشؤون الدولية، إن داخل القارة الأوروبية أو في جميع أقطار العالم المعروف. فعوامل القدرة القومية لأوروبا تجعلها في طليعة المجموعات المؤثرة. ونقصد بعوامل القدرة القومية الوسائل والامكانات البشرية والمادية والجغرافية والاقتصادية والعسكرية والجيوستراتيجية التي تشكل قوة الدولة وتمكنها من تبوء المركز المرموق في العالم. وتدخل هذه العوامل في تحديد مركز الدولة العالمي، وقدراتها على التأثير على مجرى الأحداث الدولية وفعاليتها في تغيير مسارها[١٠].

فإذا القينا نظرة على قدرات الأمم الأوروبية الخمس عشرة التي تشكل المجموعة، للاحظنا أن الدور الذي تلعبه والمؤهلة للعبه في الشؤون الدولية كبير للغاية. وبالفعل، لعبت السوق، وما تزال، دور الموازن بين التيارات الدولية تارة، والمعارِض والمضارِب لتيارات أخرى طوراً.

لقد أقامت المجموعة علاقات مميزة مع دول أوروبا الغربية غير المنتمية إليها، فارتبطت مع دول «افتا»[١١] باتفاقية للتجارة الحرة، وتسعى حالياً إلى تنظيم علاقاتها بها في ما خص الحريات الأربع، أي انتقال الأشخاص والبضائع والخدمات ورؤوس أموال.

ووقعت المجموعة عدداً كبيراً من المعاهدات التجارية واتفاقات التعاون مع مجموعات دولية عدة. ففي إطار السياسة العامة للانفتاح نحو بلدان البحر المتوسط التي طُرحت فكرتها في السبعينات، أبرم الاتحاد الأوروبي مع هذه البلدان، باستثناء ليبيا والبانيا، اتفاقيات للتعاون أو المشاركة كمقدمة لانضمام بعضها إلى الاتحاد، أي تركيا ومالطا وقبرص. كما تضمنت الاتفاقات تسهيلات تجارية متبادلة خاصة مع إسرائيل. ومع جنوب شرق آسيا، عقدت اتفاقات في مجالي التجارة والتعاون التقني. كذلك مع بلدان أميركا اللاتينية والوسطى. كما انفتحت دول الاتحاد على بلدان أوروبا الشرقية لدعم عمليات الإصلاح فيها، فأعلن رؤساء دول وحكومات المجموعة في كانون الأول ١٩٨٩ في ستراسبورغ عن النية في دعم الإصلاحات الاقتصادية في وسط وشرق أوروبا[١٢].

---

(٩) لمزيد من التفاصيل عن المنظمات الأوروبية، انظر الملحق رقم١.

(١٠) موريز، ايريك، «**مدخل إلى التاريخ العسكري**»، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠ ص١٣١ ـ ١٣٨.

(١١) دول «الافتا» هي: ايسلندا والنروج والسويد والنمسا وفنلندا وسويسرا وليشتنشتاين.

(١٢) الحياة ـ العدد ١١٥٣٠ ـ الاثنين ١٢/٩/١٩٩٤ ـ ص٩.

أخيراً، وفي ١٥ كانون الأول ١٩٩٣، وفي الأورغواي، وبعد ثماني جولات من المفاوضات بدأت العام ١٩٨٦، أُعلن عن انتهاء مفاوضات منظمة «الغات» (منظمة الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية) الهادفة إلى تحرير التجارة العالمية. وقد وقعت الاتفاق، علاوة على دول الاتحاد الأوروبي، ١١٥ دولة بما فيها الولايات المتحدة.

أ ـ علاقات أوروبا ببلدان العالم الثالث

لا يمكن النظر إلى آفاق التعاون بين الاتحاد الأوروبي والعالم الثالث نظرة موحدة. ففي وقت سار التعاون قُدُماً في بعض المناطق الآسيوية المجاورة للمحيط الهادىء، تراجع التأثير الأوروبي في القارة الافريقية التي تمر حالياً بمرحلة من الركود الاقتصادي وتتعرض بعض دولها للتداعي والتفكك. ويظهر الفارق في التعامل في أميركا الوسطى، حيث تتنوع العلاقات بين الأمل وعدم الاهتمام. ويزداد الوضع تعقيداً إذا ما شمل النقاش دول العالم السوفياتي السابق.

ففي ميدان تحسين العلاقات بين الشمال والجنوب، تطبق السوق معايير جديدة تستفيد منها البلدان التي لديها بضائع قادرة على المنافسة والتكيف أو التي لديها صناعة متطورة في مجال انتاج السلع الاستهلاكية. ويرغب البرلمان والمفوضية الأوروبيان في تمديد صلاحيات الميزات الخاصة الممنوحة إلى أفقر ٣٠ بلداً وتحسينها. وفي هذا الإطار، تقدم «اتفاقية لومي الرابعة» (من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٠)، المبرمجة مع ٦٠ دولة في افريقيا والبحر الكاريبي والمحيط الهادىء والتي وقعت في بداية ١٩٩٠، أساساً جيداً للعمل. وهذه الاتفاقية تتيح لتلك الدول بيع جميع بضائعها المصنعة وعدد من منتوجاتها الزراعية في أسواق المجموعة الأوروبية معفاة من الرسوم الجمركية(١٣).

وإلى جانب اتفاقيات لومي، سجلت أنواع أخرى من التعاون، أبرزها الاتفاقات مع بلدان المغرب العربي ومنطقة شرق البحر المتوسط، التي بلغت حجم معونات السوق إليها حتى بداية السبعينات، بموجب بروتوكولات التعاون المالي، نحو ٤,٤ مليار وحدة نقدية أوروبية سنوياً (ايكو).

ومنذ نهاية التسعينات، جاءت اتفاقات الجيل الثالث لتزيد التعاون عمقا، إذ عُقدت منذ ١٩٩٢ اتفاقات تجارية وتعاون مع ١٥ بلداً ومنظمة اقليمية في القارتين الآسيوية والأميركية اللاتينية تشدد خاصة على معايير سياسية، كالديمقراطية وحقوق الإنسان كشروط للتعاون.

---

(١٣) الديار ـ العدد ٢٠٤٢ ـ الاثنين ١٩٩٤/٤/٢٥ ـ ص١٧.

وفي ميدان المساعدات، اضحت أوروبا من أبرز مانحي المساعدات للعالم الثالث، فقد ارتفع حجم تلك المساعدات من ١,٤ مليار ايكو العام ١٩٨٧ إلى ٣,٦ مليار العام ١٩٩٢. ومن المنتظر أن ترتفع إلى ٦,٣ مليار ايكو العام ١٩٩٧، أي ما يعادل ٧,٢٪ من اجمالي موازنة الاتحاد[١٤]. لكن هذه المعونات لا توزع على الدول حسب حاجاتها، بل تتركز على أفريقيا وبلدان منطقة الكاريبي والمحيط الهادىء. فإذا أضفنا إلى هذه المساعدات مساهمات الدول الأوروبية المباشرة التي بلغت في بداية التسعينات ٤٠٪ من اجمالي معونات التنمية العالمية[١٤]، لاتضح أمامنا الدور البارز للسوق في ميدان المساعدات للعالم الثالث.

وتطالب المفوضية الأوروبية بتنسيق التعاون التنموي بين الاتحاد ودوله بهدف النظر إلى سياسة التنمية نظرة شاملة. وهذه السياسة ركزت ضمن إطار التبادل على المفاهيم التالية:

- حل النزاعات عن طريق الحوار.
- التضامن.
- تطوير وتعزيز الديمقراطية ودولة القانون.
- حماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية.

هذه العناوين الكبرى تُظهر مدى الدور الذي تلعبه المجموعة حالياً، والمؤهلة للعبه مستقبلاً في ميدان تطوير العالم الحر وأنظمته نحو الأفضل، وحماية مستقبل الإنسانية، وزرع مفاهيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان في المجتمعات المتخلفة للعالم الثالث النامي.

ويعتقد المدير العام لمفاوضات «الغات»[١٥] ان التنظيم على نطاق عالمي سيوفر اهتماماً أكبر بالدول الأفقر في العالم. فالاتفاق العالمي هو آخر وأفضل أمل بالنسبة إلى الدول النامية، وبدونه سيكون من الصعب التوصل إلى ستراتيجية قوية تنقذ العالم من مستقبل مخيف.

ب ـ المجموعة الأوروبية والولايات المتحدة

تندرج العلاقة بين الولايات المتحدة والسوق الأوروبية ضمن إطار العلاقات بين الجبابرة الاقتصاديين، وتتراوح بين التفاهم المتبادل والمضاربة المشروعة وأحياناً

---

(١٤) لاوت، يواكيم، **«العالم الثالث على مأدبة أوروبا»**، مقال في نداء الوطن، العدد ٥٦١ الخميس ١٥/٩/١٩٩٤ ـ ص٩.

(١٥) «الغات» هي «الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة الجمركية» التي بدأت المفاوضات حولها منذ عام ١٩٤٧, أما الجولة الثامنة التي جسدت الاتفاقية فقد عقدت في أيلول ١٩٨٦ في الأوروغواي. وفي ١٥ كانون الأول ١٩٩٣ اعلن عن انهاء جولة المفاوضات المنظمة للاتفاقية.

الضغوط الاقتصادية والسياسية والأمنية. ومما لا شك فيه أن العلاقات بين الدول الأوروبية والجبار الأميركي تختلف من دولة إلى أخرى بحيث ترغب كل منها بحفظ استقلالية نسبية في التعامل السياسي خاصة، والاقتصادي والعسكري عامة نظراً لأهمية الدور الأميركي في القارة الأوروبية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وتطبيق خطة مارشال للتنمية.

ففي الوقت الذي هاجم الرئيس الفرنسي، خلال اجتماع تشاوري ضم ٢٠٠ سفير فرنسي، السياسة الأميركية بانتقاده بعض مظاهر السياسة الخارجية لواشنطن، كالحظر على كوبا ورفع الحظر عن تصدير الأسلحة إلى البوسنة، في هذا الوقت بالذات تتقرب المانيا من الحليف الأميركي الستراتيجي اثر زيارة كلينتون لبرلين[١٦]. أما العلاقات المميزة بين بريطانيا والولايات المتحدة فيبدو انها تتراجع أيضاً لمصلحة المانيا[١٧].

إنما، ومن بين مظاهر الموالاة والصداقة، من جهة، والعداوة، من جهة أخرى، يبدو أن العلاقة بين الجبارين هي شائكة في الميدان الاقتصادي، خاصة وقد سجل تنافس شديد بين الفريقين اعتُبر الأول منذ الحرب الباردة. ففي الميدان المصرفي، على سبيل المثال، أعاقت عوامل بنيوية نجاح المصارف الأميركية في أوروبا، فانخفض عددها عما كان عليه في السابق. وفيما أعلنت المصارف الأميركية الثلاثة الكبيرة، «تشيس مانهاتن» و«سيتيكورب» و«كميكال» عن نتائجها الخاصة بنصف العالم، كشفت عن تحولات كبيرة في عملياتها الأوروبية التي كانت سيئة التركيز وعادت عليها بعائدات متدنية[١٨].

وتجسدت المنافسة بين الفريقين أيضاً في ميدان الطيران حيث تسعى الشركات الجوية الأوروبية إلى الاندماج لمواجهة التحدي الأميركي. وقد سجلت اتفاقات اندماج بين الشركة الألمانية SIEMENS وزميلتها البريطانية PLESSY في مجال المعدات الالكترونية للدفاع، وبين الشركتين الفرنسية THOMSON-CSF والبريطانية SHORTS في مجال الصواريخ، وبين الألمانية DEUTSHE والفرنسية AEROSPATIAL في مجال الطائرات والصواريخ. وهذه الاتفاقات لن تتوقف عند هذا الحد، فكما يسعى المقاولون الأميركيون إلى توقيع عقود تخولهم الدخول إلى سوق الدفاع الأوروبي، تحاول الشركات الأوروبية توسيع أعمالها في الخارج مما يخلق نوعاً من المنافسة بينها[١٩]. والمواجهة الكبرى للصناعة الدفاعية على جانبي

---

(١٦) الأنوار ـ العدد ١١٩٩٨ ـ الجمعة ١٩٩٤/٩/٢ ـ ص٩.
(١٧) النهار ـ العدد ١٨٨٨٧ ـ الجمعة ١٩٩٤/٧/٢٢ ـ ص١١.
(١٨) الحياة ـ العدد ١١٥٠٣ ـ الثلاثاء ١٩٩٤/٨/١٦ ـ ص١١.
(١٩) الديار ـ العدد ٢١٩٨ ـ الاثنين ١٩٩٤/١٠/٣ ـ الملحق ـ ص٣.

الأطلسي تكمن في محاولة عقد صفقات متساوية بين الجهتين.

وفي المجال السياسي، أثار الكلام الذي وجهه الرئيس كلينتون إلى المستشار الألماني في برلين مذكراً بسقوط جدار برلين وتوحيد ألمانيا والدعوة إلى رد الجميل الأميركي، مخاوف أوروبية متعددة. فهل تريد واشنطن تقليد ألمانيا الزعامة الأوروبية؟

إن أوروبا التي تعني واشنطن هي غير أوروبا السياسية الحالية، بل أوروبا الجغرافية التي تشمل أيضاً أوروبا الوسطى والشرقية. من هذا المنطلق، يبني الجبار الأميركي علاقته الستراتيجية المميزة مع برلين كونها في موقع جغرافي يمكنها من لعب دور بارز في هذا الإطار. وهذه العلاقات المميزة تستمد جوهرها من التطلع إلى استقرار الديمقراطيات الفتية في أوروبا الوسطى والشرقية وخاصة في دول الاتحاد السوفياتي السابق. وتلتقي هذه التطلعات مع الرغبة الألمانية الساعية إلى بناء كيان سياسي الماني ينسجم مع الدور الاقتصادي المميز. لكن تقاطع المصالح بين ألمانيا والولايات المتحدة أثار المخاوف في أكثر من دولة أوروبية، وحمل فرنسا وبريطانيا تحديداً على التساؤل عن المسار الذي تمضي إليه العلاقات بين جباري الأطلسي. ويرى المسؤولون البريطانيون ان العلاقة المميزة التي سادت علاقات دولتهم بواشنطن فقدت مؤخراً مضمونها بعد أن أخذت هذه الأخيرة في اعتبارها الحجم المتصاعد لألمانيا داخل أوروبا[٢٠]. والعلاقة المميزة هذه كانت ترى فيها واشنطن جسراً لمصالحها في أوروبا. إلا انها ترى الآن مصالحها في تأمين رأس الجسر عبر ألمانيا الموحدة.

ج ـ الاتحاد الأوروبي وروسيا وأوروبا الشرقية والوسطى

ترتدي علاقة الاتحاد الأوروبي بروسيا وأوروبا الشرقية والوسطى أهمية قصوى لأسباب نورد أبرزها:

ـ هذه الدول تكمل القارة الأوروبية نحو الشرق.

ـ تحتاج الدول الأوروبية إلى أسواق شرق أوروبا ووسطها وروسيا لدعم اقتصادها عبر الأسواق الخارجية التي ما تزال بحاجة إلى التكنولوجيا المتطور.

ـ تحقيق أمن أوروبا الغربية شرقاً، لا سيما مع زوال التهديدات التقليدية لحلف وارسو الذي كان قائماً منذ الحرب العالمية الثانية.

ـ التوحيد الأوروبي يفرض دمج دول أوروبا بدون استثناء في سبيل قيام اتحاد اقتصادي وأمني قوي في وجه التحديات الدولية المتجسدة خاصة بالتحدي الأميركي والغزو التجاري الياباني والامتداد السكاني نحو الشمال.

---

(٢٠) النهار ـ العدد ١٨٨٨٧ ـ الجمعة ١٩٩٤/٧/٢٢ ـ ص١١.

ـ حاجة أوروبا الغربية المتطورة تكنولوجيا إلى اليد العاملة الأوروبية الفقيرة لسد النقص الموجود عندها، والتعويض عن التأثيرات المستقبلية لسياسية الحماية الداخلية لليد العاملة من جراء الحد من هجرات العاملين من أفريقيا الشمالية نحو أوروبا. ويعتبر تفاهم أرباب العمل في الاتحاد مع عمال قادمين من دول أوروبية منضوية تحت منظومة دولهم، الحل الأمثل للنقص في عمال الوظائف الدنيا.

ـ إن توسيع الحلف الأوروبي قد يعمل على ملء فراغ تركه غياب الاتحاد السوفياتي عن الساحة الدولية والذي ترك العالم في ظل نظام أوحد وهيمنة أميركية تحاول أوروبا التخلص من نتائجها. فبعد تفكك الاتحاد السوفياتي، برزت الحاجة إلى توسيع الحلف شرقاً بهدف قيام قوة عظمى تدفع عالمنا الحالي مجدداً نحو نظام القطبين، أو ربما نحو الحرب الاقتصادية، أو نحو نظام متعدد الرؤوس بادخال الشرق الأقصى ضمن منظومة التوازن العالمي.

فبعد أقل من خمس سنوات على افول نجم الشيوعية وانهيار جدار برلين والاتحاد السوفياتي، برزت أمام الساسة الغربيين مشكلة تصدير عدم الاستقرار من الشرق وتصدير جنود الدول الاشتراكية السابقين نحو أوروبا الغربية. لقد سلطت كارثة دول البلقان الضوء على أهمية أوروبا الوسطى والشرقية للأمن الأوروبي وعلى التباين بين الموقفين الأميركي والأوروبي حول المشكلة. وعبرَّ الأوروبيون الغربيون عبر وحدتهم عن الرغبة في التخلي عن قومياتهم مع ابقاء التعدد الحضاري قائماً[٢١].

ويجتاح حالياً القارة الأوروبية تياران قوميان في آن معاً: أحدهما في الشرق الشيوعي سابقاً والثاني في الغرب. هذان التياران المختلفان في العقائد والمفاهيم السياسية والاقتصادية، يمكنهما التعامل معا بشكل واضح وجدي خاصة اثر التغييرات التي تحاول الدول الاشتراكية السابقة اجراءها على بنياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية. علاوة على ذلك، يبدو أن الاعتقاد السابق بإمكانية دخول دول أوروبا الشرقية والغربية في نزاع عرقي عنيف هو اعتقاد واهم.

ضمن هذا الإطار، تبرز مشكلة الاتحاد السوفياتي السابق كجزء من الأمن الأوروبي وتدفع الاتحاد إلى المحافظة على استقلالية الدول المنبثقة عنه. فترك أوروبا الشرقية في وضعها الحالي دون مساعدة الغرب، قد يؤدي إلى الفوضى ويجعل حدودها موضع خطر وتحد. أما مساعدتها للخروج من تحت اطلال التجارب الاشتراكية الشمولية الأولى في التاريخ، فتبدو كأنها الحل الأوروبي الأمثل. إن عملية التحول في هذه الدول نحو الديمقراطية واتحاد السوق ما تزال

---

(٢١) Herald Tribune -24 May 1994.

متعثرة بسبب تعقيدات عملية التحول التي لا يمكن اجتيازها دون مساعدة خارجية تبدو أوروبا الموحدة أهلاً للعب الدور الأكبر فيها.

ومقابل التراجع الأوروبي عن لعب هذا الدور، فإن التيارات الاشتراكية المتشددة قد تبدو عندها الحل الأمثل. فالنجاح الذي حققه تيار جيرينوفسكي المتشدد في انتخابات كانون الأول ١٩٩٣ في روسيا، ليس سوى إشارة واضحة إلى الأخطار المرتقبة في حال تراجع الديمقراطية في الدول الاشتراكية، الشيء الذي حذّر منه وزير الدفاع الأميركي ويليام بيري في خطابه أمام الكونغرس في أوائل شباط ١٩٩٤ إذ قال:(٢٢).

«لدينا أسباب تجعلنا نخشى أن تلف أوروبا مجدداً غيوم سوداء في حال فشل الإصلاحات وانتصار الرجعية...».

لكن نجاح جيرينوفسكي ليس الوحيد، فهناك اتجاه لدى الشباب الساخط للتجمع حول نمط جديد من الأحزاب ذات الأصل الفاشي، مما ينذر بخطر شيوع العنف بسبب اليأس من الإصلاح. لهذا السبب يبدو جيرينوفسكي واثقاً من أنه سيكون رئيساً لروسيا العام ١٩٩٦(٢٣).

وفي اوكرانيا أيضاً، أشار تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية أن هذه الدولة تخوض مرحلة خسارة استقلالها لصالح روسيا، وانها قد تنزلق إلى حرب أهلية. فكلما قويت قبضة القوميين المحافظين في موسكو، كلما اشتدت مطالب روسيا في اوكرانيا بسبب تخبطها الاقتصادي وضعف قدرتها على مقاومة التحولات الجديدة في بنيتها. إن الأخطار الناجمة عن تراجع الديمقراطية في الدول الشيوعية السابقة قد يعيد العالم الأوروبي إلى أجواء الحرب الباردة وربما الساخنة.

وبالمقابل، تحاول روسيا وباقي الدول الشرقية الاندماج في المنظومة الأوروبية من خلال توقيعها وثيقة برنامج «الشراكة من أجل السلام» التي اقترحها حلف شمال الأطلسي. علاوة على ذلك، أعلن رئيس الوزراء الروسي فيكتور تشيرنوميردين في نهاية آذار ١٩٩٤ في بودابست، ان بلاده «قد تتقدم هذه السنة بطلب عضوية في الاتحاد الأوروبي كخطوة أولى نحو اندماج موسكو في التيار السياسي والاقتصادي الأوروبي»(٢٤). كما أيد مطلب المجر وغيرها للانضمام إلى الاتحاد.

---

(٢٢) الديار ـ العدد ١٩٦٨ ـ الاثنين ٧ شباط ١٩٩٤ ـ ص٢٢.
(٢٣) الحياة ـ العدد ١١٥٣١ ـ الخميس ١٣ أيلول ـ ص١٧.
(٢٤) النهار ـ العدد ١٨٧٩٨ ـ السبت ٢ نيسان ١٩٩٤ ـ ص١٨.

لكن الاتجاه الروسي هذا أصيب بنكسة ديبلوماسية كبرى، بإعلان لجنة خبراء أوروبيين أن روسيا غير مؤهلة بعد للانضمام إلى المجلس الأوروبي الذي يضم ٣٢ دولة، لأن «الاتحاد الروسي لم يفِ بعد بالشرط المبدئي الخاص بضرورة تمتع كل من هو تحت ولايته بحقوق الإنسان وبالحريات الأساسية»[٢٥].

من جهة أخرى، وبعد أن أعاد التهريب النووي حسابات الأمن الأوروبي إلى الساحة، أمسى امتداد الاتحاد شرقاً أمراً حاسماً. فقد صودرت كمية ٣٥٠ غراماً من مادة البلوتانيوم ٢٣٩ في مطار ميونيخ في منتصف آب ١٩٩٤ مصدرها موسكو، وفككت شرطة برلين خلية ارهابية تعمل على تهريب المواد المشعة إلى الباكستان. وللرد على ذلك، طرح المستشار الألماني هيلموت كول فكرة إنشاء قوة شرطة أوروبية لمكافحة النشاط المتزايد للمافيا الأوروبية المهربة للمواد النووية[٢٦]. هذا الخطر الجديد، قد يسّرع عملية اندماج روسيا خاصة والدول الشرقية عامة في تيار الوحدة الأوروبية الجارف. وقد أشارت مصادر المستشارية الألمانية أن موضوع مكافحة تجارة المواد النووية سيطرحه كول على جدول أعمال القمة المقبلة مع اقتراح برفع قيمة المساعدات المالية لروسيا من ٧٠ مليون مارك إلى ١٠٠ مليون مارك[٢٧].

وهكذا، يبدو أن خيار التوسع الأوروبي شرقاً أو التعاون مع الدول الاشتراكية السابقة ضمن الإطارات اقتصادية والسياسية والأمنية والاجتماعية، هو من أبرز الاحتمالات الممكنة أمام الاتحاد الأوروبي لضمان مستقبله وتأثيره العالمي.

٥ ـ الاتحاد الأوروبي والشرق الأوسط

يبدو الشرق الأوسط منطقة جاهزة لتقبل دور مهم للمجموعة الأوروبية، خاصة من الناحية الاقتصادية، وذلك رغم التأثير الأميركي المتعاظم فيه. فأوروبا، بعكس الولايات المتحدة، تبدو جاهزة لتنفيذ الدور غير المنحاز لإسرائيل مما يدفع الدول العربية والإسلامية إلى التعامل مع دولها دون عِقَد.

١ ـ مع العالم العربي

فعلى صعيد الجامعة العربية، شهد عقد السبعينات نمواً واسعاً لشبكة مصرفية ومالية في أوروبا تألفت من مصارف مختلطة شاركت برساميلها دول عربية وأوروبية. وانشىء في زمن لاحق في أوروبا عدد من الشركات المالية المختلطة،

---

(٢٥) السفير ٦٩٠٣ ـ السبت ٨ تشرين الأول ١٩٩٤ ـ ص١٤.

(٢٦) LE Point, N.° 1144 -24 Août 1994- P.10-11.

(٢٧) السفير ـ العدد ٦٨٦٢ ـ الأحد ٢٨ آب ١٩٩٤ ـ ص٦.

وتطورت مؤسسات أخرى في باريس ولندن خاصة ومدن أوروبية أخرى عامة. كما دفعت المصارف الأوروبية علاقاتها بالأسواق العربية قُدماً من خلال تطوير سياسة مشاركة نشطة مع المصارف العربية وإنشاء مصارف مشتركة. وتميز التعامل الأوروبي خاصة في شمال أفريقيا ولبنان والأردن والسعودية والكويت.

وقد أظهرت التحليلات بوضوح أن علاقات التبادل التجاري بين دول الجامعة العربية ودول المجموعة الأوروبية شهدت، على الرغم من انعكاساتها وتقلبات أسعار النفط ومشتقاته، تطورات بارزة بلغت حالياً حدودها القصوى. ومما لا شك فيه أن سياسة الحد من اجراءات الحماية في دول المجموعة على المواد الحساسة قد يساعد في دعم الصادرات العربية في المواقع التي تملك فيها هذه الدول ميزات على الدول الأوروبية. لكن ذلك يفرض على الدول العربية تطوير مستويات الاستثمار إلى حد كبير على الصعيدين النوعي والكمي.

وبالفعل، عُقد في باريس مؤتمر للحوار العربي ـ الأوروبي خلال النصف الأول من نيسان ١٩٩٤ اقترح فيه النائب جان دو ليبكوفسكي مشروعاً اقتصادياً يضع أساساً لشراكة حقيقية بين أوروبا والعالم العربي. ويقضي المشروع بتشكيل إطار تعاون لعدد من المؤسسات المختلطة الصغيرة والمتوسطة بحيث تكون غالبية الحصص فيها للجانب العرب. أما النائب اللبناني فؤاد السعد فقد رأى أن على أوروبا أن تملأ الفراغ الذي حصل نتيجة انهيار الاتحاد السوفياتي، مشيراً إلى أن لدى لبنان خصوصاً قواسم مشتركة مع أوروبا أكثر بكثير مما لأوروبا من قواسم مشتركة مع غيره من الدول[٢٨].

على صعيد آخر، بدأت المفوضية الأوروبية خلال شهر آذار مراجعة نظام الامتيازات التجارية التي تمنحها إلى الدول النامية وبينها الدول العربية في الخليج وحوض المتوسط. ويسمح هذا النظام بدخول المنتجات الصناعية من الدول النامية إلى الأسواق الأوروبية، عند سقف محدد، معفاة من الرسوم الجمركية. وشملت عملية المراجعة، البتروكيماويات الواردة من الدول الخليجية وخاصة من مجلس التعاون الخليجي. وشكل لهذه الغاية مجلس وزاري خليجي ـ أوروبي لبحث قضايا الطاقة والبيئة. فالصادرات الخليجية تغطي نحو ٢١٪ من الواردات الأوروبية للطاقة[٢٩].

وضمن الاتفاقات الثنائية الأوروبية الخليجية، كشفت مصادر مطلعة في دبي عن مشروع عملاق لمد خط أنابيب نفطي من الخليج إلى أوروبا عبر الشرق الأوسط

---

(٢٨) الديار ـ العدد ١١٣٨٤ ـ الاثنين ١٨ نيسان ١٩٩٤ ـ ص٦.
(٢٩) الحياة ـ العدد ١١٣٦١ ـ السبت ٢٦ آذار ١٩٩٤ ـ ص١٠.

وأوكرانيا تصل تكاليفه الاجمالية إلى ٢,٧ مليار دولار وينتهي العمل به في صيف ١٩٩٩ على أن ينفذ على مراحل أربعة، بدأت المرحلة الأولى منها في اوكرانيا منذ أيار ١٩٩٤، وسيتيح المشروع نقل ٧٠ مليون طن من النفط سنوياً من منطقة الخليج إلى بلدان الاتحاد الأوروبي، مما يخفض تكاليف النقل إلى الثلث ويعزز مبيعات دول الخليج العربي النفطية إلى أوروبا(٣٠).

وعلى صعيد لبنان، استفادت الدولة من مساعدات اقتصادية مهمة من المجموعة الأوروبية التي تفاءلت بدور مستقبلي للبنان. كما وقعت اللجنة التابعة للسوق الأوروبية المشتركة أربعة بروتوكولات لمساعدات مالية أرسلت إلى لبنان لقطاعات التربية والتجارة والصناعة والزراعة والخدمات والبنى التحتية والصحة والكهرباء والهاتف والمياه والاسكان والمساعدة التقنية لمجلس الإنماء والإعمار ولوزارة المال ولتنظيم أسواق تجارية دولية ولإحياء مرفأ بيروت(٣١). علاوة على ذلك، يستفيد لبنان من مشاريع أخرى تضعها اللجنة في متناول بلدان العالم الثالث، وهي مشاريع دراسات ستراتيجية البيئة، ومكافحة المخدرات، والجامعة الأوروبية ـ العربية وغيرها.

٢ ـ مع تركيا

أما العلاقات الأوروبية ـ التركية، فيظهر انها تجتاز حالياً مرحلة حرجة وصعبة. فرغم إعلان وزير خارجية فرنسا من أنقرة دعم بلاده لاندماج تركي في أوروبا وانجاز الوحدة الجمركية مع الاتحاد الأوروبي في العام ١٩٩٥(٣٢)، تعرضت تركيا في الآونة الأخيرة لضغوط أوروبية شديدة وصلت إلى حد التهديد بطردها من المجلس الأوروبي الذي كانت أحد مؤسسيه بسبب عدم حمايتها لحقوق الإنسان في المسألة الكردية.

ففي الواقع، تطرح مسألتا حقوق الإنسان والديمقراطية، بصورة جدية، دور تركيا في النظام الأوروبي. وتجلى الصراع حولهما في تصريح لرولان دوما، وزير خارجية فرنسا السابق، الذي وصف تركيا داخل المجلس الأوروبي بالورم السرطاني. فتركيا، كما قال، «**تسعى منذ ١٩٥٠ لتكون أوروبية، لكنها تفعل ذلك بصورة شكلية فقط ولا تبذل جهداً لتعيش الديمقراطية فيها...**»(٣٣).

وفي قرار صدر بتاريخ ١١ آذار ١٩٩٤، شجب البرلمان الأوروبي اعتقال النواب

---

(٣٠) الحياة ـ العدد ١١٤١٢ ـ الاثنين ١٦ أيار ١٩٩٤ ـ ص٩.
(٣١) مجلة المسيرة ـ العدد ٤٣٩ ـ الاثنين ٢٨ آذار ص١١ ـ ١٢.
(٣٢) الديار ـ العدد ٢٠٠٦ ـ السبت ١٩ آذار ١٩٩٤ ـ ص٢٢.
(٣٣) الحياة ـ العدد ١١٥٠٧ ـ السبت ٢٠ آب ١٩٩٤ ـ ص١٥.

الأكراد، مطالبا تركيا بالاعتراف بحقوق الشعب الكردي ومنحه الحكم الذاتي. وكان البرلمان التركي قد قرر في ٢ آذار رفع الحصانة البرلمانية عن ٨ نواب أكراد واعتقلهم[٣٤]. وردت أنقرة متهمة البرلمان الأوروبي بالتمييز ومنتقدة مطالبته بحق الأفضلية الكردية في الحكم الذاتي التي لا تتوافق مع القانون الدولي[٣٥].

ويأتي هذا التأزم في العلاقة في وقت يدخل العد العكسي للوحدة الجمركية بين تركيا ودول الاتحاد الأوروبي مرحلة نهائية حاسمة. فقد حدد الجانبان الأول من سنة ١٩٩٦ موعداً نهائياً لإزالة الحواجز الجمركية كلها تقريباً بينهما. ويتخوف الأتراك من تعرض الشركات التركية لضغوط من الشركات الأوروبية الأكبر والأكثر تطوراً ورقياً وتنظيماً، اثر تطبيق الوحدة الجمركية[٣٦].

٣ ـ مع إسرائيل

أخيراً، يبدو أن الدولة الشرق أوسطية التي تحاول الدخول إلى الاتحاد الأوروبي من بابه العريض هي إسرائيل. ففي بداية تشرين الأول ١٩٩٤، وافق مجلس الوزراء الأوروبي لشؤون البحث العلمي على طلب المفوضية الأوروبية بدء مفاوضات مع إسرائيل تمكنها من المشاركة في الأبحاث العلمية باستثناء النووية منها. ورأى المفوض الأوروبي لشؤون البحث العلمي والتكنولوجي انطونيو روبرتي ان «**الرصيد العلمي الهائل لدى إسرائيل يجعل منها شريكاً مميزاً في مجالات علمية متنوعة**»[٣٧]. كما رأى أن توثيق العلاقات العلمية سيساهم في شكل إيجابي بدفع عملية السلام في الشرق الأوسط إلى الأمام.

وسيمكن اتفاق الشراكة المرتقب من توسيع التبادل الحر القائم بين إسرائيل والاتحاد الأوروبي منذ ١٩٨٩ ليشمل حرية تنقل الأموال والخدمات. وتُعتبر إسرائيل حالياً الطرف الخارجي الوحيد الذي يساهم منذ أعوام في البرامج العلمية والتكنولوجية الأوروبية. فمنذ ١٩٨٩، بلغت نفقات المشاريع المشتركة (٦٠ مشروعاً) نحو ١٠ مليارات دولار مناصفة بين الجانبين[٣٧].

وتعدّى الاهتمام الأوروبي المجال الاقتصادي إلى الميدان السياسي ليشمل الرغبة الأوروبية بلعب دور في حل قضية الشرق الأوسط وفي تشجيع عملية السلام والتنديد بالمظاهر المعرقلة لها. فخلال اجتماع للبرلمان الأوروبي في بداية آذار ١٩٩٤، أصدر المجتمعون تنديداً بمجزرة الخليل مطالبين بحماية دولية للشعب

---

(٣٤) النهار ـ العدد ٦٧٣٠ ـ الجمعة ١١ آذار ١٩٩٤ ـ ص١٢.
(٣٥) الديار ـ العدد ٢٠٠١ ـ السبت ١٢ آذار ١٩٩٤ ـ ص٢٢.
(٣٦) الحياة ـ العدد ١١٥٨٤ ـ السبت ٥ تشرين الثاني ١٩٩٤ ـ ص١١.
(٣٧) الحياة ـ العدد ١١٥٤٩ ـ السبت ١ تشرين الأول ١٩٩٤، ص٩.

الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة وبنزع أسلحة المستوطنين اليهود داخل تلك الأراضي[٣٨].

من جهته، دعا رئيس الوزراء الإسرائيلي الاتحاد الأوروبي إلى دعم عملية السلام عبر تعزيز التعاون الاقتصادي مع إسرائيل، معرباً عن الأمل بالغاء بعض القوانين التي «**تعيق وجود منافسة متوازنة بين الدول**»[٣٩].

ثالثاً: الاتحاد الأوروبي أمام الصعوبات

فيما تتجه أوروبا نحو اكمال اندماجها بهدف التصدي للتحدي الذي يفرضه العالم اليوم، تبرز أمامها مشكلات عديدة سياسية واقتصادية وأمنية واجتماعية ينبغي تذليلها قبل متابعة مسيرة الوحدة والاندماج.

إن مقارنة المشاكل التي تواجهها بلدان آسيا الوسطى وشمال أفريقيا بمشكلات الأمم الأوروبية، تظهر أن هذه الأخيرة هي حالياً في وضع أفضل لمجابهة تحديات العصر الحديث. إنما، هل ستستطيع مجتمعات هذه الأمم الغنية والتي تتمتع بمستوى معيشي هو الأعلى في العالم، أن تحافظ على مستواها العالمي هذا؟

وهل ستستطيع أن تبقى بمعزل عن الضغوطات الديمغرافية أو التغييرات المناخية والهجرة نحوها من البلدان النامية، وأن تحافظ على أمنها في عالم مشوش؟

وهل ستتمكن من اكمال الاندماج، خاصة في الميادين الاقتصادية والأمنية والسياسات الخارجية؟

بانتظار الإجابة على هذه التساؤلات، سنتعرض لأبرز المشكلات التي تعترض المجموعة الأوروبية.

أ ـ سياسة توسيع الحلف

أبرز المشاكل السياسية المعترضة هي مشكلة توسع السوق الأوروبية شمالاً وشرقاً. فبعد تفكك العالم السوفياتي السابق، راحت بعض دول الشمال الأوروبي، خاصة النمسا والسويد وسويسرا، تعيد النظر في الفرضية القائلة بأن العضوية في المجموعة الأوروبية تتعارض مع حيادها. وأهم الاحتمالات أمام السوق أصبحت حالياً التوسع لضم كل دول الرابطة الأوروبية للتبادل الحر EFTA، مما يشكل سوقاً تضم ٣٨٠ مليون مستهلك. وهذه الدول الجديدة، لا سيما السكندينافية، أي النروج واسوج والدانمارك، تتمتع بخصوصيات قد تتعارض مع المفاهيم السياسية

---

(٣٨) CHATAN, Jean, dans l'Humanité -11 Avril 1994- P.11.

(٣٩) الديار ـ العدد ٢٠٦٠ ـ الاثنين ١٦ أيار ١٩٩٤ ـ ص١٤.

للسوق الأوروبية.

ويسود حالياً قلق وخوف من العضوية الكاملة لدى بعض الدول كتركيا وإيرلندا والنروج. لكن المشكلة تبرز خاصة في انضمام دول العالم السوفياتي السابق في أوروبا الشرقية إلى الاتحاد، خاصة هنغاريا وبولونيا وسلوفاكيا وتشيكيا وبلاد البلقان، نظراً للخصوصيات التي تتمتع بها هذه الدول ولتخلفها الاقتصادي والانمائي مما يخلق صعوبات جمة في الدمج والوحدة(٤٠).

وقد تعرض الكاتب الفرنسي Robert TOULEMON لمشكلة التوسع هذه إذ كتب: «**ان توسع الوحدة الأوروبية يجعلها بتماس مع عالمين، العالم الأميركي عبر الأطلسي، والعالم الروسي عبر أوروبا الشرقية. هذا التوسع الضخم يمنع اعطاء شكل سياسي للوحدة بسبب عدم ادخال باقي دول العالم الأول خاصة الولايات المتحدة، رغم انها تتمتع بالمواصفات الحضارية نفسها، وروسيا التي تعتبر جزأها الغربي أوروبيا بالفعل، لكن اتساعها الجغرافي وقوتها تمنعانها من الانتساب إلى الوحدة الأوروبية التي قد تقلب موازين القوى فيها وتفقدها توازنها. وهذا الاندماج يخلق مجموعة أوروبية في الشرق يسيطر عليها العرق السلافي بشكل قد يمنعها من الاندماج الكلي بالمجموعة**»(٤١).

أما انضمام تركيا التي لا تنتمي إلى أوروبا إن في التاريخ أو الجغرافيا أو الديمغرافيا والتي يبلغ عدد سكانها ١٠٠ مليون في بداية القرن ٢١، فيخلق مشاكل أكبر تعود إلى عرقها وتخلفها التكنولوجي والمالي والاقتصادي وامتداد قسم منها إلى القارة الأسيوية، مما يحتم على الحلف ضم أراض من خارج أوروبا إليه. هذا الوضع الجغرافي يفرض نفسه أيضاً مع انضمام روسيا الأسيوية إلى الحلف.

أما المشكلات التي قد يخلقها انضمام البلدان السكندينافية والتي عبر عنها الدانماركيون عندما صوتوا ضد انضمام بلدهم إلى الاتحاد في استفتاء جرى في ٢ حزيران ١٩٩٢(٤٢)، فهي تعبر عن الميل التاريخي لدى شعوب هذه البلدان للاحتفاظ بمساحة سياسية معينة تفصلها عن بقية القارة.

وحذت سويسرا حذو الدانمارك برفض شعبها في الاستفتاء فكرة الانضمام إلى الوحدة الأوروبية، بينما وافق الشعبان النمساوي والفنلندي عليه. أما السويد فقد أجرت استفتاء في ١٣ تشرين الأول ١٩٩٤ جاءت نتيجته إيجابية ولكن هزيلة

---

(٤٠) CASANOVA, Jean - Claude, «**Vers la Grande Europe**», dans l'Express N.° 2219, 31 Mars 1994, P.6.

(٤١) TOULEMON, Robert, «**La Construction Européenne**» éd. livre de poche.

(٤٢) النهار ـ العدد ١٨٨٨٧ ـ الجمعة ٢٢ تموز ١٩٩٤ ـ ص١١.

(٥١,٥٪ موافقون ـ ٤٧,٦٪ معارضون)[٤٣].

هذا عدا الشكوك حيال مشروع الوحدة الذي بدأت ماستريخت بصياغته.

ويمكننا حتى طرح السؤال الآتي: هل تُعتبر الدول السكندينافية المذكورة أوروبية بالفعل في مجالات الجيوبوليتيك والثقافة والرؤيا المشتركة للأمور؟ وهل أن انضمامها إلى الحلف سيخل بالتوازن المالي القائم في أوروبا والذي هو حالياً لمصلحة فرنسا وأسبانيا والبرتغال، أو ما يعرف بـ «حزام الزيتون»، لمصلحة كتلة الشماليين الأغنياء بقيادة المانيا؟

هذا التوسع المستقبلي الذي يبدو الزامياً لضم أوروبا بكاملها في وحدة شاملة، قد يكون متناقضاً مع التشكيل السياسي لأوروبا الحالية وقد لا يحل بعض القضايا الشائكة بالنسبة للسوق خاصة في مجالات الأمن والبطالة. كما أن القرارات في المجلس الأوروبي الموسع قد تصبح أكثر تعقيداً منها مع أوروبا الخمسة عشرة بسبب تمنع الدول الكبرى المؤسسة للحلف عن التخلي عن حق الفيتو لصالح المجموعة الجديدة.

إنما، مما لا شك فيه، أن التوسع يجعل أوروبا أكثر فعالية من الناحية السياسية وأكثر اكتمالاً وأقوى عسكرياً. لكن ذلك يفرض تغيير طريقة اتخاذ القرارات الهامة لتصبح بالأكثرية وليس بمجموع الأعضاء.

وهذا ما يلقي ظلالا من الشكوك على مستقبل أوروبا الموسعة التي قد لا تستطيع دفع الدول الجديدة للتخلي عن خصوصياتها وتقاليدها وعاداتها وعقائدها وحتى اعرافها واتنياتها في سبيل تطبيق مبدأ الاندماج الكامل.

كتب وليام وروزياك من الواشنطن بوست عن صعوبات التوسع ما يلي[٤٤]:

«بدأ التوسع المتوقع للاتحاد الأوروبي باتجاه الشمال والشرق يخلق خلافات عميقة في ما يتعلق بالمصالح بين فرنسا والمانيا، الأمر الذي قد يعرض للخطر عملية الاندماج السياسي والاقتصادي الوثيقة وذلك حسبما ذكر العديد من السياسيين والديبلوماسيين في العواصم الأوروبية».

فعملية ضم كل من النمسا والنروج والسويد وفنلدا في بداية هذا العام وربما بعض دول أوروبا الشرقية مثل بولندا وهنغاريا وتشيكيا بنهاية هذا العقد، وهي العملية التي كانت تعتبر بمثابة تعديل هام للوقائع الجديدة التي برزت في نهاية الحرب الباردة؛ بدأت تثير مخاوف جديدة حول العواقب المترتبة على مثل هذا التحول الجذري على مركز الثقل في أوروبا. وإذا ما تجاهل الاتحاد جيران أوروبا

---

(٤٣) السفير ـ العدد ٦٩٣٤ ـ الاثنين ١٩٩٤/١١/١٤ ـ ص١٣.

(٤٤) وليام وروزياك، جريدة القبس الكويتية ـ العدد ٧٦٧٦ ـ الثلاثاء ١٩٩٤/١١/١.

الجنوبيين، حسبما ترى فرنسا وحلفاؤها، فإنه يكون بذلك قد عرَّض نفسه للخطر.

فأمام التباين المتزايد بين المصالح الأوروبية الحالية والمستقبلية، مع بلوغ عدد المنضوين الخمسة عشر وازدياد عدائية الناخبين الأوروبيين للتنازل أكثر عن السيادة الوطنية، تراجع المنادون بقيام اتحادية فدرالية أكبر. حتى ان داعية التحمس الأكبر، المستشار الألماني هيلموت كول، توقف عن المطالبة بالتوسع الأكبر هذا[٤٥].

ومما لا شك فيه أن اضمحلال حلم الفيدرالية أفقد الاتحاد الأوروبي الرؤية الكبيرة واوقعه في الارتباك بين ضرورة التوسع لبلوغ ٢٠ دولة (بدخول الكتلة الشرقية)، وصعوبة ذلك. كما ان توسع الرفض الشعبي في أوروبا لمبدأ قيام «سوبر دولة أوروبية» والتعقيدات التي برزت بالنسبة إلى توسيع العضوية، فرضت توقفا في هذا الإطار.

ب ـ الصعوبات الاقتصادية

من المعروف ان فكرة إنشاء الحلف ولدت من الضرورة الاقتصادية وتوسعت إلى أن أمست سياسية وأمنية واجتماعية. فالتحديات الاقتصادية لعالم ما بعد الحربين العالميتين الذي واجهته الحرب الباردة بين الشرق والغرب، والتطور التكنولوجي الأميركي خاصة، فرضت على العالم الأوروبي التوحد لمواجهة ما عرف في الستينات بـ «التحدي الأميركي» والذي أصبح اليوم تحديات عدة أميركية وشرق أقصوية.

لقد نجح الاتحاد الأوروبي في فرض نفسه في عالم التوازنات الاقتصادية العالمية طوال العقود الثلاثة الماضية، رغم الصعوبات التي اعترضته. أما الآن، وبعد أن اقتربت الوحدة الأوروبية الشاملة من نقطة القرار النهائي، لا سيما بشأن إلغاء الحدود الجمركية وإصدار العملة الموحدة، راحت الصعوبات الاقتصادية تبرز الواحدة تلو الأخرى. من السياسة الزراعية إلى البنك المركزي الموحد والصيد البحري والعجز في موازنات الدول الأعضاء وتقلب أسعار القطع والتضخم وسياسات الحماية الوطنية للصناعات المحلية والبطالة والدخل الفردي والهوة بين مستوى المعيشة في المجتمعات الزراعية والصناعية وغيرها...

والمجموعة الأوروبية مدعوة إلى إيجاد حلول لهذه المشكلات بهدف اكمال وحدتها.

كتب بول كيندي[٤٦]:

---

(٤٥) السفير ـ العدد ٦٧٤٢ ـ الاثنين ٢٨ آذار ١٩٩٤ ـ ص١٣.

(٤٦) كنيدي، بول، «**الاستعداد للقرن الحادي والعشرين**»، دار الشروق، عمان، ١٩٩٣، ص٣٢٨.

«إن العبء الذي يقع على اقتصاديات المجموعة الأوروبية، إن لم تتحد، مرعب جداً. من جهة أخرى، فإن سوقاً مشتركة قد ينجم عنها توفير مبلغ ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مليار دولار وإضافة ما بين ٤ إلى ٧٪ إلى مجمل انتاج المجموعة. ويمكن لأوروبا إما أن تنتهز هذه الفرصة أو تتخلف عن اليابان وأميركا».

١ ـ توحيد العملة

رغم أهمية توحيد العملة، فإن المواطن الأوروبي الذي يسافر حالياً عبر دول المجموعة، يجد أن نصف ما يحمله من مال قد ابتُلع في عملية تحويل العملة(٤٧). فالوحدة النقدية الحالية، أي الايكو ECU، هي مجرد وسيلة تحسب على أساسها مداخيل ومصاريف المجموعة مع إمكانية تعديل معدلها دورياً لتعكس النسبية لاقتصاديات الأعضاء. أما اصدار عملة أوروبية مشتركة الذي أعلنت عنه المجموعة العام ١٩٩١، وحددت لتنفيذه بين ١٩٩٧ و١٩٩٩، فيجب التعامل معه بحذر. فإذا أخذنا بالاعتبار تقلب الدولار الأميركي خلال العقود الأخيرة، لرأينا أن الأنظمة المالية العالمية قد تكتسب الكثير من اعتماد عملة عالمية ذات أساس أوسع وهي العملة الأوروبية مع بنك فيدرالي مشترك تكون له سلطة التحكم النقدي.

لكن اتحاداً كهذا، يعني الحد من سياسة وحرية الحكومات والبرلمانات في تبديل معدل الفائدة والنقود المطبوعة وعجز الموازنة. ويرى المراقبون ان وحدة النقد والوحدة الاقتصادية، لا يمكن أن يحصلا ما لم تتقيد الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي بمعايير معدلات التضخم وأسعار الفائدة والعجز في الموازنة والديون الحكومية. لقد صرح الكسندر لامغالوسي، رئيس المؤسسة النقدية، أمام وزراء المال الأوروبيين المجتمعين في جنوب المانيا بتاريخ ١٠ أيلول ١٩٩٤ ان **«الأسواق أنشأت ٣ طبقات واضحة للدول الأعضاء في الاتحاد بالنسبة إلى ارتفاع أسعار الفائدة الطويلة الأجل، على رأسها فئة الدول الأساسية الملتزمة بالوحدة والاندماج (المانيا ـ فرنسا، بلجيكا، هولندا، اللوكسمبورغ)، وفئة ثانية هي فئة الدول الأخرى الأقل التزاماً (بريطانيا ـ الدانمارك، إيرلندا التي زادت أسعار الفائدة الطويلة الأمد بنسبة ٢ إلى ٣٪)، وفئة ثالثة (إيطاليا ـ اسبانيا، البرتغال، التي رفعت أسعار الفائدة أكثر من ٣٪)»**(٤٨).

مقابل هذا التوجه غير المنضبط، يستعد البنك المركزي الألماني ليكون

---

(٤٧) HOFFMANN, S. **«The European Community and 1992»** Foreign Affairs, Vol. 68, N.° 4, P.27.

(٤٨) الحياة ـ العدد ١١٥٣١ ـ الثلاثاء ١٣ أيلول ١٩٩٤ ـ ص٧.

المصدر الوحيد للعملة الجديدة، أي مصرفاً فيدرالياً أوروبياً مستقلاً عن القيود السياسية للحكومات. لهذا السبب، صرحت رئيسة وزراء بريطانيا السابقة أمام مجلس العموم سنة ١٩٩٠[٤٩]:

«إذا سلمتم جنيهكم، فستسلمون سلطات هذا البرلمان إلى أوروبا».

إن اعتماد مصرف أوروبي فيدرالي، سيكون جهازاً محافظاً جداً في سياساته المناهضة للتضخم مما سيخلق مصاعب جمة أمام العديد من الدول الأعضاء، كاليونان وأسبانيا وفرنسا وحتى بريطانيا وإيطاليا اللتين غادرتا نظام النقد الأوروبي لأنهما لم تعودا قادرتين على تحمل تكاليف الحفاظ على عملتيهما في إطار القيود الضيقة لمعدل التبادل الذي يحدده ذلك النظام[٤٩].

حتى في ألمانيا نفسها، تجد فكرة تبديل المارك العزيز على قلوب الألمان بعملة أخرى، معارضة قوية. وقد دانها أحد قادة بافاريا وتهكم عليها، كما شدد المستشار كول ورئيس مصرف المانيا المركزي على أن الابقاء على استقرار العملات أمر أكثر أهمية من التقيد غير المرن بجدول معاهدة ماستريخت الزمني[٥٠].

وفي كامل أوروبا، حذرت المصارف من أن الوحدة المالية ستكون مستحيلة قبل حلول القرن المقبل، لأنها تحتاج إلى خمس سنوات على الأقل لكي تخطط لطرح عملة أوروبية موحدة.

٢ ـ التوحيد الاقتصادي

يعتبر التوحيد الاقتصادي للدول الأوروبية توطيداً وتعميقاً للسيادة الجماعية على مصلحة الانتقاص المتزايد من السيادة الوطنية لكل عضو. فالسيادة فوق الأممية تتعارض مع المفاهيم الاقتصادية الخاصة بكل دولة. وليس مظهر إلغاء العملات الوطنية المؤشر الوحيد على الهيمنة الاقتصادية على الدول.

ففي الميدان الصناعي مثلاً، نشأت في السوق رغبة في حماية الصناعات الوطنية للدول الأعضاء وتنسيق عناصرها وضبطها خوفاً من التنافسية الفوضوية، بينما تتطلب المصلحة الداخلية لكل دولة تحرير العملة التمويلية والنقدية من كل تدخل بهدف استعمالها في توجيه الاقتصاد داخلياً والسيطرة على الاقتصادات الأقل نمواً. من هنا نشأ الخلاف بين ممثلي البورجوازية الصناعية المتمثلة في فرنسا والمانيا وبين ممثلي الايديولوجية المالية في بريطانيا. فالفئة الأولى ترغب في تدخل مؤسسة السوق الأوروبية في الاقتصاد، وتؤمن باستعمال أجهزتها وقوانينها لتنفيذ المصالح

---

(٤٩) كنيدي ـ المصدر نفسه، ص٣٣٣.

(٥٠) الحياة ـ العدد ١١٤٩٣ ـ السبت ٦ آب ١٩٩٤ ـ ص٧.

الصناعية وترويض مراكز القوى المالية والانتاجية، وهي تؤمن بالسلطة فوق الاممية. أما الفئة الثانية فتؤكد على ضرورة التدرج نحو انهاء الوظيفة الاقتصادية للسوق وإعادة عصر الحرية الذهبي (الليبيرالية) بمفاهيمه الواضحة. فالليبيراليون لا يؤمنون بتدخل الدولة في الاقتصاد المبني على المبادرة الخاصة والحرية والتنافس المشروع، تمشياً مع الشعار الكبير «دعه يعمل، دعه يمر» الذي ساد أوروبا في عصر النهضة. وهذه الفئة ترفض توحيد العملة وتنادي بقابلية تحويلها فقط.

٣ ـ المشكلات الاقتصادية الأخرى

على هامش الخلافات الاقتصادية الأساسية، برزت مصاعب محلية بين دولتين أو أكثر أو بين تنظيمات اقتصادية محلية نذكر أبرزها:

ـ أزمة البطالة في الدول الأعضاء التي تُعتبر في أوروبا (١١٪) أخطر منها في اليابان حيث بقيت منخفضة نسبياً (بين ١ و٣٪) ومن الولايات المتحدة (٦٪)[٥١].

كما ان معدل زيادة فرص العمل في الاتحاد الأوروبي منذ الستينات لم يرتفع سوى ٠,٣٪ سنوياً، في حين زاد في الولايات المتحدة بنسبة ١,٨٪ سنوياً. علاوة على ذلك، فإن اكتمال الاندماج في أوروبا قد يؤدي إلى انهيار قسم من الشركات. كما ان الانسجام بين الاقتصاديات الأوروبية سيزيد من البطالة مهما كانت الحوافز المعلنة للنمو والعطاء.

ـ التخلف الأوروبي عن الشرق الأقصى بسياسة العرض والطلب. فبلدان أوروبا الغربية، تواجه تحديات جسيمة في ميدان تقسيم العمل على الصعيد الوطني. وبدخول الصين إلى حلبة الاقتصاد العالمي، ازداد العرض في سوق العمل العالمية ازدياداً كبيراً (١/٥ تقريباً) لم تستغله الدول الأوروبية جيداً.

زد على ذلك أن اليد العاملة المتدفقة من أوروبا الشرقية والوسطى والمقتنعة بالأجور الزهيدة التي تبلغ ١٠٪ من الأجور الألمانية، تستدعي، مع غيرها من المعطيات، تعديلات مهمة في الهيكلية الاقتصادية لدول أوروبا الغربية كي تتمكن من المنافسة في الأسواق العالمية ضمن سياسة العرض والطلب.

ـ سياسة الحماية التي تتبعها بعض الدول تضر بمصالح الاتحاد. فالسماح بالتنافس بين شركات الطيران الأوروبية مثلاً على أرض دولة من دول الاتحاد، هو أمر صعب تحقيقه لأن كل حكومة تريد حماية وسائط نقلها. كما تبدو شركات

---

(٥١) نداء الوطن ـ العدد ٥٦٢ ـ الجمعة ١٦ أيلول ١٩٩٤ ـ ص٩.

السيارات في فرنسا وألمانيا قلقة من إنشاء مصانع للسيارات اليابانية في بريطانيا، أي داخل المجموعة، في وقت تحاول تحديد «كوتا» لاستيراد سيارات من الخارج بهدف حماية انتاجها(٥٢). فالوحدة الأوروبية يفترض ان تفيد الشركات الأوروبية وليس الشركات المتعددة القوميات (أوروبية ـ يابانية).

ـ مشكلة تكاثر الشركات ستُطرح بالتأكيد عند إزالة الحدود الجمركية. فإذا قارنا السوق الأوروبية بسوق الولايات المتحدة، نجد أن أوروبا الموحدة سيكون لديها أكثر من حاجتها من شركات الطيران والكهرباء والسيارات وغيرها. وعندها ستنهار الشركات الأقل كفاءة، أو ستضطر الحكومات الوطنية التي ترفض روح الاندماج، لحمايتها ضمن مصالح المجموعة.

ويبقى السؤال: هل ستتمكن الصناعة الأوروبية من التنافس بشكل كفوء مع الصناعة اليابانية المؤتمتة بشكل كبير، بدلاً من الاعتماد على الحماية الوطنية؟.

الجواب على هذا السؤال غير واضح حتى الآن.

ـــ إن مشكلة الدخل الفردي مردّها إلى أن الدمج يحصل في قارة توجد فيها مستويات مختلفة من الدخل والضمان الاجتماعي. فمعدل الدخل الفردي في ألمانيا يعادل ٣ أو ٤ أضعاف مثيله في البرتغال واليونان. وهذه الفجوة تزيد بين مستويات الضمان الاجتماعي(٥٣).

وهذا الفرق في الدخل سيغري الصناعي بنقل استثماراته إلى المناطق حيث تنخفض الأجور، مما يعني إعادة توطين الانتاج القائم في المناطق الأفقر. وهذا ما ستقاومه الدول التي ستهرب منها الشركات معارضة مبدأ «دعه يعمل ـ دعه يمر».

ولحل هذه المشكلة يتزايد الضغط السياسي لتوحيد الأجور في دول أوروبا بكاملها، من خلال رفع مستوى المعيشة في الدول الأفقر.

ـــ وفي الميدان الزراعي، لم تنسجم السياسة الزراعية المشتركة (Gap) مع منطق السوق العالمية، إذ عمدت دول أوروبا إلى فرض عقوبات جمركية مشتركة لحماية مزارعيها من المواد الغذائية المستوردة. كما عمدت إلى تقديم تعويضات للمزارعين لتغطية الفرق في أسعار البضائع المصدرة إلى الخارج بحيث تتمكن من بيع فائض منتوجاتها.

هذه التدابير شوهت قانون العرض والطلب ورفعت أسعار المواد الغذائية. وقد بلغ الانفاق الحكومي للمجموعة المخصص للمزارعين وصيادي الأسماك ٧٠٪ من

---

(٥٢) كنيدي، المصدر نفسه، ص٣٢٩.

(٥٣) World ressourses, 1990-91, P.245.

مجموع موازنة السوق، وبقي القليل لتخصيصه للتنمية الاجتماعية والإقليمية التي يمكن أن تفيد عدداً أكبر من السكان(٥٤).

ففي العام ١٩٩٠، كلف دعم المزارعين حكومات أوروبا والمستهلكين مبلغ ١٣٣,٤ مليار دولار، مقابل ٧٤,١ مليار دولار في الولايات المتحدة و٥٩ مليار دولار في اليابان(٥٥).

علاوة على ذلك، تهدد الثورة التكنولوجية وصناعة الغذاء بزيادة كبيرة في الانتاج سواء في الحليب أو اللحم أو القمح، مما سيضع عقبات عديدة أمام البنى الحالية لدعم الأسعار. وسيؤدي التصاعد إلى تخزين مواد غذائية عديدة لا سيما بودرة الحليب والزبدة في المخازن، وإلى اخراج العديد من المزارعين من قطاع الزراعة في مرحلة لاحقة. ومن ضمن الحلول الممكنة لهذه الأزمة، زيادة الصادرات وتقليص الواردات.

ـــ حروب السمك بين الشركاء الأوروبيين (بين الصيادين الانكليز والفرنسيين). وقد تدخلت في الصراع البحريتان الفرنسية والبريطانية.

وتزايد الصراع بسبب الطلب على السمك في وقت تضاءلت أعداده حول القارة الأوروبية. وقد عجزت المفوضية الأوروبية حتى الآن عن إيجاد حل لحروب السمك هذه بسبب تدخل الحكومات فيه. فإذا أضفنا استعمال الأسلحة والوسائل الأخرى، كالتجسس عبر الأقمار الصناعية وسجلات الكمبيوتر للزوارق، لأمكننا تكوين فكرة أوضح عن حجم هذا الصراع الاقتصادي(٥٦).

ـــ ملف الموز الذي توصل ممثلو الدول الأعضاء في المجموعة إلى اتفاق على هدنة حوله خلال اجتماعهم في مراكش في ١٥ نيسان ١٩٩٤، والخلاف وقع بين الدول الأعضاء في الاتحاد قبيل تبني اتفاقات «جولة الأوروغواي» في إطار اتفاقية «الغات».

ويتمحور الخلاف حول رغبة بعض الدول كفرنسا في ادخال عروض جديدة ضمن «الغات» متعلقة بالموز، قُدمت إلى أربع دول لاتينية هي كوستاريكا وكولومبيا ونيكاراغوا وفنزويلا. علماً أن عروض الاتحاد إلى الدول الأربعة تزيد تدريجياً حصص الاستيراد السنوية وتسمح للدول المنتجة باعطاء اجازات تصدير(٥٧).

---

(٥٤) Economist World Atlas and Almanac, 1989, P.27-28.

(٥٥) Wall Street Journal, 24 Avril 1992, P.A 11A.

(٥٦) The Economist, Septembre 1994.

(٥٧) الديار ـ العدد ٢٠٣٣ ـ السبت ١٦/٤/١٩٩٤، ص١٥.

ـــ أعمال الاحتيال في ميزانية الدول الأعضاء في الاتحاد والتي قفزت حسب ما أعلنه مفوض الميزانية بيتر شميد باور بنسبة ٥٠٪ في العام ١٩٩٣. وقد وتركزت الأعمال المخالفة في قطاع ضمان وتوجيه المنتجات الزراعية في الميزانية[٥٨].

ـــ اختفاء المؤسسات الاقتصادية الصغيرة والمتوسطة.

ـــ الهجرة نحو الشمال التي اعتبرت أحد أسباب البطالة.

ج ـ الصعوبات الأمنية

أدى التداخل بين الاتحاد الأوروبي والحلف الأطلسي إلى تقريب هذا الاتحاد من الدور الأمني والعسكري في أوروبا والعالم رغم أن بنيته الأساسية كانت مقتصرة على الاقتصاد أساساً. فانهيار العالم الأوروبي الشرقي بسبب تداعي الاتحاد السوفياتي وقيام النظام العالمي الجديد الذي تزعمه الحليف الأميركي، وهيمنته على مقررات الأمم المتحدة، وتراجع أهمية الحلف الأطلسي بسبب تفكك حلف وارسو؛ كلها أمور دفعت الدول الأوروبية إلى إقامة التحالفات والمنظمات المحلية بهدف حماية حدودها الشرقية من سيل الهجرة. علاوة على ذلك، أدى التواصل الأمني بين أوروبا الغربية والشرقية إلى تعدي الدور الاقتصادي للحلف إلى الدور الأمني.

فالمبرر الأهم لاستمرار منظمة الأمم المتحدة ونظامها العسكري وهيمنة الولايات المتحدة عليها، قد زال بعد ان اندثرت التهديدات العسكرية في الشرق. ومع هذا التراجع في دور الأمم المتحدة، برز الدور الأمني والعسكري للدول الأوروبية مجتمعة متعاظماً، وذلك بهدف تأمين استقلالية القارة الأوروبية على الساحة الدولية والتخلص من هيمنة الحليف الأميركي على القرارات الستراتيجية.

وقد نصت اتفاقية ماستريخت على بناء نظام دفاع أوروبي في المستقبل يضمن مكانة الاتحاد الأوروبي الغربي ولا يتعارض مع خيارات الحلف الأطلسي. وهذا ما طُرح ضمن فكرة «**الشراكة من أجل السلام**» على دول أوروبا الشرقية المتحررة من الهيمنة السوفياتية. كما عرضت الدول الأوروبية المجتمعة في قمة بروكسل في ٢٢ حزيران الماضي، ادخال روسيا في المشروع نفسه كمحاور أساسي ودائم. وهكذا توضحت صورة أوروبا الأمنية المستقبلة التي يرغب الشركاء الأوروبيون في قيامها كبديل للحلفين الأطلسي ووارسو.

لكن هذه المشاريع الأمنية تبدو مصطدمة بعقبات أساسية وجوهرية، أبرزها معارضة واشنطن لتقوية أوروبا موحدة على صالح دورها الأمني والستراتيجي

---

(٥٨) الأنوار ـ العدد ١١٨٤٤ ـ السبت ١٩٩٤/٣/٢٦ ـ ص٩.

في القارة الأوروبية والعالم. من جهة أخرى، رفضت بعض الدول الشرقية كبولونيا وتشيكيا وهنغاريا، الانضمام إلى الحلف الأمني بسبب عدم استقرار علاقاتها مع روسيا حتى اليوم. واعتبر هذا الرفض مقدمة لرفض دول شرقية أخرى للاقتراح، مما يعني أن انضمام قسم من دول أوروبا الشرقية فقط إلى حلف **«الشراكة من أجل السلام»** قد يخلق في أوروبا جداراً حديدياً جديداً يحشر روسيا في خانة العدو ويعيد المنطقة إلى أجواء الحرب الباردة السابقة.

كما أن توسيع الحلف أمنيا ليشمل أوروبا الشرقية، قد يؤدي الى المواجهة مع روسيا، لأن بعض دول حلف وارسو السابق تشعر انها مهددة في كيانها من قبل روسيا التي تعتبرها اليوم في وضع يشبه إلى حد ما زمن المّد القيصري.

وبالفعل، وأمام اقتراحات الغرب تطبيق مشروع **«الشراكة من أجل السلام»**، رد الزعيم القومي المتشدد في روسيا جيرينوفسكي بتوجيه انذار للغرب رافضاً هذا الاقتراح[٥٩]. كما أعلن وزير الدفاع الروسي بافل غراتشيف في ١٧ آذار ١٩٩٤ ان روسيا قد تنضم إلى المشروع، انما حسب شروطها[٦٠]. وهذا الأمر تخوف منه وزير الدفاع الأميركي ويليام بيري خلال خطاب له أمام الكونغرس[٦١]:

«لدينا أسباب كثيرة تجعلنا نخشى أن تلف أوروبا مجدداً غيوم سوداء في حال فشل الإصلاح وانتصار الرجعية».

علاوة على ذلك، أظهر أمر اللجوء إلى مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي CSCE كحل للمشكلة فشله، إذ انه لم يجد حلاً للمشكلة اليوغوسلافية وبدا التفاوت في اداء أعضاءه واضحاً. والسبب يعود إلى فقدان المرجعية في هذا المؤتمر الذي تأسس العام ١٩٧٥ وحُدِّدت اهدافه بـ**«إقامة علاقات سليمة وطبيعية إذا أمكن مع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، أي بين الشرق والغرب وبين الحلف الأطلسي وحلف وارسو».**

أما إذا تعدينا الإطار الأوروبي إلى الإطار الدولي، لبدت أوروبا الحالية عاجزة عن اتخاذ خطوات أمنية وستراتيجية لتبديل الأوضاع العالمية أمام نظام عالمي أميركي مهيمن وروسيا ما تزال محتفظة بترسانتها العسكرية والستراتيجية محاولة التأثير على الأحداث الدولية من خلالها.

فهل أن أوروبا الخمسة عشر أو العشرين القادمة ستستطيع التحرر من الهيمنة

---

(٥٩) السفير ـ العدد ٦٧٣٤ ـ الجمعة ٨ آذار ١٩٩٤ ـ ص١٦.
(٦٠) الديار ـ العدد ١٩٤١ ـ الثلاثاء ١١ كانون الثاني ١٩٩٤ ـ ص٢٢.
(٦١) الديار ـ العدد ١٩٦٨ ـ الاثنين ٨ شباط ١٩٩٤ ـ ص٢٢.

الأمنية الأميركية والأطلسية، لتتخذ مواقف مستقبلية مستقلة عن هذين الجبارين الأمنيين؟.

هذا على الصعيد الأمني. إلا أن المشكلات التي تعترض اكمال مفاهيم الوحدة عسكرياً فستكون أكبر. ويمكننا، في معرض تصور المشكلة، تخيل عملية توحيد جيوش أعضاء الحلف الأوروبي مع ما يفرض ذلك من تخلٍ عن الخصوصيات الوطنية، لجهة السلاح التقليدي أو النووي الخطر على مستقبل الوحدات المسلحة للدول الأعضاء التي تعتبرها رمزاً لكرامتها ولتراثها وتقاليدها العسكرية.

د ـ الحالة الألمانية

اعتُبر انهيار جدار برلين حلاً لمشكلة المانيا بتوحيدها مجدداً، لكنه خلق مشكلة بالنسبة إلى أوروبا الموحدة بسبب الإمكانات الهائلة التي باتت المانيا الجديدة تتمتع بها بالنسبة إلى باقي دول السوق الأوروبية التي سبق وأقامت حلفا مع دولة المانيا الغربية الموازنة لها في الاقتصاد والأمن والسياسة وغيرها. وبالفعل، أيقظ مشروع «**النواة الأوروبية الصلبة**» الذي اقترحه اقطاب الحزب المسيحي الديمقراطي الحاكم، أحلام الخوف والذعر من استعدادات المانيا للسيطرة مجدداً على القارة الأوروبية، وأثار ردود فعل أوروبية ودولية عنيفة شكلت أول هزة عنيفة للبنيان الأوروبي بكامله(٦٢)

وجاءت أبرز ردود الفعل من إيطاليا وبريطانيا وأسبانيا وفرنسا.

والنواة الأوروبية الصلبة المقترحة، تتشكل من المانية وفرنسا وبلاد البنالوكس (لوكسمبورغ، بلجيكا وهولندا)، ولها نواة أصلب تتألف من فرنسا والمانيا كمركز لأوروبا.

زد على ذلك أن الناتج الوطني الاجمالي لألمانيا الاتحادية يبلغ ٢٥٪ من الدخل الاجمالي للمجموعة. لذلك فهي الأقوى، ليس فقط ديموغرافيا انما أيضاً اقتصاديا. فالاقتصاد الألماني مجهز جيداً للسيطرة على السوق الداخلية الأوروبية. والفائض في ميزان المانيا التجاري يقابله عجز في ميدان تبادل البضائع والخدمات لعدد من البلدان الأخرى في المجموعة.

ويعود التفوق الألماني إلى أسباب أبرزها:

ـ متانة السياسة المالية للدولة، وتحقيق توازن معقول في سياسة انفاقها.

ـ الانتاجية العالية.

---

(٦٢) L'Express, N.° 2255, 29 Septembre 1994, P.6.
Le Point N° 1135-22 Octobre 1994 PP 28-31.

ـ التمتع ببنية تحتية عالية المستوى وبهيكلية اقتصادية متوازنة.
ـ العمال المدربون جيداً والسياسة التعليمية العالية.
ـ النظام الاجتماعي المنفتح والحر.
ـ أعلى قدر من السلام الاجتماعي.

يقابل ذلك مسائل ينبغي على المانيا معالجتها للاندماج في السوق الأوروبية، أبرزها ارتفاع مستوى الأجور والاعباء الضريبية المفروضة على الشركات والضمانات الاجتماعية المرتفعة التكاليف.

في ضوء هذا الوضع الاقتصادي الإيجابي لألمانيا تجاه السوق الأوروبية الذي أعلن زعماء الدول الأوروبية الاثنتي عشرة خلال اجتماعهم في دبلن في ٢٨ نيسان ١٩٩٠ انه سيعطي دفعاً جديداً لأوروبا، فإن التوازن الاقتصادي الأوروبي قد ينقلب لصالح المانيا. والسؤال المطروح هو كيف يمكن تحقيق علاقات منسجمة بين أكثر أمم أوروبا سكاناً وانتاجية وتطوراً تكنولوجيا وكفاءة عسكرية وبين أممها الأصغر والأقل قوة؟. وهل أن الهيمنة ستكون للدولة القوية داخل الاتحاد؟

هذا التساؤل يزيد من المخاوف في حال قامت قطبية ثنائية المانية ـ فرنسية للسيطرة على السوق. كما ان القليل من الخبراء يشكون من أن الهيمنة الألمانية على اقتصاد السوق، وربما سياستها الخارجية وتأثيرها في العالم الثالث، ستكون فعلية مما يعطي المانيا الكلمة الفصل في كيفية عمل النظام الجديد.

كل ذلك، دفع المراقبين إلى التخوف من قيام أوروبا المانية بدلاً من المانيا أوروبية، بسبب الحجم القومي والجغرافي والسكاني والاقتصادي الألماني المتزايد[٦٣]. وهذا التخوف دفع برئيس الكتلة النيابية للتجمع المسيحي الديمقراطي الألماني ولفغانغ شويبله، إلى المطالبة بخلاص بعض السياسيين الأوروبيين من **«العقدة الجرمانية»** التي تجعلهم يتخوفون من الاقتراحات الألمانية المقدمة للسوق. وهو علق على اتهام صحيفة لوموند الفرنسية على مشروع النواة الأوروبية بأنه **«سيطرة جرمانية»**، بأنه اتهام مبالغ فيه وينم عن عقد تاريخية يتحمل مسؤوليتها من لا يزال يعاني منها.

ولكن مهما قيل، فمن غير المشكوك فيه أن حجم المانيا وقدراتها الاقتصادية والجغرافية والجيوستراتيجية تضع مشكلة جديدة أمام الاتحاد الأوروبي، نفاها المستشار كول في تصريح له جاء فيه أن **«بلاده هي المحرك للوحدة الأوروبية دون أن يعني ذلك أن يتخذ الأعضاء الآخرون مكاناً في الصف الثاني»**[٦٤].

---

(٦٣) كنيدي ـ المصدر نفسه، ص٣٢٩.
(٦٤) الحياة ـ العدد ١١٥٤٩ ـ السبت ١ تشرين الأول ١٩٩٤ ـ ص٨.
Le Point N.° 1151-8 Octobre 1994, P.40.

هـ ـ مشكلات أخرى

علاوة على المشكلات الرئيسية التي ذكرت والتي تعترض سبيل الوحدة الأوروبية وقد تعرقل مسيرتها نحو الاندماج الكامل سياسياً واقتصاديا وأمنياً، يمكن للمراقب لمس صعوبات أخرى أقل أهمية أبرزها:

١ ـ إن عملية إعادة تشكيل أوروبا دستورياً تستهلك معظم طاقاتها السياسية، في وقت تبرز أمامها قوى عظمى منافسة كالولايات المتحدة واليابان وأوستراليا.

٢ ـ عدم إمكانية أوروبا الموحدة البقاء في وضع المتفرج على انهيار الدول المجاورة، والمثال اليوغوسلافي يؤكد هذه النظرية.

٣ ـ صعوبة ابقاء التمييز بين أوروبا الموحدة وحلف الناتو قائماً، في وقت ارتفعت أصوات أوروبية تنادي بالاندماج الدفاعي الكامل(٦٥).

٤ ـ تخوف بعض البلدان المنضوية للحلف من زيادة الاندماج وفقدان الهوية القومية لكل دولة.

٥ ـ مشكلات فرضها تفكك العالم السوفياتي، خاصة في دول أوروبا الشرقية، وقد تؤدي إلى توترات عرقية وحروب حدودية واضطرابات اجتماعية وهجرات جماعية.

٦ ـ الهجرات الجماعية من شمال أفريقيا نحو فرنسا وأسبانيا وإيطاليا محدثة فيها اضطرابات عرقية منعت الاندماج الأوروبي الكامل وعملت على الحد من حرية تنقل الأشخاص ضمن حدود المجموعة(٦٦).

وتشير التوقعات إلى أن بعض الدول كأسبانيا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا واليونان، سيرتفع عدد السكان فيها ما بين ١٩٩٠ و٢٠٢٥ بنسبة ٥ ملايين شخص جميعهم من شمال أفريقيا، مما سيخلق مجتمعاً آخر داخل المجموعة الأوروبية مختلفاً عرقياً وثقافية ودينياً واجتماعياً(٦٧).

٧ ـ ثورة الإنسان الآلي التي تتحدى المجتمعات الأوروبية مدفوعة بالتقدم التكنولوجي، مما يزيد من مشكلة البطالة. وتفضل بعض الدول عدم اتباع مثال اليابان بالنسبة إلى الإنسان الآلي والاتمتة، والاتجاه إلى تأهيل اليد العاملة الإنسانية وإلى تشجيع الحراكية في الوظائف داخل المجموعة.

---

(٦٥) Agneli G, «**The Europe of 1992**», Foreign Affairs Vol. 68, N.° 4, PP.61-70.

(٦٦) كنيدي ـ المرجع نفسه ـ ص٣٩.

(٦٧) World ressourses, 1990-91- PP1 et 30.

الخاتمة (نظرة مستقبلية)

ليس من السهل في الوقت الراهن، وفي ظل التحولات الكبرى في الأنظمة الدولية، الكتابة عما ستؤول إليه أحوال أوروبا في العقود المقبلة أو عن مدى قدرة الاتحاد على الصمود والتوسع والمتابعة بلعب دور مهم في العلاقات الدولية، وسط تضارب مصالح أعضائه واضمحلال نفوذهم، حالياً أمام الولايات المتحدة، وربما لاحقاً أمام الشرق الأقصى.

فهل سيكون بقدرة أوروبا تغيير نمط سياستها الحالية، ودمج قدراتها وإنشاء مؤسسات وأسواق وثروات موحدة؟

وهل سيكون بإمكانها الصمود أمام تحدي البطالة والهجرة والفساد في مجتمعها، وتوحيد عملاتها وإقامة البنك المركزي الأوروبي الموحد؟

وهل ستتمكن من القفز فوق خلافاتها لتسن سياسة خارجية موحدة مؤثرة؟

فإذا أراد الأوروبيون تفادي خطر الانزلاق في مستنقع التهميش في مواجهة آسيا والولايات المتحدة، فإنه من الضروري قيام أوروبا الكبرى. لذلك يرسم المخططون للسياسة الأوروبية أربعة احتمالات مستقبلية أمام الاتحاد(٦٨):

أ ـ إما ان يبقى عدد الدول كما هو حالياً، مما يشكل قوة وانسجاماً اجتماعيين في محيط فيدرالي أوروبي متجانس.

ب ـ إما أن تتمدد أوروبا نحو الشرق بسرعة فتشكل سوقاً كبيرة مشتركة محمية حدودها بدون اندماج سياسي يكون المجال الأوروبي المستقبلي.

ج ـ إما أن تحل نفسها تدريجياً اثر الخلافات بين الأعضاء ورغبة بعضها في الهيمنة. وبذلك يتحقق نصر أميركي فيتشكل مجدداً الاتحاد الأورو ـ اطلنتي.

د ـ أو يتابع الاتحاد الأوربي صياغة نفسه وتوسيع عضويته، فيصبح اتحاداً اقتصادياً سياسياً اجتماعياً وأمنياً لكامل القارة الأوروبية. وهكذا ترتسم صورة الاتحاد الأوروبي للقرن الواحد والعشرين.

بالطبع، ما يزال أمام أوروبا طريق طويل تجتازه وعقبات كبرى تقف في طريقها، أبرزها تلك التي تضعها أمامها القوى العالمية الجديدة. فعلى ضوء التغيرات في الشؤون العالمية، وخاصة انهيار الاتحاد السوفياتي، وخطر الحروب بين دوله، وتزايد قوة آسيا الاقتصادية، وبروز القوى النووية الجديدة في الهند والصين، ومشكلات الولايات المتحدة الاقتصادية، وعدم التوازن السكاني بين

---

(٦٨) السفير ـ العدد ٦٧٤٤ ـ الأربعاء ١٩٩٤/٣/٣٠ ـ ص٩.

الشمال والجنوب وأخطار البيئة؛ أمام جميع هذه التغييرات، نرى أن لا بديل أمام أوروبا سوى التحرك نحو المزيد من الاندماج والوحدة بهدف خلق كيان مؤثر وقادر على مواجهة التحديات بشكل جماعي.

وهذا يتطلب مفاهيم جديدة للوحدة وبنى جديدة للاتحاد الأوروبي، تأخذ بعين الاعتبار التغييرات الديمغرافية والهجرة والدفء الكوني وتأثير التكنولوجيات الجديدة، وذلك بهدف جعل الاتحاد يقف موحداً وبمعزل عن بقية مشاكل العالم، وهذا ما لم يستطع تنفيذه حتى اليوم.

وبرأينا إن المستقبل الأوروبي مهم بالنسبة إلى باقي أقطار العالم، وذلك ليس لأسباب اقتصادية وحسب. فأوروبا بدأت تجربة سياسية ذات أهمية قصوى تتعلق بكيفية تفكير المجتمعات السياسية بنفسها وبعلاقاتها مع الآخرين. والعالم يشهد اليوم نوعاً من انتقال السلطة من الوطنيات الضيقة إلى الوحدات الأكبر ولا سيما عبر القوميات الإقليمية والعرقية. ويبدو أن عالم القرن العشرين سيحركه تياران أساسيان:

ـــ تيار التجارة والاقتصاد والتكنولوجيا. وهو التيار الذي يوجه الدول نحو اندماج اقتصادي أكبر ونحو إقامة أسواق إقليمية ودولية.

ـــ الميل نحو الانفصال العرقي وإلى تشكيل مجموعات اتنية، وصعود الأصولية الدينية. وهذا الانفصال العرقي هو الذي يحل الآن مكان العقائد المنهارة.

والتياران هذان سيكون لهما تأثير على أوروبا القرن ٢١ أمام التناقض الضمني بين الاتجاه الاندماجي الكلي في دولة «**فوق الأممية**»، في وقت تضعف فيه التكنولوجيا والاتصالات تحكم الدولة وتزيل الحدود، وبين الاتجاه نحو المزيد من الاهتمام بالهوية القومية أو الإقليمية.

فالاندماج الكلي قد يصبح طاغياً ويترك آثاره على مستقبل أوروبا ومستقبل الاقتصاد العالمي. ونظرية «العالم بلا حدود» التي تعني أنه يمكن للمستهلك الأوروبي المتمتع بالسيادة، شراء اللحم الأميركي أو السيارة اليابانية إذا كانت الأسعار مناسبة له، هي نظرية بعيدة التطبيق حالياً.

وهناك كثير من الأسباب تؤيد إقامة بنى فيدرالية يتولى الرأس فيها المهام ذات البعد الأوروبي وحل المشاكل التي تتجاوز حدود الدولة الواحدة ولا يتمكن الأعضاء من الاتفاق على حلها. انما، يبقى على الاتحاد تذليل عراقيل متعددة قبل ذلك سبق الحديث عنها في هذا المقال.

وهذا الاندماج يعنينا مباشرة في الشرق الأوسط، خاصة في موضوع الخطة الأوروبية التي سيدرسها الاتحاد والتي تتناول إقامة منطقة تجارية حرة تشمل

شمال أفريقيا والشرق الأوسط خلال القمة التي ستعقد في مدينة «ايسن» الألمانية. فأمام إمكانية توقيع السلام النهائي والشامل في المنطقة، بدأت دول الاتحاد التفكير على نحو ستراتيجي يرمي إلى إنشاء منطقة اقتصادية أوروبية ـ متوسطية، عن طريق زيادة المساعدات بحوالي الضعفين بهدف المساهمة في إعادة تنظيم البنى التحتية في دول حوض البحر المتوسط الشرقي والجنوبي.

من جهة أخرى، نطرح تساؤلاً: هل ان على حلف الناتو أن يستمر؟

فهذا الحلف أنشىء لمواجهة الظروف غير العادية للمرحلة الأخيرة من الأربعينات. إنما، ومع انتهاء ظروف هذه المرحلة، ومع تزايد طلبات الانضمام الروسية والاوكرانية إلى «**الشراكة من أجل السلام**»، **أصبح المجال مفتوحاً أمام تخصص أوروبي أمني يمكن من استبدال هذا الحلف بمؤتمر «الأمن والتعاون الأوروبي»** الذي لا تستثنى منه أية دولة أوروبية.

أخيراً، نرى أن اليابان تخصصت بالاستثمار، والولايات المتحدة بالاستهلاك والاتحاد السوفياتي بالتسلح. أما أوروبا، فإنها تمكنت من أن توازن بين هذه المزايا الثلاث فاستثمرت جزءاً من دخلها الإجمالي أقل مما فعلت اليابان ولكن أكثر من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيات. لذلك قد تشكل أوروبا الموحدة فيدرالية ديمقراطية غنية ومتنوعة اجتماعياً ومتعددة اقتصادياً، وتكوّن قوة هائلة على المسرح الدولي مما يجعل القرن ٢١ قرناً أوروبياً، بعد أن كان القرن ٢٠ قرناً أميركياً!

ملحق رقم ١
المنظمات الأوروبية المتنوعة

أولاً: الأجهزة التابعة للسوق الأوروبية المشتركة

أ ـ مجلس وزراء السوق: Le Conseil des Ministres

وهو الجهاز التنفيذي للسوق. يتخذ القرارات بأغلبية الأصوات وأحياناً بالأغلبية المطلقة، ويحيل قراراته الهامة إلى البرلمان الأوروبي.

ب ـ لجنة السوق: La Commission du Communauté

تقترح على مجلس الوزراء التدابير المقترحة لتحسين الاداء في العمل، وتتمتع ببعض صلاحيات القرار، وتعمل على التوفيق بين وجهات نظر الدول الأعضاء.

ج ـ البرلمان الأوروبي: Le Parlement Européen

يُنتخب في الدول الأعضاء من الشعب بمعدل ٨١ صوتاً في كل من المانيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا ـ ٦٠ صوتاً في أسبانيا ـ ٢٥ صوتاً في هولندا ـ ٢٤ صوتاً في كل من بلجيكا واليونان والبرتغال ـ ١٦ صوتاً في الدانمارك ـ ١٥ صوتاً في ايرلندا ـ ٦ أصوات في اللوكسمبورغ (المجموع ٥١٨).

يتمتع بصلاحيات المراقبة، ويرفع تقاريرا دورية للسوق، ويقرر موازنتها بعد درسها في مجلس الوزراء ويسن القوانين للسوق. يمكنه الغاء قرارات مجلس الوزراء التي لا يعرضها عليه للموافقة.

د ـ محكمة السوق: La Cour de Justice

تتالف من ١٣ قاض و٦ محامين عامين وتنظر في الخلافات الناجمة عن تطبيق اتفاقات السوق.

هـ ـ اللجنة الاقتصادية والاجتماعية: Le Comité Economique et Social

دورها استشاري الزامي قبل اتخاذ القرارات المهمة، وهي تتالف من ١٨٩ عضواً يعينون لأربع سنوات من قبل مجلس وزراء السوق.

و ـ ديوان المحاسبة: La Cour des Comptes

يتالف من ١٢ عضوا معينين لمدة ٦ سنوات من قبل مجلس وزراء السوق. ينحصر دوره بالمراقبة وتشريع القرارات المالية والإدارة المالية للسوق.

ز ـ البنك الأوروبي للاستثمار: La Banque Européenne d'Investissement

مهمته المساهمة في التنمية المتوازنة للسوق من خلال القرض والضمانات. يعتبر المفرق المتعدد الجنسيات الأهم في العالم وتبلغ موازنته ٥٧,٦ مليار درهم أوروبي (ECU).

ثانياً: المنظمات الأوروبية الأخرى

أ ـ اتحاد أوروبا الغربية (١٩٤٨) L'Union de l'Europe Occidentale (UEO)

يجتمع على مستوى وزراء الخارجية والدفاع والسفراء.

مهمته الدمج التدريجي لأوروبا في مجالي الأمن والدفاع.

ب ـ المجلس الأوروبي (١٩٤٩).

الدول التي أنشأته هي: بلجيكا ـ الدانمارك ـ فرنسا.

وهو يضم حالياً كذلك: بلغاريا ـ قبرص ـ المانيا ـ أسبانيا ـ فنلندا.

يجتمع مرتين سنوياً على مستوى وزراء الخارجية وشهريا على مستوى المندوبين.

هدفه تحقيق وحدة أكثر تقارباً بين الأعضاء بهدف التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ج ـ المجموعة الأوروبية للدفاع (١٩٥٠) La Communauté Européenne de Défense

غايتها خلق جيش أوروبي متعدد الجنسيات لأهداف دفاعية بالتنسيق مع حلف شمال الأطلسي.

د ـ المجموعة الأوروبية للفحم والفولاذ (١٩٥١)

La Communauté Européenne du Charbon et de l'Acier (CECA).

ولدت بموجب خطة شومان، وهدفها تقريب الدول المنظمة، وخلق سوق مشتركة والغاء الحواجز الجمركية.

هـ ـ الحلف البلقاني (١٩٥٤) Le Pacte Balkanique

اتفاق صداقة وتعاون بين دول البلقان (ألغي).

و ـ السوق الأوروبية للطاقة النووية (١٩٥٨)

La Communauté Européenne de l'Energie Atomique (EURATOM)

هدفها تنشيط تنمية الطاقة النووية في الدول الأعضاء، وتسهيل إقامة المصانع النووية المنتجة للطاقة.

ز ـ مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي:

La Conférence de la Sécurité et la Coopération en Europe (CSCE)

هدفه المساعدة والمشاورة مع أوروبا الشرقية.

ح ـ المجال الاقتصادي الأوروبي (١٩٩٢) L'Espace Economique Européenne يهدف الى تنمية المناطق الاوروبية المحتاجة الى التنمية.

ط ـ لجنة التعاون لأوروبا الوسطى (١٩٩٢)

Le Comité de Coopération de l'Europe Centrale (CCEC)

تعتبر أوروبا الوسطى منطقة تبادل حر.

ي ـ مجلس البلطيق (١٩٩٢) Le Conseil Baltique

يضم المانيا ـ الدانمارك ـ استونيا ـ فنلندا ـ لتونيا ـ لتوانيا ـ النروج ـ بولونيا ـ روسيا والسويد. ويهدف إلى التعاون والتنسيق بينها.

ك ـ المجلس الشمالي (١٩٩٢) Le Conseil Nordique

يضم كلاً من الدانمارك وفنلندا وايسلندا والنروج والسويد ويهدف إلى تنسيق القوانين بينها.

ل ـ البنك الأوروبي لإعادة التعمير والتنمية (١٩٩٣)

La Banque Européenne pour la Reconstruction et le Développement (BERD)

هدفه مساعدة دول أوروبا الشرقية للانتقال إلى اقتصاد السوق.

ملحق رقم ٢

بعض التواريـخ المهمة أوروبيا

ـ ١٩٤٣ ـ ١٩٥٧: تشرشل يقترح تشكيل مجلس أوروبي.

ـ ١٩٤٧: مشروع مارشال لإعادة اعمار أوروبا.

ـ ١٩٤٨: إقامة البنلوكس.

ـ ١٩٤٨: اتحاد أوروبا الغربية.

ـ ١٩٤٩: المجلس الأوروبي.

ـ ١٩٥٠: مشروع روبير شومان.

ـ ١٩٥٤: اتفاقيات باريس لإنشاء اتحاد أوروبا الغربية.

ـ ١٩٥٥: مؤتمر ميسينا لإنشاء سوق اقتصادي موسع.

ـ ١٩٥٦: مؤتمر تحضيري لإنشاء السوق الأوروبية المشتركة.

ـ ١٩٥٧/٣/٢٥: معاهدة روما التي أنشأت السوق الأوروبية.

ـ ٦١/٩/٨: بريطانـيا تتقدم بطلب انضمام إلى السوق.

ـ ٦٢/٧/٤: الرئيس كنـيدي يقترح حلفا أميركيا مع السوق.

ـ ٦٦/٣/١٠: فرنسا تنسحب من حلف شمال الأطلسي.

ـ ٦٧/٥/١١: بريطانـيا وايرلندا والدانمارك تتقدم بطلب انضمام إلى السوق.

ـ ٦٧/١٢/١٨: النروج تتقدم بطلب انتساب للسوق.

فيتو فرنسي على قبول عضوية بريطانيا.

ـ ٦٨/١/٧: تقرير الوحدة الجمركية بين الأعضاء بالنسبة لـلانتاج الزراعي.

ـ ٦٨/١٢/١٨: مخطط مارشال لتحديث أوروبا (١٠ سنوات).

ـ ٦٩/١٢/١: الرئيس بومبيدو يلغي الفيتو الفرنسي على انضمام بريطانيا إلى السوق.

ـ ٧٠/١٠/١٥: خطة ورنر لقيام وحدة اقتصادية ومالية وإيجاد عملة موحدة.

ـ ٧٢/٤/٢٤: تقرير النظام المالي الأوروبي.

ـ ٧٣/١/١: انضمام الدانمارك وبريطانيا وإيرلندا إلى السوق.

اتفاق تبادل تجاري حر مع النمسا والبرتغال والسويد وسويسرا.

ـ ٧٣/٣/٧: مؤتمر هلنسكي حول أمن أوروبا.

ـ ٧٤/١/١٩: فرنسا تنسحب من النظام المالي الأوروبي.

ـ ٧٦/٣/١٤: بدء مفاوضات الغات في طوكيو.

ـ ٧٧/١/٧: تقرير الوحدة الجمركية الأوروبية.

ـ ٧٩/٣/١٣: وضع النظام المالي الأوروبي موضع التنفيذ واعتماد عملة الدرهم الأوروبي الموحد European Currency Unit (ECU).

ـ ٨١/١/١: اليونان تدخل السوق.

ـ ٨٦/١/١١: اتخاذ قرار بانتساب البرتغال وأسبانيا إلى السوق.

ـ ٨٧/٧/٢٠: المغرب يطلب الانضمام إلى السوق. (لا ينال الموافقة).

ـ ٨٩/٦/١٥: انتخاب البرلمان الأوروبي.

ـ ٨٩/٧/١٧: النمسا تطلب رسمياً الانضمام إلى السوق.

ـ ٨٩/١٢/١٥: اتفاقية لومي.

ـ ٩٣/١/١: درس اندماج المانيا الموحدة في السوق على مراحل ثلاثة.

ـ ٩٣/٧/١: حرية انتقال الثروات.

ـ ١٩٩٥/١/٢: انضمام النمسا وفنلندا واسوج الى السوق الذي يصبح عدد أعضائه ١٥.

الأمن الاسرائيلي
في البعد الستراتيجي الجديد

العميد الركن نزار عبد القادر(*)

لو ألقينا نظرة فاحصة على واقع اليوم لرأينا اننا في وضع انتظار، وضع تغلب عليه صفة الدفاع عن المواقف الاساسية مع غلبة لصفة اللامنهجية. فالكل يمارس التكتية الضيقة القائمة على ردات الفعل على الاحداث والتطورات الجارية حولنا، وكل المناورات والجهود تتركز على تحديد قيمة الاضرار المرتقبة. قد لا تكون سياسة الانتظار هذه سيئة كما يعتقد البعض. لا بل يذهب بعض المحللين الى اعتبارها اقل سوءاً من السياسات التي دفعت اطرافاً عدة الى الركض واللهاث خلف قطار السلام الاسرائيلي، مدفوعين بالخوف من ان يفوتهم الركب. هكذا فعل الفلسطينيون والاردنيون وتحاول ان تلحق بهم دول عربية من خلال الاعتراف الديبلوماسي بدولة اسرائيل وانهاء حالة المقاطعة. ان المبادرات المتسرعة والتي لا تتصف بالحكمة قد تجر المنطقة الى مشاكل اشد تعقيداً من المشاكل التي خبرتها في الماضي، لأن هذه المبادرات الخاطئة قد حولت انتباه الشعوب العربية عن القضايا المركزية وفرضت حالاً من الضعف والتشرذم السياسي والعسكري. وتبدو الدول العربية في حاجة ماسة الى تكوين رؤية واضحة عن مجريات الامور في المرحلة المقبلة، وان تعد العدة لمواجهة التطورات من خلال: أولاً التعرف الى المشاكل الجديدة التي تتوقع حصولها بفعل المبادرات السلمية الخاطئة، وثانياً بناء وتركيز القوى اللازمة لمواجهة التطورات الجديدة التي قلما حملت ايجابيات، واستباق الامور وتجنب العاصفة. كما يقتضي ان تحافظ الدول المعنية مباشرة بالعملية السلمية على مقدار معين من السيطرة على الوضع، والمحافظة على الاتجاه العام

(*) قائد المدرسة الحربية، خريج كلية القيادة والأركان في الولايات المتحدة الاميركية، خريج كلية الحرب العليا في الولايات المتحدة، ماجستير في العلوم، دراسات عليا في الإدارة العامة، الملحق العسكري في لندن ٩١ ـ ٩٣.

انجازات السلام هشة وهي مهددة بالسقوط اذا لم تتراجع اسرائيل عن مواقفها المتعنتة تجاه الانسحاب من الاراضي العربية في الضفة الغربية والجولان وجنوب لبنان. ان الانجازات الحاصلة غير كافية لنزع فتيل التفجير الذي ما زالت تحمله القضية الفلسطينية. وما زالت هذه القضية غنية بمكامن القوة داخل الارض الفلسطينية وفي دول عربية عدة: لبنان، وسوريا، والاردن. وسيحمل التعنت الاسرائيلي حيال المستقبل السياسي للفلسطينيين وسياسة الارض التي تتبعها تجاه الضفة الغربية ومدينة القدس، المزيد من الشؤم على الشعب الفلسطيني والشعب الاسرائيلي على حد سواء لانه سيزيد من احتمالات اندلاع حروب جديدة في فلسطين وحولها[٢].

امام تعثر عملية السلام على المسارين السوري واللبناني، وامام فشل المباحثات الفلسطينية ـ الاسرائيلية في احراز اي تقدم لتنفيذ المرحلة الثانية من اتفاق اوسلو، ومع تزايد حدة المعارضة العربية لاتفاقات السلام، تبدو عملية السلام كأنها في مأزق يصعب الخروج منه على رغم الجهود الاميركية المكثفة.

لقد اثبتت القوى الاسلامية والوطنية انه من غير الممكن أن تقبل بانهاء الصراع التاريخي والحضاري بين العرب واسرائيل بمجرد توقيع الاتفاقات بين بعض الحكام العرب واسرائيل. فتحقيق السلام يحتاج الى اقناع اسرائيل بالانسحاب من الاراضي العربية وباعادة الحقوق الفلسطينية وبالتخلي عن سياسة الهيمنة والسيطرة والاستعمال الاحمق للقوة العسكرية.

ان التحركات الشعبية واعمال المقاومة داخل الاراضي المحتلة وفي جنوب لبنان، بالاضافة الى الموقف السوري واللبناني تجاه عملية السلام، تجعل كل الاتفاقات التي وقعت مهددة بالسقوط فتعود الاوضاع برمتها الى نقطة البداية مع كل ما يستجلب ذلك من اضطراب سياسي وتهديد أمني واسع يطال كلاً من اسرئيل ودول الطوق على حد سواء.

ولا يمكن ان ينتهي الصراع الحضاري بين العرب واسرائيل بين ليلة وضحاها. فالسلام يواجه دعوات التعصب والتطرف والكرادية في المجتمعات العربية وفي المجتمع الاسرائيلي. وما زالت هناك قوى عدة عربية واقليمية تشكل تهديداً للأمن الاسرائيلي ولمسيرة السلام. وسنحاول في هذا السياق التعرف الى هذه القوى المهددة للامن ولمسيرة السلام، من خلال تحليل المتغيرات الدولية والاقليمية وبروز قوى اسلامية اصولية تهدد اسرائيل وانظمة الحكم القائمة في الدول العربية على حد سواء، عارضين في الوقت نفسه الخلافات التاريخية بين دول المنطقة وسباق

---

(٢) BUNDY: Ibid.

التسلح في ما بينها والتهديد الناتج من تكديس السلاح وتخلف الانظمة الحاكمة في معالجة اوضاعها الداخلية عن طريق اعتماد خطط تنظيمية وتحديثية لمواجهة المستقبل. وكذلك سنحاول التعرف الى الموقف الاسرائيلي في مواجهة هذا التحدي وهذه التهديدات. كما اننا سنحاول في نهاية البحث استخراج بعض الاستنتاجات حيال النزعة الجديدة في السياسة الأمنية الاسرائيلية.

المتغيرات الاقليمية والدولية وتأثيرها على الأمن

تتكون المتغيرات الاساسية التي تؤثر على الأمن الوطني الاسرائيلي من القوى المناهضة لعملية السلام المنتشرة داخل المجتمع الاسرائيلي وتلك المنتشرة داخل المجتمعات العربية والاسلامية وخصوصاً في ايران. وسيتأثر الامن الإسرائيلي أيضاً بعامل قدرة اسرائيل على مواجهة قوى التهديد وردعها وخصوصاً بقدرتها على وضع خطة مواجهة متناسبة مع المتطلبات الستراتيجية للمواجهة وتنفيذ هذه الخطة. ويبدو واضحاً أن العالم العربي يتجه بخطى حثيثة نحو الاعتراف بدولة اسرائيل وبحقها بالوجود بعد توقيع اتفاق غزة ـ اريحا وبعد توقيع اتفاق السلام الاردني الاسرائيلي بتاريخ ٢٦/١٠/١٩٩٤، كما أن الجهود الديبلوماسية المكثفة التي تقوم بها الولايات المتحدة ومصر لتسهيل ايجاد الاسس العملية لوضع اتفاق سلام بين سوريا واسرائيل، تكاد تثمر وتفتح نافذة أمل لإحلال السلام في المنطقة.

وقد افادت اسرائيل من عملية السلام مع العرب منذ بدايتها في العام ١٩٧٨ عندما وقعت اتفاق السلام مع مصر، إذ خففت خطر المواجهة العسكرية مع الدول العربية بعدما حيّدت مصر في صورة نهائية عن الصراع العسكري. ثم جاء اتفاق اوسلو وتوقيع اتفاق غزة ـ اريحا في واشنطن، وعلى الرغم من كل المصاعب التي تواجهها سلطة الحكم الذاتي، وعلى الرغم من تعثر المفاوضات اللاحقة، جاءت لتدعم مشروعية السلام المصري ـ الاسرائيلي. وفي ٢٦/١٠/١٩٩٤، شهد العالم فصلاً جديداً في عملية السلام بين الاردن واسرائيل بعد توقيع اتفاق السلام بينهما. وقع الاتفاق كل من رئيس الوزراء الاردني ورئيس وزراء اسرائيل، كما وقعه الرئيس كلنتون بصفته شاهداً امام خمسة آلاف مدعو على رأسهم الملك حسين ورئيس دولة اسرائيل عزرا وايزمن. بالاضافة الى هذه الاختراقات الهامة في عملية السلام في الشرق الاوسط، اضعفت حرب الخليج العراق، كما اضعفت موقف الانظمة الاخرى التي كان يمكن ان تنضم الى العراق لتشكل جبهة رفض بهدف تخريب عملية السلام: تهميش دور ليبيا، وفرض العقوبات عليها بعد اتهامها بحادث تفجير لوكربي، والضغط على كل من اليمن وايران والسودان. كما ان السياسة الاميركية ركزت جهوداً جبارة لاقناع سوريا بجدوى المفاوضة بحثاً عن السلام، بعد أربعة اجتماعات قمة بين ثلاثة رؤساء اميركيين والرئيس حافظ

الاسد. كل هذه الاحداث والتطورات خفّفت امكان اجتماع العرب على رأي موحد من قضية النزاع العربي الاسرائيلي، كما ألغت كل إمكان لاحياء الجبهة الشرقية ساعدت مصر على عدم الاخلال باتفاق كامب دافيد، وتكون بذلك قد خفضت مخاطر المواجهة المسلحة الى ادنى الدرجات.

وتثير الخلافات المزمنة والحديثة بين دول الشرق الاوسط، من دون شك، قلق الاطراف المختلفين كما تثير قلق الامم المتحدة. وليس هناك اكثر دلالة على النزعات المهددة للاستقرار اكثر من سياسة التسلح الكثيف التي تتبعها دول المنطقة المختلفة، اذ نرى ان هناك تسابقاً لعقد صفقات الاسلحة التقليدية المتطورة واقتناء اعداد من الاسلحة البعيدة المدى كالصواريخ الباليستية، كما نشهد عند بعض الدول سعياً حثيثاً الى تطوير اسلحة كيميائية ونووية واقتنائها.

وسيخلق التأخر في احراز تقدم في مباحثات السلام بين سوريا ولبنان، من جهة، واسرائيل، من جهة ثانية، تعقيدات سياسية وعسكرية وخصوصاً على الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية بحيث تتكثف عمليات المقاومة اللبنانية والتي ستدفع اسرائيل الى القيام بردود فعل عسكرية مدمرة، إذ يحتمل أن تتوسع دائرة العنف لتشمل عمليات عسكرية محدودة بين الجيش الاسرائيلي والجيشين السوري واللبناني. وفي حال حدوث مواجهة محدودة من هذا النوع، قد تزيد منافعها السياسية على مضارها لعسكرية. وقد لا تزعج تطورات أمنية من هذا الطراز بعض الاطراف الدولية والاقليمية، حتى ان الولايات المتحدة قد تجد فيها عنصراً مشجعاً وايجابياً لدفع كل الاطراف الى تسريع عملية السلام.

لقد وجد العرب والاميركيون بعد حرب تشرين في العام ١٩٧٣ أن أهم الامثولات السياسية المستقاة من الحرب هي ان العمليات العسكرية المحدودة تساعد في تحريك الوضع السياسي من حال الجمود الكامل وخلق قوى ديناميكية تسعى الى ايجاد ظروف ايجابية تدفع نحو السلام. صحيح أن هناك تنسيقاً كاملاً بين القيادة الاميركية والقيادة الاسرائيلية في عملية السلام، لا بل يبدو ان الموقف الاميركي الذي اعلنه كلنتون في الكنيست الاسرائيلي إبان زيارته الاخيرة الى الشرق الاوسط يندمج بالموقف الاسرائيلي وقد يكون اكثر تشدداً في بعض وجوهه؛ لكن ذلك لم يعرقل جهود الرئيس كلنتون لتحقيق اختراق في عملية السلام على الجبهة السورية التي تعتبر المفتاح الاساسي للسلام الشامل. ولذلك قد ترى الولايات المتحدة في تسخين محدود للوضع العسكري بما فيه وقوع بعض الصواريخ على اهداف داخل اسرائيل، من العناصر الايجابية للضغط على الموقف الاسرائيلي وخصوصاً الرأي العام الاسرائيلي لتسهيل اتخاذ موقف واضح من قضية الغاء

قرار ضم الجولان واعلان نوايا بالاستعداد للانسحاب الشامل من الجولان وجنوب لبنان. ان الضمانات الاميركية التي اعطيت للاطراف العرب عندما دعوا الى الاشتراك في مؤتمر مدريد للسلام، قد حددت ان البحث عن السلام يجري على اساس القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ الصادرين عن الامم المتحدة، وهذا يعني ان اسرائيل يجب ان تكون مستعدة للانسحاب عسكرياً من الجولان الى حدودها الدولية، أي حدود ما قبل حزيران ١٩٦٧، وبالتالي ان عليها كخطوة اولى ان تلغي قرار ضم الجولان الذي اتخذه الكنيست في العام ١٩٨١. ويبدو ان الخطة التي تحاول الولايات المتحدة ان تشجع الطرفين السوري والاسرائيلي للتوصل اليها، تستوحي خطوطها من الاتفاقات المعقودة في العام ١٩٧٨ في كامب دافيد بين الرئيس الاميركي جيمي كارتر ورئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن والرئيس المصري انور السادات، اذ ابرمت كل من مصر واسرائيل بعد سنة من الاتفاق معاهدة السلام التي ادت الى انسحاب الاسرائيليين نهائياً من الاراضي المصرية وتطبيع العلاقات والتبادل الديبلوماسي بين البلدين.

لكن في ضوء نتائج انتخابات الكونغرس الاميركي الاخيرة، بدأ الاسرائيليون بالتشكيك في قدرات الرئيس كلنتون على الوفاء بتعهداته ودعمه للموقف الاسرائيلي في مباحثات السلام مع سوريا او في زيادة المساعدات المباشرة لاسرائيل أو حتى الوفاء بتعهداته بارسال قوات فصل اميركية الى الجولان في حال التوصل الى اتفاق سوري ـ اسرائيلي. فقد ذكرت جريدة معاريف الاسرائيلية ان وزير الخارجية شيمون بيريز تسلم في ضوء الانتخابات الاميركية التي انتهت بسيطرة الجمهوريين على مجلس الكونغرس، مذكرة من شعبة التخطيط في وزارته تقول: «ان الانتخابات تمثل تحولاً تاريخياً رفع الجمهوريين الى مرتبة حزب الغالبية في الولايات المتحدة. ومع ان الرئيس كلنتون اصبح الآن بطة عرجاء (اي رئيساً عاجزاً) فمن المبكر دفنه سياسياً، ولكن قدرته قد اصبحت محدودة جداً ولا يمكن بالتالي الأخذ بجدية دعمه واعتماد تصريحاته بالاستعداد لمساعدة اسرائيل والوعود بأخذ كل الاجراءات لتقليل الاخطار على امن اسرائيل وحماية انجازات السلام، ويجب درس هذه التصريحات في ضوء موقف مجلسي الكونغرس»[٣]. كما نبهت المذكرة التي اعدتها وزارة الخارجية الاسرائيلية، الى قدرات الجمهوريين على التصدي لأي مبادرة يتخذها كلنتون في مجال الشؤون الخارجية، ويجب ان يؤخذ في الاعتبار ان موقف الجمهوريين يختلف عن موقف الديمقراطيين، وهم بالتالي قد يعارضون ارسال قوات فصل اميركية الى الجولان، كما انهم قد يعارضون زيادة المساعدات العامة والمساعدات العسكرية لاسرائيل

(٣) جريدة معاريف الاسرائيلية في عددها الصادر في ٢ ايلول ١٩٩٤.

والتـي كانت تلح هذه للحصول عليها في حال التوصل الى سلام مع سوريا[٤]. لذلك يمكن الاستنتاج ان بعض الجهات النافذة في اسرائيل قد بدأت بدرس امكان حصول تبدل في العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية، وان ذلك قد يؤدي الى تأزم في هذه العلاقات ويُرتِّب نتائج سيئة على مسيرة السلام. ويعتقد البعض بأن تأزم العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية قد يدفع سوريا وبدعم مصري الى القيام باختراقات امنية في الجولان وجنوب لبنان، وقد يتطور الاختراق الامني الى عمليات واسعة تهدد الاستقرار بكامله كما تهدد انجازات السلام التي تحققت.

ويعتقد بعض المفكرين الستراتيجيين الاسرائيليين انه بالاضافة الى النتائج المترتبة على امكان تأزم العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية، ما زال من المبكر جداً اعتبار عملية السلام من الثوابت التي لا يمكن تغييرها وتوجيهها في الاتجاه المعاكس[٥]. ومن الملفت للانتباه انه بعد ستة عشر عاماً على توقيع اتفاق كامب دافيد، ما زال الكثيرون من المفكرين المصريين وبينهم بعض الضباط العامين في الجيش المصري، يرون في دولة اسرائيل عدواً محتملاً وهم يدعون الدولة لتطوير قدرات القوات المسلحة المصرية تحضيراً لاحتواء القوة والنفوذ الاسرائيليين. كما يبدو واضحاً ان القوة العسكرية الاسرائيلية قد اصبحت من الهواجس المصرية الدائمة في المرحلة الحاضرة، وليس أدل على ذلك من الالحاح المصري على وجوب بحث موضوع اخضاع البرنامج النووي الاسرائيلي للتفتيش الدولي، وإلا فان مصر لن توقع على اتفاقات عدم انتشار الاسلحة الكيميائية، كما أنها وعدت بالتخلي عن تعهداتها حيال انتشار الاسلحة النووية عندما تنتهي مدة الاتفاق الذي وقعت عليه[٦].

كما ان التوقعات التي بناها حزب العمل الاسرائيلي والاطراف العرب الذين انضموا الى مؤتمر مدريد أو تلك الدول المؤيدة للسياسة الاميركية، حيال قدرة الولايات المتحدة على فرض حل عادل وشامل في منطقة الشرق الاوسط، كانت على درجة عالية من التفاؤل غير المبرر وغير الواقعي. صحيح ان الولايات المتحدة اصبحت القوة العظمى الوحيدة في العالم وانها تتمتع بنفوذ ضخم وخصوصاً في منطقة الشرق الأوسط، لكن هناك حقيقة يجب الاعتراف بها وهي أن الولايات المتحدة لا تملك الرغبة والارادة في القيام بدور الشرطي العالمي أو بفرض حلف يأخذ اشكال الامبريالية الاوروبية او السوفياتية البائدة، مع الاخذ في الاعتبار

---

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابرز هؤلاء المفكرين افرايم انبار، استاذ في العلوم السياسية ورئيس مركز بيغن ـ السادات للدراسات الستراتيجية. وقد عبر عن موقفه هذا في مقالات عدة كان آخرها ما نشرته مجلة جاينز في آب ١٩٩٤.

(٦) جريدة الانوار في عددها الصادر في ١٩٩٤/١٢/٨.

الواقع العسكري الاميركي الجديد وتناقص قدرات الولايات المتحدة على التدخل عسكرياً في شكل فاعل في مسارح عمليات بعيدة كالشرق الاوسط. ويبدو واضحاً ان المواقف الاسرائيلية الاخيرة التي تدل على التصلب والتعنت في التفاوض مع سوريا ولبنان، تنطلق من استيعاب القادة الاسرائيليين للتطورات الجديدة في السياسة الاميركية، مع الاخذ في الاعتبار ان المكاسب التي تحققت في مسيرة السلام لم تأت نتيجةً مباشرة للجهود الاميركية وخصوصاً اتفاق كامب دافيد واتفاق غزة ـ اريحا، وانما جاءت من خلال جهود اسرائيلية وبواسطة طرف ثالث كالمغرب او النروج. ولذلك يأخذ الموقف الاسرائيلي الجديد بنظرية المحافظة على المكاسب الراهنة وعدم التنازل عن أي منها في انتظار ان تنضج الامور وتظهر الاستعدادات السورية واللبنانية للبحث جدياً في السلام، عن طريق التنازل عن المواقف الراهنة واظهار الليونة اللازمة للاجتماع بالمسؤولين الاسرائيليين على اعلى المستويات.

التحدي والخطر الاصولي

ان اهم أسباب نشوء الاصولية الاسلامية ونموها تكمن في الغزو الثقافي، الاجتماعي، والحضاري الغربي للعالم الاسلامي والذي بدأ في اواخر القرن التاسع عشر وبلغ اوجه في الفترة بين ١٩٤٥ و ١٩٨٠. وكانت الهجرة اليهودية الى فلسطين ومن ثم اقامة دولة اسرائيل وما استتبع ذلك من نكسات خلخلت ركائز كل الانظمة العربية واتعبت بعض الانظمة الاسلامية، من الاسباب المباشرة لتطور الاصولية الاسلامية وبروزها في مواجهة الاصولية الاسرائيلية والعدوانية الغربية للاسلام ومواجهة النكسات السياسية والاجتماعية التي سببتها الهزائم العسكرية المتتالية التي الحقتها اسرائيل بالعرب. وتضاعفت سرعة نمو الحركات الاصولية نتيجةً حتمية لفشل فكرة القومية العربية في تحقيق اي انجاز يذكر وسقوط الحركات السياسية التقدمية واليسارية وعجزها عن تحقيق أية نتيجة ايجابية على الصعيد السياسي والثقافي والاجتماعي.

لذلك يمكن اعتبار الحركات الاصولية الاسلامية أخطر نزعة تهدد منطقة الشرق الاوسط وجنوب غرب آسيا من موريتانيا حتى افغانستان. وفي ظل تدهور الحال الاقتصادية في معظم الدول العربية، وفي ظل الانقسامات العربية حيال مسائل عدة بما فيها عملية السلام مع اسرائيل، يأخذ انبعاث الحركات الاسلامية وجهين خطرين: الأول تهديد الانظمة العربية واضعافها بشتى الوسائل للاستيلاء على الحكم فيها على غرار ما حدث في ايران، والثاني اعتماد السلاح والعنف وسيلة للتغيير الداخلي كما يحدث في دول عربية كمصر والجزائر، أو كشكل من اشكال الحرب الطويلة الأمد لمواجهة الخطر الاسرائيلي وتخريب عملية السلام. وتشكل

الحركات الاصولية والروح الهجومية التي تغلب على عملها ونشاطها، خطراً شديداً قد يدفع بعض القادة العرب الى التفكير جدياً بتوحيد مواقفهم وتنسيق جهودهم مع المواقف والجهود الاسرائيلية لمواجهة الخطر الاصولي. ولا تخفي معظم الحركات الاصولية الاسلامية عداءها لاسرائيل ولا تُموِّه اطلاقاً اهدافها في السعي الى نكران حق اسرائيل بالوجود، لذلك نرى ان حركات اصولية عدة تنسق جهودها لمتابعة العمل العسكري ضد اسرائيل وتخريب عملية السلام وخصوصاً الاتفاقات والمعاهدات التي ابرمت بين اسرائيل وكل من مصر والاردن والفلسطينيين. وتكثف الحركات الاسلامية جهدها وعملها لتخريب الاتفاقات والمعاهدات المعقودة لاعتقادها بأن حالة السلام قد تضعف نموها وانتشارها الذي يقويه في شكل خاص وجود عدو خارجي كاسرائيل. ولقد اظهرت الحركات الاسلامية في كل من الاردن ومصر وفلسطين ولبنان، ان طريق السلام ما زالت طويلة وان الانجازات التي تحققت ما زالت هشة ويمكن تخريبها. وهي وعدت في اكثر من مناسبة بمتابعة معارضة مسيرة السلام عن طريق العمل السياسي والعسكري بما في ذلك العمليات التخريبية ضد المصالح الاسرائيلية في الخارج.

وفي الوقت الحاضر، لا يرى المخططون الاسرائيليون في النظام الاسلامي القائم في ايران أو النظام القائم في السودان، تهديداً مباشراً لأمن اسرائيل، الا في حال اندلاع حرب بين اسرائيل ودولة عربية، اذ يمكن لهاتين الدولتين ارسال وحدات عسكرية للمشاركة في القتال وتقديم دعم لوجستي مهم. ومن الطبيعي جداً ان يتهم قادة اسرائيل ايران بدعم الحركات والاحزاب الاصولية في انحاء العالم العربي والتي هي في حال عداء دائم للدولة العبرية. فالحكومة الايرانية تقدم الدعم الكامل للحركات الاسلامية التي هي في حال حرب مع اسرائيل في كل من لبنان والاراضي المحتلة. ويشمل الدعم الايراني تقديم المال والسلاح وتدريب الكادرات والمساهمة، بالنسبة الى حزب الله، في تقديم بعض القياديين وبعض المستشارين العسكريين. ويبدو أن ايران ساهمت مباشرة في تدريب وحدات حزب الله للقيام بحرب عصابات في جنوب لبنان ضد القوات الاسرائيلية والميليشيات العميلة المتحالفة معها والمسمّاة جيش لبنان الجنوبي.

وتحاول اسرائيل ان تطلق على عمليات المقاومة الاسلامية في جنوب لبنان صفة الارهاب الذي يهدف الى قتل المدنيين، لكن حججها الاسرائيلية فشلت في اقناع الرأي العام العالمي بما فيه الحكومة الاميركية بهذا المنطق. فقد اعطت الولايات المتحدة الدليل على عدم الاخذ بالدعاية الاسرائيلية التي تنعت المقاومة الاسلامية بالارهاب بقبولها التدخل سياسياً لتحقيق ما يشبه الهدنة الموقتة في جنوب لبنان بين المقاومة الاسلامية واسرائيل.

وازدادت في الفترة الأخيرة خطورة الوضع على أمن اسرائيل من جراء عمل المقاومة الاسلامية التي كثفت عملياتها العسكرية في جنوب لبنان مستفيدة من السياق السياسي والعسكري القائم على العناصر الآتية:

١ ـ الموقف العام اللبناني الداعم لعمل المقاومة الاسلامية والمتمثل في موقف الدولة اللبنانية وقواها السياسية والعسكرية الكاملة، وبالموقف الشعبي، اذ نشهد توافقاً لبنانياً شبه كامل على ضرورة دعم المقاومة في عملياتها.

٢ ـ الموقف السوري الداعم للمقاومة الاسلامية والذي هو في كل حال دعم معنوي ومادي وسياسي وبتنسيق كامل ودائم مع كل القوى التي ترى في عمل المقاومة عملاً مشروعاً يستأهل الدعم والتشجيع.

٣ ـ حصول حزب الله على صواريخ موجهة مضادة للمدرعات تسمح بزيادة عدد الاصابات في كل من الجيش الاسرائيلي وجيش لبنان الجنوبي، كما أن التموين الايراني لحزب الله بأعداد كبيرة من صواريخ الكاتيوشا التي تستطيع الوصول الى عدد من المدن والمستعمرات في شمال اسرائيل، يشكل تهديداً كبيراً ودائماً لأمن هذه الأخيرة.

٤ ـ مستوى التدريب العالي والروح القتالية الهجومية التي برهن عليها مقاتلو حزب الله، والتي ثبتت من خلال الهجمات المتكررة على مراكز الجيش الاسرائيلي المحصنة وانزال خسائر فادحة فيها، والتي انتهت احداها باحتلال المركز وفرار الجنود الاسرائيليين، اذ فتح تحقيق في اسرائيل في نتائج بعض المعارك واتهم بعض القادة بالحاق العار باسرائيل وعوقبوا نتيجة ذلك.

٥ ـ التيار الشعبي الكبير الذي يؤيد الحركات الاصولية في معارضة خطة السلام داخل الاراضي المحتلة وفي الدول العربية وخصوصاً دول الطوق.

تأثير العامل الاقتصادي والاجتماعي

قد لا تساعد افضل النتائج التي يمكن ان تنتج عن مباحثات السلام لانقاذ اقتصاد الدول العربية من الحالة المتردية التي يتخبط فيها وخصوصاً اقتصاد كل من مصر والاردن والاراضي المحتلة ولبنان. كما يبدو أن القيادات العربية عاجزة عن اجراء عملية التحديث والتنظيم اللازمة لتطوير اقتصادها. حتى أن الدول النفطية التي كانت تنعم حتى سنة ١٩٨٥ باقتصاد قوي قائم على فائض مالي من عائدات النفط، بدأت تواجه تناقصاً في ميزانها المالي وعجزاً في موازناتها الرسمية. فبعد احتلال العراق للكويت، تأثر اقتصاد معظم دول الخليج بنتائج الحرب، وضاع معظم الثروة الكويتية الموظفة في الخارج. وتواجه الكويت عجزاً كبيراً بفعل برامج

التسلح التي اعتمدتها لاعادة بناء قواتها المسلحة. ويتخبط الاقتصاد المصري، ويواجه ميزان المدفوعات فيه عجزاً كبيراً على رغم المساعدات التي تتدفق من دول الخليج ومن الولايات المتحدة وعلى رغم المساعدات التي يتلقاها تعويضاً عن اضرار حرب الخليج. وعلى رغم الغاء قسم كبير من ديون مصر الخارجية.

فنسبة البطالة في مصر تتعدى ٢٠ في المئة من القوة العاملة، وقد تصل بين المتعلمين الى ٣٠ في المئة. ويعتبر تردي الحال الاقتصادية وعامل الفقر والبطالة، احد الاسباب المباشرة للخلل الامني وتفشي الفكر الاصولي بين الطبقات الشعبية، إذ أن الكثافة والتكاثر السكاني يحولان دون القيام بأي معالجة فاعلة.

أما الاقتصاد الاردني، فانه يواجه صعوبات عدة بسبب نقص الواردات التي كانت تأتيه من فرص العمل التي كانت مفتوحة للمواطنين الاردنيين والشركات الاردنية في دول الخليج والمساعدات المباشرة التي كانت تتلقاها الحكومة الاردنية من الحكومات الخليجية.

أما الاقتصاد العراقي، فانه يواجه حالاً من العجز والشلل الكاملين من جراء حرب الخليج وقرارات المقاطعة والعزل الدولي التي فرضتها الولايات المتحدة في مجلس الامن وما زالت متمسكة بها على رغم معارضة كل من روسيا وفرنسا اللتين ابدتا رغبتهما في رفع قرارات المقاطعة الاقتصادية. ويواجه العراق مشاكل جمة أقلها تأمين المواد الغذائية وحتى الأدوية الضرورية للشعب.

أما لبنان فانه ما زال يواجه حال الركود الاقتصادي مع استمرار فقدان كل الخدمات الاساسية الضرورية التي دمرتها الحرب في شكل شبه كامل. كما يواجه لبنان صعوبات في تأمين الاموال اللازمة، في غياب المساعدات العربية والدولية، لاطلاق ورشة الاعمار والبناء التي وعدت بها الحكومة اللبنانية كجزء أساسي من برنامج المصالحة الذي نص عليه اتفاق الطائف.

ويلعب عنصر التزايد السكاني، وخصوصاً في كل من مصر والعراق وايران مقروناً بالصعوبات الاقتصادية التي تواجهها هذه الدول، عنصراً يمنع امكان اجراء اي عملية تحديث أو تنظيم لمساعدة الاقتصاد على النهوض.

ان حال الركود الاقتصادي التي تسيطر على اقتصاد معظم دول الشرق الاوسط، وعجز الحكومات المختلفة عن وضع خطط تحديثية وتنظيمية لمواجهة حال البطالة وتأمين الحاجات والخدمات الضرورية للشعوب، ومع ازدياد حال الفقر بفعل التكاثر السكاني غير المنظم، كل هذه العوامل مجتمعة ستضعف أنظمة الحكم في الدول العربية وفي ايران. وستفقد الحكومات القدرة على السيطرة وضبط حال المعاناة الشعبية، إذ يبدو واضحاً من التطورات الأخيرة في الجزائر ومصر أن

المبادرة ستنتقل تدريجياً الى أيدي القيادات الاسلامية الأصولية والتي تعتبر أن السلم يشكل خيانة وطنية وخروجاً على الدين لان اسرائيل هي الشيطان.

كما نلاحظ أن هناك حال المعاناة السياسية بسبب الكبت السياسي في معظم دول الشرق الاوسط، وخصوصاً في الدول الخليجية والعراق، والقائمة على شعور شعوب هذه الدول بالحاجة الماسة الى اجراء عملية تحديث جذري في أنظمة الحكم وخصوصاً لجهة اطلاق الحريات وصيانة حقوق الشعوب والافراد واقامة حكم على أساس التمثيل الشعبي واعتماد انظمة أكثر ديموقراطية لتوسيع قاعدة الحكم. وتشكل حال المعاناة السياسية هذه حال لا توازن شعبي وسياسي يهدد باشاعة جو من فقدان الثقة بين الشعوب والحكام ويهدد الاستقرار الداخلي في عدد من الدول. وهنا لا بد من التساؤل عن امكان انهيار احد الانظمة العربية او انظمة عدة في ظل عدم توافر القدرة على معالجة الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي واستيلاء الاحزاب الاسلامية والحركات الاصولية على الحكم.

ويمكن ابداء بعض الملاحظات أو التحذيرات لجهة ما يدور في بعض الدول العربية: في الجزائر تفجرت ثورة اسلامية وستصعب السيطرة على الاوضاع الا اذا قرر الحكم التخلي عن السلطة من خلال اجراء انتخابات عامة يفوز فيها، من دون شك، الاسلاميون. في الاردن، وعلى الرغم من معاهدة السلام مع اسرائيل، ما زال الحكم يرزح تحت تهديد الاكثرية الفلسطينية التي تؤلف غالبية الشعب الاردني، بالاضافة الى مجموعة من الحركات الاسلامية الاصولية تعارض السلام مع اسرائيل، كما تعارض السياسة الاردنية والملكية الهاشمية في صورة عامة. وفي مصر، اندلعت منذ سنة ونصف مواجهة متواصلة ومفتوحة بين الحركات الاصولية والدولة وهي مرشحة للاستمرار. وفي المناسبة، لا يمكن تناسي العمل العسكري الناشط للجماعات الاسلامية، واغتيال الرئيس السادات وشخصيات حكومية هامة، ومحاولات اغتيال مسؤولين على اعلى المستويات في الحكومة القائمة. وفي دول الخليج، لا يمكن تجاهل ارتفاع اصوات المعارضة والحركات الاسلامية المتطرفة في كل من السعودية والكويت والبحرين والعراق وغيرها، وكلها تسعى الى اسقاط انظمة الحكم. وتشكل الحركات الاصولية في كل من لبنان والاراضي الفلسطينية، حالاً خاصة تحتدم فيها المواجهة مع قوات الاحتلال الاسرائيلي. أما بالنسبة الى حماس فتحتدم المواجهة بينها وبين السلطة الفلسطينية في محاولة قوية لتخريب الاتفاقات المعقودة بين منظمة التحرير واسرائيل استناداً الى اتفاق اوسلو. واذا كان لا بد من البحث عن استنتاج جزئي، فيبدو ان هناك امكانات محتملة لتخريب عملية السلام على اكثر من جبهة، ويبدو ان توقف قطار السلام من خلال التعنت الاسرائيلي قد يسهل للمعارضين في كل من الحركات الاصولية وبعض الأحزاب الوطنية تغيير اتجاهه

ودفعه في الاتجاه المعاكس للمسيرة السلمية، وبالتالي تخريب الانجازات التي تحققت ودفع المنطقة الى مواجهة عشر سنوات اضافية من الاضطراب مع امكان وقوع مواجهة عسكرية جديدة.

سباق التسلح الاقليمي

منذ وقوع الغزو العراقي للكويت في آب ١٩٩٠، راحت الموازنات العسكرية لدول الشرق الاوسط، في صورة عامة، ودول الخليج، في صورة خاصة، بالنمو في شكل مضطرد بعدما شهدت تناقصاً خلال السنوات الخمس التي سبقت الغزو العراقي. وساعد في تطوير ارقام التكاليف العسكرية في دول الخليج، توافر اعداد كبيرة من أنظمة الاسلحة المتطورة لدى شركات صناعة الاسلحة في الدول الغربية وروسيا. وقد دفعت حاجة روسيا وتشيكيا وبولونيا الى العملة الصعبة، الى اطلاق عمليات بيع نماذج الاسلحة المتطورة للدول المختلفة القادرة على الدفع. كما أن المزاحمة بين الدول الغربية للحصول على عقود بعشرات المليارات من الدولارات لدعم صناعاتها الدفاعية ولدعم اقتصادها للخروج من حال الركود الاقتصادي، زاد من نزعة سباق التسلح في المنطقة وفي وجه التحديد بين بعض الدول العربية واسرائيل وخصوصاً بين دول مجلس التعاون الخليجي وايران، تحسباً لخطر السياسات العراقية الطائشة والخلافات التاريخية في ما بينها.

لقد كان من الطبيعي، في ظل القصور الدولي في الضغط على اسرائيل لتنفيذ القرارين ٢٤٢ و٣٣٨، ان تسعى سوريا الى زيادة قدراتها العسكرية بهدف إقامة نوع من التوازن الستراتيجي مع اسرائيل(٧). وقد استفادت سوريا من الدعم الخليجي، وخصوصاً المساعدة السعودية التي حصلت عليها بعد حرب الخليج، لدعم برنامج التسلح الذي اطلقته قبل خمس سنوات. فاشترت مقاتلات متطورة من طراز ميغ ٢٩ من روسيا ودبابات متطورة من طراز ت ٧٢ من تشيكيا ومدافع ميدان ذاتية الحركة وصواريخ متوسطة المدى من طراز سكود ـ ب وث من كوريا الشمالية(٨). ويبدو الآن ان الموقف السياسي السوري المدعوم بقدرات دفاعية متطورة، دفع شيمون بيريز الى الاعتراف اثناء تسلمه جائزة نوبل للسلام بأن قيمة الارض قد تضاءلت في عصر الصواريخ البعيدة المدى. «وكان بهذا الكلام

---

(٧) صرح المسؤولون السوريون عن رغبتهم في تحقيق توازن عسكري مع اسرائيل. وكان يُفهم من ذلك ان سوريا تسعى الى دفع اسرائيل الى موقف متعقل لقبول التفاوض على مبدأ مقايضة الارض بالسلام درءاً لوقوع مواجهات عسكرية ممكنة. ولقد صرح العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري في خطب علنية القاها بمناسبات عسكرية عن رغبة سوريا في التوصل الى توازن عسكري ستراتيجي مع اسرائيل.

(٨) مجلة جاينز الاسبوعية في عددها ٩٤/٧/٣٠، حددت الدعم المالي السعودي بعد حرب الخليج بمليارَي دولار.

يحاول انتقاد العسكريين الاسرائيليين الذين يطالبون بترتيبات أمنية يصعب قبولها لأنها تصل الى مداخل دمشق». ولا يمكن اعتبار تصريح بيريز هذا قاعدة للمنطق الامني الاسرائيلي في الجولان وفي مواجهة القوة السورية، اذ تضاعفت قيمة العقيدة الامنية «بسبب وجود جيل من العسكريين يتحكم بالقرارات السياسية إن في حزب العمل أو في تجمع ليكود. وينتمي اسحق رابين الى المدرسة نفسها التي ينتمي اليها اربيل شارون»(٩).

ان مسؤولية الجيش الاسرائيلي في صنع القرارات السياسية الهامة، هي مسؤولية مباشرة ودائمة، اذ تتركز على قدرات هذا الجيش ومبادراته، استمرارية دولة اسرائيل وبقاؤها، لذلك نرى ان الشروط التي تضعها المؤسسة العسكرية، تتقدم على المعطيات الاخرى في مراحل السلام المختلفة. ويدفعنا هذا الاستنتاج الى نعت سياسة التسلح التي اتبعتها سوريا في التسعينات بالواقعية لانها بُنيت على فكر سياسي واع وعلى رؤية ستراتيجية بعيدة وواضحة. وافضل دليل على النتائج المترتبة على الموقف السياسي السوري والرؤية الستراتيجية، هو ما صرح به الجنرال ايهود باراك رئيس الاركان الاسرائيلي السابق لمجلة «يواس نيوز اند وورلد ريبورت»، ان من المحتمل جداً حصول مواجهة جديدة مع سوريا اذا طالت كثيراً حال الجمود في المفاوضات. مضيفاً ان ذلك لا يعني أن الوضع من دون مخرج، أو ان موعداً حدد للمواجهة. مذكراً بأن سوريا تملك ٤٠٠٠ دبابة و٧٠٠ طائرة مقاتلة وصواريخ سكود ب وث مزودة برؤوس كيماوية أكثر تطوراً من تلك التي يملكها العراقيون، وتستطيع كلها ضرب اسرائيل(١٠).

وتشعر دول مجلس التعاون الخليجي: المملكة العربية السعودية، الكويت، الامارات العربية المتحدة، عمان، البحرين وقطر، بانها معرضة للاخطار، ولذلك قررت بعد غزو الكويت مضاعفة حجم قواتها المسلحة وقدراتها. ولكن على رغم التهديدات التي تواجهها، فشلت في اقامة تعاون دفاعي فاعل من خلال انشاء برنامج دفاعي شامل وتنظيمه أو من خلال تطبيق اتفاق دمشق الذي يضم بالاضافة الى دول المجلس كلاً من سوريا ومصر. أمّا البرنامج الدفاعي المشترك الذي اطلقته منذ سنة تقريباً تحت اسم «درع الجزيرة»، فيتمحور حول قوة مؤلفة من ستة آلاف رجل لا تفي بأي من الاغراض الدفاعية الجزئية (قوات فصل مثلاً لمنع نشوب نزاع حدودي في ما بينها).

ولم يتوصل اجتماع القمة الخليجية في البحرين الذي انهى أعماله في ٢١/١٢/

(٩) سليم نصار، حرب عض الاصابع بين الاسد ورابين، جريدة الحياة في عدد ١٧/١٢/٩٤.
(١٠) جريدة النهار في عددها الصادر في ٢٠/١٢/٩٤.

١٩٩٤ الى مقررات هامة على صعيد ايجاد نظام دفاعي، كما انه لم يتوصل الى حل الخلافات الحدودية وحال التناحر بين الحكام. وسيستمر سعي كل دولة في ظل هذه الظروف الى استرضاء الدول الكبرى بما فيها روسيا، لشراء كميات ضخمة من الاسلحة. فالمملكة العربية السعودية تتابع برنامج التسلح الكثيف منذ العام ١٩٨٨، وقد بلغ حجم مشترياتها بين ١٩٨٨ و١٩٩٢ استناداً الى مؤسسة الابحاث التابعة للكونغرس الاميركي، ٣٠ في المئة من أصل ١٢٠ مليار دولاراً صرفتها الدول النامية على التسلح. وقد بلغت ضخامة الانفاق العسكري السعودي بعد حرب الخليج ارقاماً مذهلة، إذ قاربت مشترياتها من الولايات المتحدة ٣٠ مليار دولار بالاضافة الى برنامج اليمامة(١) واليمامة(٢) حيث تقايض السعودية السلاح البريطاني بالنفط السعودي بمعدل ٥٠٠ الف برميل من النفط الخام يومياً لتسديد صفقة تتعدى ٢٠ مليار جنيه استرليني(١١).

كذلك عقدت السعودية صفقة عسكرية مع فرنسا بقيمة مليار ونصف مليار دولار اميركي. كما تابعت مصر، وعلى رغم توقيع معاهدة سلام مع اسرائيل، تحديث قواتها المسلحة على اختلاف انواعها فانفقت في ذلك ما يزيد على اربعة مليارات دولار. وقد يكون من المفيد أن نذكّر بشكل سريع بأرقام المشتريات العسكرية لدول الشرق الأوسط بين ١٩٨٩ و١٩٩٣ والتي أوردها تقرير غربي على الشكل الآتي: انفق العراق ١٦ مليار دولاراً، وانفقت اسرائيل ١٥ مليار دولاراً، وانفقت ايران عشرة مليارات دولار، وانفقت سوريا ستة مليارات دولار، وانفقت مصر اربعة مليارات دولار(١٢).

وبعدما استنفذت الحروب والصراعات في منطقة الشرق الاوسط وخصوصاً الحروب العربية الاسرائيلية الأربع والحرب العراقية ـ الايرانية وحرب الخليج، الموارد الرئيسية لدول المنطقة على مدى نصف قرن، كان من المفروض أن يلتفت الحكام الى وقف هدر فرص التقدم وتبديد الثروات الطائلة على السلاح والاعداد للحروب المستقبلية. ولكن يبدو واضحاً ان رؤساء هذه الدول اخضعوا في منطقهم الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية للاعتبارات السياسية والعسكرية. فاذا عدنا الى بحث أسباب هذا الواقع السائد وجذوره حتى في ظل مباحثات السلام العربية ـ الاسرائيلية، نرى أن الاكثرية من العرب والمسلمين تشك في نوايا الدولة العبرية، وان هناك أكثرية يهودية في اسرائيل لا تثق بالدول والشعوب العربية، حتى تلك التي وقعت معها اتفاقات سلام. ويبدو أن عملية الشك وعدم الثقة متغلغلة في

---

(١١) مجلة جاينز الاسبوعية ١٩٩٤/٧/٣٠ ـ موجز عن حرب الخليج ـ ينتظر أن يعدل برنامج اليمامة بسبب هبوط سعر النفط.

(١٢) تقرير معهد ابحاث السلام في ستوكهولم ١٩٩٤.

أعماق نفوس العرب والمسلمين واليهود، انطلاقاً من معطيات وتجارب تاريخية خاصة بكل فريق.

الموقف الاسرائيلي في مواجهة التهديد الامني

يبدو أن عملية تغيير المفاهيم الامنية ما زالت بعيدة وتحتاج الى جهود كبرى تستكمل فيها الحقوق وتتوازن القدرات والقوى العسكرية وتتعادل المصالح. وعندما يتحقق ذلك، يصبح من السهل تغيير المفاهيم الامنية السائدة لمصلحة مفاهيم السلام والتعايش والحوار. ويمكن عندئذ التحول في بناء العلاقات بين اسرائيل وجيرانها، من عقلية التفوق والسيطرة والاحتلال والهيمنة الى عقلية المشاركة والتعاون على أسس العدالة والتكافؤ. وتدل تجارب الحاضر على رغم مناخ السلام الذي بدأ بين العرب واسرائيل وإستمرار مفاوضات السلام وتوقيع الاتفاقات، على ان مسيرة السلام الحقيقي ما زالت تتعثر على اكثر من مسار خصوصاً المسار السوري واللبناني، ولا تزال حقوق الشعب الفلسطيني منقوصة على رغم توقيع اتفاق اوسلو منذ عام ونيف، لأن روح التفوق والتوسع الاسرائيلية المدعومة اميركياً ما زالت قائمة، وتعبرٌ اسرائيل عن ذلك من خلال التشدد في الموقف السياسي والموقف العسكري.

وقد لا تجد اسرائيل في برامج التسلح العربية في كل من مصر ودول مجلس التعاون الخليجي، تهديدات مباشرة بسبب مواقف هذه الدول المعتدلة وسعيها في اتجاه سلام بدل تأجيج الصراع العربي الاسرائيلي، ولكن لا يمكنها تجاوز تجارب الماضي عندما انتقلت اسلحة وقوات عربية من دول بعيدة عن حدودها لتشارك في العمليات الحربية ضدها. كما لا يمكن لاسرائيل ان تنسى الهجمات الصاروخية التي اطلقتها العراق ضدها إبان حرب الخليج، على رغم بعدها وعدم تدخلها في تلك الحرب. صحيح ان اسرائيل لم تدفع ثمناً باهظاً نتيجة الهجمات العراقية، ولكن الثمن الاقتصادي والمعنوي كان كبيراً، إن لجهة حال الذعر التي سادت طيلة فترة الحرب أو لجهة شل الاقتصاد فيها لمدة شهر كامل. ومن المؤكد ان الاسرائيلي يدرك مدى الضرر الذي ألحقه الهجوم العراقي بمفهوم الامن لديه والذي سجّل سابقة يمكن تكرارها على يد دول أخرى بما فيها دول لا تملك حدوداً مشتركة مع الدولة العبرية. وتكثف اسرائيل جهودها وتلجأ إلى حملة مركزة من الضغط الاعلامي والدعائي حيال امتلاك دول عربية لبعض الاسلحة الكيماوية ولعدد من الصواريخ المتوسطة المدى. كما انها تتهم كلاً من ايران والعراق بمتابعة السعي الى امتلاك السلاح النووي. كذلك تتهرب اسرائيل في الاجتماعات المخصصة لخفض التسلح في المباحثات المتعددة الاطراف من بحث امتلاكها للسلاح النووي، يؤازرها في ذلك الصمت الاميركي والاوروبي في موضوع انتشار السلاح النووي، وهو

الموضوع الذي طالما اظهرت دول الصمت حساسية عالية حياله تجاه الدول المختلفة في العالم الثالث. وتحاول اسرائيل استثارة حفيظة الدول الكبرى على ايران والدول العربية كلما تكلمت عن ضرورة تحقيق توازن نووي مع اسرائيل، كما تستثير حفيظة بعض العرب ضد الطموحات الايرانية للحصول على التكنولوجيا النووية. وفي ظل الظروف الاقليمية والدولية السائدة، يبدو احتمال وقوع مواجهة عسكرية واسعة بين اسرائيل وأي طرف عربي في المستقبل القريب متدنياً جداً. وسيأخذ العمل العسكري، في حال وقوعه، اشكالاً محدودة جداً، إذ سيستعمل اطراف النّزاع اجزاء محدودة من قدراتهم العسكرية ضد أهداف منتقاة بدقة ومع تحديد النتائج المتوخاة ضمن حدود مستوى مقبول من الخصم، بهدف الإبقاء على مقدار من السيطرة على الاوضاع الامنية منعاً لتوسيع العمل العسكري وتحويله مواجهة واسعة. وانطلاقاً من مبدأ «إن الرأي العام يشكل عنصراً اساسياً من عناصر ضبط العمل العسكري»[١٣]، ستتساهل اسرائيل تجاه بعض الاعمال المحدودة النتائج كما انها ستوازن ردها على هذه العمليات. وستأخذ العمليات العسكرية المحتملة في اغلب الاحيان طابع العمليات الصغرى على القشرة الحدودية وفي داخل الاراضي المحتلة أو الشريط الأمني في جنوب لبنان. لكن يبقى وقوع هجمات بالصواريخ الخفيفة من الاحتمالات القوية، وهو شكل من أشكال الهجوم الذي يسبب قلقاً بالغاً للمواطنين الاسرائيليين وللمسؤولين من دون استثناء. كما ان من المنتظر ان تتابع القيادة الاسرائيلية جهودها في ملاحقة قضية السلاح النووي في اتجاهين:

الاول المحافظة على سلاحها النووي من دون استثارة الدول الأخرى، مستعملة منطق الخطر الذي تشكله الدول الخارجة عن عملية السلام كايران والعراق.

والثاني الضغط بالوسائل المختلفة لمنع وصول هذه التكنولوجيا الى أي دولة من دول الشرق الأوسط. وستسعى اسرائيل الى الاحتفاظ بتفوق قواتها المسلحة وابقائها على مستوى عالٍ من الاستعداد الميداني والمعنوي، مستفيدة من التفوّق النوعي للاسلحة التي تمتلكها ومن قياداتها المدربة والمجربة. وستقوم القوات الاسرائيلية بالانتشار الميداني الذي يؤمن لها المرونة، لكشف التهديد ومهاجمته قبل تحقيق أهدافه وفي حال فشل التدابير الوقائية، سيكون الرد على العمليات في الزمان والمكان المناسبين وبالمقدار الكافي. يبقى الهاجس الستراتيجي الأهم بالنسبة الى اسرائيل، الاعداد العسكري الدائم لخوض اي حرب ممكنة مع دولة عربية مجاورة او تحالف دول عربية عدة وتحقيق انتصار عسكري واضح. لكن، مع توسع قدرات العرب الهجومية ونوعية الاسلحة التي يمتلكونها، اصبح تحقيق

(١٣) JENKINS, Brian Michael, **«New Modes of Conflict»**, Rand publication, June, 1983.

النصر العسكري مكلفاً ومؤلماً للغاية، خصوصاً في بلد مثل اسرائيل حيث تأخذ الخسائر البشرية، مهما تضاءلت، شكل الكارثة الشعبية والوطنية. كما أن تحديد مفهوم النصر الاسرائيلي ومواصفاته على احدى الدول العربية، اصبح من المواضيع الشائكة نظراً الى التعقيدات الدولية والاقليمية التي تبدلت تبدلاً عميقاً بعد توقيع اتفاقات السلام. لذلك يعتقد بعض الستراتجيين أن مستلزمات العمل العسكري المحدود تقضي بادماء الخصم بعمليات متكررة بدل قتله مراعاةً لالزامات تحقيق محدودية الاهداف، بالابقاء على مستوى متدنٍ من النتائج لضبط ردات فعل الخصم ومنعه من استعمال قواته الضاربة واسلحته المدمرة[١٤]. ويرى الخبراء العسكريون الاسرائيليون احتمال اعتماد العرب هذا النوع الجديد من العمليات العسكرية.

صحيح أن العرب خسروا حليفاً مهماً نتيجة للتطورات الدولية وانهيار الاتحاد السوفياتي وتفككه، لكن الوضع العالمي الجديد لم يحمل في متغيّراته كل الايجابيات التي كانت تحلم بها اسرائيل كحليفة اساسية للولايات المتحدة في منطقة الشرق الاوسط. فقد نعمت اسرائيل بدعم اميركي وأوروبي منذ قيامها. وقد سمح لها هذا الدعم ببناء القدرات اللازمة لتحقيق انتصارات عسكرية متكررة في ثلاث حروب خاضتها مع الدول العربية كان آخرها غزو لبنان سنة ١٩٨٢. وما زالت اسرائيل تملك القدرات العسكرية والدعم الاميركي الذي يسمح لها بتحقيق نصر أكيد في حال اندلاع حرب واسعة مع طرف عربي أو أكثر. لكن الوضع الدولي والاقليمي الجديد حمل معه بعض المتغيّرات السلبية في الموقف الدفاعي الاسرائيلي. وقد تسببت هذه المتغيرات في تبديل صورة اسرائيل وسلوكيتها كقوة عسكرية قادرة على ردع اعدائها ومنعهم من تحقيق اهدافهم. لقد ملكت اسرائيل في الماضي الوسائل العسكرية والدعم الاميركي الذي خوّلها حرية العمل لمواجهة خصومها العرب، بحجة أنها تواجه حلفاء الاتحاد السوفياتي في مسعى لمنع انتشار الشيوعية ومنع الاتحاد السوفياتي من تقوية نفوذه في المنطقة. والآن، بعد سقوط هذه الحجّة، تخشى اسرائيل تبدل قيمة الدعم الاميركي وحجمه نتيجة لتبدل الوضع الدولي. وهي تحاول بكل الوسائل ان تستبدل ما خسرته بعد تفكك الاتحاد السوفياتي من موقعها القوي كحاجة أمنية وستراتيجية اميركية في المنطقة، بالتركيز على خطر التهديدات الاصولية للمصالح الاميركية في المنطقة وفي العالم وتضخيم التهديدات التي تشكلها الحركات الأصوليّة على انظمة الحكم المتحالفة مع اميركا وخصوصاً الدول الخليجية. لقد فشلت اسرائيل إبان حرب الخليج في العام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ في اعتماد أي سياسة لردع العراق ومنعه من ضرب المدن

---

(١٤) JENKINS, Brian Michael, «New Modes of Conflict».

الاسرائيلية بصواريخ سكود ـ ب ثمناً لموقعه كحليف للولايات المتحدة، لأنّ الموقع الإسرائيلي يتناقض مع سعي الولايات المتحدة الى التحالف مع كلّ من سوريا ومصر ودول الخليج لمواجهة العراق عسكرياً. ويبدو الآن ان نتائج سلبية ستترتب على خسارة اسرائيل لقيمتها الستراتيجية كحليف قوي لأميركا بحيث تزيد قوّة الضغط السياسي والمعنوي على الحكام الاسرائيليين مما سيؤثر على قيمة المساعدات الاميركية لاسرائيل، خصوصاً أن اميركا لا تشعر بحال عداء مستفحل تجاه الاصولية الاسلامية ولا ترى خطورة في المد الاصولي على مصالحها كما كانت تشعر بخطورة تمدد النفوذ السوفياتي.

ان اهم المتغيرات التي ستحمل نتائج سلبية على الوضع الدفاعي الاسرائيلي وخصوصاً لجهة تفرد اسرائيل بامتلاك قدرة الردع النووي، تكمن في دخول اسرائيل مفاوضات السلام برعاية اميركية كاملة، وقبول كل العرب بالضمانات الاميركية القائمة على مبدأ الارض مقابل السلام، والاستمرار في قبول الوساطة الاميركية بصبر وايجابية. وفي حال توصلت سوريا واسرائيل الى اتفاق سلام، ستطالب الدول العربية بتخفيض القدرات الدفاعية الاسرائيلية وبانهاء وضع التفوق والهيمنة الذي تمارسه اسرائيل، وسيطالب كل العرب في المفاوضات الخاصة بفرض الرقابة على النشاط النووي الاسرائيلي، وبتدمير الصواريخ البعيدة المدى من طراز جيريكو ـ ٢. لقد الحت مصر في الاجتماعات الاخيرة التي عقدت خلال كانون الثاني ١٩٩٤، على ضرورة اخضاع البرنامج النووي الاسرائيلي للرقابة، كما هددت بعدم تجديد توقيعها على معاهدة الحد من انتشار الاسلحة النووية كرد عملي على التقاعس في قيام مثل هذه الرقابة(*). لكن هذه المطالبة والضغط المصري والعربي لن يؤدّيا إلى إلغاء أو نزع القدرات النووية الاسرائيلية لأن ذلك يتعارض مع منطق العلم والتاريخ، ويطرح التساؤل المنطقي الآتي: إذا كان اكتشاف الانفجار النووي يُشبه الى حد بعيد اكتشاف البارود في العصور القديمة فلماذا لم يُلغ البارود؟

ويفرض المنطق الذي طرحه الجنرال فولر عن تأثير السلاح النووي على الحرب، نفسه كحقيقة تصف بدقة عقم المطالبة العربية بنزع السلاح النووي الاسرائيلي إذ يقول: «وُجد السلاح النووي ليبقى. ويفرض هذا المنطق ذاته اذ لا يمكن الغاء مكتسبات المعرفة في حقل من حقول العلم، بل ينبغي القبول بها مع الكثير من التحفظ»(**).

(*) جريدة الحياة في عددها الصادر في ١٢/١٢/١٩٩٤.

(**) Major-General FULLER, «The Conduct of War», Greenwood Press Publishers, Westport, Connecticut, 1981.

وسترفع العملية السلمية، من دون شك، سقف التهديدات العربية لاسرائيل، وستخفف من امكان وقوع حرب جديدة في المستقبل المنظور. لكن الواقع الجديد سيفرض على اسرائيل التخلي عن مساحات من الأراضي العربية في الضفة الغربية والجولان، كانت تشكل عمقاً ستراتيجياً لأمن اسرائيل وخصوصاً لجهة تجنب الهجمات المفاجئة. وسيفرض الواقع الستراتيجي الجديد تنفيذ بعض البرامج الدفاعية الغالية الكلفة والتي تتعدى تكاليفها قدرات الدولة العبرية. وتتركز اهم المتطلبات التي سيفرضها واقع التخلي عن الاراضي المحتلة، على اقامة نظام متطور للدفاع ضد الصواريخ الباليستية. وتتطلب اقامة النظام الدفاعي المضاد للصواريخ، متابعة برنامج تطوير صاروخ «آرو»، وهو برنامج مكلف جداً تساهم الولايات المتحدة بنسبة ٧٢٪ من تكاليفه. أما التكاليف المقدرة لنشر الاعداد اللازمة من صواريخ «آرو» لتأمين الدفاع عن اسرائيل، فتقدر بخمسة مليارات من الدولارات لا تستطيع اسرائيل تحملها بمفردها. ولا يكفي نشر شبكة الصواريخ هذه لاقامة نظام فاعل ضد تهديدات الصواريخ وأسلحة الدمار الشامل، بل يجب اقتناء الشق الهجومي من نظام الدفاع المتكامل والذي يتمثل في نظام الكشف والهجوم لتدمير الصواريخ قبل انطلاقها. وهنا تبرز ضرورة اقتناء اسطول خاص من الطائرات المتطورة والقادرة على العمل في البعد الستراتيجي لانتشار الصواريخ الباليستية. لذلك رأينا اسرائيل تسارع الى طلب طائرات ف ١٥ ـ أي من الولايات المتحدة لمواجهة الأخطار في البعد الستراتيجي(*). وهنا، وأمام حقيقة برنامج التسلح ونظم الاسلحة المتطورة التي تحاول اسرائيل بناءها أو الحصول عليها من الولايات المتحدة، لا بد من محاولة تحديد البعد الستراتيجي لمفهوم الأمن الاسرائيلي الجديد.

ويمكن تحديد البعد الستراتيجي للأمن الاسرائيلي انطلاقاً من اربعة أسس: الأساس الأول ينطلق من التجربة القاسية التي خبرتها اسرائيل إبان حرب الخليج، عندما تساقطت الصواريخ الباليستية العراقية على المدن الاسرائيلية وخصوصاً تل أبيب، ومدى الضرر السياسي والمعنوي والاقتصادي الذي أنزلته بها. الأساس الثاني هو الموقف السياسي المعادي لاسرائيل الذي تعتمده بعض دول المنطقة والذي قد ينقلب تهديداً عسكرياً مباشراً. الثالث الأخذ في الاعتبار إمكان تملك هذه الدول وسائل التهديد العسكري بحيث تتمكن من داخل اراضيها أو من أراضي دول صديقة لها من ضرب اهداف اسرائيلية هامة. والرابع السعي الحثيث الى تطوير برامج التكنولوجيا النووية واقامة انشاءات أو برامج تقود الى صنع السلاح النووي أو أسلحة الدمار الشامل الأخرى. وترى السياسة الاسرائيلية أن هناك توافقاً بين اهدافها الأمنية واهدافها السياسية تجاه بعض الدول، انطلاقاً من المواقف التاريخية لهذه الدول من

(*) مجلة الدفاع الدولية الصادرة عن مجموعة جاينز في لندن ـ آب ١٩٩٤.

الدولة العبرية ومتابعة رفضها لمبدأ السلام مع اسرائيل. وترى اسرائيل، من خلال هذا المنطق، في تملك كل من سوريا والعراق وايران وليبيا لاسلحة بعيدة المدى كالطائرات الحديثة والصواريخ الباليستية، تهديداً محتملاً لأمنها المباشر. كما ترى في برامج البحث الخاصة بالتكنولوجيا النووية في كل من باكستان وايران والعراق وفي امكانيات دول أخرى صنع كميات من الاسلحة الكيميائية كمثل ليبيا، تهديداً مستقبلياً كبيراً لوجودها يقتضي رصده والتدخل للحد منه أو إزالته، كما فعلت عندما دمرت مفاعل تموز قرب بغداد.

يمكن الاستنتاج من خلال الموقف السياسي العام، ان الاهداف الأمنية سترتبط بالإعداد العسكري الاسرائيلي القائم على ستراتيجيا جديدة اعتمدتها بالتنسيق مع الولايات المتحدة الاميركية، وان الأمن الاسرائيلي في البعد الستراتيجي الجديد وسّع دائرة عمله ليشمل منطقة الشرق الاوسط بكامله، واجزاء من باكستان والمغرب العربي. وهكذا يمكن تحديد منطقة الاهتمام الأمني في البعد الستراتيجي الجديد بأنها تمتد من بحر قزوين في الشمال الشرقي الى موريتانيا في الشمال الغربي، ومن كراتشي في الجنوب الشرقي الى مقديشو في الجنوب الغربي.

وتدرك اسرائيل تمام الادراك أن الأوضاع الدولية الراهنة تفرض عليها عدداً من الصعوبات والالزامات حيال استعمالها لاسلحتها البعيدة المدى مثل طائرات ف ـ ١٥ وصواريخ جيريكو ـ ٢. وليس من السهل تكرار ما سبق لها ان فعلت عندما قامت بغارة وقائية لتدمير مفاعل تموز العراقي. ان عمق مسرح العمليات الذي حددناه بمنطقة الاهتمام الامني، بالاضافة الى المتطلبات والالزامات السياسية، الاقتصادية، العملانية، والاستعلامية؛ تجعل تحقيق المهمة الاسرائيلية في ازالة التهديدات الصاروخية شبه مستحيلة. ويظهر ان القيادة السياسية في اسرائيل تدرك هذه الحقيقة. كما يبدو واضحاً أن هذه القيادة تميل الى اعتماد نظام امني يقوم على برنامج تعاون دولي واقليمي لتحقيق حاجاتها الدفاعية الكبرى. انطلاقاً من هذه الحقائق، رأينا وزير الخارجية الاسرائيلية شيمون بيريز يطرح موضوع الأمن في كتابه «الشرق الأوسط الجديد» من زاوية الامن الاقليمي. وهو يعتقد أن الامن الاقليمي الشرق أوسطي سيقوم على نوعين من الالتزامات المتبادلة: من دولة الى دولة ومن دولة تجاه المنطقة ككل. وستخدم الالتزامات المباشرة من دولة الى دولة الحاجة الامنية الى هاتين الدولتين، فتمنع حصول اعتداء من واحدة على الاخرى. أما وظيفة الأمن الاقليمي فستهدف الى فرض السلام وتقويته، لأن النظام الاقليمي القائم على التوافق سيفكك انظمة القوة والتهديد ويسهل عملية نزع السلاح. ولا يرى بيريز في مفهوم الأمن الشرق اوسطي ضرورة اقامة حلف بين دول المنطقة مشابه لحلف شمال الاطلسي، لأن هذا الأخير أُقيم لمواجهة عدو خارجي محتمل بينما تنبع المشاكل الأمنية الهامة في الشرق الاوسط من حال عدم الاستقرار داخل النظام الشرق أوسطي

والتـي يمكن ايجاد اسبابها في التخريب السياسي والانزلاق نـحو الحلقة الصعبة من التهديد القائم على التعصب الدينـي والضيق الاقتصادي والاجتماعي.

ولم يستطع بيريز ان يـخرج من تصوره للترتـيبات الامنـية الاقليمية في ظل السـلام عن المفاهيم والترتـيبات التـي قدمها القادة العسكريون الاسرائيليون في حقبات سابقة أمثال الجنرال موشي دايان والجنرال افرهام تامير(*)، والفكرة الجديدة الوحيدة التـي قدمها بيريز تركز على قيام قوة اقليمية للتدخل السريع في حال بروز ازمات مفاجئة افلتت من زمام المعالجات الدبلوماسية.

وتتألف الخطة التـي يقدمها بيريز عن الأمن الاقليمي من ثلاث نقاط يمكن ايجازها على الشكل الآتـي:

١ ـ منع مفاجأة تكتـية، من خلال ايجاد جهاز رقابة وفصل مستقل يعمل على أساس ثنائي ومشترك بين اسرائيل وكل دولة مجاورة وباشراف النظام الاقليمي.

٢ ـ تطوير نظام للحماية الاقليمية لمنع المفاجأة التكتـية والهجوم المباغت، من خلال اقامة نظام مراقبة متكامل وارسال تقارير عن نتائج عمليات المراقبة الى الدول العظمى الصديقة. وتكون المهمة الاساسية لنظام الحماية الاقليمي المقترح مراقبة ما يجري في العمق الستراتـيجي الخطر.

٣ ـ في حال وقوع خلل في نظام معالجة الازمات وتعطيل الاقنـية الديبلوماسية «مؤقتاً»، يجب ان تتوافر قوى اقليمية جاهزة للتحرك الفوري والفعال لوقف الاعتداء الواقع.

يبقى أن نتكلم عن الخطر الذي تحمله عملية السلام على الصناعات الدفاعية الاسرائيلية، إذ تواجه هذه الصناعات مأزقاً اقتصادياً كبيراً من خلال تعثر عمليات الابحاث والتطوير والتسويق. وتواجه برامج الابحاث لتطوير هذه الصناعات موقفاً حرجاً بسبب ضعف المبالغ المخصصة لها، خصوصاً بعد توقف ضخ الأموال الاميركية لدعمها. أما عمليات الانتاج فهي مهددة بالتوقف نهائياً بسبب انتفاء الحاجة الداخلية وبسبب انـحسار الطلب على السلاح الاسرائيلي. فقد اثرت منافسة الدول الغربية وخصوصاً الولايات المتحدة على عملية تسويق السلاح والتكنولوجيا الاسرائيلية في الاسواق المختلفة في آسيا وافريقيا واميركا الجنوبية.

الإستنتاج

يظهر أن هناك ميلاً في اسرائيل نـحو التخفيف من استعمال القوة العسكرية

(*) قدّم دايان في كتابه «الاختراق» وكذلك فعل بعده أفراهام تامير في كتابه «جندي في البحث عن السلام» لترتـيبات امنـية مشابهة لما قدمه بيريز في كتابه «الشرق الأوسط الجديد».

لمواجهة التهديدات والتحديات المباشرة والآنية التي تواجه الأمن الاسرائيلي خوفاً من تخريب عملية السلام. كما تبغي اسرائيل من موقفها العسكري المعتدل (على غير عادتها) ألا تُغضب الولايات المتحدة الساعية الى تفكيك عقد الصراع العربي ـ الاسرائيلي عقدة تلو الاخرى. وتراعي اسرائيل في موقفها العسكري الجديد مشاعر الدول العربية والاسلامية الراغبة في قبول اسرائيل والتعايش معها، خصوصاً أن بعضها اعترف بها وتبادل معها التمثيل الدبلوماسي واقام علاقات سياحية وتجارية كاملة منهياً المقاطعة العربية في كل أشكالها.

لكن اسرائيل حريصة كل الحرص على ألا تفهم الدول والفئات التي ما زالت معادية لوجود الدولة العبرية أو لمسيرة السلام، ان الموقف السياسي والعسكري الاسرائيلي يدل على ضعف في الامكانات أو عن تردد، القيادات في اتخاذ القرارات. لذلك نراها لا تهادن ولا تتهاون في الرد على العمليات العسكرية ضد مواطنيها وحلفائها وجنودها، كما انها لا تدخر مناسبة لاطلاق التهديدات واتخاذ المواقف القاسية تجاه المجموعات التي تهاجمها، وخصوصاً في الاراضي المحتلة وجنوب لبنان. وتتوسع في معظم الاحيان وتشمل في تهديداتها كلاً من ايران وسوريا. كما تحاول أن تستثير دولاً اخرى وخصوصاً الولايات المتحدة، لاطلاق اتهامات وتهديدات ضد أطراف اقليمية على رأسها ايران مع توجيه تهديدات مباشرة لها كما فعل كريستوفر عندما صرَّح: «يجب دحر حزب الله واحتواء ايران راعيته الرئيسية». وفي الوقت نفسه، كان المسؤول الاسرائيلي أوري لوبراني قد صرَّح بأن اسرائيل تعد «رداً مدروساً بعناية ومخططاً ومؤذياً للارهابيين»، على اثر العملية التي جرت ضد مركز يهودي في الارجنتين(*). وليس أدل على محاولات ضبط مستويات الرد لدى اسرائيل على العمليات القاسية التي توجهها اليها بعض التنظيمات والمقاومة اللبنانية، من التصريحات التي يطلقها المسؤولون الاسرائيليون وفيها الكثير من الرجاء لسوريا للمساعدة في ضبط الأوضاع الامنية. فقد صرح بيريز على أثر العملية القاسية في الارجنتين: «ان سوريا التي تسيطر على لبنان قادرة على السيطرة على حزب الله، وهذا ما ننتظره منها، إذ اثبتت في الماضي ان لها نفوذاً عليه»(**) وكان بيريز يشير الى الاتفاق على وقف اطلاق الكاتيوشا الذي تم التوصل اليه بوساطة اميركية في صيف ١٩٩٣، بعد اسبوع من الغارات الاسرائيلية على قرى الجنوب وعشرات قذائف الكاتيوشا على المستعمرات الاسرائيلية في الجليل.

ان النزعة المستقبلية للسياسة الامنية الاسرائيلية في مواجهة التهديدات، تدل

(*) جريدة الحياة. تاريخ ٢٩ تموز ١٩٩٤.

(**) جريدة الحياة. تاريخ ٣٠ تموز ١٩٩٤.

على عدم تخلي اسرائيل عن القوة العسكرية أداة فعالة في ديبلوماسيتها مع الدول العربية وبعض الدول الاسلامية وفي مواجهة التهديدات التي تطلقها القوى المعادية. وستتخذ اسرائيل من المثال العراقي في عدوانيته ومن برنامج التسلح السوري والايراني ودعم دمشق وطهران لحزب الله وللحركات المناوئة لعملية السلام ومن المد الاصول الاسلامي، الذريعة لزيادة طاقاتها العسكرية وتنويعها بحيث تستطيع التصدي لكل التهديدات. وستحاول اقامة نظام امني اقليمي، علاوة عن اتفاقات امنية مشتركة مع الدول المحيطة بها، كما ستربط هذا النظام والاتفاقات بالسياق الستراتيجي الاقليمي الذي تحاول الولايات المتحدة أن تبنيه للمحافظة على مصالحها في هذه المنطقة الحيوية.

أما على صعيد السياسة الاسرائيلية في مواجهة التحديات في الاراضي المحتلة، فانها تسعى الى تسعير الخلاف الفلسطيني ـ الفلسطيني، اي بين القابلين باتفاق اوسلو والرافضين له، في محاولة حثيثة لاشعال حرب فلسطينية مدمرة. كما تعمل على توسيع الهوة، وزرع بزور الفتنة بين الاردن والفلسطينيين لاضعاف الطرفين والهاء القوى المعادية لاسرائيل بحرب طويلة تشبه عملية الانتحار الوطني، تحضيراً لربط مصير الشعبين أمنياً واقتصادياً بدولة اسرائيل.

اما على صعيد برنامج التسلح وتطوير القدرات الدفاعية في الدول العربية وايران، فستتابع اسرائيل رصد هذه البرامج عن كثب، وهي اطلقت لهذه الغاية قمراً اصطناعياً للتجسس بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٢٢(*).

وستحاول اسرائيل أيضاً تكثيف جهودها وجهود الولايات المتحدة للضغط على الدول المصدرة للاسلحة الى كل من سوريا وايران، لمنع وصول الصواريخ المتوسطة والبعيدة المدى لهاتين الدولتين. كما ستضغط بكل الوسائل لمنع وصول التكنولوجيا النووية لأي دولة من دول المنطقة.

ومن الطبيعي جداً أن تسعى اسرائيل الى دخول السوق العربية للخدمات الأمنية في صورة مباشرة أو عن طريق شركات دولية او شركات اسرائيلية ـ اميركية، فتقدم خدمات الصيانة والتدريب على أنظمة الاسلحة المتطورة وخصوصاً لدى دول الخليج التي تشكو نقصاً كبيراً في القوى البشرية الماهرة والقادرة على خدمة هذه الاسلحة المتطورة وصيانتها. وستنعش اسرائيل من دون شك الصناعات الدفاعية التي تشكو من الكساد وضعف الموارد.

وتطرح اسرائيل في مفاوضات السلام مع سوريا مطالب تعجيزية تتعلق بتخفيض القوات المسلحة السورية الى ١٤٠ الف رجل على حد ما ذكرت وسائل

(*) خبر نقلته كل من اذاعة مونت كارلو والاذاعة البريطانية في نشرتهما الصباحية في ١٩٩٤/١٢/٢٢.

الاعلام اخيراً، بينما تسعى هي الى زيادة قدراتها الدفاعية والابقاء على قدراتها النووية كاملة.

ويُستدل من هذا الموقف ان اسرائيل تحاول الاستمرار في فرض سياسة الهيمنة وممارسة سياسة القوة وفرض الأمر الواقع. وهي تطالب لنفسها بما تحاول منعه عن الآخرين مؤمنة بالمثل الروماني الذي يقول «دع من يطلب السلام يُحضِّر للحرب».

وان خير دليل على اعتناق اسرائيل لهذا المبدأ ما يقوله بيريز في كتابه «الشرق الأوسط الجديد»: «لم يأت الوقت لتفكيك اسلحتنا وارسال جنودنا الى منازلهم. لكن يمكننا التخطيط لعملية تدريجية وطويلة الأمد لنزع السلاح بصورة متبادلة».

ان الرد العربي المسؤول على الموقف الاسرائيلي يكمن في فتح حوار جاد لوقف الخلافات العربية والبحث في السبل الكفيلة لتدعيم القدرات العربية السياسية والاقتصادية والعسكرية. كما يقتضي وقف التسابق اللاهث وراء قطار السلام الاسرائيلي ودعم الموقفين السوري واللبناني في مباحثات السلام.

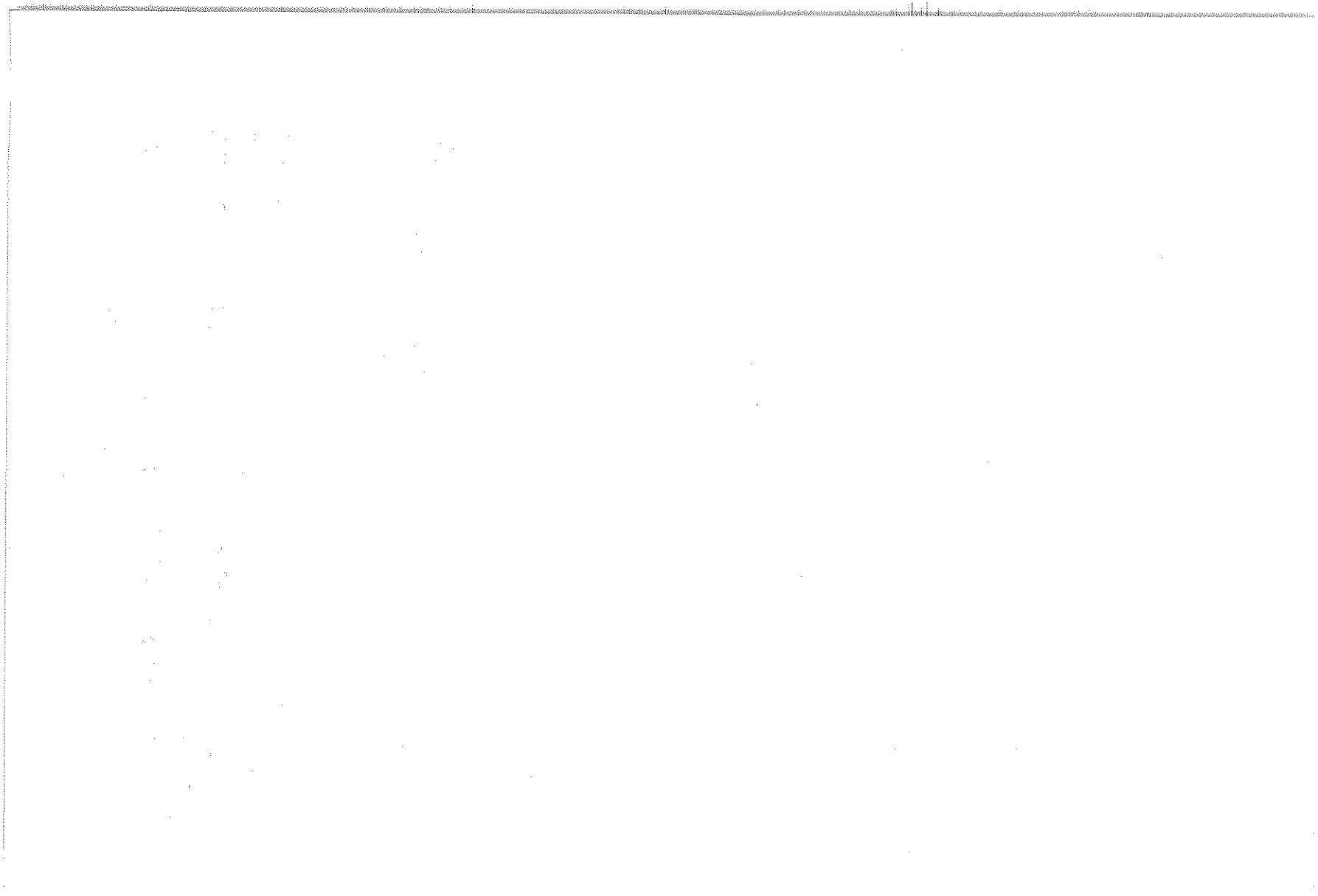

«الكلام الحر» في الاعلام الصهيوني

د. نسيم الخوري(*)

ملاحظات تمهيدية

١ ـ قد يثير كلامنا غضب الكثيرين ودهشتهم لأنه يخلخل بعض المفاهيم السائدة في الاذهان حول اسرائيل أو الوطن النقال la patrie portative وخصوصاً مفاهيم الاعلام. إن هدفنا في هذه المرحلة هو اعادة النظر الشاملة في كثير من الفلسفات والمفاهيم وكشف الغطاء «بشجاعة» عن مخاطر الصهيونية على العالم كله. هكذا نسقط الكثير من رموز الفكر في أذهاننا في موضع النقد والتساؤل أو القراءة الواعية على الأقل. وليس مسموحاً بأن نكون متلقين فقط. بل لا بد من قراءة مجددة لمفكرين شغلوا مواد التعليم في معاهد العالم وهم من اليهود أساساً والتعرف الى نصوصهم بعد تخليصها من آثار الفكر الصهيوني الذي تحمله بذوراً خفية. لا يمكننا قراءة ماركس وفرويد ونيتشه ودروكهايم وسارتر وسبينوزا وداروين وسيمون دو بوفوار ومضامين الفكر التحرري والبنيوية(١) ومدارسها والالسنية(٢) التي تشغل جامعات العالم وتغرق في دهاليزه جامعات الوطن العربي. لا يمكننا اذن قراءة هؤلاء وغيرهم، بالطريقة القديمة ومن دون الاشارة الى الأصابع اليهودية والكشف عنها. لا يمكن قراءة البيريسترويكا التي تسحر الكون اليوم من دون التسلح بعلامات الاستفهام الكثيرة وفقاً للمنطق الديكارتي.

٢ ـ لنا طلب من كل من يقع على هذه الدراسة أو يقرأها أو يترجمها أو ينقلها

(*) مدير كلية الاعلام والتوثيق (الفرع الثاني) ـ الجامعة اللبنانية.

(١) وهو مايرادف Structuralisme باللغة الفرنسية.

(٢) أو الـ Linguistique الذي دخل مجمل الدراسات المعاصرة.

أن يقرأ وينصح بقراءة متأنية لبروتوكولات حكماء صهيون[٣] أو الخطر اليهودي أو اعادة قراءته مجدداً لربط مضمونه بمجمل ما يحصل من احداث في العالم، وفهم الاخطار الكبيرة التي تنتظرنا في المنطقة العربية واضاءة المستقبل.

٣ ـ لا نعني بالاعلام المفهوم السائد أي المرتبط بوسائل الاعلام، وانما كل ما يُعلم أي الاعلام الشفوي وكل علوم الاتصال وأساليبه وأشكاله ومضامينه من عادات ولباس وسلوك ونتاج أي ما يرادف كلمة culture بالفرنسية. لهذا يشمل الكلام عن الاعلام الصهيوني، بالضرورة، الحضور الصهيوني في العالم الذي منه تتشكل صورة الماركسة في الاذهان. ولما كان الأمر مستحيلاً ويتطلب مجلدات، اعتمدنا التلميح الى الاسرار والخفايا الفكرية المتعلقة بالنشاطات الصهيونية.

٤ ـ إخترنا مجموعة من الوثائق الكثيرة في حوزتنا كنماذج للاعلام الصهيوني في الغرب، خصوصاً أن اهتمامنا يشمل هذا الموضوع منذ العام ١٩٧٣، وذلك للتدليل على قدرة الصهيونية على الانزلاق خلسة الى اذهان الآخرين من أجل اقناعهم وتجييرهم لصالحها. وهذا هو الاعلام اللامباشر.

الصهيونية في كل مكان

ثلاث ميزات تطبع التاريخ السياسي المعاصر في منطقة الشرق الأوسط. الأولى غياب الثوابت، والثانية فعالية الغرب ولربما العالم كله في تحديد ملامح هذا التاريخ، وظهور البصمات الصهيونية ميزة ثالثة تبرز حيناً وتختفي حيناً آخر من دون أن تغيب فعاليتها عن المسرح السياسي العالمي.

ما معنى هذا الكلام؟

معناه أن التاريخ العربي المعاصر متواتر لا متطور، وهذا يعني على مستوى الذهن العربي غياب منطق التسلسل الأدنى الذي يفرضه تساوق الزمن الرتيب. فالأجيال التي تنمو منذ العام ١٩٤٨ تتلقى الصفعة تلو الصفعة والصدمة تلو الصدمة، من دون التمكن من الربط بين هويات الأحداث وتلمس أوجه الشبه أو التباين بين الزمن الذي مر وما يحمله الزمن الآتي. كان عنصر المفاجأة هو الأساس، والمفاجأة بمعناها الشامل حولت التاريخ هوة محشوة بالغرائب وأورثت الدهشة والضياع. فمنذ هبت رياح البيريسترويكا، لم تبق ورقة سياسية في العالم إلاّ اهتزت أو أنها تتهيأ للاهتزاز، ولا عجب إن افترضنا صحة الكلام يوماً عن بيريسترويكا اميركية تقلع الملامح الاطلسية التي يحملها السياسي الاميركي منذ اقتسام العالم في نهاية الحرب العالمية الثانية. فما هو الاهتزاز الحاصل في غصن

---

(٣) نويهض، عجاج، **«بروتكولات حكماء صهيون»**، منشورات فلسطين المحتلة، من دون تاريخ، المقدمة مذيلة بتاريخ ١٩٨٠، من دون اسم بلد النشر أو دار النشر.

السياسة العربية حتى الآن؟ لا جواب! بل حال من الانتظال والخيبة والخوف وكلها تورث طابع العودة الى «ذات» ربّما تكون مفقودة.

ومعناه أنه تاريخ صنع وتم ووضعت خطوطه العريضة خارج دائرة الشرق الأوسط. وهذا ما أدى بدوره الى وضع العرب في مستوى ردود الفعل لا الفعل[٤]. وطالما هناك آخر يحمل في بذوره فشلنا ونجاحنا، فإن الذات العربية هي في النتيجة سليمة وخالصة من الخطأ، وأقصى تعويض كان العودة الى الزمن التراثي الذي هو أشبه بضوء قنديل نحوم حوله مثل الفراشات. هذا الضعف العام في عدم الخوض في الذات ـ الضوء كان جذاباً للآخر، مريحاً لـ «الأنا» العربية في الوقت نفسه.

ومعناه ثالثاً قدرة اعلامية صهيونية وراء مجمل أحداث المسرح السياسي العالمي، مقابل محاولات عربية[٥] قاصرة في مجال التعرف الى الذات الفعلية المعاصرة. فكيف يتمكن العرب من «مصارعة» اعدائهم إن كانوا يُجهلون أو يَجهلون ذواتهم وهم في غياب كامل عن اعدائهم بالمستوى المعرفي للكلام؟ وكيف تطفو ملامح هذا الشكل غير الواضح من الصراع على السطح السياسي بالمعنى العملي؟

للتمكن من معرفة هذه الملامح نتطرق إلى محطتين تاريخيتين يفصل بينها اكثر من مئة سنة، ويستشف منهما مدى أبعاد تطبيق «عقيدة التجمع والاقتحام»[٦] الصهيونية التي تجمع ظاهرها العنفي الى «بعث الروح اليهودية بشتى الوسائل»[٧].

المحطة المعاصرة[٨]: اعلام السلام

تدل القراءة الافقية الى غياب التكافؤ بين الأطراف المفاوضة مع اسرائيل حتى على مستوى النظرة الى السلام، تماماً مثل عدم التكافؤ العربي ـ الاسرائيلي الذي

---

(٤) LARAOUI, Abdallah. **«La crise des intellectuels, arabes, traditionalisme ou historicisme»**, Paris, Maspéro, 1974, p. 1.

(٥) تندرج تحت هذه المحاولات مجمل ردود الفعل العربية على صعيد الأنظمة والاحزاب السياسية التي كانت تظهر بعيد الهزائم العربية في الصراع مع اسرائيل. وقد يتوسع الإطار ليشمل تاريخا من الكتابة الخطابية في هذا الصراع يمثل مكتبات كبرى واستنفذ مبالغ طائلة وثروات قومية يفترض تقويمها في مكان آخر أو دراسة أخرى.

(٦) غنزبرغ هو صاحب هذه العقيدة، والملهم الروحي لوايزمان وواضع البروتوكولات. وقد برز في الاساس كاتبا عميق الفكرة، واختار «احدهاعام» إسماً له، أي أحد أفراد الشعب وهو يركز على الأسس والغايات وصحة الأساليب للوصول والاتصال اكثر من التفاصيل، راجع نويهض، عجاج، المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٧) المرجع السابق، ص ٤٠.

(٨) راجع دراستنا: **«المقاومة تشرق من الجنوب»**، دار إعلامك، بيروت، ١٩٩٤.

جرب مجمل الخيارات السياسية والعسكرية والاقتصادية وحتى الدينية وغيرها.

واذا كان دعم الغرب للعدو الاسرائيلي قد شكّل مقولة العرب المعروفة في تبرير الهزائم، فإن هذا التبرير كان في أساس القوة التقليدية التي ساهمت في ترسيخ التقدم الاسرائيلي طيلة نصف القرن الراهن مقابل التراجع العربي. هكذا بدت الصورة وفق النشاط الاعلامي العالمي. والمؤسف أن هذه القوة تبدو أكثر شراسة بالنسبة الى مستقبل العرب في مرحلة «الصراع» الجديد السلمي، لا بل تبدو أكثر حسماً لصالح اسرائيل، إذ تتجه المفاوضات والأوراق السلمية الى اتخاذ ملامح النظام العالمي الجديد، ولو في الشكل، أو الملامح الاميركية «الأحادية» التوجه في السياسة الاميركية أو العالمية.

ويبدو اطراف الصراع يغرقون شيئاً فشيئاً في خريطة جديدة وتحت تسمية جديدة تلف الشرق الأوسط كله. وهذا يقودنا إلى الاشارة الى الواقع الراهن عربياً الملاحظ اشد تعقيداً من قبل. فالعرب يدخلون مفاوضات السلام وفق منطق الاستفراد أو الاستعداء الاسرائيلي حتى يؤول الأمر إلى الاستفراد طوعاً ووفق ضغوط عالمية اقتصادية واعلامية في مجملها. وهكذا تبدو ملامح السلام وفق المقياس الاسرائيلي، وتبدو عدّة السلام العربية عارية اعلامياً أمام عدّة اسرائيل السلمية. كيف؟

اذا كان الاعلام معرفة والمعرفة سلطة، فإن معرفة العرب بعدوهم وهم يدخلون معه سلاماً ما (الاردن، منظمة التحرير) ضئيلة قياساً على معرفته بهم. انه السلام المفروض، اذ يلاحظ المراقب أن الجانب الاسرائيلي شديد التركيز على مواد التطبيع وتفاصيله، ويعتبر اقامة العلاقات الطبيعية ثمناً للانسحابات، ومداخل الى اقامة علاقات تفصيلية مع الجانب العربي.

والتطبيع في حدوده الفعلية هو الاعلام والاتصال والتواصل. بهذا المعنى تملك اسرائيل مفاهيم خاصة بقضايا التطبيع مع العرب هي في مجملها اقتصادية تُغرق فيها الأسواق خلسة بالبضائع الاسرائيلية، بحيث يأتي الحضور ناضجاً على المستوى النفسي والاجتماعي. ولو أخذنا التجربة المصرية[٩] في هذا المجال لرأينا أن الوفود الاسرائيلية التي فاوضت وتفاوض في تفاصيل العلاقات مع مصر، قد وصلت إلى حد مناقشة مضامين المناهج التربوية وطالبت بحذف مقاطع وفصول وكتب من المناهج المدرسية والجامعية، والتي تسيء وفقاً للمنطق الاسرائيلي الى السلام. وتبدو قوة الاعلام في الصورة التي شاعت عن التطبيع بين مصر

---

(٩) اعتمدنا في سوق هذه الأفكار حول التطبيع التربوي على:
ـ حسين، د. عدنان، **«عصر التسوية، سياسة كامب ديفيد وأبعادها الاقليمية والدولية»**، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٤، ١٥٥ ـ ١٩١.

واسرائيل في بعدها الجماهيري والتي بدت مختلة في أذهان العرب الآخرين، ووصل السلام إلى حدود الاستحالة. ويبدو أنه انطباع شاء الاعلام الصهيوني ترسيخه في أذهان القيمين على وسائل الاعلام الذين عملوا بوحيه، والهدف كان تركيد المجتمعات العربية الأخرى وتعزيز غرائزها في رفض السلام عن طريق:

أ ـ الامعان في تهشيم صورة العرب في العالم من حيث عشقهم للارهاب.

ب ـ كسب الوقت حتى يخصب الحقل الدولي الذي كان فجاً لإشاعة رغبة السلام في العام ١٩٩٠ وما بعده(١٠).

ج ـ ارضاء عقدة الرافضين من العرب للسلام أو التعويض عن صدمة السلام باشاعة نقيضه. في ضوء هذا الكلام، تبدو المعرفة سلطة كبرى مستقبلية. والمعرفة تختص بالذات والآخر بالمعنى الافقي لتحصين موقع العرب في المفاوضات وما بعدها على الأخص. وتبرز المعرفة ـ أداة الاعلام الأولى ـ طريق البقاء الأقرب في ملامح الصراعات المرتقبة بين العرب واسرائيل. وبهذا المعنى تظهر المخاطر الفعلية في السلم أكثر مما هي في الحرب، فالسلام يعرّي العرب وربما تقي الحروب جهلهم وضعفهم.

واذا كان الاعلام في وجهه الاتصالي بالرأي العام العالمي في أساس النجاح الاسرائيلي، فإن الممانعة التي هي نقيض الاتصال هي الجواب الوحيد على اسئلة السلام. والممانعة تعبير اطلقه رجال الدين في السنوات الأخيرة في لبنان وهو يعتبر التعامل والتعاطي مع اسرائيل حراماً، ويعتبر العدّة الأبلغ في مناهضة الغزو الصهيوني الذي يتطلع إلى تطبيع علاقاته مع محيطه العربي والاسلامي.

ولو شئنا الحكم على هذه الاداة الاعلامية في الصراع القائم حول مفهوم السلام بين سوريا ولبنان واسرائيل، لقلنا إنها لم تأخذ أبعادها الحقيقية التي وضعت من أجلها أصلاً؛ ولم تؤد إلى نتائجها التي وضعت لها أصلاً، اذ لا ظروف وقوى تضمن تطبيقها، بل انها غالباً ما تظهر عاجزة أمام خطط الغزو الاسرائيلي المتعدد الوجوه للمجتمعات العربية. ويزداد هذا العجز مع تنامي الصلح المنفرد بين اسرائيل ومصر والاردن ومنظمة التحرير، والذي أدى إلى ارباك مفهوم السلام المتصف بالشجاعة والكرامة وفقاً للمطلب السوري ـ اللبناني.

اسرائيل في نصوص العرب: المراحل الست

اذا كانت الممانعة هي السلاح الاجتماعي ـ الديني الوحيد المتبقي ربما بالمعنى

---

(١٠) المرجع نفسه وايضاً:
ـ عوض، محسن، **«الاستراتيجية الاسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية»**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨.

النفسي لدى اللبنانيين في دفعهم إلى السلام، فإنها هي نفسها كانت حاضرة في بعد الجماعة العربية لغوياً على المستويين اللفظي والكتابي. فقد كانت كلمة اسرائيل في اللغة العربية من المحرمات، وقد يكفي استرجاع نصوص العرب وخطب زعمائهم بدءاً من العام ١٩٤٨ حتى وقت ليس ببعيد لتأكيد هذا التحريم. فقد استمرت تلك البقعة من الأرض والتاريخ تعرف بفلسطين حتى بعد هذا التاريخ بعشرات السنين. وفي مرحلة متقدمة من التاريخ، بدأنا نشهد في النصوص العربية كلمات مثل «فلسطين المحتلة» بين قوسين، تلتها مرحلة ثالثة جديدة بدأ فيها العرب يكتبون في نصوصهم «العدو الاسرائيلي» و«المغتصب الاسرائيلي»، وأيضاً بين قوسين، سقطت بعدها في مرحلة رابعة الصفات الكثيرة التي كانت تنعت بها اسرائيل، وصار العرب يكتبون كلمة اسرائيل في نصوصهم، واحياناً يسبقون الكلمة بتعبير دولة بعد وضعها بين مزدوجين تدليلاً على عدم الاعتراف بها. وفي المرحلة الخامسة، نزعت الكتابة العربية القوسين من حول كلمة اسرائيل، وصارت حاضرة في نصوصنا دولة مثل باقي الدول تمهيداً للمرحلة السادسة حيث دخلت المنطقة، وخصوصاً في العام ١٩٧٩ فلك كامب ديفيد وما استتبعه من تنازلات على المستوى العربي والعالمي.

وهكذا نرى لبنان ومع الممانعة اللغوية والخطابية يحتله العدو الاسرائيلي في العام ١٩٨٢، ولتصبح اسرائيل واقعاً مادياً أكثر مما هي واقع لغوي، وبدءاً من هذا التاريخ، يبدأ العرب يتأهبون للواقع الراهن، فنكتشف أن الحاضر جاهز في ترتيب وسرية في الماضي وأن ما حصل من انهيار اريحا وتداعي عمان وبعض دول الخليج ما هو سوى نجاح لفلسفة «التفتيت» في ملف السلام العربي ـ الاسرائيلي مقابل غياب البرامج والدراسات والأفكار العربية الموحدة. وهنا ينفتح الكلام العربي مجدداً على حيز كبير من التواطؤ الخفي بين زعامات العرب الموقعة على السلام وزعماء اسرائيل. «في ضوء هذا التحول اللغوي أو التطور الذي دام اكثر من نصف قرن وصاحبته حروب وصدامات كثيرة، نرى إلى الصراع العربي ـ الاسرائيلي. فمن فلسطين إلى غزّة واريحا نشهد طريقة انزلاق هذا الكيان الاسرائيلي حرباً وسلماً في الاذهان وعبر مجمل الوسائل المتاحة، وخصوصاً غير المباشرة منها، ووفق ميادين الاعلام الكثيرة. كل ذلك أمام ردود الفعل الكلامية واتقان الكلام المانع الاستنكاري الذي لا مجال لتحليله الآن»[١١].

وهكذا قامت دولة اسرائيل «على اكتاف الغرب وفي غفلة تامة عن غالبية العرب... بسبب تسامح العرب تجاه الأديان السماوية، فنشرت دعايتها حتى في

---

(١١) المؤلف، «**المقاومة تشرق من الجنوب**»، المرجع نفسه، ص ١٣ ـ ١٤.

البلدان العربية، وراحت تضم اليها في كل فرصة أرضاً من اراضي العرب باحتلال سياسي أو عسكري لتحقق اطماعها غير المحدودة التي ترمي إلى بسط نفوذها على اكبر مساحة من الارض طبقاً لمقررات بروتوكولات حكماء صهيون..»(١٢).

وكان سلاحها قدرات اعلامية واسعة النطاق وفي الميادين المختلفة، فقد أدرك اليهود خلافاً لكل شعوب العالم «أن الاعلام امضى سلاح في استعماله لدعايتهم وقضاياهم، بينما كاد العرب يكونون عزلاً منه في الدفاع عن حقهم في المحافل العالمية... وهكذا بات اليهود يحتكرون اسماع الغرب، ببراعة فائقة، لكسب التأييد، وبتزوير مضلّل للتاريخ..»(١٣).

المحطة القديمة أو فترة التأسيس: تؤلف ولا تؤلفان؟

١ ـ في تموز من العام ١٨٩٠ أي منذ أكثر من مئة سنة، انتشرت في فرنسا دعوة معادية للسامية أريد بها مقاومة اليهود. ونحن نعرف بأن وراء دعوات كهذه بالمعنى العصري خططاً صهيونية محض. كان على رأس الدعوة الكاتب الفرنسي ادوار دريمون. فقد نشر مؤلفاً في العام ١٨٨٦ بعنوان «فرنسا اليهودية» أظهر فيه خطورة اليهود في فرنسا وجهدهم الخفي من أجل انحلال الحياة والأجيال الفرنسية بهدف السيطرة عليها. ثم أسس جريدة للطعن باليهود أسماها Libre Parole أو الكلام الحر. وكانت النتيجة أن حركة قامت لاخراج الضباط اليهود من الجيش الفرنسي وكان تعدادهم ٥٠٠ ضابط، وتبين أن دريفوس هو وراء هذه الحركة، فقبض عليه بتهمة الخيانة العظمى، وكانت الصحيفة أول من أظهر التهمة وقاد الحملة ضده(١٤)...

هذه الحادثة التي تعود الى مئة سنة إذن، والتي لا تزال تمثل في النشاطات الاعلامية في أوروبا واميركا، الصهيونية المنبع بالطبع، قادتنا الى اعلان «الكلام الحر في الاعلام الصهيوني». والكلام الحر يرمي في هذا المجال الى التحليل والعرض الموضوعي للنشاط اليهودي والجهود الفكرية الكبرى التي تبين خطرهم على الحضارات الأخرى وجهودهم الاتصالية عن طريق نشر افكار الانحلال والسيطرة على رغبات الأجيال وغرائزها.

٢ ـ في العام ١٩٠١ صدرت الطبعة الأولى من كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون»، وقامت قائمة المنظمات الصهيونية في العالم تحاول منع انتشار هذا

---

(١٢) الخليلي، جعفر، «**الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ**»، بغداد، منشورات وزارة الاعلام، ١٩٧٧.

(١٣) الحاج، د. كمال، «**الصهيونية بين تاريخين**»، دار العودة بيروت، ١٩٧٢، ص ٥.

(١٤) R. ANCHEL, «**les juifs de France**», Paris, 1946, p. 21.

الكتاب الذي يفضح مؤامرات اليهود للقضاء على الكنيسة وبسط النفوذ اليهودي على العالم. وفي العام ١٩٠٥، صدرت الطبعة الثانية فأسقط في يد الصهاينة ولم يجدوا مخرجاً سوى الادعاء بأنها وثائق مزوّرة نفوا علاقتهم بها[١٥]. وشهد العالم الغربي ضجة في ردود الفعل، فكتبت جريدة التايمس مثلاً «اذا كانت بروتوكولات حكماء صهيون هي فعلاً من وضع اسرائيل فكل ما يمكن للبشرية أن تتخذه من تدابير للقضاء على اليهودية العالمية، يصبح إذن شرعياً، بل ضرورياً وفورياً»[١٦].

لن ندخل في تفاصيل ما كتب[١٧] حول هذا الكتاب الذي اعتبر محطة تاريخية لبدايات القرن العشرين، ولكننا نشير إلى أن هذا الكتاب هو مجموعة من الخطط التي وضعها رجال المال والاقتصاد والفكر اليهود لتخريب المسيحية والبابوية ثم الاسلام في العام ١٨٩٧، وقد بشر بالتخريب خلال مئة سنة أي حتى ١٩٩٧ (أي بعد سنتين، إذ يعتقد اليهود بأنهم قبل حلول هذا التاريخ سيستولون على العالم ويقيمون عليه ملكاً داودياً يمكنهم من حكم العالم بأسره حكماً اوتوقراطياً)[١٨]. والتخريب يكون اقتصادياً واجتماعياً واخلاقياً عن طرق الاعلام الخفي والدخول في مناهج الفكر التي تسيطر على العالم واذهان الناشئة، وكذلك عن طريق الجمعيات الدينية أو السياسية أو الخيرية والأدبية والصوفية. وقد يسيطر عليها اليهود المتنصرون أو الذين اعلنوا اسلامهم وذابوا في مجتمعاتهم الجديدة ويوجهونها كلها في صالح اليهود وخدمتهم. فاليهود محاطون بألوف من رجال البنوك واصحاب الصناعات ويختارون ممثليهم في الادارة والصحافة. يندسون في الطبقات والطوائف حتى الخدم في البيوت واهل التمثيل والغناء وسيدات الصالونات وزعماء الشعوب وقادة الفكر، حتى أن رجال الدين لا يخلون من عناصر يهودية تعمل لصالح تخريب العالم والاديان الى أن يصبح الدين اليهودي الوحيد في العالم»[١٩]. قد يثير هذا التركيز على «الخراب» المقبل سخرية البعض وهزأه أو خشية البعض

---

(١٥) «**Le Dossier du Sionisme International**», presses islamiques, Beyrouth, 1968, 17.

(١٦) التايمس، ٢١ آذار، ١٩٢١، نقلاً عن المرجع السابق.

(١٧) هناك مكتبة قائمة في حد ذاتها من حيث أعداد الكتب التي تناولت صحة هذا الكتاب أو دحضته واعتبرته مزوراً. ولكننا نشير الى الكتب التالية:

- **«الصهيونية خطر على الكنيسة والعقيدة المسيحية»**، مونسينيورجوان، السكرتير البابوي الذي قضى عشرين عاماً كاملة يدرس هذه الوثائق ويتتبع آثارها محققاً في كل واقعة تتعلق بها، ووضع نتيجة تحقيقاته دراسة من ٢٤٠٠ صفحة تثبت أن الصهيونية وراء هذا الكتاب.
- **«تاريخ الصهيونية ومحاولتها السيطرة على العالم»**، لامبلان.
- **«هل بروتوكولات حكماء صهيون ضرورة؟»** دي. فريز. op. cit.

(١٨) التونسي، محمد خليفة، الخطر اليهودي، دار الكتاب العربي، بيروت، من دون تاريخ، ص ٣١.

(١٩) المرجع نفسه، ١٢٠ وما بعدها.

الآخر وربما حقد البعض الآخر من انكشاف خضوعه وانغماسه في هذا الخراب. وربما يثير السذاجة والجهل، بينما في الواقع يكاد لا يحصى عدد الملامح التي تتمثل في الأشكال المستترة الذكية أكثر منها في الكلام الحر، والتي تدل على ملامح خطة كاملة موضوعة تسير الأمور وفقها خلال المئة سنة الأخيرة.

من هذه الملامح الممهدة لمفاوضات السلام والتي لا يمكن اغفالها:

- التركيز على بيروت والقاهرة عاصمتين مميزتين في تاريخ العرب المعاصر.
- التطرف السياسي الاسرائيلي والتهديد بالحروب.
- مصادرة كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» في حزيران، يونيو من عام ١٩٩٠ من الأسواق الفرنسية ومغازيه.
- آثار البيرويسترويكا والهجرات اليهودية إلى اسرائيل ونتائجها التي طبعت الاتحاد السوفياتي بأكثر من سؤال واستفهام.
- الحملات اليهودية على الوحدة الالمانية ومحاولة عرقلتها وابتزازها.
- نوربيغا، اميركا اللاتينية، افريقيا.. اذ كيفما نظرنا الى المسرح السياسي وجدنا حضوراً صهيونياً قوياً.

ولا بد من شرح هذه الملامح وخفاياها على سبيل الأمثلة ليس إلاّ.

١ ـ بقي «البيت اللبناني» مرمياً في مشاكل وحروب[٢٠] لا تنتهي. خراب لم يتمكن اللبنانيون من تفسيره. هجرات مسيحية مخيفة هذه المرة. الكلام عن التوطين والحروب الداخلية الآتية كثير. مخاوف كبرى من الانتظار والجمود الواضح والكل يتطلع نوعاً ما الى الجنوب والى ما تفضي اليه محادثات السلام. وفي الوقت نفسه شرعية مؤسسة على نص الدستور/ الطائف. نص تسوية، أو نص هزائم الجميع في الخراب اللبناني؟ كيف يعاد تثبيت تأسيس البيت بدءاً من هذا النص الذي توافق عليه العرب والعالم والذي يعقبه تردد عربي وعالمي واضح في دفع النص أو تنفيذه. الشرعية تتمحور حول أمرين: مساعدة أكثر وضوحاً وتقديم الدعم المادي لها، وتحريك السياسة لدفع قرارات الأمم المتحدة وخصوصاً القرار ٤٢٥ نحو التنفيذ. اسرائيل حاضرة تتغذى من الخلافات العربية، والعرب يغرقون في طوفان من التحليلات، ويغرق موضوع الخلاص اللبناني في تحرير أرضه بالكثير من الكلام الدبلوماسي. السلطة الشرعية اللبنانية تتوقع تليين مواقع واشنطن تجاه القرار ٤٢٥ للضغط على اسرائيل من أجل القبول بتنفيذه.

---

(٢٠) هناك رصد لأكثر من ١٢٠٠ كتاب حول الحرب في لبنان في عشر لغات، راجع نعمان، عبدالله، «الحرب اللبنانية ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥»، دار نعمان للثقافة، جونيه، ١٩٨٥.

والمعروف أنه قرار تابع للبند السادس في ميثاق الأمم المتحدة. وهذا يفترض قبول الدول المعنية بالقرار لوضعه موضع التنفيذ أي إمكان بطلانه. بينما القرارات الصادرة وفقاً للبند السابع لا تقبل الجدل لأن مجلس الأمن ملزم بتنفيذها. ويعتبر اتفاق الهدنة بين لبنان واسرائيل (١٩٤٩) القرار الوحيد الصادر وفقاً لهذا البند الالزامي[٢١].

٢ ـ بالإضافة إلى ما سبق الاشارة اليه، شكلت مصر حقلاً عينياً للاهتمام الاسرائيلي وخصوصاً بعد كامب ديفيد. فقد اقيمت الدراسات والابحاث عبر مراكز تصل حتى إلى الأبسط والأدق في التفصيلات المرتبطة بالمجتمع العربي عموماً والمصري خصوصاً، وهذه ورشة قائمة ومستمرة.

ولو اعتبرنا مصر الضلع الأساسي في عرب الماء من قبيل تقسيمنا للعرب عرب نفط وعرب ماء، أو ضلع العرب عموماً، لقلنا أنه بدءاً من دخول اسرائيل عبر سياسة السادات الى مصر، زالت الفوارق الراسخة في اذهاننا بين القاهرة وعواصم العرب الأخرى. حتى لو تصورنا عبد الناصر حاضراً في مصر اليوم، فهو لن يتمكن من استعادة و/ أو عملقة مصر سياسياً بالنسبة الى العرب على الأقل. كانت القاهرة تتعامل مع الاتحاد السوفياتي مثلاً وتقمع الشيوعيين في الداخل. نوع من ضبط السياسة الداخلية حتى في أشد تناقضاتها مع السياسة الخارجية. وينتهج الرئيس المصري حسني مبارك المدرك لهذا الانحسار المصري عقلانية ملحوظة في سياسة مصر الخارجية، اذ يتنقل متواضعاً بين العواصم عامل تهيئة يعي الخطر الآتي على الجنوب العربي. انه يقوم بزيارات لدول لم يطأها من قبل عبد الناصر. وفي هذا وعي كامل لضرورة الوحدة العربية هذه المرة أمام مخاطر المستقبل في الصراعات التي تعقب العملية السلمية. الكونغرس الاميركي يساعد مصر بملياري دولار سنوياً على شكل منح ومساعدات وأبواب متفرقة. ارتباط فيه الكثير من «ضرورة» توجيه السياسة والمعروف أن للصهيونية باعاً طويلاً في الكونغرس الأمريكي.

والمعروف أن مصر وفق الدور الذي لعبته في تاريخ العرب، شكلت «ملجأ وملاذاً لليهود في أوقات الأزمات التي مروا بها، والاضطهادات التي تعرضوا لها. فمنذ العام ١٦٥٠ قبل الميلاد، هاجر يعقوب واولاده الى مصر بسبب القحط الشديد الذي أصاب أرض فلسطين حيث مكثوا ٣٥٠ سنة. وعلى الرغم من خروج

---

(٢١) راجع دراسة هذا القرار وابعاده والنواقص الكامنة فيه في:
ـ سليم محسن، «**القرار ٤٢٥ وقوات حفظ السلام الدولية في لبنان**»، منشورات المؤسسة العربية للتشريع والأبحاث القانونية، من دون تاريخ أو مركز للنشر.

موسى بالاسرائيليين في العام ١٣٠٠ ق. م. إلا أن علاقتهم بمصر لم تنقطع... هذه العلاقات القديمة انتجت عدداً هائلاً من الأفكار والخطط التي مهدت للتاريخ المعاصر، وخصوصاً في مجال تغلغل النفوذ اليهودي في الصحافة المصرية»(٢٢).

ملاحظة: يكفي المنتوج اليومي العربي من النفط لتحرير مصر ويدفع الى تلاشي عدد من المشكلات الخاصة بسوريا ولبنان من الزاويتين الاقتصادية والاجتماعية، كما يسجل حتماً اعادة نظر في السياسة العالمية.

٣ ـ تتضح هذه المخاطر في أحد وجوهها بين لينغراد وبودابست وبوخارست وفنلندة أخيراً وللأسف: أهم مراكز تهجير اليهود الى اسرائيل. غورباتشوف اطلق البيريسترويكا. اليهود السوفيات راحوا يرحلون. الرئيس الامريكي حدد العدد المقبول في اميركا بـ ٥٠ الف مهاجر. اعتبر العرب أن اميركا تقف الى جانبهم. اصبحت الهجرة الى اسرائيل، اذن، بلا حدود. وقد تتجاوز المليون. اكثر، أقل، من يحدد العدد لنا بالضبط؟ لا أحد. الهجرة تذكي اليمين أو التطرف؟ فالقادمون الى اسرائيل من المجتمع السوفياتي، كانوا يهربون اساساً من مجتمع يزخر بموجات العداء للسامية. والحكومة البريطانية، اذ قررت اقامة وطن قومي لليهود، حددت في كتابها الأبيض (١٩٣٩) الهجرة، عكس الاتحاد السوفياتي الذي لم يحددها.

هذا ما دفع ويدفع الى الكلام عن الحاجة الى اسرائيل الكبرى.

المهاجرون يحملون كرهاً للشيوعية، ويحاربون فكرة التخلي عن الأراضي المحتلة، وهو ما يضعف حجج حزب العمل في اسرائيل.

قد يكون هناك انقياد الى ضرورات السلام بين العرب واسرائيل، يتحملها الطرفان في شكل ضغوط متساوية من الراعي الاميركي. وهذه الأمور تظهر في شكل غير واضح تماماً إلا في انقسامات العرب وتدافعهم القائم على مبدأ النكايات في التعامل مع مشاكلهم وقضاياهم المشتركة.

ربما هناك تعادل نفسي لدفع السلام بين العرب واسرائيل، لكن الأساس أن العرب منقسمون حيال هذه الهجرة. بعضهم يرى أن الدم السوفياتي الجديد يعيد بعث اسرائيل ويضفي شرعية على وجودها، بعدما تمكن العرب من جعل

---

(٢٢) راجع، نصار، سهام، «**اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية**»، دار الوحدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص ٧. ويعتبر هذا الكتاب اضافة مهمة إلى تاريخ الصحافة في مصر وتاريخ مصر السياسي والاجتماعي، فقد صور مواقف الطائفة اليهودية على اختلاف اتجاهاتها تصويراً صادقاً، كما لفت النظر الى عدم ادراك الحكومات المصرية المتعاقبة لخطورة ما كان ينشر في الصحف اليهودية، خصوصاً تلك التي كرست صفحاتها للدعاية للفكر الصهيوني
وايضاً: HASSOUN jacques, «**Juifs du Nil**», Le sycomore, Paris 1981.

الصهيونية[٢٣] مرادفة للعنصرية في الأمم المتحدة. ويرى البعض الآخر أن هذه الهجرة تمكن الاتحاد السوفياتي من الضغط على اسرائيل عبر اتصالات سياسية معها. وهذا ما يدفع التسوية بحيث لا تبقى واشنطن وحدها تقوم بدور الوسيط بين العرب واسرائيل، كما تدفع عملية المفاوضات المباشرة بين اسرائيل والعرب وخصوصاً الفلسطينيين. ولقد تحول هذا المنطق التمهيدي للسلام الى فك طوق الهجرة اليهودية من الدول العربية نفسها[٢٤].

٤ ـ تبدو البصمات الصهيونية واضحة في معارضة التوجه العملي الجدي لتحقيق الوحدة الالمانية. اوروبا تعيد ترتيب وضعها مركز جذب للدبلوماسية العالمية. العلاقات الجديدة بين حلفي وارسو والاطلسي، خفض القوات التقليدية في أوروبا. السقوط النهائي للامح تقسيم العالم اليالطي، واسرائيل مشغولة بالتشويش الاعلامي والتركيز على مخاطر الوحدة الالمانية على العالم، وكذلك طلب التعويضات المادية عما اقترفه الالمان اثناء الحرب عن طريق مساعدات لمؤسسات وجدت لهذه الغاية وتتكاثر كالفطر.

٥ ـ القرار الفرنسي الرسمي الذي قضى بمصادرة كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» من الأسواق، وهو قرار خطير بالنسبة الى دولة تعتبر نموذجية في العالم الحر، من حيث احترام الرأي والقول والكتابة[٢٥].

ويأتي المعنى الكبير في رسم هذه الوقائع ـ الملامح حصراً لا عدّاً، للتدليل على قدرة الاعلام الاسرائيلي على تكوين هذه الملامح بالألوان المتوافقة مع المخططات الصهيونية ومراميها.

نعم، إن كل قوة اسرائيل الاسطورية كامنة في اعلامها. والعودة الى الملمح الثاني السابق، تدلنا على أن بروتوكولات حكماء صهيون يدلل على ملامح ما يحصل من نشاط يبدو مثمراً للسيطرة على اخصب نقطة في العالم؛ نقطة قادرة على ربط قارات العالم عن طريق مياهها، وقادرة على تجميد العالم عن طريق بترولها أو على أن تلهبه عن طريق هذا البترول نفسه. العقدة الكبرى الواضحة هي قصة التلاحم التام بين مصالح اسرائيل والغرب.

ما هو المعنى الأفقي لهذه الاسطورية الاعلامية؟

---

(٢٣) بموجب القرار ٣٣٧٩ وتجديد الولايات المتحدة دعوتها إلى الغاء هذا القرار. راجع الصحف اللبنانية تاريخ ١٩٩٠/٧/٥.

(٢٤) هجرة اليهود من سوريا عنوان أساسي في دفع عجلة السلام التفاوضية بين سوريا وإسرائيل. ولقد سمحت سوريا لهذه الهجرة خلال العام الماضي.

(٢٥) ٢٩ حزيران، ١٩٩٠، راجع الصحف الفرنسية.

الاعلام الصهيوني: الوجه الآخر

ما من قارىء عربي واجنبي مطلع وتشدّه قضايا الشرق الاوسط، إلا ويعرف واصبح يحمل في لاوعيه صورة ثابتة واكيدة أشبه بمسلمة، وهي أن اليهود يسيطرون على الاعلام في العالم.

هذه المسلمة تعود الى:

١ ـ كثرة الكلام عن تفوق اليهود في مجال الاعلام العالمي. والتكرار يولد الحقائق. فجاء هذا التأكيد مثلاً تبريراً لعجز الحكام أو الأنظمة أمام اسطورية الاعلام. والفشل لا يُعوّض إلا بالكلام عن قوة المخططات العدوة. والنتيجة بالطبع تأكيد مقولة التفوق الاسرائيلي على مستوى الناس العاديين. فاليهود اصبحوا اقوياء يسيطرون على شرايين العالم الأساسية: المال والاعلام، ولن يتمكن العالم من أن يخلع هذه الصورة من ذهنه بسهولة.

٢ ـ القناعة الظاهرة العملية التي تتخطى الكلام أو تبرير العجز. وهي مبنية على مدى النجاح الذي حققه اليهود في مجال الدعاية لقضاياهم، فاستطاعوا بالتالي كسب الرأي العام الى جانبهم، وبالاختصار، المنجزات الصهيونية التي في أساسها الاعلام.

٣ ـ عدم التطرق الى أسرار الاعلام الصهيوني الكامنة وراء تفوق اليهود في مجال الدعاية والاعلام والاتصال. وعدم الادراك أن التقاعس العالمي ساهم في هذا التفوق الى حد كبير.

فالجهود العربية الاعلامية مثلاً التي قامت بها بعض المؤسسات الاعلامية (هنا لا نُدخل مكاتب الجامعة العربية في الحساب) كانت تركز على الاعلام الداخلي، أعني توعية الفرد العربي عموماً الى حقيقة اسرائيل ونواياها، بصرف النظر عن أهمية كسب الرأي العالمي في الخارج. وكانت النتيجة أن الفرد أصابته الدهشة في هذا المجال وترسخ لديه أكثر تفوق الاعلام الصهيوني واسطوريته. هكذا بات من السخف والمغامرة التطرق الى مثل هذا الموضوع لأن الإلمام بنشاط الصهيونية في الخارج لم يهتم به أي كاتب سياسي أو أي مركز أبحاث بأشكال وافية.

ولقد اصبح من قبيل المألوف ذلك التفوق الذي نلمسه يومياً في أوروبا والذي ينعكس في الوسائل الإعلامية التي اصبحت طبولاً تقرع لكل ما من شأنه أن يرفع من قيمة اسرائيل ويعزّز حقوقها الكاملة ويبرر سياستها تبريراً مستمراً. والصورة التي يحفظها الأوروبي عن ظهر قلب هي صورة الشعب الاسرائيلي، شعباً مغلوباً على أمره، كيانه مهدد باستمرار من العرب البرابرة، مع النسيان أو التغاضي التامين عن كل المجازر التي تقترفها اسرائيل يومياً بحق العرب والفلسطينيين.

يُضاف الى ذلك أن وسائل الإعلام الغربية تمتنع إجمالاً عن نشر أي رد توضيحي

تظن هذه الوسائل أنه يضر بمصلحة اسرائيل. وإذا صادف وارسلت رسالة احتجاج إلى رئيس إحدى الصحف الغربية، فإن مصيرها سلة المهملات أو نشرها مقتضبة مشوهة في زاوية القراء.

قد لا نبالغ في القول اذا قلنا إن هذا النفوذ الصهيوني مقابل اللانفوذ العربي يشكل عقدة كبرى في تاريخ المثقفين العرب. فأول سؤال يطرحه العربي في أوروبا هو لماذا التقصير العربي أو قل الاخفاق العربي، مقابل النجاح الصهيوني في السيطرة التامة على كل الوسائل الإعلامية؟ وتكثر الاسئلة: ما معنى أن تسيطر فئة ما على الإعلام؟ بل ما هو حجم النفوذ السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي هو في أساس هذه السيطرة؟ هل يعتبر المال عنصراً أساسياً في مجال النفوذ الإعلامي؟ وفي حال الايجاب، لماذا بقي العرب، على رغم تفوقهم المالي وقدرتهم على شراء أهم الوسائل الإعلامية، متقاعسين في مجال الدعاية!؟

هل أن القضية مرتبطة بقدرات الفرد ومستواه العقلي، واتقانه للغات الأجنبية، وذكائه، علماً بأن لدى العرب اجيالاً شابة ذات قدرات علمية نيرة تخرجت من أفضل جامعات العالم؟

ما هو حجم النفوذ الصهيوني: في حقيقته، بل ما هي الأسباب والأفكار التنظيمية التي حققت هذا النفوذ؟ لماذا ينحاز الغرب في شكل صارخ الى القضايا الصهيونية ويحجم في شكل فاضح، في الوقت نفسه، عن قضايا العرب المصيرية؟

ما مدى إلمام الانظمة العربية والمؤسسات الإعلامية العربية بالستراتيجيات اليهودية الإعلامية المعتمدة من أجل قضايا اليهود؟

ماذا نعرف عن الصهيونية وماذا يعرف الصهاينة عنا؟

واخيراً ما هو الدور الحقيقي الذي تلعبه مكاتب جامعة الدول العربية في الخارج، والسفارات والمؤسسات العربية مجتمعة؟ وبسؤال عام: ما هي خلفيات الاعلام الصهيوني الفلسفية؟

ان الإجابة على هذه الأسئلة وأسئلة أخرى كثيرة أمر يبدو صعباً بل مستحيلاً، لذا نورد بعض الأسباب التي شكلت الدافع الرئيسي لهذه الاسئلة.

قتل الماضي

رفعت السفاة اللبنانية في باريس طلباً إلى مركز «بوبور» الثقافي تطلب فيه إقامة معرض ثقافي ـــ ادبي محض بعنوان: «قرن من الأدب اللبناني باللغة الفرنسية». وبعدما تم التحضير لهذا لمعرض، وجمعت المؤلفات والقصائد، ونظمت الفهارس، ارسل مدير المركز جواباً الى السفارة يرفض فيه إقامة مثل هذه المعارض وحجته ان المركز قد تلقى «**عدداً من المقترحات الصادرة عن بلاد محكومة بأوضاع**

جغرافية وسياسية» من اجل إحياء نشاطات مماثلة وأن «كل نشاط أو تظاهرة ثقافية مهما كانت حيادية في مظهرها العالمي، ستدفع إلى تأويلات منحازة، كما ستثير مجادلات وتفسيرات معقدة نأمل بعدم الدخول طرفاً فيها. لذلك نأسف لعدم تمكننا من إقامة معرضكم في مركزنا» (رينيه فييه ـ ٢٠ آذار ١٩٧٨)[٢٦].

وفي شهر كانون الثاني ١٩٧٩، اقام المركز معرضاً ثقافياً لاسرائيل، واعتبر أول معرض تنظمه سفارة دولة اجنبية في أكبر مركز ثقافي في العالم. والحقيقة أن هناك تحيزاً غير عملي وموضوعي واضحاً من ادارة «مركز بوبور أو بومبيدو الثقافي»[*]. كان لا بد من الغوص في دراسة هذه المفارقة وقد تبين لنا[٢٧]:

١ ـ قامت ضجة ودراسات وبيانات احتجاج عند اقرار انشاء المركز من عدد كبير من الكتاب الفرنسيين وهي موثقة في المركز نفسه، ويمكن ايجادها في الصحف الفرنسية المختلفة التي احتجّت على الأموال الطائلة التي يتطلبها انشاء مثل هذا المركز.

٢ ـ مقابل الاحتجاج، كان هناك مباركة من الصحف اليهودية الصادرة في باريس، كما أن الصحف اليهودية في اسرائيل هللّت للفكرة، ولم نجد اثراً لردة فعل عربية واحدة.

٣ ـ لقد تم انشاء هذا المركز في عهد الرئيس الفرنسي الراحل جورج بومبيدو

---

(٢٦) انظر الوثائق الملحقة بهذه الدراسة: ١ ـ ٢ ـ ٣.

(*) مركز بومبيدو، تم تدشينه في ٣١ كانون الثاني من العام ١٩٧٧. أطلقت عليه الصحافة الفرنسية يومذاك تسميات متعددة: سوبر ماركت ثقافي، المصافي الثقافية، المساحة الثقافية الكبرى. والحقيقة أن وراء إنشاء هذا المركز كان الرئيس الفرنسي الراحل جورج بومبيدو والهدف انشاء مركز يكرس لكل اشكال التعبير الفنية المعاصرة وللقراءة العامة. اشترك في المناقصة ٦٨١ مجموعة هندسية في العالم. بدأ العمل في انشائه عام ١٩٧٢، وبلغت تكاليفه ٩٠٠ مليون فرنك فرنسي. ارتفاعه ٤٢ متراً. طوله ١٦٦٠ متراً وعرضه ٦٠ متراً. مساحته الإجمالية مئة الف متر مربع. فيه خمسة أدوار يغطي الواحد منها ٧٥٠٠ م٢، موزعة كالاتي: مكتبة عامة مساحتها ١٥٠٠٠ م٢، وتحتوي مليون وثيقة وتتسع لـ ١٣٠٠ قارىء، ملحقة بها قاعات للاجتماعات والمعارض، ومختبر لغات، ومركز ميكروفيلم وميكروفيش. ثم متحف وطني للفن الحديث مساحته ١٢٢٠٠م٢ يحتوي مجموعة من اللوحات منذ العام ١٩٠٥ حتى اليوم، وغاليري تجريبية للفن المعاصر مساحتها ١٤٠٠ م٢، وصالة عرض، وصالة للتوثيق فيها مكتبة ومجموعة من الوثائق، وصور ورسوم وميكروفيلم. في بوبور مركز للهندسة الصناعية مع صالة عرض دائمة للهندسة، ووسائل الاتصال والاعلام. وفيه معهد دراسات وتنسيق صوتي وموسيقي. يضاف الى كل ما ورد ٣ قاعات للاجتماع، قاعاين للمحاضرات، صالتان للعرض السينمائي، صالة للمسرح، مشغل كبير للاطفال، مطعم كبير ومقهى. يعمل في المركز ٩٠٠ موظف، تبلغ تكلفتهم ١٣٠ مليون فرنك فرنسي سنوياً. في المركز دماغ الكتروني يدير المركز تقنياً ويلتقط سير الحياة المهنية ويوجهها، وهو متصل بـ ٦٥٠٠ مركز للمراقبة. وعند حصول أي حادث طارىء تفتح الأبواب والنوافذ اوتوماتيكياً، وتتوقف السلالم، وهو المركز الوحيد في العالم المزود بجهاز امني عالي الفعالية.

(٢٧) راجع، Dossier de presse في المركز المذكور. فرنسا، باريس، الحي اللاتيني.

الذي كان يشغل صفة الوكيل المفوض لبنك روتشيلد. ويتضح حماس الرئيس الفرنسي بومبيدو وتشجيعه لهذا الأمر من مراجعة صحف تلك المرحلة وخصوصاً مواقف ولده بالتبني آلان بومبيدو.

٤ ـ إن دراسة هندسية تحليلية لهذا المركز تدل على أن بصمات صهيونية فيه، تتضح في أنه يبدو جسماً غريباً بالنسبة الى المحيط القديم التراثي الذي انشىء فيه. فالسلالم والأنابيب والأضواء والمزاريب كلها خارج المبنى الذي يحافظ في الداخل على قاعات هادئة خالية من أي شائبة أو مظهر هندسي غريب. وكأن هناك تضارباً بين الداخل والخارج، بين القديم والحديث. فالعالم الخارجي الحديث هو للعرض وجلب الانتباه، بينما المحافظة على الداخل نقياً، والداخل بمعنى البداية والاساس. والصهيوني قابل لتخريب تراثات العالم والانخراط في مجتمعات الدنيا مع الحفاظ على جذوة مهده الأول، اعني قناعته بأنه صاحب الكلمة الأولى المختارة.

اتصلنا بالسفارة اللبنانية، وكان السفير يومذاك نجيب صدقة الذي لم يكن على علم كامل بالموضوع، وطلبنا الاحتجاج الرسمي لدى المسؤولين الرسميين الفرنسيين على هذا التحيز الظاهر، فلربما أن هؤلاء المسؤولين لا علم لديهم بمشروع المعرض وأن مدير المركز صهيوني النزعة وإلا سننشر مقالاً نبين فيه بالوثائق إهمال الدبلوماسية اللبنانية ومجلس السفراء العرب لمواضيع من هذا النوع. وكانت النتيجة أن وضعت السفارة ملف المعرض المقترح كاملاً بين أيدينا، ورفعت بدورها كتاب احتجاج إلى مدير المركز جاء فيه: «كنا في صدد التحضير لمعرضنا عندما تسلمنا رسالتكم المؤرخة ٢٠ آذار ١٩٧٨ وفيها تعلموننا بأسفكم لعدم تمكنكم من استقبال المؤلفات اللبنانية في مركزكم، بسبب تحفظكم على نشاط البلدان التي تدفع اوضاعها الجغرافية والسياسية الى تأويلات وتفسيرات متعددة. نريد معرفة ما اذا كنتم ما زلتم على موقفكم هذا أو أنكم على العكس تفكرون بتغييره» (٢٦ شباط ١٩٧٩). وجاء الجواب بعد اكثر من ٤ أشهر أي في ١٥ حزيران ١٩٧٩، يقول: إن تأخري في الجواب على خطابكم يؤمن لكم استقبالاً رحباً من اجل تنظيم معرض لبلدكم في مركز بوبور الثقافي، **انما يجب أن يعدل موقفكم من عنوان المعرض: «قرن من الادب اللبناني باللغة الفرنسية»**، إذ يجب أن يكون محدداً بالمنشورات العلمية والتقنية، كما يجب **أن يتمحور على المنشورات المعاصرة على أن نتجنب الخوض في الارتداد الى التراث الماضي واستعادته في معارضنا. إن رسالة مركز جورج بومبيدو والمكتبة العامة للإعلام تؤكد على المظاهر الثقافية الاكثر حداثة كما تؤكد على اشتراك كل بلد يطمح الى نشر نتاجه الثقافي على مستوى عالمي.**

ومن أجل ضرورة البرمجة والتنظيم يمكن أن يتم معرضكم في الفصل الأول من العام ١٩٨١».

ماذا تعني بالنسبة الينا هذه التفصيلات؟

تعني في الدرجة الأولى، بعد اثنتي عشر عاماً من اقامتنا في فرنسا، غياب الإعلام العربي الذي يجب أن تؤمنه على الأقل اجهزة الدبلوماسية العربية. ويعني ثانياً أن قرار قبول المركز باقامة المعرض لم يأت اعتباطياً، بل جاء نتيجة دراسة واتصال بمسؤولين على مستوى عالٍ، والتأخر في الجواب الايجابي (٤ شهور) دليل على دراسة ما يمكن أن يثيره القبول أو الرفض، خصوصاً ان المركز فتح أبوابه لاسرائيل، فكانت الدولة الأولى المستقبلة في رحاب المركز. والدليل الأكثر وضوحاً، الذي يمكن استنتاجه من هذه القصة وأمور كثيرة سنشير اليها مماثلة، أن فرنسا تبدو تحت ضغط النشاط الصهيوني بامتياز في فترة العشر سنوات الأخيرة، خصوصاً بعدما فتحت السياسة الفرنسية نوافذها على الاسواق العربية. فالدليل الواضح الأساسي في الفكر الصهيوني إذن هو العداء للماضي، وهو ما نستشفه من خلال كتاب مدير المركز الأخير.

البنيوية فلسفة ضد الماضي

إن ظاهرة خطيرة بدأت تستبد بالفكر العربي المعاصر وخصوصاً في مجال الدراسات. هذه الظاهرة هي ما يسمى بالبنيوية، وهي عبارة عن دراسة المجالات المختلفة للنشاطات الفكرية البشرية بطرق علمية محض. فأضحى الناقد مثلاً مشرِّحاً مبضعاً، واضحى الاثر المدروس لا يعنينا إلا من حيث أنه نص لا علاقة له بالمنتج أو المبدع، ودراسة الآثار أو التراث مثلاً، لا تكون ابداً بالعودة الى الظروف السياسية والاقتصادية والنفسية المتشعبة التي جاءت تساهم في النتاج.

إذن في دراسة الآداب، والنقد، والشعر، والفلسفة، وعلم النفس، والاجتماع، وحتى في علم الهندسة المعمارية والطب، في العلوم ذات الصفات الأساسية، هناك موجة ضخمة تجتاح أوروبا وأميركا كما تجتاح الشرق الأوسط. والموجة تقول بالانقطاع التام عن الماضي ودراسة ما بين ايدينا من آثار من دون العودة إلى الوراء.

والملاحظ أن الجامعات العربية أدخلت هذه الدراسات في مناهجها، بحيث أن الطلاب العرب الذين يقصدون أوروبا لمتابعة دراساتهم العليا، يتخبطون في فهم هذه العلوم المشتتة، من دون التعرف إلى الغاية من هذا النوع من الفكر أو الفلسفات الكامنة وراءه، حتى أن الكشف عن هذه المضامين يعرض الكاشف للضوء والخطر بالطبع.

ما هو الهدف من الدراسات التي تقطع بين المنتج والنتاج أو المبدَع والمبدِع؟

آباء هذه المدرسة هم جاكوبسون، غريماس، رولان بارت، سوسور، وهم أساساً من اليهود، ويشرحون أن الهدف من هذا اللون الفكري الذي يطغى على المحاولات العلمية للعصر ويجب أن يدخل كل علم، هو جعل الفكر عالمياً وتخليصه من أطره الضيقة، وبمعنى آخر جعله في متناول الناس.

الحقيقة المخفية ليست هكذا، فالتركيز على الحاضر واسقاط كل قيمة عن الماضي أو التراث هو نوع من القطع بين الحاضر والماضي. انه سر كبير من اسرار الاعلام الفكري الخفي الذي تمارسه الصهيونية. سياسياً الهدف من هذه الفلسفة الشائعة منهجاً علمياً، هو تبرير الماضي اليهودي الهش والتركيز على الحاضر، والهدف الأسمى بالطبع هو تخريب العالم والعبث به واسقاط كل ما له قيمة علمية أو غيرها. كيف؟

١ ـ كتاب مدير المركز الثقافي يركز على الحاضر «**مع تجنب الخوض في التراث الماضي والارتداد اليه**»، والتأكيد أكثر على المنشورات المعاصرة والمظاهر الثقافية الأكثر حداثة.

٢ ـ الهندسة التي اعتمدها المركز الثقافي الفرنسي في بنائه، جاءت منسجمة مع هذه الخطة كما أشرنا قبلاً، فهو خارق التطور، غريب الهندسة لا علاقة في الشكل والمساحة بينه وبين الحي اللاتيني القديم الطابع. إنه قطع واضح بين الفرنسي وبين التراث المعماري الفرنسي القديم. والفرنسي صاحب الحس والثقافة معروف بارتباطه بهذا التراث. انه نوع من الألينة المقصودة التي تجعلنا نشير الى ضرورة دراسة هندسة المدن ووظيفة هذه الهندسة بالمعنى الفلسفي(٢٨).

٣ ـ إن المؤتمر العالمي للدراسات «السيميولوجية» الذي يعقد في تورينو ـ ايطاليا في مركز الدراسات الالسنية والذي أسس منذ ٢٥ عاماً، يضم في مجمله الباحثين اليهود من انحاء العالم، الذين يلتحقون بالمؤتمر سنوياً بعد مرورهم بتل أبيب تحضيراً للمؤتمر العالمي(٢٩).

---

(٢٨) في هذا الكلام اشارة الى الفلسفة الهندسية المعمارية وخصوصاً إلى الديفانس La Défense إحدى ضواحي باريس التي لا نراها بريئة عن أهداف تتطلب تحليلها ودراساتها من علماء النفس والاجتماع عن طريق بحث علاقة الانسان بالمساحة واثرها في علاقات الناس بعضهم البعض.
وهناك مطار في بلد عربي له شكل نجمة سليمان يلحظها الزائر فوراً من الجو.

(٢٩) السيميولوجية بمعنى Sémantique، وتهتم بقضايا ذات شأن لغوي محض، فتبحث في جزيئات تركيب اللغات، تفككها لتعيد تركيبها بهدف فهمها. إنها مشابهة للعبة «البازل» حيث كل أمر قابل للتفكيك والتركيب أو إعادة التركيب. وهذا ما نقصد به بالبعد الفلسفي الاعلامي للفكر الذي ليس بالضرورة أن يكون واعياً دائماً لفهم هذا الأمر لا بد من قراءة:
COHEN sang. **«De Gaulle, les Gaullistes et Israël»**, Paris. histoire et actualité, 1974.
HARRIS, André et De SEDOUY, Alain, **«Juifs et Francais»**, Grasset, Paris, 1978.

نصل هنا الى توضيح صورة فلسفة تدمير الماضي.

ونجد في قراءة سريعة للبروتوكول السادس عشر ما يلي: «**سنطمس في ذاكرة الشعوب والانسان العصور الماضية... ولن نترك لها إلاّ الحقائق التي ستظهر اخطاء الحكومات في الوان فاضحة قائمة... وسنهتم بالنظريات الجديدة الحديثة التي سنعلي من شأن قيمتها الى حدّ أن ينيلها من جو الاعتبار ما للعقائد في الاديان، وهذا يقع في دور الانتقال نحو الوصول إلى ديننا في النهاية**»(٣٠).

لماذا تهديم الماضي؟

اليهود كتلة بشرية صغيرة أساساً مشتتة منذ شاوول وداوود وسليمان بين الامبراطوريات الكبرى في وادي النيل والفرات وسوريا والعراق. لم يتركوا حضارة خاصة بهم إلا التوراة، نتاج الف وخمسمائة سنة. واعقبتها مرحلة من الأساطير والملاحم والنصوص الخيالية شكلت مادة التلمود، وهي الخيال اليهودي حول التوراة.

واعتصمت هذه الكتلة بهذين الكتابين منذ عشرين قرناً بالاضافة الى وهم الاسطورة: انهم شعب مختار من الله. ومن سلسلة تشتتهم اتخذوا شكل كيان شعوري ديني منعزل غير قابل للانصهار بالمجموعات الأخرى. وهذا ما لازمهم حتى اليوم(٣١).

هكذا صار وطنهم الوطن الحصول أو النقّال une patrie portative، يختلطون ظاهرياً بالشعوب والأمم لكنهم يضمرون كياناً نرجسياً يشدهم الى ماضيهم المغرق في التقاليد ويجعلهم غير مندمجين تماماً.

بهذا المعنى جاءت اللاسامية بدعة نسجتها الصهيونية في العالم ضد الغرباء بالمعنى العام، وارتدت عليها من ناحية أخرى اعلامياً لتؤكد غرابة الشعب اليهودي ودعوته الى وطنه كما يدعي ويطالب بالحاح، ولاستدرار شفقة العالم الدائمة عليه لغربته.

هكذا عاملهم العالم غرباء لأنهم ارادوا البقاء غرباء، فكانوا يحافظون على تراثهم ونقاوته وعاداتهم في صلب «انخراطهم» بالمجتمعات، وهي عادات دينية في مجملها. ولقد وضعنا كلمة الانخراط بين مزدوجين للتأكيد على الازدواجية الظاهرة والمستقرة في السلوك اليهودي. الانخراط يعني عدم الانخراط للحفاظ على

---

(٣٠) عجاج، نويهض، المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٥٩.

(٣١) PEYREFITTE, Roger, «**Les juifs**», Flammarion, Paris, 1965.

النقاء الأول، الشعب المختار، «عدو الجنس البشري وخادمه في آن حتى الأبد»[٣٢]. ينخرطون ظاهرياً ويبقون على اليهودية باطنياً.

واليهودية ليست ديناً وحسب وانما ممارسة لتسميات شتى كالعنصرية، والصهيونية والاسرائيلية، ولكنها تسميات تحافظ على المضمون الذي تشمله هذه التعابير ويختلط في التاريخ على رغم تكاثر التسميات وتعددها. «اليهودي يهودي قبل أي شيء مهما اعتنق من عقائد وجنسيات»[٣٣].

الموقف من الماضي هو الاعلام الفكري الفلسفي الذي يصعب تلمسه والذي قد نشهده مع رواد الفكر في العالم من اليهود، والذي قد يكون من المضحك تناولهم بالنسبة الينا قبل غيرنا، لأن تناولهم بالنقد يعرض الناقد للسخرية والتهجم والتسخيف.

ولكن ألا يحق لنا التساؤل عن فلسفة نيتشه اليهودي الذي تهجم على المسيحية والاخلاق في كتابه «وراء الخير والشر»، وتنبأ لفلسفة ماركس بالانتشار، كما حدد الدولة التي ستعتنقها، اعني روسيا القيصرية، وما كان أحد يتصور آنذاك هذا الأمر، وقد اكرهت روسيا بالعنف والخديعة على احتضان شيوعية ماركس اليهودي على ايدي اليهود؟[٣٤]

ما هو مفهوم الماضي لدى نيتشه؟ ومثله لدى داروين الذي اطلق مذهب التطور واستعمله دعاة اليهود لدحض القوميات والأديان والقوانين؟ والسؤال عن الماضي لدى ماركس يطرح أيضاً حيال الشيوعية التي تعرضت ايضاً للأديان. «فنحن نتظاهر (والكلام للصهيونيين) بأننا نساعد العمال لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة الانسانية. نبني الشيوعية وهذا ما تبشر به هذه الأفكار. ونحن نستعمل الغوغاء كي نحطم كل شيء قد يثبت انه عقبة في طريقنا. وفي هذا المجال تلتقي الصهيونية بالشيوعية وغيرها»[٣٥].

ألا يصح السؤال عينه بالنسبة الى دوركهايم الذي يُلحق نظام الأسرة بالأوضاع السياسية والاجتماعية المصطنعة من دون أن يخضعها للقوانين النهائية؟ ومنه ننتقل في تقصينا الى سارتر في وجوديته ونشر الالحاد. وفرويد الذي أدخل المسرى الأساسي للعلم نحو الداخل بعدما كان موضوعه الخارج. هذه العودة الى الذات وحصر الميول والآداب والاخلاق والفنون في الغريزة الجنسية

---

(٣٢) التونسي، محمد خليفة، المرجع نفسه، ١٢٠ وما بعدها.
(٣٣) المرجع نفسه، ١٢٢.
(٣٤) المرجع نفسه، ١٢٣.
(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

الـ Libido الكامنة في الداخل، ألا يمكن طرح تساؤلات حولها؟ بالاضافة الى هذه الاسماء، نذكر انشتين ومونتاين، وسيمون فاي، وسبينوزا، وكافكا، وكثير من الأسماء اليهودية. فالصهيونية تجد ما في وسعها لهدم الماضي الآخر عن طريق المذاهب الاجتماعية والسياسية والفكرية والايديولوجية[٣٦]. انهم بهذا الموقف من الماضي وراء الافكار التي تظهر في أزياء الفكر والعقيدة والملبس والسلوك ما دام لهم في رواجه منفعة، وصولاً الى رياح التغيير التي تدور حولها شائعات تعزز النفوذ اليهودي.

هذا الوجه الخفي للدعاوة الصهيونية يمثل الوجه الأكثر دينامية للحركة الصهيونية، الذي يوصل الى الأهداف من دون مباشرة غبية. فالسؤال عن اليهود ونشاطهم الاعلامي يوصل بهذا المعنى الى اجوبة متعددة مختلفة. فاليهود بهذا المعنى عكس المسائل الأخرى قضية من دون جواب محدد. نجدهم في الأفكار المتسربة خلسة الى العالم، وفي السينما، والرسم، والموسيقى، والموضة (وهنا تأكيد صارخ على الحاضر، فلسفة الموضة موضوع دراسة على حدة)[٣٧]، الاسعار، سحق الأسعار، مظاهرات Stock في الاقتصاد الحديث (أو الحاضر الاقتصادي) عالم اللهو، وطبعاً عوالم الاعلام المباشرة من صحف واذاعة وتلفزيون وكتب.

هذه الصفة التعددية التي قد تتناقض مع تشتتهم ونشاطهم، جعلت الملوك والحكام يحتفظون لليهود بصورة الغريب التي يفضلها اليهود. ولأنهم لا يشكلون خطراً مباشراً، تقربوا بدهاء وتفان من الملوك. لذلك كنا نجدهم اشتراكيين في اوروبا الاشتراكية وقابضين على الاعلام والمال في اميركا. ولهذا نفهم الشعار الهتلري الذي اشار الى شقيقين واحد شيوعي والآخر رأسمالي فصلتهما ظروف الحرب ولا بدّ أنهما مجتمعان»[٣٨]. فهل ما نشهده اليوم من سقوط تقسيم العالم إعادة اجتماع للشقيقين في محاولات جديدة تهز كيان العالم؟ سؤال نطرحه ونتركه من دون جواب.

الاعلام واسرار السلطة

ولضمان الرأي العام في الخطة الفلسفية، يعتمد اليهود على ثلاثة[٣٩] اسرار لا بد منها للقبض على زمام العالم بالمعنى الاعلامي:

---

(٣٦) المرجع نفسه، ص ١.

(٣٧) جبران. دكتورة مي، «**الخوصة: سيكولوجيا الانبهار**»، بيروت، الفكر العربي المعاصر، عدد ١٣٥ حزيران، ١٩٨٥.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ١٤٨، ١٦٩.

(٣٩) مستقاة من بروتوكولات حكماء صهيون أيضاً.

أ ـ الأول بث الكثير من التحليلات والآراء المتناقضة في موضوع فكري واحد، حتى يضيع الناس من غير اليهود في متاهاتهم. وبهذا سيفهمون أن خير ما يسلكون من طرق هو أن تسقط آراؤهم نهائياً في الفكر السياسي على الأقل، وتبقى المسائل السياسية والفكرية الكبرى بين ايدي القادة الصهيونيين وقواد العالم المفكرين منهم.

ب ـ يجب أن تتضاعف الاخطاء والعادات حتى لا يتمكن انسان من التفكير بوضوح، عندها يتعطل فهم الناس بعضهم لبعض. وهذه السياسة تساعد اليهود على بذر الخلافات والانشقاقات، وتثبيط أي تفوق فردي، وتعمل على تفكيك القوى الأساسية في العالم.

ج ـ التشتت قوة خفية تظهر في سر التقرب من أصحاب الرأي والحظوة في العالم، مع التركيز على مراكز الدعاية والاعلام. والذي يساعد الحركة الصهيونية على كسب تأييد تكتلات سياسية متناقضة احياناً، هو تعدديتها التنظيمية والايديولوجية التي تعيشها من الداخل، مما يخلق أمامها امكان المناورة في شكل أوسع، يجعلها تمد جسوراً مع كل الدوائر السياسية الحاكمة وغير الحاكمة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة خصوصاً. فاليسار الصهيوني الممثل بحزب العمل الاسرائيلي، استطاع كسب التأييد المطلق للدولية الاشتراكية وأنصارها في اوروبا الغربية، وهؤلاء رأوا في اسرائيل امتداداً للجسم الاوروبي الديمقراطي في منطقة الشرق الأوسط، وطمحوا الى أن يجعلوا منه «مختبراً سوسيولوجياً من أجل تصدير التجربة في ما بعد إلى كل من آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية. بهذا تكون الدعاية الصهيونية قد دخلت الضمير السياسي لأعلى الهيئات القيادية في مراكز النفوذ في العالم الغربي»(٤٠).

الاعلام الصهيوني: الوجه المعلن

هناك الاعلام الصهيوني الذي يتمثل بالنسبة الينا في سيطرة الصهيونية على اجهزة الاعلام المعروفة في العالم، الى درجة أن الانتخابات والنشاطات السياسية في أوروبا وأميركا تكاد ترتبط في شكل نهائي بقوة خفية تمسك الاعلام. والاعلام بهذا المعنى نوعان:

١ ـ الاعلام الخاص حيث يملك اليهود اكثر من ألف صحيفة في العالم بالاضافة الى وكالات انباء ومحطات تلفزيونية واذاعية.

٢ ـ النفوذ في الاعلام عبر وجود ممثلين لهم نافذين في وسائل الاعلام التي لا

(٤٠) الدعاية الصهيونية ونهج التعامل مع محاور الرأي العام، السفير، ١٩٨٢/٤/٤.

تتبع مباشرة لهم، الى درجة أن صحف العالم ووسائله الاعلامية اصبحت تنطق تقريباً بما تنطق به اسرائيل واميركا، عبر توجيه هذه الوسائل وسياستها وحتى تهديد اصحابها والضغط عليهم. والباب الأساسي في هذا النفوذ، إلتماس التغلغل الوظائفي وعلم العلاقات العامة وبث الشائعات في «٩٠ بالمئة من صحف بريطانيا وفرنسا التي تتعاطف مع اسرائيل»(٤١).

وهنا يظهر «الانخراط» اليهودي لتأدية هذين المعنيين في العالم عبر التمكن من لغات العالم، وتملك قدرة المخاطبة للشعوب والأمم وفهم روحها والتمكن من عقلية الغرب ككل. ولهذا نجد أن صحفاً يهودية تصدر باللغات العبرية والفرنسية والانكليزية والالمانية والبولونية والهنغارية والرومانية والروسية والبلغارية واليديش (لغة اليهود). وللتدليل على ما تقدم، ننقل مقاطع مجتزأة من البروتوكولات وخصوصاً الثامن عشر منها حول الصحافة من دون أي استنتاج من قبلنا:

● سنقوم من خلال الصحافة باحراز النفوذ وسنبقى نحن وراء الستار. ويجب أن نعرف أننا بفضل الصحافة كدسنا الذهب وسنكدسه.

● سنقوم بتهييج العواطف الجياشة واثارة المجادلات الحزبية ونشرها في الصحف. وسيكون علينا الظفر بادارة شركات النشر وتحويلها مورداً من موارد الثروة يدر الارباح لحكوماتنا.

● لن يصل خبر إلى اي مجتمع من غير أن يمر على ارادتنا. وستنضم الينا الوكالات جميعاً، ولن تنشر إلا ما نختار منه للتصريح به.

● سنوثق مستقبل النشر بشهادات ورخص تسحب من صاحبها عند أدنى مخالفة، كما أننا سنفرض ضرائب على النشر في الصحافة الدورية. ونعتبر الكتيبات نشرات كي نقلل منها لأنها اعظم سموم النشر فتكاً. وهذا ما يدفع الكتّاب الى نشر الكتب الطويلة التي ستقرأ قليلاً بين العامة لطولها، ولأثمانها الغالية، بينما ننشر نحن كتباً رخيصة الثمن.

وبما أن المؤلفين مسؤولون أمام القانون، سيصبحون بين ايدينا، ولن يجد كاتب ناشراً يرغب في قلمه وينشر له إن لم نحمه. فقبل الطبع لا بد للناشر من اذن من السلطات لنشر العمل، وبذلك نعرف سلفاً كل مؤامرة ضدنا.

● ستظهر الصحف الدورية التي ننشرها كأنها معارضة لآرائنا ونظرتنا. فنوحي بذلك بالثقة الى القراء. ونعرض منظراً جذاباً لاعدائنا الذين سيقعون في شركنا ويكونون مجردين من القوة.

---

(٤١) Quid

«وبفضل هذه الاجراءات، سنكون قادرين على اثارة عقل الشعب وتهدئته في المسائل السياسية. وسنكون قادرين على إقناع الرأي العام وبلبلته بنشر الأخبار الصحيحة أو الزائفة. الحقائق أو ما يناقضها حسبما يوافق اغراضنا. والاخبار التي ننشرها تعتمد على الاسلوب الذي يناسب هذا الشعب. وسنحتاط دائماً احتياطاً عظيماً لجس الأرض قبل السير عليها».

هكذا نفهم، وببساطة كلية، التركيز الصهيوني على الصحافة باباً أساسياً من أبواب الدعاية والحكم. والصحافة هنا شاملة لكل وسائل الاتصال المعروفة في العالم. ولكنها تسير وفق منهجية غير مباشرة ويندر أن تكون مباشرة إلا في الكيبوتزات وداخل المجتمعات اليهودية الضيقة.

وبهذا يكون الاعلام الصهيوني نوعين آخرين:

١ ـ مباشر في توجهه نحو الداخل. ويتخذ الاعلام بهذا المعنى وظيفة تربوية تساعد على بناء المجتمع «المنشود والموعود».

٢ ـ غير مباشر في اتصاله بالخارج.

مداخل الاعلام الصهيوني الفكرية

يعتبر التركيز على **عقدة الذنب** من المداخل الفكرية الاساسية، ويعتبره اليهود منطلقاً أساسياً لعمل أجهزة الاعلام والدعاية الموجهة نحو الخارج. فالعالم يعيش عقدة ذنب مستمرة تجاه اليهود. وهي تقود بالطبع الى تذكير العالم بأنه يحمل عبئاً يفرض عليه سلوكاً ايجابياً تجاه اسرائيل. ولهذا تتحول عقدة الذنب عقد مسؤولية، وبهذا التحول نفهم كيان دولة اسرائيل من الأساس.

وهذا الكيان الذي شرّعته الصهيونية في العالم أصبح حقاً مكتسباً في النشاط الاعلامي الصهيوني، ولم يعد الهدف يقتصر على حق اسرائيل بالوجود وانما على التحكم بالمنطقة وربما بالعالم ككل. وهذا هو المدخل الفكري الثاني الأساسي في ايديولوجيا الاعلام الصهيوني. ويتحول هذا المدخل في عالم الاعلام افكاراً مسبقة لا داعي لشرحها بينما هي تيارات فكرية تعتبر منطلقاً لكل النصوص الاخبارية والاعلامية: انه الاعلام الذي يمتد الى اللاشعور الجماعي ويصور اسرائيل القوة السياسية الواقعية.

أما المدخل الثالث الفكري، فيقوم على سياسة الهجوم الاعلامي لتأكيد المدخلين السابقين، وهو ما يعرف بالحملات الصهيونية ويطال السياسة والدين والنفط، ولا محرمات في هذا المجال.

تحت هذه المداخل الفكرية الثلاثة، لا يمكن احصاء النتاج الاعلامي الصهيوني في العالم ككل، بل يجب تقسيمه بلداناً أو قارات على الأقل. فقد نتمكن في وقت آخر من رصد مظاهر النشاط الاعلامي الصهيوني في فرنسا، وأميركا أو غيرهما، وإلا فان سرد الوقائع يبقى ارتجالياً في هذا المجال.

ومن المظاهر العامة التي تعتمدها الصهيونية[٤٢] في انجاح هذه المداخل الفكرية الثلاثة، على سبيل المثال:

- التركيز على الغرائز والاساطير باباً تنزلق منه الى القناعات وفق مقولة AIDA انتباه ـ فكرة ـ رغبة ـ شراء A (Attention) I (Idée) D (Désir) A (Achat)
- عندما تركد السياسة الدولية يعمد اليهود الى اثارة المشكلات عن قصد.
- الاستعانة بالمرأة في مجمل الدعايات والتركيز على الجنس غريزة أساسية في بث الأغراض المرسومة.
- اعتماد التكرار أساساً للاعلام الجيد. «وقد استطاعت العقائد البقاء لأنها تكرر الشيء نفسه منذ الفين من الأعوام»، كما قال غوبلز وزير الدعاية في زمن هتلر. والتكرار نشهده في نهج الخطباء والمغنين والمشهورين من الناس.
- اعتماد الحملات وفق منهجيات دقيقة وباستخدام الاخبار الكاذبة وسيلة للاقناع والاثارة وخصوصاً أيام الحرب. والشائعة هنا، علماً قائما بذاته، تحتاج الى جعلها مادة أساسية للتعليم والتمحيص وكشف الدور الصهيوني في هذا المجال.

واننا نستغرب من أنه كلما اصبحت درجة الكذب كبيرة كلما ازداد تأثيره على العامة وصعب تصحيحه. والاعلام بهذ المعنى ينصب على شرعية العاديين أكثر من المثقفين ويركز على العواطف لا العقول.

والجمهور يفكر على النحو التالي: انهم ما كانوا يجرأون على توكيد شيء كهذا لولا انهم ليسوا على ثقة بالأمر. هكذا نجد أن الاعلام الصهيوني يمكنه أن يقدم، بهذا المعنى، الى الرأي العام اشخاصاً لا وزن لهم على انهم ابطال الأمة وأملها. وحتى لو كانت سمعتهم ملوثة يتمكن الاعلام من محوها. واليهود لا يتورعون عن وصم الرجل الشريف مثلاً بكل نقيصة، حتى انهم يصلون الى انتقاد حياته الخاصة، وفضح أسرار عائلته، واذا لم يجدوا شيئاً يوصمونه به، يلجأون الى تلفيق الأخبار في الصحف آملين أن يعلق منها شيء في أذهان الناس.

---

(٤٢) النداء، ١٩٨٣/٢/٢٠. ولمزيد من التفاصيل حول الموضوع راجع: حاتم، محمد عبد القادر، «**الرأي العام وتأثره بالاعلام والدعاية**»، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣.

هذه المظاهر ليست من ابتكار اليهود بالطبع وحدهم، فقد نجد ما يماثلها في تجارب أخرى ومنها التجربة الاعلامية النازية. والملاحظ أن تماهي اليهود بالمحتل أو القاتل جعل هذه المظاهر تترسخ وتتبلور أسساً منهجية في نجاح الاعلام الصهيوني.

يبقى الاعلام المباشر الذي لن يأخذ منا الكثير من الجهد. وهنا نكون قد وصلنا إلى لب الصراع الفعلي بين العرب واسرائيل. إن الاعلام المباشر هو الوجه الفعلي للعقيدة. فالكيان الصهيوني قائم أساساً على العقيدة التي لها جذورها التاريخية في نفوس اهلها ولا تحارب إلا بعقيدة أخرى.

لا مجال هنا لتفصيل الاعلام الصهيوني الداخلي الذي يفترض دراسة المناهج التربوية وتفصيلات الكيان الصهيوني وأسس تنظيمه وغيرها من الأمور التي تبقي الباحث متسائلاً أمام وهج هذه العقيدة التي تجذب اليهودي الى هذا العالم المليء بالمخاطر. ولا يبدو موضوعياً أن العرب تنقصهم العقيدة «ولا يمكن لهم أن يخدعوا إلى هذه الدرجة، بل يكونوا على حذر... مستعدين لسنة واحدة ولا لعشر سنوات بل لقرون طويلة حتى يتجنبوا الخطر الذي تجابههم به الصهيونية في الأمم المتحدة (والعالم) وسوف لن يخضعوا لهذه الحالة...»(٤٣).

لن يخضعوا؟ وهم مدفوعون إلى سلام غير متوازن وغير متكافىء.

نستعيد قولاً للحاخام الأكبر لمدينة زاكلين Zaklin البولونية في العام ١٩٠٢ إذ يرى أن «الذاهبين من اليهود إلى فلسطين سوف يقترفون جرائم واخطاء تؤهلهم لسبي جديد يفوق قسوة ما سبقه من قبل...»(٤٤).

وبهذا تنطبق عليهم نبؤة اشعيا «ويل للبنين العاقّين، يقول الرب، الذين يعقدون مشورة ليست مني، ويبنون عهداً ليس من روحي ليزيدوا خطيئة على خطيئة. هؤلاء الشعب كذبة يأبون أن يسمعوا الشريعة. يقولون للرائين لا تروا وللأنبياء لا تتنبأوا لنا بما هو الحق، بل كلمونا كلاماً مطلقاً وانبئونا بالغوايات..»(٤٥).

---

(٤٣) من خطبة لرئيس الوزراء الاسبق فارس الخوري في سوريا ومندوبها في الأمم المتحدة أمام اللجنة السياسية للأمم المتحدة، في ٧ تموز/يوليو، ١٩٤٨، (من أوراق المؤلف وارشيفه الخاص).

(٤٤) Goldmann. **«Où Va Israël»**, Calmany-Levy, Paris, 1975.
وقد نقله المؤلف إلى اللغة العربية بعنوان: اسرائيل إلى اين، دار المشرق العربي الكبير، بيروت، دمشق، ١٩٨٥، الطبعة الأولى، نافذة.

(٤٥) اشعيا، فصل ٣، مقاطع ١ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠.

(١) قاطعوا الإنتاج الفرنسي...

منشور وزّعه المحاربون اليهود القدامى للضغط على الجنرال دوغول بعد حظر شحن الأسلحة الى اسرائيل.

EVICTION DE LA PRODUCTION FRANCAISE

N'ACHETEZ PAS DES VOITURES FRANCAISES

JOIGNEZ LES ANCIENS COMBATTANTS JUIFS, EN BOYCOTTANT LES MARCHANDISES ET LES SERVICES FRANCAIS.

Le Président de Gaulle, de France, a mis en action l'usage d'armes économiques dans le Moyen-Orient combattant, en plaçant un embargo sur l'équipement militaire acheté et payé par Israel avant la Guerre des Six Jours.

Le rejet délibéré d'une nation amie rapproche la France de l'Union Soviétique et pose une menace directe pour la paix dans le Moyen-Orient.

La France continue à vendre des missiles "sol-sol", des avions, des voitures blindées à la République Arabe Unie, à l'Arabie Séoudite, à l'Irak et à la Libye, fortifiant ainsi la capacité militaire des ennemis jurés entourant Israel.

* Faites savoir à de Gaulle que le boycottage est une arme à double tranchant. Il coupe des deux côtés.

* Faites savoir à de Gaulle que, nous Américains, ne prendrons plus les vols d'Air-France, que nous n'irons plus en France, que nous n'achèterons plus ni les automobiles françaises, ni les textiles, ni les vins, ni les parfums, ni aucun autre produit français.

* Faites savoir à de Gaulle que, nous Américains, qui deux fois, dans le passé de ce demi-siècle, avons risqué nos vies sur le sol français, ne resterons pas assis paresseusement et silencieusement pendant qu'il poursuit sa politique anti-américaine dans le Moyen-Orient et autre part.

* Faites savoir à de Gaulle, par l'intermédiaire des commerçants locaux, que vous n'achèterez plus de produits français.

N'ACHETEZ PAS LES MARCHANDISES ET LES SERVICES FRANCAIS.

ANCIENS COMBATTANTS JUIFS - Etats Unis d'Amérique
276 - 5ème Avenue - New York, N.Y. 10001

(٢) نداء مستعجل!

أنقذوا اسرائيل! اسرائيل في خطر!

INSTITUT FRANCO-ISRAÉLIEN DE RECHERCHE MÉDICALE

Président :
M. le Recteur Jean ROCHE
Membre de l'Institut
et de l'Académie de Médecine

Secrétaire Général :
Prof. Bernard JASKARZEC

COMITÉ D'HONNEUR

Prof. Henri BARUK
Membre
de l'Académie de Médecine

M. Henri BONNET
Ambassadeur de France

Prof. Paul BOQUET
de l'Institut Pasteur

Prof. Albert CAQUOT
Membre de l'Institut

Prof. Jacques CAROLI

M. René CASSIN
Prix Nobel de la Paix

M. Roger GARREAU
Ambassadeur de France

Prof. S. GITTER
Doyen de la Faculté de Médecine
de l'Université de Tel-Aviv

Prof. Bernard HALPERN
Membre de l'Institut

Prof. François JACOB
Prix Nobel de Médecine

Prof. Alfred KASTLER
Prix Nobel de Physique

M. Joseph KESSEL
de l'Académie Française

Prof. Pierre LEPINE
Membre de l'Institut

Prof. André LWOFF
Prix Nobel de Médecine

Prof. Jacques MONOD
Prix Nobel de Médecine

S.A.I. le Prince
Louis NAPOLÉON

M. Gabriel PALLEZ
Directeur Général de
l'Assistance Publique

M. Émile ROCHE
Président du Conseil
Économique et Social

M. Jean ROSTAND
de l'Académie Française

Prof. André de VRIES
Ancien Recteur de l'Université
de Tel-Aviv

Prof. Étienne WOLFF
de l'Académie Française
Administrateur
du Collège de France

Prof. E. L. WOLLMAN
de l'Institut Pasteur

ASSOCIATION FRANÇAISE
DES AMIS DE L'UNIVERSITE DE TEL-AVIV

Association régie par la loi de 1901 et déclarée sous le n° 69/1822

45, rue Cardinet
PARIS 17e - Tél. : 267-48-07

APPEL URGENT !

8 Octobre 1973

Le Gouvernement israélien fait un appel pressant auprès de tous les amis d'Israël dans le monde.

Une aide exceptionnelle et immédiate est demandée pour faire face à la situation actuelle et à ses conséquences économiques : la survie d'Israël est en jeu.

Notre Association recueille toute contribution pour répondre à cet appel.

Les sommes rassemblées seront intégralement versées au Fonds d'Aide à Israël et un reçu spécial sera adressé à chaque donateur.

Merci d'avance et de faire vite,

Pour le Conseil d'Administration
Le Secrétaire général,

B. Jaskarzec

P.S. Libellé du chèque au nom de l'A.F.A.U.T.A.
(Association Française des Amis de l'Université de Tel-Aviv)
C.C.P. : 31754-48 - La Source.

(٣) اشتروا البضائع الاسرائيلية، واعتمدوا الاقتصاد الاسرائيلي.

OPERATION SOURIRE D'ISRAEL

réalisée par le G E P I

GROUPEMENT POUR L'EXPANSION DES PRODUITS D'ISRAEL

avec la caution du Comité de coordination des organisations féminines juives de France

Ce groupement a pour but de mieux faire connaître les produits israéliens en France. Il est de notre devoir à tous d'apporter notre soutien à l'économie d'Israël et à ses produits. Pour vous permettre de les apprécier, ou de les faire apprécier par vos amis ou relations, composez vous-même dès aujourd'hui votre colis « SOURIRE D'ISRAEL » en remplissant le bon de commande ci-après.

TARIF - BON DE COMMANDE

(à envoyer ou à recopier) - Cocher les produits désirés dans les cases correspondantes

ATTENTION : La commande minimum est de 100 F plus 10 F frais de livraison.
Pour les commandes de 150 F et plus, la livraison est gratuite.

DESIGNATION	Prix unitaire	Quantité	TOTAL
CONFITURES 778 extra			
☐ Pamplemousse, ☐ Citron, ☐ Orange — pot de 340 g	3,60		
☐ Pêche	3,80		
☐ Prune	4,50		
☐ Fraise	4,65		
☐ Abricot	4,15		
☐ Coing	3,85		
ENTREMETS			
POTAGE TELMA			
☐ Etuis de 2 sachets, l'étui	3,50		
PATE ASCER ISRAEL AUX ŒUFS FRAIS			
☐ Vermicelle			
☐ Nouilles			
☐ Plombs			
☐ Langues d'oiseaux			
☐ Carrés le paquet de 200 g	2,10		
☐ Sauce tomate, ☐ Champignons, ☐ Curry, ☐ Oignons — **Sauces TELMA** les 3 sachets	3,00		

DESIGNATION	Prix unitaire	Quantité	TOTAL
SPECIALITES TELMA			
☐ Houmous, la boîte de 310 g	3,20		
☐ Tehina, la boîte de 310 g	3,20		
☐ Mayonnaise, le tube	2,00		
☐ Moutarde, le tube	1,80		
JUS DE FRUITS			
☐ Orange, bouteille de 1 litre, le carton de 12	33,60		
☐ Pamplemousse, bouteille de 1 litre, le carton de 12	37,20		
VINS ET ALCOOLS			
☐ AVDAT, blanc sec, le carton de 12 bouteilles	84,00		
☐ AVDAT rosé, le carton de 12 bouteilles	84,00		
☐ AVDAT rouge, le carton de 12 bouteilles	84,00		
☐ VIN DOUX Château Richon, le carton de 12 bouteilles	152,16		
☐ SPARK WINE « Président », le carton de 12 bouteilles	173,16		
☐ SPARK WINE « Sambation », le carton de 12 bouteilles	208,20		
☐ VODKA PIETROWKA, bouteille de 62 cl, recette sur la bouteille du cocktail au jus de fruit « Sabra », la bouteille	27,00		

Votre total commande ..... ☐

Remarque : En ce qui concerne le vin AVDAT, vous avez la possibilité de panacher le carton de 12 bouteilles dans les 3 sortes de vins : rouge, rosé et blanc.

Retourner ce bon de commande accompagné de son règlement par chèque bancaire ou postal à l'adresse suivante : LES FEMMES PIONNIERES, 12, rue de l'Echiquier, 75010 Paris.

■ **Les chèques doivent être libellés à l'ordre de « Sourire d'Israël, Paris »** ■

NOM : ..... *Prénom :* .....

Adresse complète : .....

Signature :

Pour vos colis cadeaux destinés à vos amis ou relations, indiquez au dos de ce bon de commande le nom et l'adresse du destinataire en joignant le montant correspondant.

et n'oubliez pas ! Acheter et consommer israélien c'est soutenir l'économie d'Israël.

(٤) من المعارض التي تنظّمها الصهيونية في فرنسا.

«اليهود في خطر. جنّدوا نفسكم لاسرائيل»...

المسألة الكردية

د. ميشال سلامة(*)

تستأثر المسألة الكردية باهتمام شريحة واسعة من وسائل الإعلام. والأمر ليس بجديد، فمنذ انهيار السلطنة العثمانية بعد الحرب الكبرى العام ١٩١٨، وهذه المسألة تشغل الدول التي ضمّت العدد الأكبر من الأكراد، وهي تركيا والعراق وإيران، حيث تشكل مسألة داخلية وخارجية. وفي الدول الثلاث، تعاقبت ثورات الأكراد الدموية، وقامت محاولة إنشاء جمهورية كردية في إيران العام ١٩٤٦، وبُذلت جهود كبيرة للحصول على استقلال ذاتي في العراق. وقويت حرب العصابات منذ ١٩٧٩ في تركيا والعراق وإيران، وأخيراً جعلت حرب الخليج (١٩٩١) من القضية الكردية مسألة دولية. وكان لنشاط الأكراد في الشرق الأوسط أصداء بين جالياتهم في أوروبا ولدى الأقليات الكردية في أرمينيا وأذربيجان.

وما تصبو إليه الحركة الكردية هو التخلص من حالة «الأقلية» بقيام دولة أو استقلال ذاتي على الأقل، مما اصطدم دوما برفض الدول التي يقيم فيها الأكراد باستثناء محاولة حكم ذاتي في العراق، تبعها منذ ٥ نيسان ١٩٩١ قيام منطقة محمية كردية في شمال العراق بموجب القرار ٦٨٨ الصادر عن مجلس الأمن، حيث يسعى الأكراد إلى تنظيم حكم ذاتي بهم (انتخابات لمجلس تشريعي، اعلان دولة فدرالية، البدء بانشاء جيش نظامي). ولكن تركيا وإيران وسوريا، وفي اجتماعات متعددة، أكدت دوماً معارضتها قيام دولة كردية في شمال العراق، متمسكة بوحدة الدولة العراقية.

١ ـ موطن الأكراد واعدادهم

يقيم الأكراد في منطقة جبلية متماسكة تمتد من بلاد ما بين النهرين في الجنوب إلى

(*) متقاعد، سفير لبنان في ابيدجان ثم في لاغوس سابقاً.

اذربيجان وأرمينيا في الشمال، وإلى جنوبي شرقي تركيا، وإلى شمالي غربي إيران.

ولم تكن حدود كردستان واضحة ودقيقة على مر العصور. وقد اختلط الأكراد بالأرمن في جنوب أرمينيا على الأخص، وازداد عددهم بفعل السياسة التركية التي شجعت هجرتهم بعد كل مذبحة أرمنية (١٨٩٥ ـ ١٩٠٩ ـ ١٩١٥ ـ ١٩١٦).

كما اختلط الأكراد بالأتراك في مناطق دياربكر ومردين. وفي أعالي بلاد ما بين النهرين اختلط بالعرب والأتراك والتركمان. أما في إيران، فبلاد الأكراد لها حدود طبيعية عند بحيرة أورمية، وتمتد جنوباً حتى كرمنشاه.

وكردستان بلاد جبلية تشمل جبال طوروس الشرقية وجبال زغروس الشمالية، وبعض قمم هذه الجبال تصل إلى ٣٢٠٠م ويتوجها شمالاً جبل ارارات (٥١٦٥م). وهذه الأرض الجبلية صعبة المسالك، أتاحت للأكراد التمتع بحكم ذاتي على مر العصور انما اخرت لحاقهم بالمدنية الحديثة. وبعد الحرب الكبرى، عمدت الدول إلى شق الطرق في بلاد الأكراد لأبعادٍ ستراتيجية. ففي الشمال، طريق هاميلتون على اسم المهندس الانكليزي الذي شقها وعبّدها بين ١٩٢٧ و١٩٣٢، كما بنت الحكومة العراقية طرقات وسيعة وجميلة في مناطق الأكراد، وكذلك فعلت تركيا.

وبلاد الأكراد خصبة ترويها الأمطار التي يتساقط منها ٢٠٠ إلى ٤٠٠ ملم في السهول، حتى تصل إلى ٧٠٠ ملم في الجبال المتوسطة الارتفاع، وحتى ٢٠٠٠ ملم في المناطق الجبلية الأكثر خصباً. وهذه البلاد الجبلية، تمّر فيها أنهار عديدة قصيرة انما غزيرة منها ما يصب في بحيرة فان Van بتركيا (١٧٠٠م) أو في بحيرة أورمية في إيران (١٢٢٠م). أما سواعد نهر دجلة فأهمها البهتان والزاب، وسواعد الفرات التي تمر في بلاد الأكراد أهمها كاراسو ومويراسو.

والمواد الطبيعية في هذه البلاد الخصبة تقوم على المراعي والغابات. والسنديان هو الأكثر انتشاراً، إنما قطع الأشجار غير المنظم قضى على مساحات واسعة من الغابات أمست مناطق عارية من الشجر، انما تكسوها في الربيع الأعشاب والزهور البرية. وعلى ضفاف الأودية وبالقرب من الينابيع، يُزرع الحور الذي يكثر في القرى وحولها. وأهم المزروعات في كردستان: القمح، الشعير، الشمندر السكري، والتبغ على الأخص. والكرمة في الجبال خصوصاً. أما الخضار المنتشرة فهي: البصل، البندورة، الخيار، الباذنجان، الباميا والفلفل. والمواشي الأكثر انتشاراً: الغنم والماعز والبقر، والطيور الداجنة: الدجاج. وللاكراد عناية خاصة بالحجل الذي يربونه في أقفاص.

ويبقى المورد الطبيعي الأهم، المعادن لكنها ليست بيد الأكراد بل بيد الدول التي يتبعون لها وأهمها: الحديد، والفحم الحجري والنحاس في تركيا، والبترول في العراق (في كركوك خاصة).

مناطق سكن الأكراد

Les zones de peuplement kurde

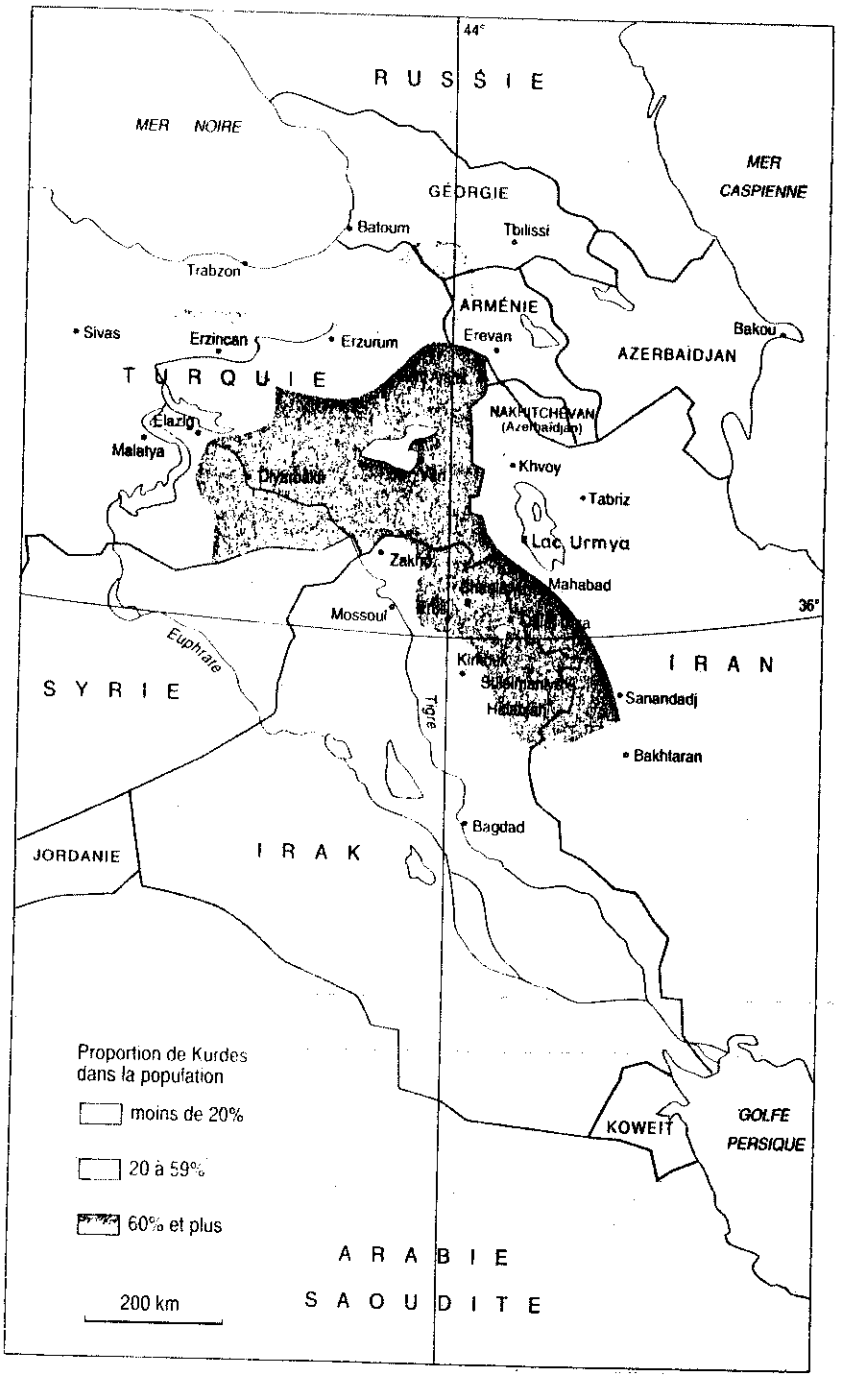

ويقيم الأكراد في قرى معلقة تلتصق فيها البيوت بلحف الجبل، وتعلو البيوت صفوفاً فوق بعضها البعض، ويتراجع كل صف منها عن الصف الأسفل منه، فيكون صف السطوح السفلى مصاطب للبيوت العليا. وهي مبنية بالحجارة مع فتحات ضيقة للوقاية من البرد، وسقفها من جذوع الشجر وأغصانها يعلوها طبقة من التراب المحدول، وأرضها من التراب المرصوص، فهي بذلك تشبه بيوت «القز» القديمة في جبال لبنان.

وما يزال الأكراد يحافظون في قراهم على لباسهم التقليدي الذي هو عبارة عن سراويل فضفاضة للرجال مع قميص وزنار عريض، أما النساء فترتدي الفساتين الطويلة وتحتها سراويل مزمومة حول الكاحل. والرجال والنساء يلفون رؤوسهم بعصبة أو عمرة كبيرة. وألوان الملابس التقليدية فاقعة، ولكن حدة ألوانها خفت. أما الجيل الجديد فصار يميل إلى اللباس الأوروبي وخاصة عندما يقيم في الحواضر والمدن[١].

توزيع الأكراد[٢]

البلد	عدد الأكراد	نسبة الشعب الكردي	عدد سكان البلاد الاجمالي
تركيا	١٢ مليون	٪٥٠	٥٨ مليون
إيران	٦ ملايين	٪٢٥	٥٦ مليون
العراق	٤ ملايين	٪١٦	١٨ مليون
سوريا	مليون تقريباً	٪٤	١٣ مليون
اذربيجان أرمينيا جورجيا آسيا الوسط	٣٠٠ ألف	٪١,٥٠	
أوروبا	٦٠٠ ألف	٪٣	
متفرقات	١٠٠ ألف	٪٠,٥٠	
(منها في لبنان حوالي ٣٠ ألف)			
المجموع:	٢٤ مليون		

(١) MORE Christiane, «**Les Kurdes Aujourd'hui**». éd. L'Harmattan, Paris, 1984 P.P. 28-33.

(٢) PICARD Elizabeth«**La Question Kurde**». éd. Complex, Bruxelles, 1991, P.9.

٢ ـ أصل الأكراد ولغتهم ودينهم

ـ أصلهم

الأصل التاريخي للأكراد ما يزال موضوع بحث بين أهل الاختصاص. ويعتقد بعض العلماء ان الأكراد هم أحفاد الميديين (MEDES)، وهو شعب آري، أسس في القرن الثامن قبل المسيح دولته في الاصقاع المعروفة اليوم باسم اذربيجان، ثم زحف الميديون نحو الجنوب الغربي واحتلوا نينوى عاصمة الاشوريين العام ٦١٢ ق.م.، واختلطوا بالشعب الأصلي المسمى بالشعب الكردوشي (KARDOUCHES) في المناطق الجبلية في شمال بلاد ما بين النهرين وغربي بلاد فارس حيث يقيمون حتى الآن[٣].

ـ لغتهم

يتكلم الأكراد لغة من اللغات الهندية الأوروبية قريبة من اللغة الإيرانية. ومعظمهم يتكلمون لغتهم ولا يعرفون غيرها. وتتفرّع لغتهم إلى لهجات، أهمها الكورمانجي والسوراني. والكورمانجي منتشرة في شمال وغربي الكردستان، (أي في القوقاز وتركيا وسوريا) وهي لغة أدبية مكتوبة بالحرف الكيريليّ في القوقاز، وبالحرف اللاتيني في تركيا وسوريا، أما السوراني فهي منتشرة في إيران والعراق وهي مكتوبة بالحرف العربي. وبالإضافة إلى هاتين اللهجتين هناك لهجات عدة قليلة الانتشار أهمها الـ «زازاي» (ZAZAï).

ومسألة وجود لهجتين كرديتين، وثلاث أبجديات لكتابتها، تشغل المفكرين والمثقفين الأكراد لتوحيد لغتهم، وهم عقدوا ندوة في أيار ١٩٨٣ في المعهد الكردي في باريس وتدارسوا الموضوع، وكان تجاذب بين استعمال الأبجدية اللاتينية أو الأبجدية العربية، وصدر التمني إلى الكتاب الأكراد بأن يعتمدوا الأبجدية اللاتينية[٤].

ـ دينهم

كانت ديانة «مازدا» منتشرة قديماً في حواضر بلاد كردستان، إلى جانب الوثنية المنتشرة في الأرياف بين أغلبية الشعب. ولاقت الديانة المسيحية مصاعب بأن تتغلغل في جبال كردستان. وأتى غزو تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر بضربة قاضية للاديار والوجود المسيحي في تلك الاصقاع. ولكن ما يزال يعيش

---

(٣) CHARBY Laurent «**Politique et Minorités au Proche-Orient**», éd. Maisonneuve et Larose, Paris, 1987, P. 252.

(٤) المرجع (١) ص. ٤١ ـ ٤٣.

بين الأكراد مئات الألوف من المسيحيين وخاصة في مناطق ماردين في تركيا، والموصل في العراق، وحول بحيرة اورمية في إيران.

وقد قاوم الأكراد الفتح العربي، وخاصة في الموصل وتكريت (٦٠٧ ـ ٦١٦). وكانت مقاومتهم كردة فعل من قبائل جبلية ضد قبائل أخرى آتية لتزاحمها على المراعي ولتفرض عليها دينها وشريعتها. ولكن ما لبثوا ان اعتنقوا الإسلام في القرن السابع بعد الميلاد. فالأكراد اليوم مسلمون، أكثريتهم الساحقة سنّة وبينهم أقلية شيعية في إيران (في منطقة كرمنشاه). وبينهم فرقة اليزيدية التي لا تتجاوز المئة ألف نسمة، وتعتقد ان الله خالق الكون وان سبعة ملائكة يحافظون عليه، رئيسها الملك الطاووس وهو الملاك الساقط (مثل الشيطان). ولذلك يتهم اليزيديون بأنهم عبدة الشيطان. وفي طقوسهم من الإسلام الختان والصوم، ومن المسيحية العماد.

ومن الأكراد فرقة «أهل الحق»، وهي فرقة شيعية متطرفة تعتقد بدورات للخلق في الكون، ومعظم اتباعها يعيشون في غربي إيران.

وقد أخلص الأكراد للإسلام وأعطوه محاربين أشداء. وكان لهم بقيادة صلاح الدين الأيوبي دور حاسم في رد الصليبيين عن الشرق. وكان منهم العديد ممن تبوأوا مركز «شيخ الإسلام» في السلطنة العثمانية.

وبالإضافة إلى النخبة من الفقهاء والعلماء، ينتمي معظم الشعب الكردي إلى جمعيات أو أخويات روحانية، أهمها طريقتان:

ـ **القادرية** التي أسسها الكردي عبد القادر الغيلاني (١٠٧٨ ـ ١١٦٦)، وهي ذات انتشار واسع في الأوساط الكردية في العراق منذ القرن الثالث عشر، وتنتمي إليها عائلة الطالباني.

ـ **والنشقبندية** التي أسسها الصوفي محمد بهاء الدين البخاري (١٣١٧ ـ ١٣٨٩)، وهي منتشرة في صفوف الأكراد في سوريا، وتركيا وإيران والقوقاز. وتنتمي إليها عائلة البرازاني. وقد لعب مشايخ هاتين الطريقتين في العصر الحديث وقبل قيام الأحزاب المنظمة في منتصف القرن العشرين، دوراً هاماً في قيادة الشعب الكردي في الثورات على الأتراك وعلى الانكليز ثم في العراق وفي إيران من أجل الدفاع عن الشعب والمطالبة بحقوق المواطن أو حتى بالاستقلال الذاتي. وقيادة المشايخ هذه لم تخل من المنافسة مع زعماء القبائل(٥).

٣ ـ القبلية في المجتمع الكردي

القبيلة في المجتمع الكردي مؤلفة من نواة عائلية يقودها زعيم هو رئيس العائلة

---

(٥) المرجع (١) ص. ٤٥ ـ ٤٠، والمرجع (٣) ص. ٢٥٢.

التي تمده بالولاء، وينضم إليها عائلات أخرى أقل أهمية منها، بالإضافة إلى عناصر من المغامرين والمشردين والعصاة. ويصبح رئيس العائلة الكبرى زعيم القبيلة التي تقوم عناصر تلاحمها على التقاليد والدين والمصالح المشتركة من حماية القرى والمزروعات والمواشي. وسلطة زعيم القبيلة في المناطق الجبلية تقوم على الولاء العائلي له من أهله وحلفائهم. أما سلطة زعيم القبيلة في المناطق الخصبة الزراعية في السهول فهي مدعومة بالاقطاعية، أي ان الزعيم وعائلته يملكون الأراضي ويشتغل تحت أمرتهم العديد من الفلاحين. وقد قوي النظام الاقطاعي منذ القرن السادس عشر بعد الفتح العثماني.

وكان النظام القبلي في جبال كردستان هو السائد، حيث تمتع زعماء القبائل باستقلال ذاتي فعلي، يدفعون الضرائب إلى السلطان العثماني أو إلى الشاه الفارسي. وقويت شوكة بعض القبائل حتى لقب زعماؤها بالملوك. وكانت المناورات والتحالفات والاختلافات الدموية تسيطر على المجتمع الكردي الذي لم ينعم بالسلم والاستقرار بسبب مشاحنات زعمائه. ولم يقم بين مشايخ القبائل من استطاع توحيدها لقيام كيان كردي قوي ومستقل، بل ان الأكراد ظلوا تحت حكم الأتراك والفرس يستخدمونهم في الحفاظ على الحدود بين الدولتين، ويتركون لهم مجالاً للتزاحم في ما بينهم. والعنصر الوحيد الذي كان يوحد الأكراد هو الانتماء الديني للإسلام.

وفي القرن العشرين وبعد الحرب الكبرى ثم بعد الحرب العالمية، جرى تطور نحو إضعاف القبلية بسبب قيام الدول الحديثة في مناطق الأكراد وتقسيم هذه المناطق بين تلك الدول بحدود واضحة المعالم، وقيام كل دولة بالخدمات الاجتماعية التي كانت تؤديها القبيلة، مثل العدالة، والمساعدة في حال المرض والكوارث، والتعليم. هذا بالإضافة إلى نزوح العديد من الجيل الجديد من الأكراد إلى المدن والعمل فيها وتأمين العيش بواسطة رب العمل وليس شيخ القبيلة. وأتى الإصلاح الزراعي وقضى على الملكية الواسعة وقسّم أملاك القبائل، فافقد النظام القبلي دعامة أساسية من دعائمه.

وكان لتنظيم الأحزاب الحديثة بعد الحرب العالمية، ومنها ما هو يساري، دور في العمل على إضعاف الشعور القبلي بين الشباب خاصة.

ولكن بالرغم من كل هذه الاعتبارات، ما يزال هناك شعور بالانتماء القبلي، وعلى الأخص في الأوساط الريفية. وقد عرفت العائلات الاقطاعية كيف تحافظ على زعامتها في قبائلها بأن أرسلت أولادها إلى المعاهد العليا حيث تخرجوا أطباء ومحامين ومهندسين، وتبوأوا مناصب عليا في الإدارة، وأصبحوا من رجال السياسة، وباتوا بذلك يستقطبون أبناء عشيرتهم بالتفوق العلمي.

وكان التنظيم القبلي قد حرم الأكراد من الانسجام القومي على الصعيد الفكري والثقافي والسياسي، وشكل عنصراً أفشل الحركة القومية الكردية. واليوم تسعى الحركة القومية الكردية بأحزابها المتعددة إلى مصارعة النزعة القبلية لاقتلاعها من صفوف الشباب(٦).

٤ ـ بين السلطان العثماني والشاه الإيراني

عاش الأكراد في مناطقهم الجبلية وفي ظل نظامهم القبلي والاقطاعي، ولعبوا دوراً هاماً في أحداث آسيا الصغرى، وفي الصراعات مع العرب بمحالفة الفرس أحياناً. ثم انهم تحالفوا مع القبائل التركية القادمة من آسيا الوسطى، ولكن هذه القبائل تفوقت شيئاً فشيئاً على الأكراد وأخضعتهم في القرن الثاني عشر. ثم أتت غزوات المغول في أواخر القرن الثاني عشر واخضعت الأكراد. ثم جاء التركمان المنقسمون بين سنة وشيعة، فنقلوا انقسامهم إلى زعماء الأكراد. ثم جاء تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر كعاصفة اجتاحت الكردستان، فعاد التركمان للاقتصاص من الأكراد والقضاء على زعمائهم.

وفي مطلع القرن السادس عشر، كان الصراع على أشده بين شاه إيران وسلطان بني عثمان. بخلفية مذهبية (شيعي في إيران، سنّي في تركيا). وفي ١٥١٤، وفي شلديران شمال غربي بحيرة اورمية، كانت المعركة الحاسمة بين الفريقين، حيث تغلب السلطان سليم الأول على خصومه الايرانيين بمساعدة الأكراد الفعالة لأسباب مذهبية وسياسية، فكافأهم السلطان بأن ثبت زعماءهم في اقطاعات مقابل عملهم على حماية الحدود مع الفرس ومع جيورجيا، واعطاهم استقلالاً ذاتياً. وظل التجاذب على الحدود بين الفرس والأتراك حتى معاهدة ١٦٣٩ التي رسمت الحدود بين الدولتين حتى جبال زغروس، فأصبح الأكراد كلهم تقريباً في ظل الدولة العثمانية. وحاول الفرس نقض المعاهدة لكنه فشلوا. وصار تثبيت معاهدة الحدود بالسلم بين الدولتين سنة ١٧٣٦، وظل الوضع على حاله حتى الحرب الكبرى ١٩١٤.

وفي القرن التاسع عشر، قام بعض زعماء القبائل بغزوات على الأتراك، وعلى الفرس، وهم كانوا يجبون الضرائب بقسوة من رعاياهم مما كان يتسبب بانتفاضات كثيرة. وعظم في القرن التاسع عشر دور السليمانية التي أصبحت عاصمة فعلية للأكراد بقيادة قبيلة بابان (ومنها لاحقاً زعامة عائلة البرازاني)، حيث برزت أولى الصراعات بين القادرية والنشقبندية. ولعب الأتراك على هذه

(٦) المرجع (١) ص. ٣٣ ـ ٣٥.

الصراعات لاضعاف دور زعماء بابان. وفي العام ١٨٢٦، حاول الأتراك فرض حكام أتراك على كردستان، انما لاقى قرارهم مقاومة شديدة من قبائل الأكراد وزعمائهم. ثم انشغل الباب العالي بمحمد علي باشا مصر، وحملة ابنه إبراهيم، ثم بالحروب المتتالية مع روسيا.

وكان لصراع الأتراك والفرس وسياستهم لاضعاف زعماء القبائل ولبروز الجمعيات الدينية الصوفية التي استقطبت قلوب الناس، أن برز دور جديد لمشايخ الدين في قيادة الشعب الكردي موحداً باسم الإسلام. ومن أشهر هؤلاء، الشيخ عبيد الله الذي قاد في آب ١٨٨٠ ثورة مسلحة ضد الفرس، آملاً بمساعدة تركيا التي ارتاحت في البدء لثورته على خصمها الفارسي، انما اعتراها الشك والتخوف من أهداف الشيخ التي تبلورت بإعلان قصده توحيد الأكراد الخاضعين للفرس وللأتراك في دولة كردية مستقلة تحت ظل الشريعة الإسلامية. فأرسل السلطان العثماني جيشه في تشرين الثاني ١٨٨٠ لضرب قوات الشيخ، وكذلك ساهم في ضربها بعض قبائل الأكراد المخاصمة له في إيران، بالإضافة إلى الجيش الإيراني. فاتصل الشيخ عبيد الله بالروس للحصول على مساعدتهم أو على حيادهم، ولكن دون جدوى. والقي القبض عليه في تشرين الأول ١٨٨٢ ونفي إلى مكة حيث مات سنة ١٨٨٣.

وجاء السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) بسياسة إسلامية استقطبت مشايخ الأكراد. وكانت الحركة القومية الأرمنية قد قويت منذ العام ١٨٨٥، فعمد السلطان إلى تأليف فرقة «الحميدية» المسلحة من الأكراد، وعهد إليها كبح الحركة القومية الأرمنية. وكان لهذه الفرقة دور حاسم في قمع الأرمن سنة ١٨٩٥، ثم لعبت دوراً هاماً في التحكم بالقبائل الكردية لاخضاعها لسلطة السلطان، مع ما رافق ذلك من صراعات داخلية بين الأكراد.

وفي العهد الحديث، عمدت تركيا إلى تأليف «حرس القرى» من الأكراد لقمع الأكراد المتمردين، وذلك بأساليب الدهم، والقتل، والتخويف، وخاصة ضد حزب العمال الكردستاني وأنصاره[٧].

٥ ـ من الحرب الكبرى إلى الحرب العالمية الثانية (١٩١٩ ـ ١٩٣٩)

في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ وفي مؤتمر السلام في باريس قدم رئيس حكومة بريطانيا العظمى لويد جورج في جلسة الحادية عشرة صباحاً مشروع قرار أقره المؤتمر وقضى بسلخ أرمينيا وسوريا ولبنان وبلاد ما بين النهرين وفلسطين وبلاد العرب عن الامبراطورية العثمانية. وفي جلسة الساعة الثالثة بعد الظهر من

(٧) المرجع (١) ص. ٤٧ ـ ٥٥.

اليوم نفسه، قدم لويد جورج تعديلاً للقرار المتخذ صباحاً بإضافة كردستان على لائحة البلدان المذكورة، واقر المؤتمر التعديل.

وفي ٢٢ آذار ١٩١٩، قدم الجنرال شريف باشا رئيس البعثة الكردية إلى مؤتمر السلام مذكرة ركزت على مطلب الأكراد الأساسي وهو إقامة دولة خاصة بهم، مستنداً إلى مبدأ الرئيس الأميركي ولسن باستقلال القوميات، وأهم نقاط المذكرة كانت: معارضة اطماع الأرمن، تأمين المراعي الصيفية والشتوية، الحصول على الاستقلال كوسيلة للتقدم والرقي، طلب تأليف لجنة من مؤتمر السلام لرسم حدود الدولة الكردية.

وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٠، تقدم الأرمن والأكراد برسالة مشتركة إلى كليمنصو رئيس مؤتمر السلام تقول بقيام دولة أرمنية ودولة كردية مستقلتين برعاية دولة عظمى (وكان في نية الفريقين أن تكون الولايات المتحدة الأميركية).

وفي فترة التحضير لمعاهدة سيفر مع الأتراك، لم يتحرك الأكراد لمتابعة قضيتهم. وخصصت المعاهدة المواد ٦٢ و٦٣ و٦٤ لمعالجة القضية الكردية بأن أعطت مهلة ستة أشهر للجنة من أجل تحديد حدود الدولة الكردية المزمع انشاؤها، وأعطت الأكراد مهلة سنة من أجل اثبات وجودهم ضمن تلك الحدود والبرهان على انهم يشكلون أكثرية فيها. وأعطت المادة ٦٢ ضمانات للأقليات المسيحية الأشورية والكلدانية وبقية الأقليات.

وخلال سنة ١٩٢٠، سقطت معاهدة سيفر بفعل الانتصارات التي حققها مصطفى كمال في شرقي تركيا في المناطق الكردية والأرمنية (باستثناء أرمينيا التي ستصبح سوفياتية)، فسقطت القضية الكردية من حساب عصبة الأمم، وعُقدت معاهدة لوزان في ١٩٢٣/٧/٢٤ بدون ذكر الأكراد. وقام الأكراد بثورة في شباط ١٩٢٥ بقيادة الشيخ سعيد، قضت عليها تركيا وقبضت على الشيخ في نيسان وشنقته مع بعض اتباعه في أيلول ١٩٢٥، وكان هم البريطانيين الاحتفاظ بولاية الموصل الغنية بالنفط، وضم هذه الولاية إلى الدولة العراقية الغنية وذلك بموجب تحكيم عصبة الأمم في ١٩٢٥/١٢/١٦. ورضي الأتراك بمعاهدة ٦/٥/ ١٩٢٦ بضم الموصل إلى العراق تحت الانتداب البريطاني، مقابل تعويض اجمالي ونهائي عن النفط مقداره خمسماية ألف ليرة استرلينية، وبتعهد بريطاني بعدم توسيع الاستقلال الذاتي للأكراد في العراق. وأعطت بريطانيا التعهد غير مكتوب وبرضا الدولة العراقية. وكان في ذهن الأتراك والفرس والبريطانيين والعراقيين أن الأكراد غير قادرين على الاتحاد ما بينهم من أجل أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وان استقلالهم لن ينتج عنه سوى الفوضى في مناطقهم والسطو والتهريب في مناطق الحدود.

ثم قامت في تركيا والعراق وإيران حركات ثورية كردية، تم قمعها كلها بالقوة. ولم تخل تلك الانتفاضات من طابع السطو والفوضى. وكان أشدها ما قام في تركيا لمقاومة حركة العلمنة والتحديث التي فرضها مصطفى كمال اتاتورك مع الغائه للخلافة العام ١٩٢٤، مما لم يرق للأكراد المحافظين على التقاليد الإسلامية.

ومن أجل الوقاية من أعمال «الشغب»، وخاصة الكردية منها، تم التوقيع في ٨ تموز ١٩٣٧ على معاهدة «سعد آباد» في طهران بين تركيا والعراق وإيران وافغنستان، لمكافحة الحركات الثورية الكردية[٨].

٦ ـ جمهورية مهاباد (من كانون الثاني حتى كانون الأول ١٩٤٦)

كان للحرب العالمية الثانية تأثير على الحركة القومية الكردية في إيران. فقد دخل الاتحاد السوفياتي الحرب إلى جانب الحلفاء في حزيران ١٩٤١، وكان لا بد من امداده بالمعدات العسكرية عن طريق إيران. لكن الشاه رضا رفض طرد البعثة الألمانية، وكان لا يخفي ميله إلى الألمان. وفي آب ١٩٤١، قامت الجيوش السوفياتية بغزو شمال إيران والجيوش البريطانية بغزو جنوبها. فاستقال الشاه لصالح ابنه محمد رضا بهلوي. وعقدت معاهدة بين السوفيات وبريطانيا وإيران قضت بأن تنسحب جيوش الدولتين في غضون ستة أشهر بعد انتهاء الحرب.

استفاد السوفيات من الفراغ في شمال إيران لبث دعايتهم الشيوعية، وخاصة في مناطق اذربيجان الإيرانية حيث أقاموا جمهورية موالية لهم عاصمتها تبريز، ولكن الدعاية السوفياتية لم تلق تجاوباً كبيراً في الأوساط الكردية.

أما مهاباد التي كانت تقع بين منطقة السوفيات ومنطقة البريطانيين، فكان فيها فراغ من السلطة الإيرانية. فقام فيها زعيم كردي من العراق هو هاما رشيد ومعه ألفا رجل تقريباً واستولى على المنطقة، ولم يخرج منها إلا بتسوية معه في صيف ١٩٤٢.

وفي أيلول ١٩٤٢، قام بعض المثقفين ورجال الأعمال من الطبقة الوسطى الكردية في منطقة مهاباد وأسسوا «جمعية» من أجل تجديد كردستان، وقد عرفت باختصار اسمها «كومالا» «KOMALA»، وحظيت بحماية السوفيات في نشاطها الخفي. وتطورت هذه الجمعية ونمت بعد أن انضم إليها العام ١٩٤٤ القاضي محمد، وهو رجل دين كردي سني محترم، فاستقطب إلى الجمعية زعماء تقليديين ومشايخ من القبائل.

وفي العام ١٩٤٥، حوّل القاضي محمد الجمعية إلى حزب نظامي هو الحزب

---

(٨) BOZARSLAN Hamit **«La question Kurde»**, la documentation française, N.° 709 du 20 août 1993, P.P. 10-17.

الديمقراطي الكردي (P.D.K.) الذي حظى بتشجيع من السوفيات. وكانت أهم النقاط في برنامجه:

- الاستقلال الذاتي ضمن الدولة الإيرانية.
- تعليم اللغة الكردية، واستعمالها في الإدارة المحلية.
- انتخاب جمعية خاصة بالأكراد في منطقة استقلالهم الذاتي.
- إدارة الأكراد لحكمهم الذاتي وللضرائب.
- علاقات أخوية مع الشعب الأذري والأقليات غير الكردية (الأرمن خاصة). وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥، أعلنت منطقة اذربيجان الإيرانية قيام جمهورية باستقلال ذاتي عاصمتها تبريز.

وفي ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦، أُعلنت جمهورية مهاباد الكردية. وفي ١١ شباط، انتخب القاضي محمد رئيساً لها. وأتاها الدعم من مصطفى البرازاني الذي جاء من العراق بحوالى تسعة آلاف رجل. وكان القاضي محمد حذراً من البرازاني واطماعه، لكنه كان بحاجة ماسة إلى عونه المسلح. وكانت مهاباد العاصمة مدينة صغيرة تعد خمسة عشر ألف نسمة، ودولتها تمتد في إطار دائرة شعاعها ٨٠ كلم وكان للدولة الفتية علمها ووزارتها، وجيشها، وصحافتها، وإذاعتها، بالإضافة إلى البدء بعلاقات خارجية وخاصة بعقد معاهدة مع اذربيجان المجاورة. أما لغتها فكانت الكردية.

واستقطب القاضي محمد باعتداله وشخصيته الفاضلة زعماء الأكراد والقبائل وحتى الشباب منهم في ظل الحزب الديمقراطي الكردستاني، انما كان يفتقر إلى الدعم الفعال لمواجهة ردة الفعل الإيرانية بعد انتهاء الحرب وانسحاب الجيوش الأجنبية من إيران. وقد حاول السوفيات المماطلة بالانسحاب من أجل أن يبقى لهم جسر أو ممر إلى الخليج، لكن انسحاب الحلفاء من إيران تم في أيار ١٩٤٦. وفي حزيران، ذهب الرئيس الكردي إلى طهران وحاول التفاهم مع الحكومة الإيرانية من أجل ديمومة جمهوريته كإدارة ذاتية للأكراد في نطاق الأمبراطورية، بيد أن مسعاه لم يلق أي تجاوب من طهران التي أرسلت جيوشها وقضت في ١٣ كانون الأول ١٩٤٦ على تبريز عاصمة اذربيجان الإيرانية. واستسلمت جمهورية مهاباد في ١٧ منه، وعاد البرازاني مع رجاله إلى العراق ثم التجأ إلى الاتحاد السوفياتي حيث مكث حتى ١٩٥٨ وعاد مجدداً إلى العراق بعد ثورة عبد السلام عارف. أما القاضي محمد الذي بقي في إيران، فقد ألقت طهران القبض عليه وحاكمته مع بعض من رجاله وشنقته في ٣٠ آذار ١٩٤٧ في مهاباد.

وتبقى جمهورية مهاباد في ذاكرة القوميين الأكراد كمرجع قومي لهم، ويبقى

القاضي محمد رمزاً في تلك الذاكرة، وقد كان رجلاً مثقفاً يتقن لغات عدة منها الكردية والفارسية والعربية والتركية والانكليزية مع الملم بالفرنسية والألمانية والروسية، وكان معتدلاً تقياً، ورجل حوار.

وقد كانت جمهورية مهاباد تحذيراً لإيران ولجارتيها العراق وتركيا، والدول الثلاث تحذر من قيام أية حركة كردية في أي منها، وتسعى متضامنة للحد من أية سلطة محلية تعطى للأكراد تخوفاً من قيام أية جمهورية مماثلة لمهاباد[٩].

٧ ـ وضع الأكراد في تركيا

وثق الأكراد في مطلع العشرينات بمصطفى كمال وجهوده في محاربة الأعداء الخارجيين. ولكن منذ العام ١٩٢٢، أخذ مصطفى كمال موقفاً صريحاً يقضي بأن الدولة التي يقيمها هي تركية محض. ويوم ألغى الخلافة في ٣ آذار ١٩٢٤، أصدر قراراً منع فيه المدارس والجمعيات والنشرات الكردية والجمعيات الدينية والمدارس الإسلامية. وشعر الأكراد بالخيبة بعد فشل معاهدة سيفر، مما دفع بهم إلى القيام بثورات وحركات عصيان متتالية منذ ١٩٢٥ حتى ١٩٣٩، وكان أولها حركة الشيخ سعيد في منطقة دياربكر، الذي ألقت القوات التركية القبض عليه وشنقته مع ٥٢ من انصاره في ٤ أيلول ١٩٢٥، مما دفع بالزعماء الباقين إلى الهرب إلى الخارج. وفي ١٩٢٧، أسس بعض المثقفين الأكراد في بيروت الرابطة القومية الكردية (HOYBOUN) «الاستقلال» بزعامة الأخوين بدرخان وبالتفاهم مع الأرمن. وكانت هذه الرابطة في خلفية الثورة التي قامت في منطقة ارارات العام ١٩٢٩ بمساعدة الأرمن وبعض أكراد العراق بقيادة أحمد البرازاني. لكن تركيا قمعتها في صيف ١٩٣٠ بالتفاهم مع إيران التي أيدت الثورة في البدء، واستتبع ذلك مجازر وتهجير بحق الأكراد.

وبعد ذلك، وضعت الحكومة التركية برنامجاً لدمج الأكراد في الدولة التركية، حتى انها لم تعد تسميّهم أكراداً بل «أتراك جبليون». وحاصرت منطقة دارسم حيث قام الشيخ سيد رضا بثورة سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨ تم القضاء عليها. ووضعت مناطق الأكراد في حالة الطوارىء حتى العام ١٩٤٦، وحذف اسم الأكراد من القاموس السياسي التركي وأصبحت بلادهم تدعى الأناضول الشرقي، ومنع الأجانب من دخول تلك المنطقة حتى العام ١٩٦٥.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وفي سنة ١٩٤٦، سمح بتعدد الأحزاب في تركيا، ولم يعد حزب «الدولة» الذي أسسه اتاتورك هو الوحيد. وسعت الأحزاب إلى استمالة الأكراد، فتعاون زعماؤهم مع النظام البرلماني الجديد. لكن الإنقلاب

---

(٩) المرجع (٢) ص. ٦٠ ـ ٦٦.

العسكري في ٢٧ أيار ١٩٦٠ قرر تغيير أسماء المدن والقرى الكردية، وفتح مدارس لأولاد الأكراد لتعليمهم اللغة التركية، والقاء القبض على مئات من زعماء الأكراد، ونقل الأكراد المعارضين إلى مناطق أخرى.

وبعد نهاية الحكم العسكري العام ١٩٦١، عادت الحياة الديمقراطية إلى تركيا مما أفاد الأكراد الذين تمتعوا بعض النشاط القومي على سبيل التساهل وليس بحكم القانون. ومنذ ١٩٦٥، بدأ تأسيس الأحزاب السياسية الكردية على يد المثقفين من أبناء المدن خاصة يعاونهم المتعلّمون من أبناء زعماء القبائل. وانتقلت القيادة شيئاً فشيئاً من القبائل إلى الشبان في المدن مع استقطاب أبناء القبائل في الريف كمحاربين أشداء في صفوف الميلشيات.

وفي العام ١٩٦٥، تأسس الحزب الديمقراطي الكردستاني في تركيا (P.D.K.T.) وهو حزب قومي سري. ولم يلتحق به التقدميون الأكراد الذين التحقوا بحزب العمل التركي (T.I.P.) الذي تأسس العام ١٩١٢ ونال في انتخابات ١٩٦٥ خمسة عشر مقعداً في البرلمان التركي، وأصبح محمد علي اصلان، وهو كردي رئيساً له في العام ١٩٦٩. وفي مؤتمره الرابع سنة ١٩٧٠، أوصى الحزب بمساندة الأكراد من أجل الحصول على حقوقهم الديمقراطية.

وفي سنة ١٩٦٦، صدرت في أنقره أول مجلة اشتراكية كردية YENI AKIS «التيار الجديد» بإدارة محمد علي اصلان، لكن الحكومة أوقفتها بعد صدور العدد الرابع منها.

وخلال ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، غضت الحكومة الطرف عن رابطة للشبيبة الكردية (D.D.K.O.) تهدف إلى توعية الشباب والدفاع عن حقوقهم، وحقوق المرأة الواردة في الدستور. وبدأت تلك الرابطة باصدار نشرة، لكن الحكومة القت القبض على زعمائها في تشرين الأول ١٩٧٠.

وفي ١٢ اذار ١٩٧١، عاد العسكر إلى الحكم بانقلاب آخر ومنعوا كل جمعيات الشباب وأصبح حزب العمل التركي محظوراً، ولقي زعماؤه اضطهاداً وملاحقة.

وجرت الانتخابات النيابية العام ١٩٧٣ وفاز ECEVIT واستلم الحكم وأصدر عفواً عاماً. عندها نظم الأكراد أنفسهم وأسسوا أحزابهم الخاصة بهم وأعطوها بعداً قويماً وهو تحرير كردستان، والمطالبة بأن تصبح تركيا دولة فدرالية بين الأتراك والأكراد، كما طالب بعضهم بالاستقلال التام.

ومنذ ١٩٨٠، يعيش زعماء الأحزاب الكردية ويعملون في الخفاء لأن نشاطهم محظور رسمياً في تركيا. والحزبان الرئيسيان الآن هما حزب العمل الكردستاني

(P.K.K.) الذي يقود المقاومة الجارية حالياً في تركيا، والحزب الاشتراكي الكردستاني في تركيا (P.S.K.T.). وهناك أحزاب صغيرة لا تتمتع بقاعدة شعبية واسعة(١٠).

وبعد مرور عشر سنوات على بدء الثورة المسلحة التي يقوم بها حزب العمال الكردستاني، باتت الحصيلة حتى الآن أكثر من خمسة عشر ألف قتيل، وعشرات الآلوف من الجرحى بالإضافة إلى الخراب والدمار والخسائر المادية الفادحة. ومن أجل قمع الثورة، تمارس القوات التركية سياسة الأرض المحروقة من هدم القرى وتسميم الينابيع وتشريد المدنيين لحرمان الحزب الثائر من أية معونة تأتيه من السكان الأكراد. وتقدر القوات التركية المكلفة بهذه المهمة بحوالى ٣٠٠ ألف جندي تدعمهم الطائرات والمروحيات الحربية، يضاف إليها حوالى ٦٠ ألف عنصر من ميليشيات «حراس القرى» التي تجمعها الحكومة من أبناء العشائر الكردية للتصدي لحزب العمال الكردستاني ولضبط السكان ومنعهم من مساندة الحزب. ثم إن الحكومة رفعت الحصانة عن ثمانية نواب أكراد بعد إلغاء حزب الديمقراطية (D.E.P.) وقدمتهم إلى المحاكمة بتهمة الترويج لأفكار انفصالية. وتسعى الحكومة إلى تفريغ المناطق الكردية من سكانها الأصليين ونقلهم إلى مناطق أخرى وخاصة إلى المدن في الوسط والغرب من تركيا من أجل حرمان الحزب من مساعدة السكان، ومن أجل محو الطابع الكردي عن المناطق الشرقية. والسكان بذلك يرون أنفسهم بين ضغط الدولة عليهم بواسطة حراس القرى لحملهم على المساهمة في محاربة حزب العمال الكردستاني، الذي يدعوهم بدوره إلى مساندته في مقاومة الحكومة ومدّه بالمساعدة والتحاق الشباب بصفوفه. وفي الحالتين، يلقى الرافضون من السكان المعاملة القاسية إما من الحكومة وإما من الحزب.

وكان الجيش قد وعد بالقضاء على الحزب مع انتهاء العام ١٩٩٤، لكن الحرب لا تزال قائمة. وقد لجأ الحزب إلى تكتيك جديد بضرب المواقع الحكومية والسياحية في عمق الأراضي التركية وفي المدن، مما أربك السكان ونشر في صفوفهم القلق والبلبلة والتململ من حرب لا تنتهي. وترتفع أصوات المعارضة في تركيا لوضع حد للقتال وحل المسألة الكردية في تركيا. هذا بالإضافة إلى ضغوط الولايات المتحدة الأميركية على الحكومة التركية احتجاجاً على انتهاك حقوق الإنسان في تركيا، كما يضغط عليها حلفاؤها الأوروبيون وجارتها روسيا(١١).

لكن الحكومة التركية لم تضع حتى الآن أية خطة أو أي تصور لحل المسألة

---

(١٠) المرجع (١) ص. ٦٤ ـ ٧٠.

(١١) نزار آغري: أي حل للمشكلة الكردية؟، جريدة النهار في ١/١١/ ١٩٩٤.

الكردية لديها، وهي تقوم من وقت إلى آخر بحملات على مراكز حزب العمال الكردستاني في شمال العراق، ولا تنظر بعين الاطمئنان إلى المنطقة الكردية المحمية في شمال العراق، تخوفاً من العدوى التي قد تصيب أكراد تركيا من أكراد العراق.

٨ ـ وضع الأكراد في العراق

كانت معاهدة سيفر قد أعطت آمالاً للأكراد بالحصول على استقلال إن لم يكن كاملاً، فاستقلال ذاتي على الأقل. وسقطت معاهدة سيفر أمام ما أحرزه مصطفى كمال من انتصارات في شرقي الأناضول، ولأن الانكليز كان يهمهم السيطرة على ولاية الموصل الغنية بالنفط وربطها بالدولة العراقية لأنها أكثر وثوقاً من الأكراد. ولكن الانكليز أعطوا وعداً لجمعية الأمم بمنح الأكراد في ولاية الموصل حكماً ذاتياً، فسلموا الشيخ محمود الحكم ثم عادوا فانتزعوه منه العام ١٩١٩ بعد أن أعلن الاستقلال، ونفوه إلى الهند. ثم ان الأكراد حذروا من تولية الملك فيصل عرش العراق، وعادوا إلى الاضطرابات، فأعادت بريطانيا الشيخ محمود بلقب ملك العام ١٩٢٢ فألف حكومة كردية. وأعلمت بريطانيا والعراق عصبة الأمم بأنهما يحافظان على حقوق الأكراد القومية وقد أنشأوا لهم حكومة في إطار الدولة العراقية، مما ثبت حكم بريطانيا للموصل وضمها إلى العراق بقرار عصبة الأمم في ١٩٢٥/١٢/١٦. وفي العام ١٩٢٦، ثبت الوضع باتفاق بين تركيا وبريطانيا والعراق، كما منحت العراق الأكراد الحق بفتح مدارس خاصة بهم.

وفي العام ١٩٣٠، انتهى الانتداب البريطاني في العراق، وعاد الشيخ محمود إلى الثورة على الحكومة الملكية في بغداد التي استعانت بالقوات الجوية البريطانية لقمعه. وفي العام ١٩٣١، قاد الشيخ أحمد البرازاني ثورة أخرى، قمعتها الحكومة العراقية العام ١٩٣٤ بمساعدة الطيران الحربي البريطاني، ووضعت الشيخ أحمد وأخاه مصطفى في الإقامة الجبرية في بغداد. هذا الأخير هرب من بغداد العام ١٩٤٣ وقام بثورة استمرت حتى ١٩٤٥ وتم قمعها بمساعدة الطيران البريطاني أيضاً. فلجأ مصطفى وأخاه أحمد وأنصاره إلى إيران، وشارك في الدفاع عن جمهورية مهاباد الكردية، وأسس العام ١٩٤٦ الحزب الديمقراطي الكردستاني العراقي (P.D.K.) الذي قاد واشترك في جميع الانتفاضات والثورات الكردية حتى الآن واشترك فيها.

وبعد ان لجأ البرازاني مع أنصاره إلى الاتحاد السوفياتي بعد سقوط مهاباد سنة ١٩٤٦، عرفت مناطق كردستان هدوءاً نسبياً مما ساعد على ازدهار الآداب واللغة والصحافة الكردية في العراق.

وأتت ثورة عبد الكريم قاسم في ١٤ تموز ١٩٥٨، وعاد البرازاني من الاتحاد السوفياتي. وأيّد الأكراد العهد الجديد في العراق، إنما اصطدموا بالنظرة القومية إلى

هوية الدولة العراقية، فهي عربية في مفهوم بغداد، وهي تعددية في مفهوم الأكراد. مما حمل هؤلاء على العودة إلى الثورة العام ١٩٦١ حتى انهيار حكم عبد الكريم قاسم وقيام عبد السلام عارف في شباط ١٩٦٣، فأعلن الأكراد وقف إطلاق النار. لكن الحرب عادت في حزيران ١٩٦٣، وتفرق الأكراد. فعرضت بغداد وقفا لاطلاق النار في ١٠ شباط ١٩٦٤ قبله الأكراد، ثم تكررت الحرب وتكرر وقف اطلاق النار.

وفي ١٧ تموز ١٩٦٨، استلم الحكم حزب البعث برئاسة أحمد حسن البكر (نائب الرئيس صدام حسين) فعمل على استمالة الأكراد المنشقّين على البرازاني.

وفي نيسان ١٩٦٩، عادت الحرب بين الحكومة العراقية والأكراد. وفي مطلع ١٩٧٠، بدأت المفاوضات بين الحكومة والبرازاني وحزب (P.D.K.). وفي ١١ آذار ١٩٧٠، توصل الطرفان إلى اتفاق على مبادىء تعترف بوجود القومية الكردية وحقوقها اللغوية والثقافية، وإنشاء جامعة كردية في السليمانية (انتقلت لاحقا إلى أربيدا). وحصل الأكراد على استقلال ذاتي وعلى خمسة مقاعد في الوزارة، وأذن لحزب (P.D.K.) بإصدار مجلة التآخي، على أن يصير تحديد منطقة كردستان خلال أربع سنوات. ولم يكن جميع الأكراد راضين عن الاتفاق، بل فئة بقيادة عزيز عسراوي تعاونت مع السلطة بالانضمام إلى الجبهة الوطنية التقدمية التي تضمّ حزب البعث والحزب الشيوعي. وبعد أربع سنوات من توقيع الاتفاق، لم يتوصل الفريقان إلى تفاهم على نقاط أساسية تتعلق بمساحة كردستان وحدوده، وقسمة العائدات النفطية، ومدى السلطات المحلية، وتعريب العديد من القرى الكردية وتهجير سكانها إلى الجنوب. فعمدت حكومة بغداد إلى اصدار قانون حكم الذاتي في ١١ آذار ١٩٧٤ من طرف واحد دون مساهمة الأكراد فيه، مما دفع هؤلاء إلى العودة إلى الثورة بمساعدة شاه إيران وبمباركة أميركية. لكن الحكومة العراقية عمدت إلى تطبيق الحكم الذاتي بالتعاون مع بعض الشخصيات الكردية وأبرزها هاشم عسراوي. ولم يكن الحكم الذاتي يشمل كردستان كلها، فظلت كركوك خارج نطاقه لأن حكومة بغداد تمسكت بها بسبب نفطها.

وفي اذار ١٩٧٥، وفي مؤتمر الدول المصدرة للنفط في الجزائر، تم الاتفاق بين شاه إيران وصدام حسين على أن تتوقف إيران عن مدّ الثوار الأكراد العراقيين بالمعونة، مقابل التفاهم على شط العرب. فانهارت الثورة الكردية في شمال العراق، وقام الجيش العراقي باخلاء مناطق الحدود مع إيران من سكانها الأكراد، وتخلى مصطفى البرازاني عن القيادة وسافر بداعي المرض إلى الولايات المتحدة حيث مات لاحقاً، وتفتتت القوى السياسية الكردية أحزاباً متعددة أهمها:

- الحزب الديمقراطي الكردستاني العراقي (P.D.K. IRAK)، بقيادة مسعود مصطفى البرازاني المنتشر على الأخص في أرياف المنطقة الشمالية.

ـ الاتحاد الوطنـي الكردستانـي (Union Patriotique du Kurdistan- U.P.K)، بقيادة جلال الطالبانـي الذي انشق عن الحزب الأول منذ العام ١٩٧٤، وهو ينتشر في المدن وبين الشباب والمثقفين.

ـ بالإضافة إلى فئة من الـ (P.D.K.) الموالية للحكومة، وأحزاب صغرى أخرى لا قاعدة واسعة لها[١٢].

وكان من نتيجة تفتت الأحزاب الكردية، ان قامت صدامات دموية بينها، على الأخص بين البرازانـي والطالبانـي، اعتباراً من العام ١٩٧٨ حتى اليوم. وكان الجيش العراقي مسيطراً أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانـية على المدن في الشمال، في حين كان الريف بيد الأكراد، لأن الحكم كان مضطراً لسحب وحدات من جيشه لإرسالها إلى الحرب مع إيران.

وقد لاقت بعض فئات الأكراد تأييداً وعوناً من إيران لاضعاف العراق، كما توصل الطالبانـي بتوسط من أكراد إيران إلى وقف النار مع الجيش العراقي العام ١٩٨٣ وكان العراق قد تفاهم مع تركيا على قمع الأكراد، فقامت القوات المسلحة التركية في أيار ١٩٨٣ بغارة على الأكراد، داخل الأراضي العراقية برضا بغداد[١٣].

وخلال الثمانـينات، عمد العراق إلى تأليف ميليشيات من الأكراد مؤلفة من ثلاثين ألف شاب لمكافحة العصابات في الجبال، ووضع برنامج تنمية اقتصادية لبلاد الأكراد مما شجع المعتدلين من الأكراد على التعاون مع بغداد.

وتكررت غارات القوات التركية في الأراضي العراقية ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ ـ ١٩٨٧)، مما خفف الضغط عن الجيش العراقي المنشغل بالحرب مع إيران. وخلال الثمانـينات، هدم الجيش العراقي مئات القرى الكردية فتجمع سكانها في ضواحي المدن في حالة من البؤس. وبعد انتهاء الحرب مع إيران (آب ١٩٨٨)، ارتد الجيش على مناطق الأكراد، مستعملا القنابل الكيماوية وعلى الأخص على مدينة حلبجة في اذار ١٩٨٨، مما دفع حوالى مئتي ألف كردي إلى الهرب إلى إيران وإلى تركيا. وتكررت المأساة بعد انتهاء حرب الخليج عندما اندفع الجيش العراقي إلى مناطق الأكراد الثائرة في اذار ونـيسان ١٩٩١ بعد أن قضى على ثورة الشيعة في جنوب العراق[١٤].

ونظراً لشدة الجيش العراقي وقسوته في سحق الأكراد، كان من نتيجة حرب الخليج اضفاء الطابع الدولي على القضية الكردية في شمال العراق، فتنادت الدول

---

(١٢) المرجع (١) ص. ٧١ ـ ٩١.
(١٣) المرجع (٣) ص. ٢٧١.
(١٤) المرجع (٢) ص. ٩١ ـ ٩٢.

الغربية المنتصرة في تلك الحرب لحماية الأكراد ورد القصاص العراقي عنهم. فاتخذ مجلس الأمن في الأمم المتحدة بتاريخ ٥ نيسان ١٩٩١ قراراً رقمه ٦٨٨ يشجب فيه القمع الذي يتعرض له الأكراد، ويطلب من العراق الكف عن أعمال القمع هذه والسماح بإيصال المساعدات الإنسانية، ويرجو الأمين العام للأمم المتحدة العمل مع المؤسسات الدولية على تنفيذ القرار، وعلى الأخص تقديم المساعدات العاجلة والملحة إلى المهجرين.

وعلى أثر هذا القرار، اتخذ الرئيس الأميركي جورج بوش موقفاً حاسماً بالاتفاق مع الرئيس الفرنسي ورئيس وزراء بريطانيا ورئيس تركيا ورئيس حكومة المانيا، يقضي بحماية الأكراد في المناطق الشمالية من العراق، ومدها بالمعونات الإنسانية، وإقامة معسكرات غربية فيها، وإقامة قواعد للطيران الحربي الأميركي في تركيا المجاورة، ومنع الجيش العراقي والطيران الحربي العراقي من العمل في شمال خط العرض ٣٦. وكان الموقف الأميركي المسنود من الحلفاء الغربيين حاسما في حماية الأكراد، باستثناء غارات تقوم بها تركيا من وقت إلى آخر لملاحقة عناصر حزب العمال الكردستاني الذين يلجأون إلى المحمية الكردية. ويرى بعض علماء القانون الدولي في القرار ٦٨٨ خرقا لنظام الأمم المتحدة الذي يحظر العمل في نطاق السيادة الداخلية لكل دولة، ويرى بعضهم في القرار مقدمة لتطور عمل الأمم المتحدة ليشمل القضايا الداخلية في الدول إذا اتسمت بطابع الأزمة المهدِّدة للسلام.

ولا تزال المنطقة الكردية شمال خط العرض ٣٦ جزءاً من الدولة العراقية التي تصر على اعطاء الأكراد حكما ذاتيا داخليا فقط في إطار القانون الآنف الذكر الصادر في ١١ آذار ١٩٧٤، لكن الأكراد يتصرفون في ظل الحماية الدولية من أجل ترسيخ دولة خاصة بهم وان لم يُعترف بها أحد حتى الآن. وقد ألفوا حكومة ثم أجروا انتخابات برلمانية في ١٩ أيار ١٩٩٢ شارك فيها ما يقارب المليون ناخب وفاز بالمقاعد المئة مناصفة الحزب الديمقراطي الكردي (P.D.K.) بزعامة مسعود البرازاني والاتحاد الوطني الكردستاني (U.P.K.) بزعامة جلال الطالباني، بالإضافة إلى خمسة مقاعد للأقليات المسيحية (الأشوريون خاصة). ثم سعى الحزبان الرئيسيان إلى توحيد الجيش ووضعا خططاً لحل العناصر المسلحة التابعة لهما. وفي ٤ تشرين الأول ١٩٩٢، اتخذت الجمعية الوطنية الكردية (البرلمان) قرارا بالفدرالية مع العراق، ولاقت الخطوات الكردية تأييدا من المعارضة العراقية. أما الحكومة العراقية فإنها أكدت موقفها من أنها تقبل بالحكم الذاتي فقط في إطار قانون ١١ اذار ١٩٧٤.

هذا وتعاني المنطقة الكردية من الفقر والعوز بالرغم من ثروتها الزراعية والحيوانية، أما الثروة المعدنية (البترول) فلا تزال ترزخ تحت العقوبات

المفروضة على العراق. وبما ان الحماية الدولية تخضع كل ستة أشهر لتجديد قرار مجلس الأمن، فإن الرساميل لم تتجه بعد إلى المحمية الكردية.

ثم ان الحزبين الرئيسيين (P.D.K.) و(U.P.K.) قد احتفظا بالميليشيات التابعة لهما، وهما يقومان بصراعات دموية تأتي بالخراب والدمار لمناطق واسعة من كردستان. وقد حملت الأخبار إلينا صباح ١٩٩٤/١١/٢٣ انه تم التفاهم بينهما على الكف عن هذه الصراعات التي يرجى ان تكون الأخيرة[١٥].

٩ ـ وضع الأكراد في إيران

في الحرب الكبرى، دخل الأتراك مناطق الأكراد في إيران (آخر ١٩١٤)، لكن الروس أخرجوهم منها في مطلع ١٩١٥ ثم انسحبوا بعد قيام الثورة البولشفية في بلادهم (آخر ١٩١٧). واستغل اسماعيل آغا سيمكو حالة الفراغ والفوضى بعد انسحابهم وسيطر على المنطقة الكردية الواقعة شمال غربي إيران، لكنه اصطدم بالاشوريين فدعا بطريركهم مار سمعان للتفاوض إلاّ أنه أوقع به وقتله في ٣ آذار ١٩١٨، وفي العام ١٩٢٢، قضى رضا خان الذي سيصبح العام ١٩٢٥ رضا شاه، على سيمكو فالتجأ هذا إلى الشيخ محمود في العراق، ثم عاش متنقلاً بين تركيا والعراق وإيران حتى قتله الإيرانيون في ٢١ حزيران ١٩٣٠. ويبقى سيمكو في ذاكرة الأكراد بطلا قوميا ورمزا للجهاد من أجل الحرية.

ولما أصبح رضا بهلوي الشاه في ١٩٢٥، عمد إلى مصادرة أملاك القبائل الكردية واجبار البدو منها على الاستقرار، ونقل بعضها إلى مناطق أخرى، وأدخل اللباس الأوروبي، وفتح مدارس باللغة العربية وليس الكردية، واتفق العام ١٩٣٤ مع مصطفى كمال أتاتورك على التعاون من أجل مكافحة قبائل الأكراد. وكان الاتفاق مقدمة لمعاهدة سعدآباد المعقودة العام ١٩٣٧ بين إيران وتركيا والعراق والباكستان.

وخلال الحرب العالمية الثانية، انتعش التيار القومي الكردي في إيران مما أتاح قيام جمهورية مهاباد، العام ١٩٤٦. وما تزال جمهورية مهاباد محفورة في ذهن القوميين الأكراد كبرهان على إمكانية قيام دولة لهم.

ثم ان الأكراد أيدوا المعارضة الإيرانية، وكانوا إلى جانب مصدق (١٩٥١ ـ ١٩٥٣) الذي أمّم البترول وسار بسياسة قومية متشددة ومعاكسة لنفوذ الانكليز في إيران.

ولكن حكم مصدق لم يدم طويلا إذ عيّن الشاه الجنرال زاهدي رئيسا للحكومة،

---

(١٥) المرجع (٦) ص. ٣١ ـ ٤١.

فحكم بمساندة الجيش، وقضى على تيار مصدق وعلى كل القوى السياسية التي ناصرته ومنها الأكراد.

وانضمت إيران العام ١٩٥٥ إلى حلف بغداد الذي سيصبح الـ CENTO سنة ١٩٥٩ بعد انسحاب العراق منه. وكان الحلف موجها ضد المّد السوفياتي، إنما كان من أهدافه أيضاً مكافحة الحركات الكردية في العراق وإيران وتركيا والباكستان. واشتد الاضطهاد على الأكراد في إيران عام ١٩٥٨.

وتأثر الأكراد بـ «الثورة البيضاء» التي قام بها الشاه العام ١٩٦٣ للقضاء على الاقطاعية والقيام بالاصلاح الزراعي.

وكانت للأحداث الجارية في العراق أثرها على الأكراد في إيران، وخاصة العام ١٩٧٤ (مساندة الشاه للثورة الكردية في العراق) والعام ١٩٧٥ (تخلي الشاه عن الأكراد العراقيين واشتداد قمعه للأكراد في إيران).

ولما قامت الثورة الإسلامية في إيران، تعاطف معها الأكراد آملين انها ستأتي بنظام ديمقراطي يكون فيه بعض الحرية والحقوق القومية، لأن الأكراد كانوا قد قطعوا الأمل من تحسن وضعهم في ظل نظام الشاه.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية وعودة الإمام الخميني في أول شباط ١٩٧٩، جاءت إلى طهران وفود من الأكراد لعرض مطالبها بالحكم الذاتي، لكن هذه المطالب لم تلق تجاوباً. فعمد بعض زعماء الأكراد إلى الاستيلاء على الأسلحة من الثكنات بعد سقوط الشاه، واستتبع ذلك صدامات بين الأكراد وحراس الثورة الإيرانيين. وفي ٢٢ اذار، قام آية الله محمود طالغاني بمحادثات مع الأكراد تناولت مطالب الأكراد الأساسية التالية:

- مساهمة الأكراد في التحضير للدستور الجديد
- تعليم اللغة الكردية في المدارس
- إدارة الأمور المحلية للأكراد
- تنمية الموارد الطبيعية في كردستان لصالح أهله.

وقاطع الأكراد الاستفتاء الذي أجرته طهران في ٣٠ - ٣١ اذار ١٩٧٩، وكان السؤال المطروح آنذاك «هل أنت مع الملكية أم مع الجمهورية الإسلامية؟». ولم يكن الأكراد مع الملكية، لكنهم كانوا يريدون جمهورية تعترف لهم بالحكم الذاتي.

وخلال الربيع والصيف من العام ١٩٧٩، وقعت اشتباكات متتالية بين المسلحين الأكراد وحراس الثورة الإيرانيين. وفي ١٩ آب ١٩٧٩، اتخذ الإمام الخميني موقفا حاسما من «الجماعات الصغيرة الكردية». وفي ٢٢ آب، عفا عن جميع الأكراد باستثناء اثنين من قادتهم هما الشيخ عز الدين الحسيني، وعبد الرحمن غاسملو.

وفي أواخر آب ١٩٧٩، توصّل الأكراد وممثلو طهران إلى اتفاق رفضه آية الله الخميني. عندئذ لجأ المسلحون الأكراد إلى الجبال. وفي أواخر تشرين الثاني، تقدم وفد يمثل مختلف التيارات الكردية بمشروع حكم ذاتي مؤلف من ٢٦ نقطة، ولكن الحكومة لم تأخذ بالنقاط الجوهرية الواردة فيه وقدمت في كانون الأول ٧٩ مشروع إدارة ذاتية فقط.

ولما استلم أبو الحسن بني صدر الحكم في كانون الثاني ١٩٨٠، قام بحملة على الأكراد. ولما سقط في منتصف ١٩٨١ ولجأ إلى فرنسا، تعاون مع مسعود رجوي لتأليف المجلس الوطني للمقاومة، وانضم إلى المجلس الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني.

وصارت محاولة من بعض العناصر الكردية المعتدلة للتفاهم مع السلطة الإيرانية، وقاد هذه المحاولة الزعيم المعتدل عبد الرحمن غاسملو، لكنه اغتيل في فيينا في آب ١٩٨٩ أثناء المفاوضات مع الجانب الإيراني.

وسيطر الجيش الإيراني على المدن وعلى طرق الواصلات الرئيسية، وظل المسلحون الأكراد يسيطرون على الجبال الوعرة. أما الخلاف الأساسي بين الفريقين فاختلاف في النظرة: الأكراد نظرتهم قومية وهدفهم الحصول على حكم ذاتي، أما الجمهورية الإسلامية فهي لا تفرق بين رعاياها المسلمين من حيث القومية.

أما اليوم، وبعد حرب الخليج وقيام محمية كردية في شمال العراق تحت ظل الحماية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، فإن النظام الإيراني لم يرتح لذلك بسبب الوجود العسكري الأميركي المكثف في المنطقة، وبسبب عدوى القومية الكردية على أكراد إيران[١٦].

الأكراد في لبنان

كان أول الوافدين من الأكراد إلى لبنان أولئك الذين رافقوا جيوش المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي الكردي في أواخر القرن الثاني عشر بعد معركة حطّين سنة ١١٨٧، وقد اندمج من بقي منهم في لبنان بالمجتمع المحلي وتعربوا بسهولة نظرا لإسلامهم.

ومن العائلات الكردية القديمة في شمال لبنان آل الأيوبي في دده بالكورة وأمراء آل سيفا الذين حكموا عكار وطرابلس، وآل جانبولاد الذين أتوا لبنان في مطلع

(١٦) المرجع (١) ص. ٩١ ـ ١٠٥.

القرن السابع عشر من منطقة حلب وهم أجداد آل جنبلاط[١٧].

كذلك أتت إلى لبنان موجة من الأكراد في العشرينات على أثر الاضطهاد الذي حصل على يد اتاتورك، وأسس بعض المثقفين منهم في بيروت في تشرين الأول ١٩٢٧ الرابطة الوطنية الكردية «خويبون» HOYBOUN (الاستقلال)، وكان من مؤسسيها الأميران بدرخان اللذان انتقلا إلى دمشق حيث اقتبسا الحرف اللاتيني للغة الكردية[١٨]. ثم لحقت بها في الأربعينات موجة كردية أخرى. علماً أن تسعين بالمئة من الأكراد في لبنان أتوا من تركيا، والباقين من العراق يتكلمون اللهجة الكرمنجية.

لكن هذا العدد تناقص فبلغ ٣٠ ألفا تقريباً بسبب الأحداث التي عصفت بلبنان وتسهيل هجرة الأكراد إلى المانيا. ويقطن الأكراد بيروت وضواحيها، ومنهم عدد في طرابلس وفي البقاع.

وفي منتصف الثمانينات، أقام حزب العمال الكردستاني معسكراً في ينطا (البقاع) لتدريب مقاتليه من أكراد تركيا. لكن هذا المعسكر اقفل العام ١٩٩٢ بتفاهم مع السلطة اللبنانية وبرعاية سورية.

وكان للأكراد مدرسة سنة ١٩٤١ فتحت أبوابها لسنتين فقط. ولهم حزبان: البارتي (تأسس العام ١٩٧٠)، ورزكاري (تأسس العام ١٩٧٥).

وقد أصدر الأكراد عدة صحف خاصة بهم، لكنها لم تدم طويلاً. وعندهم جمعيات عائلية وفرق للتمثيل والفنون الشعبية.

وقد كان هاجس الأكراد الأكبر الحصول على الجنسية اللبنانية، وقد تم لهم ذلك في العام ١٩٩٤، علماً أن بعضهم قد نال هذه الجنسية في احصاء ١٩٣٢.

وفي الختام لا بدّ من طرح تساؤلين:

أ ـ لماذا بقي الأكراد مشتتين؟

ب ـ وما هو مستقبلهم القومي؟

أ ـ للنظام القبلي الذي ساد المجتمع الكردي ولا يزال، دور في تفتيت الأكراد من حيث انتمائهم واخلاصهم للقبيلة وزعيمها وليس للقومية الكردية. وقد ساعدت طبيعة أرضهم الوعرة وصعوبة المسالك فيها على تقوقع كل قبيلة في منطقتها.

ومنذ الحرب العالمية الثانية، يحاول المثقفون والسياسيون الأكراد، بواسطة

---

(١٧) جنبلاط، كمال. **«هذه وصيتي»**. مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، ١٩٧٨.
د. زهر الدين، صالح «تاريخ المسلمين الموحدين الدروز». المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت ١٩٩١. ص ١٠٤.

(١٨) المرجع (١)، ص ٦٥.

الأحزاب، الحدّ من الهيمنة القبلية، وهم يسعون لذلك في صفوف الشباب وسكان المدن.

ولكن على مدى التاريخ، لم يقم بين زعماء القبائل من كان على مستوى من القوة للسيطرة على بقية القبائل بشكل حاسم لجمعها في مملكة أو اتحاد، لأن بقية الزعماء لا يقبلون بسهولة سلطة فوق سلطتهم، ولأن الدول التي يقيم فيها الأكراد لا تنظر بعين الرضا إلى قيام سلطة كردية قوية توحّد بينهم.

ثم ان اعتناق الأكراد للإسلام، المذهب السني على الأخص، جعلهم مقبولين في محيطهم التركي (وكذلك في المحيط الفارسي بالنسبة إلى الأكراد الشيعة)، مما أشعرهم بولاء نحو السلطان العثماني الخليفة أمير المؤمنين.

فلما استفاقت الحركة القومية في القرن التاسع عشر في أوروبا، وجاءت رياحها إلى الشرق العثماني في مطلع القرن العشرين، لم يستوعب الأكراد تيار هذه الحركة، وظلوا حساسين ومتجاوبين مع دعوة السلطان الإسلامية. ولم يستفد الأكراد كشعب من التيار القومي الذي عصف آنذاك، ولم يتنبهوا إلى التيار القومي إلا كردة فعل على تيار اتاتورك المتعصب لقوميته التركية (١٩٢٤).

وقد انتهجت الدول التي احتضنت الأكراد في المنطقة (تركيا، العراق، إيران، سوريا) ولا تزال، سياسة واضحة للحّد من أية حركة تدعو إلى انفصال الأكراد أو حتى حصولهم على حكم ذاتي.

ولم يلق الأكراد سنداً من أية دولة كبرى، لأن هذه الدول فضلت التعامل مع دول مستقرة للحفاظ على مصالحها السياسية للحّد من نفوذ السوفيات، وعلى مصالحها الاقتصادية لتأمين استيراد النفط.

ب ـ أما مستقبل الأكراد القومي على المدى المنظور فمزيد من الاضطهاد من قبل الدول التي يقيمون فيها، وثورات ومقاومة من قِبلهم.

ولكن إلى متى سيستمر هذا الوضع؟

إن ما حدث للأكراد في شمال العراق منذ ١٩٩١ من حيث وضعهم في ظل حماية دولية برعاية الدول الكبرى وعلى رأسها الدولة العظمى، يعطي الأكراد أملاً في الاستقرار في ظل تلك الحماية، انما هم يضّيعون فوائد هذه الحماية بالاشتباكات الدامية في ما بينهم.

إن على الأكراد أن يبرهنوا للمجتمع الدولي قدرتهم على إنشاء حكم مستقر في ظل القانون والعدالة كي يحظوا بمساندة هذا المجتمع، فيُسقطون بذلك ما تتهمهم به الدول التي يُقيمون فيها بأنهم قبائل مشتتة فوضوية تنبثق منها عصابات للسطو والتهريب. وإذا عرف الأكراد كيف يفيدون من الحماية الدولية في شمال العراق، تصبح تلك المحمية نواة لجمع الأكراد في بوتقة يقبل بها المجتمع الدولي.

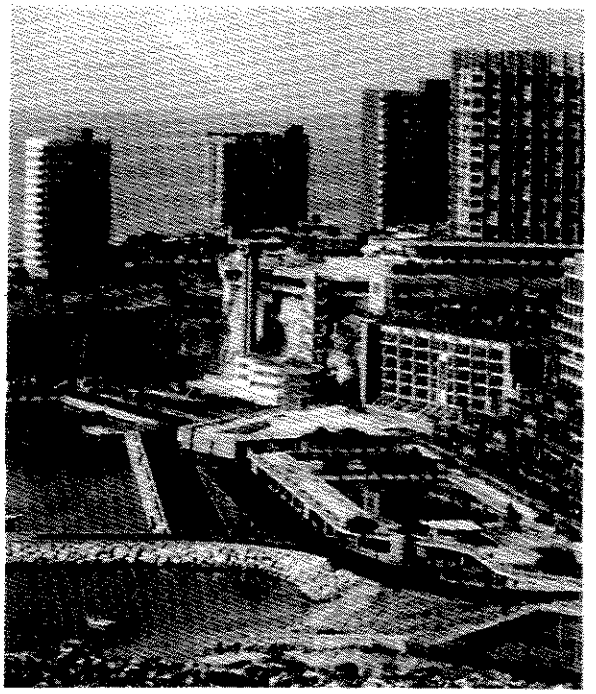

الشركة الوطنية للتعهدات

جوزف جورج خوري

من أعمالها: تعهدات مرافئ:

- اكمال الحوض الثالث في مرفأ بيروت • والمرحلة الأولى من الحوض الرابع .
- تطوير مرفأ الدورة • تطوير مرفأ جبيل السياحي • تطوير اشغال مرفأ طرابلس
- تطوير اشغال مرفأ طرطوس • بناء سنسول لمعمل كهرباء الذوق
- المرفأ السياحي في الهولیداي بیتش

تعهدات واشغال طرقات: اعادة تأهيل اوتوستراد طرجاجيل، اشغال كسارات ومقالع نهر الموت

مشاريعها الحالية: • اشغال الصب البحري لمجاري المتن الشمالي وضاحية بيروت الشرقية

- مشروع تنظيم ساحل المتن الشمالي
- مشروع الطريق الساحلي للوسط التجاري لمدينة بيروت
- تمديد مكسر الامواج في مرفأ بيروت

تعهدات في مختلف الدول العربية خاصة في المملكة العربية السعودية

العنوان: جديدة المتن ـ بناية بافوس علوان ـ تلفون: ٨٩٢٨٠٥. (اربعة خطوط)
تلكس: SINCOR ٤٤١٦٥ ـ برقيا: SNEKOR ـ ص.ب.: ٧١٠١ بيروت ـ لبنان.

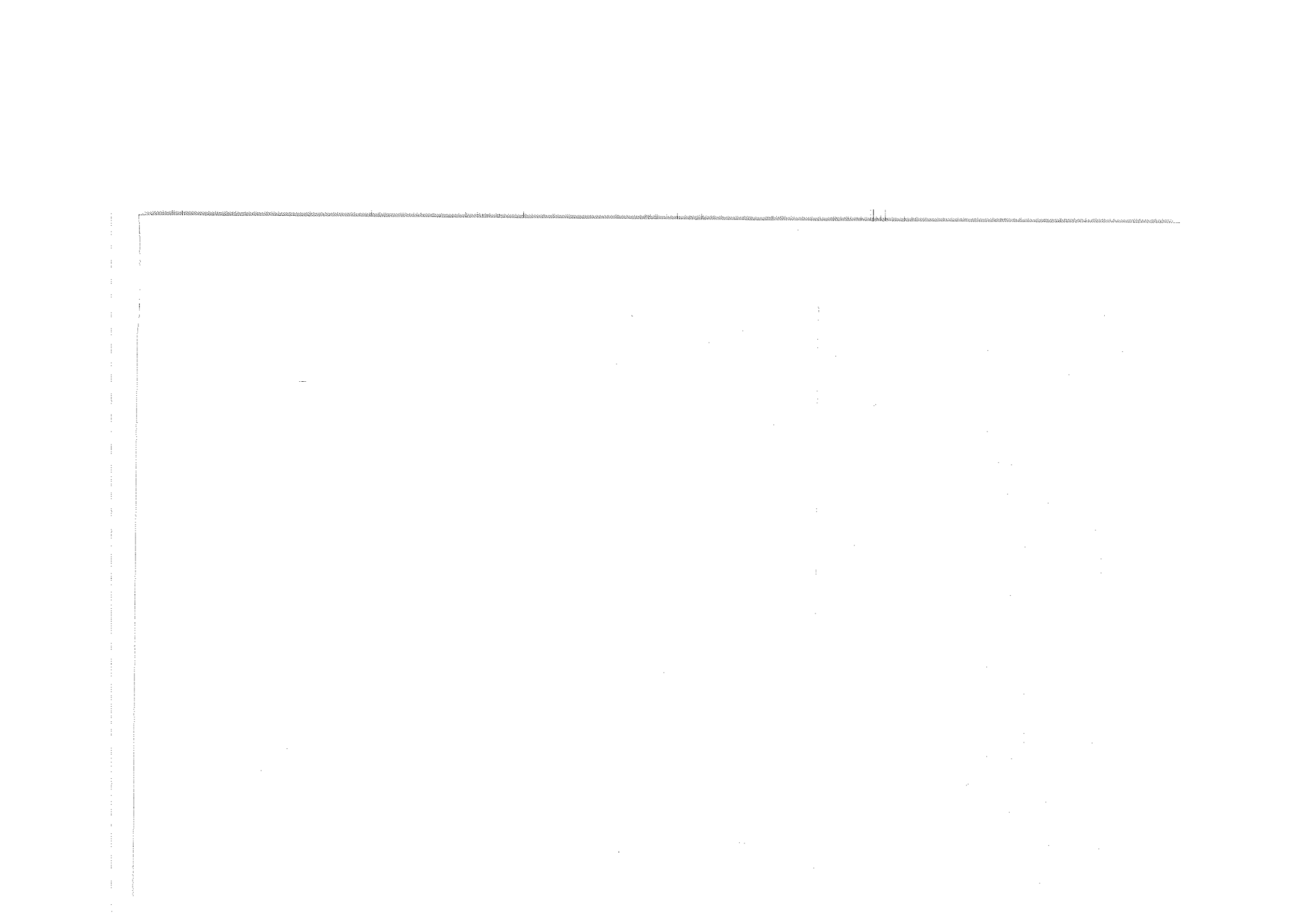

كيف تساهم الجامعة في بعث مفهوم الثقافة الأمنية وتحسين الاداء الشرطي

المقدم فضل ضاهر(*)

خلال محاضرة ألقاها رئيس الجامعة اللبنانية حول أوضاعها الراهنة والتصوّرات المستقبلية، كثرت المداخلات التي طرحت إشكالية الوظائف المطلوبة من الجامعة، كما تعددت الأجوبة التي فات أصحابها أن يذكروا، في جملة ما ذكروا من وظائف أساسية، الوظيفة الاجتماعية الأمنية أي تلك المتعلقة بمساهمة الجامعة في تحقيق الأمن الاجتماعي وتدعيمه.

ولعلّ في ازدياد حاجة مجتمعنا المتنامية إلى الأمن بعد سنوات الفلتان المريرة، ما يبرّر التنبيه إلى الأهمية الخاصة لوظيفة الجامعة هذه، والتي يمكن تلخيصها بالعمل على خلق الشعور بالطمأنينة داخل المجتمع لبعث الثقة وتسهيل الاعمار القائم على قدم وساق. مع الإشارة السريعة في هذا المجال، إلى أن معدّلات الجرائم في لبنان، وفقاً لما ظهر لنا في الدراسة العلمية التي ضمّناها كتابنا «**الدفاع الاجتماعي ومكافحة الجريمة**»[1] ـ خارج إطار الاحصاءات الخاصة بالأحداث المرتبطة مباشرة بالحرب التي كانت دائرة، لا تبرر حدّة ذلك الشعور الطاغي بعدم الطمأنينة أو اللاأمان. وإن قناعتنا وطيدة بأن قسطاً كبيراً من عوامل استمرار هذا الشعور وتفاعله يرتد إلى أسباب سياسية اقليمية ودولية لا مجال لذكرها هنا.

فبديهي اذن، أن يكون ذلك وحده كافياً لتأكيد أهمية دور الجامعة في تحليل عناصر هذا الشعور وإظهار حقيقته بكشف النقاب عن الزيف المسيّس الذي يحيط به.

(*) دكتور في العلوم الجنائية. أمين سر مجلس الأمن الداخلي المركزي.

(١) ضاهر، فضل، «**الدفاع الاجتماعي ومكافحة الجريمة**»، منشورات بحسون، بيروت ١٩٩٤.

لذلك كان هذا البحث الذي نضعه بين أيدي قرائنا في مختلف المواقع التربوية الأكاديمية أو الأمنية، علّ فيه ما يبعث على النقاش والاجتهاد تحقيقاً للنفع العام. ولسوف نتدرّج فيه من الحديث عموماً عن دور الجامعة في التثقيف الأمني على مستوى المجتمع بسائر مؤسساته العاملة في الضبط الاجتماعي، إلى التخصيص في محاولة دراسة إمكانية مساهمة الجامعيين في تحسين الاداء الشرطي.

أولاً: التثقيف الأمني ودور الجامعة

معلوم أن العلاقة بين المواطن ورجل الأمن يعتريها الكثير من التأزم والسلبية التي غالباً ما تكون بالاتجاهين. لا سيّما عندما يضع المواطن نفسه في موضع الخطأ، فتكون لرجل الأمن ردّات فعل استفزازية حتى في أبسط مظاهرها وأقلها إيلاماً أو تعنيفاً، عنينا المواقف «الوعظية» أو الاجرائية الملتزمة حدود القوانين والتعليمات. وفي حين ان قيام رجل الأمن المثالي بعمله كاملاً غالباً ما يكون في دائرة الظل غير مثمّن أو مقدر حق قدره، فإن الاساءات التي قد تصدر عن اترابه تطاله دون تمييز، من خلال المواقف التنكيرية أو الانتقادية التي دفعت كاتباً كبودلير إلى القول:

«الشرطة دائماً على خطأ «Police a toujours tort»، وهي العبارة الشهيرة التي استهلّ بها Fernand CATHALA كتابه الشهير «Cette police si décriée»[٢].

ولعلّه من الممكن القول ان ظاهرة العداء لرجل الأمن تتمتع بمعظم سمات ومواصفات الظاهرة الاجتماعية إن لم نقل جميعها، لا سيّما من حيث شمولها لمختلف فئات المواطنين في المجتمعات البشرية التي تعرفها بغالبيتها، انما بدرجات متفاوتة. فترانا نجد أن المثقف الجامعي يكاد يكون في حالة ردّة الفعل نفسها ازاء رجل الأمن، كما المواطن العادي إلى أي قطاع انتاجي أو مهني انتمى، إلى درجة ان الصورة القاتمة المظلمة المنطبعة عن رجل الأمن يمكن أن تكون واحدة رغم الفروقات الفكرية والاجتماعية بين الأفراد. وان في نتائج تجربة الأستاذ الجامعي كيركهام[٣]، الذي تطوّع في صفوف رجال الدرك الفرنسي كي يتمكّن من الكتابة عنهم، ما يبرز بوضوح حاجتنا إلى إطلاق الدعوة لأمرين أساسيين:

ـ الخروج من حال التعايش مع هذا الواقع المتأزّم، عبر دراسة أسبابه وسبل المعالجة التي تسمح بإيجاد وسيلة اتصال مبتكرة أو لغة تخاطب جديدة بين

---

(٢) **CATHALA, Fernand, «Cette police si decriée»**. éd. du Champs-de-Mars 1971, Paris.

(٣) **G. KIRKHAM, «Un Professeur à l'école de la rue»**, in Revue Internationale de police criminelle (R.I.P.C) N.° 356 P.P78 et stes.

المواطن ورجل الأمن. وهذا لا بد أن يكون من أولى واجبات الصروح الجامعية ومراكز البحوث التابعة لها والتي عليها وضع برامج لدراسات ميدانية تتمحور حول هذا العنوان، وتشمل كل ما يتصل بديناميكية العلاقة بين رجل الأمن والمواطن في سائر تفاصيلها التفاعلية، لا سيّما منها تلك التي تؤثر مباشرة في المستويات النفسية والاجتماعية والحقوقية (الحريات العامة وتطبيق القوانين) والسياسية والاقتصادية الخ...

ـ بثّ روح جديدة في رجال الأمن، بل بعث مدرسة جديدة في العمل الشرطي تقوم على مبادىء دونتولوجية مستقاة من النظريات الحديثة في العلوم الجنائية، على غرار ما تركته هذه العلوم من بصمات أو أحدثته من آثار إيجابية على صعيد سائر مؤسسات الضبط الاجتماعي، لا سيّما التشريعات الجزائية والمؤسسات العقابية. على أن يكون عنوان هذه الفلسفة الحديثة «مدرسة الوظيفة الاجتماعية للعمل الشرطي»، وأن تقوم على أساس علاقات متوازنة بين المواطن ورجل الأمن تتجاوز وصفه بما كان يُعرف به سابقاً كـ «عين ساهرة»، ليصبح «العين الساهرة واليد الحاضنة والقلب المتفاعل». ذلك أنه لا بدّ أن تترسّخ القناعة بأن تحقيق الأمن هو مسؤولية مشتركة بين مواطن ورجل أمن يتبادلان الثقة والمحبة والاحترام، بحيث أن تفعيل دور المواطن في العملية الأمنية أمر واجب وشرط لا بدّ منه، وأن تغييبه القائم حالياً لا يجوز الاستمرار به أية كانت الذرائع. فبقدر ما يشتكي المواطنون عجز أو تقاعس رجال الأمن في تحقيق طمأنينتهم وأمنهم، بقدر ما يتحمّلون هم أنفسهم قسطا من مسؤولية هذا العجز. وهذا القسط الذي لا بدّ للباحثين من الاستدلال إليه أولاً، ومعاينته ثانياً، واقتراح سبل معالجته ووسائل تكريسها في أنماط التصرّف بواسطة الطرائق المختلفة تشريعية كانت أم تدريبية ترشيدية، ثالثاً. كذلك فإنه يتوجّب على المؤسسات الأمنية المبادرة إلى تطوير نفسها، وتطوير أنظمتها وقوانينها، وتحديث تعليماتها التفصيلية في سبيل خلق هذه المشاركة وعدم السماح لفريق الرفضيين داخلها بالحؤول دون هذا التحسين، لأن دوافع رفضهم المغلفة بمختلف الأسباب النمطية والراديكالية والمثالية والتخصصية... الخ، لا ترتبط بالواقع اطلاقاً بل انها أثبتت عقمها وعدم جدواها، وأظهرت حبّاً للسيطرة أو التفرّد بالسلطة يتعارض مع كل فكر مؤسساتي أو توجّه اجتماعي.

من خلال هذا التمهيد، وانطلاقاً من محوري التفكير المذكورين أعلاه، يتأكد للمراقب كم هي بعيدة المسافة بين مؤسساتنا التربوية الجامعية وأدوارها المستقبلية في مجال التثقيف الأمني، وكم هو ملح بالتالي اجتياز الحواجز النفسية والواقعية التي تحول دون مقاربة هذا الموضوع بشكل منهجي يفرض المبادرة

الفورية إلى توجيه معاهد البحوث التطبيقية القائمة حالياً بالاتجاه الصحيح على هذا الصعيد، خدمة للمجتمع واغناء له بالباحثين الاجتماعيين الذين قد يكون للكثيرين منهم، على ضوء النتائج المتوقّعة، أدوار أساسية وهامة في تشكيل حلقات الاتصال أو جسور العبور بين المواطن ومؤسساته الأمنية. فتتأمن بذلك سوق عمل متنامية تنقذ خريجي معاهد العلوم الإنسانية والاجتماعية (آداب ـ حقوق ـ علوم اجتماعية...) من واقع الأزمة الذي يعيشونه. هذا الواقع الذي تسبّب في ما نلاحظه مثلاً من انخفاض كبير في عداد المنتسبين إلى معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية، فضلاً عن انخفاض اعداد الراغبين بمتابعة الجدارة أو الدراسات العليا في صفوف الحائزين على شهادة الإجازة في مختلف مجالات العلوم الإنسانية.

نقول هذا ولا ننسى بالطبع العوائق النفسية والواقعية في الجانب الآخر، والتي تجعل دخول مؤسسات الضبط الاجتماعي دائرة البحث الجامعي أمراً غير متيسّر، إنما ليس مستحيلاً. فالراديكاليون الذين يتخوّفون من التغيير الذي قد يقترحه الدارسون داخل المؤسسات أكثر من أن يُحصوا إلى درجة أنه يُروى قديما عن قيادي كبير لطالما تغنّى بشعار أطلقه يصنف الجامعيين في السلك الذي ينتمي إليه في خانة الفاشلين، لأنه، حسب رأيه، لا يمكن لهم النجاح في دراستهم إلا على حساب عملهم الوظيفي. أما «أنصاف المتعلّمين» في تلك المؤسسات، فإنهم ولا شك أشد خطراً من الجهلة على الدارس المجتهد، كونهم لا يتوانون عن محاولة احباطه فعلاً وقولاً، على غرار ما يُروى عن مسؤول أمني رفيع بادر أحد معاونيه بالقول «هذا ليس بفضل علمك وخطتك بل أن السالبين هم الذين تابوا وأقلعوا طوعاً!!...» ردّاً على شروحات ذلك المعاون حول خطة علمية وضعها لمحاربة عمليات السلب في أحد أحياء العاصمة وأثمرت القضاء عليها نهائياً.

إلا انه، على الرغم من هذه الإعاقات، تحصل محاولات جادّة لولوج عالم الفكر والتنوّر بالعلم داخل أجهزة الضبط الاجتماعي على اختلافها، ولعلّ في مراجعة بسيطة لمناهج تنشئة وتدريب الضباط في قوى الأمن الداخلي مثلاً، ما يؤكد هذا التوجّه السليم، لا سيّما وان تدريس المواد العامة فيه يعهد إلى أساتذة جامعيين متخصصين كل في الحقل الموكول إليه[٤]. لا بلّ أن ادخال مادة منهجية البحث العلمي ضمن برنامج دورة تقوية معلومات الضباط المرشحين للترقية لرتبة رائد (فئة الضباط القادة)، واكمال ذلك بفرض تقديم مذكرات بحث تدور حول مواضيع مختارة يتم اعدادها بإشراف أصحاب الاختصاص، من شأنه التأكيد على تصميم المؤسسة على السير في الاتجاه الصحيح نفسه، خاصة إذا علمنا أن في المواضيع

(٤) لمزيد من المعلومات، يمكن مطالعة لائحة المواد العامة.

المعالجة من الجدّة والأهمية ما قد يستثير الطلبة في أقسام الدراسات العليا في الجامعات فيعمدوا بدورهم إلى اختبارها ووضع أبحاثهم حولها، موفّرين لنا إمكانية اجراء عمليات تقاطع بين النتائج التي يتوصّلون إليها وتلك التي وضعها الضباط، تحقيقاً لنسبة عالية ممّا يصح تسميته «جدوى الأبحاث» التي تكون والحالُ هذه أكثر دقة في تصوير الواقع وأكثر شمولية وموضوعية(٥). كي تكون هذه المواضيع المختارة من واقع إحدى مؤسسات الضبط الاجتماعي على سبيل المثال، أو غيرها من المواضيع المحتملة على صعيد باقي المؤسسات، متكاملة وذات فائدة عميمة، فلا تكرر أو تنسخ نفسها ولا تتوازى أو تتعارض الجهود المبذولة لخدمتها. فإنه لا بدّ بالتالي من إيجاد الجهاز أو المركز المنسّق لأبحاثها، والذي نعجب كيف أن ولادته لا زالت متأخرة رغم استكمال جميع مراحلها. فمعلوم أن قرار إنشاء مركز العلوم الجنائية صدر عن مجلس الجامعة اللبنانية تحت رقم ١٢، تاريخ ١٩٧٢/١٢/١٢، وان اخصائيين في العلوم الجنائية على رأسهم القاضي الدكتور مصطفى العوجي أنجزوا في حينه ما كلفوا به من دراسات حول أهدافه ومواد التدريس فيه وكيفية الانتساب إليه والشهادات التي يمنحها... الخ، بحيث بات مشروع المرسوم المؤذن بانطلاقه شبه جاهز ولا يحتاج الاّ إلى بعض التعديل أو المراجعة على ضوء التطوّرات الكثيرة التي عرفها المجتمع منذ ذلك الحين. وتجدر الاشارة الى ان دواعي العجلة في اطلاق هذا المركز أكثر من أن تحصى ولا يمكن أن تخضع لأي نقاش. غير أن منها ما هو بارز وملحّ بحيث لا بد من استعراضه ولو سريعاً على سبيل التوكيد من جهة، وعلى سبيل تحفيز الطلاب، من جهة ثانية، للتوجّه إلى خدمة الوظيفة الأمنية للجامعة باختيار مواضيع دراساتهم الاجتماعية القانونية على النحو المبيّن تباعا في سياق هذا البحث:

١ ـ فتح آفاق جديدة لمعاهد وكليات العلوم الإنسانية كما ذكرنا سابقاً، تتّصل بتنشيط أو بعث سوق العمل لخرّيجيها من خلال تزويدهم بشهادات تسمح بتوظيفهم في مجالات كثيرة لن تتطوّر ما لم يدخلها العامل الاجتماعي مستشاراً ومساعداً ومشاركاً أحياناً حتى في اتخاذ القرار (السجون ـ قضايا الأحداث ـ قضايا الآداب والعائلة ـ ادمان المخدرات ـ التسوّل والتشرّد...).

٢ ـ حثّ السلطتين التشريعية والتنفيذية على مواكبة العصر بتحديث التشريعات عموماً والسير بها في الاتجاه الإنساني الاجتماعي، بعدما يتأكد لهاتين السلطتين توفّر العنصر البشري المؤهّل لمواكبة وتولّي هذا التحديث الذي لن يقوم إلا بخلق تلك الشريحة اللازمة من العاملين الاجتماعيين.

---

(٥) لمزيد من المعلومات، يمكن مطالعة لائحة المواضيع المختارة لعام ١٩٩٤ (ملحق رقم ١).

٣ ـ تطوير أجهزة الضبط الاجتماعي «Contrôle Social» المختلفة، من مؤسسات قضائية إلى عقابية إلى شرطية إلى اعلامية إلى أهلية خاصة... ولعل في تجربة الفرنسي كيركهام وأفكاره[٦] ما يبيّن كم هو مفيد ومهم أن لا يتنكّر رجل الأمن للعلم ومناهجه. لا بلّ أن التدريب والتعلّم يأتيان بنظرنا، في مقدمة أهم الشروط لنجاح الوظيفة الاجتماعية للعمل الشرطي والتي تناولناها بالتفصيل في أكثر من دراسة[٧]. وللتدليل نسوق مثالاً صارخاً من وحي مشاهداتنا اليومية سواء في العاصمة أو سائر المدن الكبرى، ألا وهو موضوع الأحداث المتسوّلين أو المشرّدين، الغائب عن تقارير رجال الأمن رغم ملامسته حد المعاناة بالنسبة إلى المواطن، وذلك لافتقار قوى الأمن إلى القسم المختص بهذا الموضوع والذي لا بدّ أن يقوم على نشاط عناصر مدربين ومتخصصين يغلب على أدوارهم الطابع الاجتماعي والنفسي، ويترسّخ لديهم الإيمان بأن وراء كل حدث عالماً خاصاً لا بدّ من سبره واكتشافه برويّة ودراية ورعاية[٨].

٤ ـ المساهمة في بعث ما يمكن تسميته الوعي الأمني أو الثقافة الأمنية في المجتمع. ولعلّ جدّة وعدم شيوع هذا المفهوم لا يقلّلان من أهميته. فنحن لا نعمل على اطلاقه إلا بعد تأكدنا المطلق من امكان بعثه وتعميمه، وهو تأكد نابع من خبرتنا وتجربتنا في مجال العمل الأمني سحابة ثلاثة وعشرين عاماً[٩]. وان إيماننا

---

(٦) يقول الدكتور كيركهام في هذا المجال:
«Il est de tradition que les universitaires tels que moi soient prêts à faire des reproches à la police à partir d'incidents isolés relatés par les différents organes de la presse.
Cf. R. I. P. C N.° 356 P: 78.

(٧) لمزيد من التفاصيل، يُراجع بحثنا «حول المنظور الاجتماعي للعمل الاجتماعي، منطلقاته الفكرية والواقعية وشروط معالجته»، المنشور في المجلة العربية للدراسات الأمنية (الرياض) عدد تموز ١٩٩٤، ص.ص: ٩١ ـ ١١١.

(٨) في اعتقادنا أنه لا بدّ من المبادرة إلى انشاء قطعة متخصصة بشؤون الأحداث الجانحين Brigade des mineurs في صفوف قوى الأمن الداخلي، على أن يتم اختيار عناصرها من المتطوّعين في صفوف المساعدين (والمساعدات) الاجتماعيين في مرحلة أولى، ومن بين خريجي مركز البحوث الجنائية لاحقاً. وذلك لأنه لا يجوز إطلاقاً ترك معالجة هذا الأمر وما يستتبعه من تحقيقات تمهّد لتدابير مراقبة أو حماية أو اصلاح أو تأديب، لأشخاص غير مؤهلين أو متخصصين. سيما إذا علمنا أن مجتمعات متحضّرة مثل كندا تكرّس ٥٪ من النشاط الشرطي الأمني لأعمال الوقاية والمكافحة في مجال جنوح الأحداث وعدم تكيفهم.
Cf L'action de police dans la prévention et le traitement de la délinquance juvenile. R. I. P. C. N.° 136 P.P: 66-75.

(٩) على سبيل التدليل وتعميم الفائدة، لا سيّما في أوساط رؤساء مراكز الشرطة، يمكن الاطلاع على بعض النماذج عن الأعمال ذات الطابع الاجتماعي التي أمكننا تحقيقها في أكثر من منطقة، والتي تركت آثاراً إيجابية ملموسة لجهة توثيق العلاقة مع المواطنين. (ملحق رقم ٣).

كذلك لقوي بأن تحقيقه لن يكون إلا في المؤسسات التربوية الجامعية، التي عليها واجب رعاية بذاره الطري، ليأتي غرسه ويثمر على النحو الذي يتمنّاه كل مواطن صالح.

ولعلّنا في هذا المجال نميل إلى طرح ما قد يستغربه القارىء للوهلة الأولى: فنحن نذهب إلى القول بوجوب ادخال مادة تدريس جديدة إلى برامجنا هي مادة «الثقافة أو التوعية الأمنية»، وإلى دعوة ذوي الاختصاص (من تربويين وعلماء نفس واجتماع وصحة وقانون ورجال أمن... الخ) إلى المساهمة في برمجة مراحل ومواضيع تدريس هذه المادة لادراجها في المناهج بدءاً من السنوات الابتدائية الأولى. وأملنا أن تتمكن هذه الدعوة من النفاذ إلى قناعات من سوف يتم اختيارهم لعضوية المجلس الاقتصادي الاجتماعي المزمع انشاؤه قريباً، بحيث يكون وضعها على جدول أعمال المجلس الخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل، مسيرة الارتقاء بالمجتمع وتطويره بتطوير إنسانه بادىء ذي بدء.

ثانياً: في تحسين الاداء الشرطي

لقد مرّت الوظيفة الشرطية منذ نشوئها وعبر العصور، بمراحل مختلفة حظيت في بداياتها باحترام وتقدير متلقّي خدماتها الذين دفعوا إلى صفوفها، انسجاماً مع نظرة الاحترام تلك، النخب من فتيانهم. ثم تراجع منحنى مسارها تدريجياً لتعرف في بعض من حقباتها افولا وتنكيراً ما بعدهما من أفول وتنكير. كل ذلك انطلاقاً من ممارسات أفرادها التي اصطلح على تعريفها بالاداء الشرطي.

واننا نجد أن خير منهج نسلكه لدراسة كيفية مساهمة الجامعيين في تحسين هذا الاداء، يكمن في استقراء أهم ملامح اشراقاته الغابرة لمعاودة ابرازها وبعثها بعد تطويرها، وفي استذكار أدهى عوامل تقهقره ونبذ أصحابه في مجتمعاتهم، لتخليص الشرطة من هذه العوامل أولاً، وتخليص المجتمع من سطوة رجالها الفاسدين الذين يسيئون بسلوكهم الشاذ إلى المؤسسة وإلى المجتمع في آن واحد. لذلك، رأينا في استعراض المراحل التاريخية على النحو الذي سيلي، ما يسمح بالتعريف بالوظيفة الشرطية واستنباط ما يجب أن يكون عليه اداؤها، لنخلص بالنهاية إلى ربط كل ذلك بالدور الذي نتوسّمه في فئة الباحثين أو الطلبة الجامعيين الذين ينجذبون إلى الموضوع ويهتمون لمضامينه.

أ ـ ما المقصود بالوظيفة الشرطية؟

يتفق الباحثون للاجابة على هذا السؤال، على التمييز بين التحديد العضوي Organique والتحديد الوظيفي Fonctionnel للعمل الشرطي. فمن الناحية العضوية، يطلق اسم الشرطة على جميع أو بعض القوى المولجة بموضوع «أمن

العموم» سواء أكانت هذه القوى ذات طابع عسكري أم مدني سياسي أم مشترك. أما من الناحية الوظيفية، فيتوسع مجال الفهم ليشمل كل جهاز أو إدارة خاصة أو عامة ذات اختصاصات تتوازى أو تتكامل مع اختصاصات ذلك الجهاز العضوي والتي يطلق عليها اسم الشرطة الموازية أو الشركة الرديفة «Polices Parallèles et Auxiliaires». وبعيداً عن الغوص في تعقيدات وتداخلات هذا التفريق، رغم ما له من فائدة وأهمية بالغتين في مجال التطبيق (بحيث دفع إلى بروز تيّار علمي حديث ينادي بقيام علم مستقل اسمه «البوليكولوجيا» Policologie كأحد تفريعات العلم الجنائي الحديث)، يهمّنا أن نستعرض بصورة موجزة وسريعة أصل هذه التسمية ونشأة وتطوّر الوظائف الشرطية المتعددة وصولاً إلى توحّدها في إطار ما اتفقنا عليه من تحديد عضوي لهذه المؤسسة، وذلك بهدف تأريف خطواتنا انطلاقاً من مَعلم واحد. هذا مع الملاحظة إن كلمة الشرطة تُعتمد في بعض البلدان، كلبنان مثلاً، للدلالة على جزء من الجهاز العضوي المتفق عليه، ويتمثّل في مجموع ضباط ورتباء وأفراد قوى الأمن الداخلي العاملين في العاصمة بيروت. بمعنى أن ما نقصده بكلمة الشرطة خلال بحثنا يتجاوز هذا الجزء فيما لو طُبِّق على لبنان، ليفترض الدلالة على جميع ضباط ورتباء وأفراد قوى الأمن الداخلي، سواء من كان عاملاً منهم في شرطة بيروت أم الشرطة القضائية أم الدرك الإقليمي أم القوى السيارة أم أمن السفارات أم معهد التدريب أم الإدارة المركزية أم المؤسسات الاجتماعية أم المفتشية العامة أم هيئة الاركان العامة...

ومن المتّفق عليه أن هنالك شبه اجماع على ارجاع كلمة «بوليس» إلى أصلها اليوناني «POLITEIA» للدلالة على كل ما له علاقة بسياسة تنظيم المدينة. أما كلمة شرطة فقد اختلفت الآراء حول أصل اشتقاقها واطلاقها، ففي حين أعاد بعضهم أصل التسمية إلى المصدر اليوناني «SECURITAS»، ذهب آخرون إلى القول انها للدلالة على تلك الفئة المميزة من خيرة المحاربين الاشداء الذين يضعون ساعدة «من القماش»، «شرطة»، لتفريقهم عن باقي المحاربين، والذين يوضع لهم كذلك شرط ألا يرجع أحدُهم إلا غالباً أو يموت.

وهي قد تعني كذلك التضحية والفداء، كما ورد في معجم ابن منظور مقارنة بـ «اشتراط الابل والغنم المعدّة للبيع باشتراط السلطان لطائفة من جنده، أي عزلها للتدريب والاعداد للحرب بقصد الفداء والتضحية».

أما سائر التسميات الاخرى التي أطلقت هنا وهناك، فإن أساس اشتقاقها يدل على نوع المهمات الخاصة التي كانت هذه المجموعات المميزة تكلّف بها والتي نوردها بصورة موجزة تنسجم مع متطلبات خدمة العنوان الرئيس لهذا البحث:

أ ـ المعونة: وهي تعادل في أيامنا شرطة المخافر أو المراكز الإقليمية.

ب ـ الجلواز: للدلالة على فرق حفظ النظام وتوطيد الأمن.

ج ـ الاترور: للدلالة على المتطوعين للمساعدة من مشايـخ الاحياء.

د ـ العسس: للدلالة على الدوريات الليلية لمنع حصول السرقات والتعديات.

هـ ـ المحتسبون: التي اشتهرت أيام العباسيين لمراقبة الموازين ولآداب العامة، بالإضافة إلى اختصاصات حربية كحراسة أبواب المدينة.

و ـ أنواع الشرطة في الأندلس وقد كانت جزءاً من ثلاثة:

١ ـ خطة الشرطة، وهي طائفتان: الشرطة الصغرى والشرطة الكبرى التي تمتد سلطتها إلى الخاصة وأصحاب المناصب الرفيعة.

٢ ـ خطة الاحتساب.

٣ ـ خطة الطواف بالليل، وكان عناصرها يزوّدون بقنديل وسلاح وكلب (أقدم استخدام بوليسي للكلاب).

ز ـ تسميات متعددة أخرى، منها الدرك...

هذا في الشرق[١٠]. أما بلدان الغرب، فقد عرفت كذلك تعدّداً في التسميات المرتبطة باختصصات محددة أحياناً، وبعمليات فرز أو تمييز طبقي في معظم الاحيان[١١].

ففي عهدي الرومان ثم اليونان، كانت مهمة الشرطة تقوم على مراقبة الأسواق، والاختلاط بالناس، وفضّ النزاعات بينهم، وانزال الجزاء بالمخالفين للأنظمة المتعلقة بالموازين والكيل والصحة العامة ونوعية المواد الغذائية. ثم فوّض إليها لاحقاً مراقبة الأجانب أو الأغراب الذين يحلّون مؤقتاً في المدينة لتعاطي التجارة أو الصناعة. أما على صعيد الممارسة، فقد كان الحاكم في المدينة ينزل العقوبات ويصدر الأحكام بمعاونة مفوّضي الاحياء CURATORES، وكانت الدوريات تسير في الشوارع يتقدّمها جنديان للتدخل الفوري مستعينة بالمخبرين والوجهاء الذين يتوافدون إلى مراكز المفوّضين الثابتة (أول مفوّض يذكره المؤرخون كان «أغريبا» المعين من حموه الامبراطور «اوغسطوس الأول»). أما في بلاد أوروبا كفرنسا مثلاً،

---

(١٠) لمزيد من التفاصيل، تراجع مجموعة من الدراسات والأبحاث التي قدمت تباعاً سواء في ندوات متخصصة رعاها المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، أم عبر المنبر العلمي الإعلامي لهذا المركز عنينا المجلة العربية للدراسات الأمنية.

(١١) لمزيد من التفاصيل، تراجع مجموعة من الدراسات والأبحاث منها:

ـ عوجي، مصطفى: «دروس في العلم الجنائي ـ التصدي للمجرم». منشورات نوفل، بيروت ١٩٨٠، ص.ص.: ٥٩ ـ ٨٥.

Polycopiés et articles à diffusion restreinte aux stagiaires de l'Ecole Nationale Supérieure de Police (E. N. S. P) à St Cyr au Mt d'or en FRANCE.

- LECLERE, M. «La Police», P.U.F. 2ème édit, 1977.

فقد تطوّرت فرق المراقبة «Services de guet» مع الزمن، إلى شرطة قضائية مهمّتها حفظ الأمن ومطاردة المجرمين. ثم توسّعت في نهايات القرن السادس عشر لتطال ميادين غير جزائية أو اجرامية كالإرشاد الاجتماعي ومساعدة المواطن في نواحي حياته حتى العائلية منها، بحيث أمكن في أيامنا احصاء ما يزيد على ٨٥٪ من مشاغل الشرطة التي هي خارج نطاق الملاحقات الجزائية. أما من حيث الصلاحيات، فمعلوم أن السلطة التي يوليها الغرب رجال الشرطة قد بلغت في بعض البلدان، كبريطانيا مثلاً، حدّ الغاء دور النيابة العامة ليقوم الشرطي ضابطُ المخالفة بالملاحقة شخصيا بصفته مواطنا، مع اعطائه الحق بتعيين محام حيث أن للشرطة مستشارين قانونيين. وقد كان من نتائج هذا التوسّع المترافق مع الأقرار بالتصاق الوظيفة الشرطية العضوي والوثيق بمختلف أوجه النشاط أو العمل الاجتماعي، أن تعدّدت القوى الشرطية ذات الصلاحيات والاختصاصات المحدّدة ضمن البلد الواحد، على غرار أميركا التي تجمع حوالى أربعين ألف قوة شرطة تعدّ أكثر من ثلاثماية ألف شرطي بنسبة تقارب ١/٦٠٠ (شرطي لكل ستماية مواطن وهي أما بلدية أو شرطة مدن أو ولاية أو فدرالية). كذلك الأمر في بريطانيا حيث توجد ١٢٢ قوة شرطة تعدّ حوالى ثمانين ألف شرطي من الجنسين بنسبة تقارب كذلك ١/ ٦٠٠ (مع ملاحظة أن لسكوتلنديارد التي تعد ما يزيد على عشرين ألف شرطي وتتبع مباشرة لوزارة الداخلية، وضعاً خاصاً إلى جانب شرطة مدينة لندن التي يزيد عديدها قليلاً عن الألف شرطي).

ولعلّ من المفيد والمنصف في آن أن نذكر أن توسيع نطاق عمل الوظيفة الشرطية وصلاحيات منفذيها، لم تكن حكراً على الغرب. فبالعودة إلى التسميات التي كانت متداولة عند العرب والمذكور بعضها أعلاه، يمكن بسهولة رصد ارتباطها بالاختصاصات المحددة التي شكلت تحوّلات نوعية فريدة ورائدة في مجال العمل الشرطي.

فالإسلام الذي ورث أعرافا وتقاليد قبلية يسهر عليها رئيس القبيلة، كان سبّاقاً إلى إيجاد أول تنظيم وقائي هو نظام العسس الذي تولاّه الخلفاء شخصيا. فاشتهر مع الخليفة عمر في تفقده أحوال الرعية والسهر على احتياجاتهم وحفظ الأمن ليلاً لمنع السرقات والأعمال المنافية للأخلاق والنظام، ثم تطوّر مع الخليفة علي فأرسيت مبادىء اختيار رجال اكفاء لرئاسته وتركّزت نظمه وتوسّعت صلاحياته مع اشتراط أن يكون «صاحب الشرطة من ذوي العصبية المعروفين بالتقوى والصلاح». وهو التحوّل الذي لاحظه ابن خلدون عندما أشار إلى أن دور الشرطة تبلور إلى مكمّل لدور القضاء تؤدى خلاله وظيفة دينية شرعية تختص في النظر بالجرائم وإقامة الحدود.

ثم حصل تحوّل ثان مع الأمويين يكمن في قيام نظام مراقبة المشبوهين في الشام، ونظام البطاقات الشخصية وكانت تسمى «السجل»، مع تسجيل تحوّل سلبي لجهة تزويد صاحب الأحداث بإمكانية استعمال القوة عند الضرورة.

أما العصر العباسي، فقد عرف أكثر من تحوّل نوعي، سواء لجهة إنشاء الحرس الخاص كقوة تدخل سريع مرهوبة الجانب، أو لجهة قيام الخليفة المأمون بإطلاق مئات النسوة العجز في بغداد لتقصّي أخبار الفاسدين والمعارضين ممّا قد يصح اعتباره من أقدم تطبيقات نظام المباحث واستخدام المرأة فيه.

كما أنه لا يفوتنا أيضاً ما أدخله الفاطميون على العمل الشرطي من تطور وإنشاء أول فرق لمكافحة الحرائق واطفائها، فضلاً عن ادخال أحمد ابن طولون جوازات السفر إلى مصر مقلداً ما كان أهل اليمن في الجاهلية يلجأون إليه من اذن لدخول البلاد، موجداً بذلك نوعاً جديداً من المهمات الشرطية لمراقبة هذه الجوازات والتدقيق فيها.

ولعلّ التحوّل الأهم في سياق هذا العرض، على صعيد ممارسة العمل الشرطي في بلاد الشرق، ما أدخله المماليك من صلاحيات واسعة للشرطة في تحصيل الضرائب مع السماح لها باعتماد كافة طرق التعذيب كاعتصار الأجساد وشدّها (فرقة المشدّين وكسر الأعضاء). وهو ما تابعه العهد العثماني المفكك الأجهزة، حيث برز موظفون لا رابط بينهم يتقاسمون مردود الوظيفة الشرطية («الآغا» و«والي الشرطة» و«الصناجيق») بدون أي حسيب أو رقيب وبغياب أية قاعدة ثابتة للتعامل مع الناس الذين غالباً ما كانوا يُعتبرون مسؤولين بالتضامن عن الجرائم التي تحدث ضمن احيائهم، بحيث أنه لم يكن من سبيل لدفع نقمة رجال الشرطة إلا برشوتهم. وقد استمر هذا الواقع هبوطاً مع حلول قوات الانتداب الأجنبية التي كانت مصلحتها ذات الأولوية المطلقة، تفرض تفريق فئات الشعب في ما بينها، وتفرض بالتالي تكريس الشرخ بين المواطنين ورجال الشرطة الذين تعيّنهم حرّاساً لمصالحها وليس أمناء على مجتمعهم.

وهذا هو الواقع نفسه الذي انحدرت إليه الوظيفة الشرطية في الغرب بحيث يسود انطباع راهن، حيثما كان، بأن الشرطة دائماً على خطأ كما أسلفنا، وبحيث نجد أن كثيراً من المواطنين يتعاطفون تلقائياً مع من يشاهدونه مُساقا من الشرطة أكثر من تعاطفهم مع رجال الشرطة نفسهم، حتى قبل أن يعرفوا سبب الاعتقال أو السوق أو التوقيف. وقد يكون مرد ذلك إلى واقع نفسي لا واع تتحرّك فيه صور وانطباعات بشعة للممارسات الشرطية. فعلى الرغم من اختلاف اختصاصاتها سواء في الشرق أم الغرب، نلاحظ أن القاسم المشترك كان دائماً يتمثّل في التدليل على فئة تعمل بتوجيه السلطة القائمة لحمايتها أولاً، وصيانة القواعد الأخلاقية والدينية

والوضعية ثانياً، ورعاية مصالح الأفراد في ما بينهم ثالثاً وأخيراً. بيد أن المؤثرات السياسية والاجتماعية غالباً ما جعلت هذه الوظيفة تظهر في أسوأ مظاهرها في مجتمعاتنا الحديثة، طامسة أمجاد تلك النخبة من القوم كما عرفتها الحضارات القديمة المتعاقبة منذ ما قبل أيام الفراعنة في مصر. يكفي أن نذكر على سبيل المثال المجازر التي ارتكبتها الشرطة الروسية OKHRANA (سمّيت CHEKA بعد الثورة البولشيفية)، وشرطة مترنيخ MATERNIKH في النمسا، والغستابو GESTAPO في المانيا... حيث نجد دائماً أن النفوذ والسلطة غير المحدودين لهذه المجموعات كانا يُسخّران لخدمة من هم في الحكم أولاً وأخيراً، بعيداً عن أي اعتبار للشعب الذي شعر ازاءها بالغربة التامة رغم أن اعضاءها هم من صفوفه وان دورهم المفترض هو تشكيل حلقة الوصل بين أفراده وأولئك الحكام.

فبقدر ما تعود الشرطة إلى الشعب، بقدر ما يستقر المجتمع ويُحفظ النظام. وبقدر ما يؤمن افرادها بأهمية الرأي العام وتقدمه في مجال المفاضلة على كل ما عداه ـ اللهم إلا في حالات تسميمه وتوجيهه لغير مصلحة الجماعة ـ بقدر ما ينجحون في اداء دورهم الحيوي لاستمرار مقوّمات التطوّر الاجتماعي.

ب ـ أهم مستويات العمل لتحسين الاداء الشرطي

لو علمنا أن حضارات الأمم تقوم على تواصل مناخات تطوير المجتمعات والشعوب وتناغمها المنسجم، وان في نقيض ذلك يكون اضمحلال الأوطان وتشتت الشعوب، لأدركنا كم هو عظيم الدور الذي نطالب به صروحنا التربوية في سبيل وصل ما انقطع بتحسين الاداء وزيادة معامل Coefficient الثقة على أكثر من صعيد: ثقة المواطن بقوى أمنه وبدوره كشريك لها في العملية الأمنية، وثقة رجل الأمن بمواطنيه وبنفسه وبدوره الحيوي، بالإضافة إلى ثقته بمؤسساته وما تضعه بتصرفه من وسائل وامكانات، من جهة، وبمجتمعه والقوانين التي يستمد منها سلطته، من جهة ثانية...

وبديهي أن تفريعات هذه العناوين وحدها كافية لطرح أكثر من اشكالية أمام باحثينا. وإذا كنّا نكتفي الآن بذكرها لارتباطها العضوي والوثيق بحقل دراستنا هذه، فإنما كي نحصر جهدنا بعنوان واحد هو تحسين الاداء الشرطي.

ونسارع إلى الإشارة إلى أن الحديث العلمي عن تحسين الاداء الشرطي هو إنجاز بحد ذاته، من حيث كونه يتيح مجال الاستفادة من تقديمات العلم الجنائي الحديث في حقل مكافحة الجريمة وخفض معدلاتها، في ما لو أدرج ضمن إطار برامج عملية ومناهج تدريب ملائمة ومتخصصة. ثم انه بالتالي الركيزة الأساسية لقيام ما ذكرناه حول مدرسة حديثة في العمل الشرطي ذات نهج متجدّد يقوم على ابراز الوظيفة الاجتماعية لهذا العمل في سياق ما هو قائم في المجتمعات المتحضرة

من أنسنة للقوانين أو التشريعات ولاساليب تطبيقها. وهو في الواقع ما نحاول تكريسه لدى فئة غير قليلة من الضباط الذين يتلقّون علينا مادة العلم الجنائي في معهد قوى الأمن الداخلي في لبنان، بحيث نتابع معاً برنامجاً تطبيقياً أثبت جدواه وانعكس إيجاباً في نماذج متعدّدة من العمل المثمر.

بعد ذلك، وإذا كان لا بدّ من وضع الأمور دائماً في إطارها العام، نتذكّر ان منطلقات أي حديث عن الدور الاجتماعي للوظيفة الشرطية ـ الضامن الأول لأي تحسين ـ لا تكون إلا من خلال نظرة كل مجتمع إلى الجريمة، واختياره لنوع السياسة الجنائية التي يخطط لها في سبيل ضبط السلوك المنحرف داخله وإزالة دوافعه، عبر أجهزة الضبط عموماً وجهاز الشرطة تحديداً.

وإذا كان ما نستخلصه من التعريف الذي قدّمناه للوظيفة الشرطية يؤكد كونها ضرورة لتأمين انتظام الأفراد في عقد الجماعة، ويُظهر مدى التصاقها بمختلف أوجه النشاط أو العمل الاجتماعي عبر العصور، وبما أن شروط نجاح هذا التوجّه لا تستقيم إلا بجهد مضاعف من فريقي العلاقة المواطن ورجل الأمن، بعد تلقيهما، كل فيما خصه، التدريب والتوجيه أو التوعية الملائمين[١٢]، يُعدّهما ويتابعهما جهاز جامعي متخصص، بالتعاون مع هيئات مشتركة لا مناص من الاسراع في تشكيلها، لا سيّما في الأمور الطارئة والضاغطة كادمان المخدرات وأوضاع السجون وأزمات السير وحالات التسوّل والتشرّد... الخ، ومع تأكيدنا على أن خير ضمان لدوام المعالجات المحتمل اقتراحها ولنجاح تنفيذ مراحلها الفورية والمتوسطة والبعيدة المدى لا يكون إلا بما سبق أن طرحناه في أكثر من مناسبة، عنينا «المجلس الوطني الأعلى للوقاية من الجريمة ومكافحتها»، والذي يشكّل مركز البحوث الجنائية السابق ذكره أعلاه دماغه المدبّر وعقله النيّر، وإلى أن يتحقق ذلك فتلوح لنا بوادر رسم سياسة أمنية جنائية متكاملة تندرج في إطار السياسة الانمائية الشاملة، وتكون عنصراً من عناصر تحقيق ستراتيجية أمنية موحّدة على مستوى العالم العربي؛ فإن طروحاتنا الراهنة مجبرة على أن تظل تجزيئية لا تحقق طموحنا للارتقاء بالمساهمات الاكاديمية إلى مستوى التخطيط الستراتيجي الشامل. انما ذلك لا يقلّل من أهميتها أو يمنع ولوج باب الدراسات والأبحاث في كل ما يتّصل بالنواحي العامة أو الخاصة التي تكرر ذكرها في سياق هذا البحث، والتي تسمح لنا باستعراض مجموعة من العناوين العامة والشاملة لوضعها أمام المهتمّين على سبيل التعداد لا الحصر، كونها تشكّل بنظرنا غيضاً من فيض ما يحتاجه مجتمعنا

---

(١٢) في كندا مثلاً، صدر قانون خاص لتحفيز المواطنين على مظاهر المواطنية السليمة بمنحهم مكافآت وتناويه واوسمة...

Cf «Loi visant à favoriser le civisme» R. I. P. C. N.° 357 P: 118.

من معالجات راهنة وملحّة:

١ ـ الأوضاع الاقتصادية وانعكاساتها الأمنية.

٢ ـ التحدّيات التي تواجه العدالة الجنائية.

٣ ـ الجرائم الاقتصادية (جرائم الكومبيوتر ـ جرائم أصحاب الياقات البيضاء ـ تبييض أموال المخدرات الوسخة).

٤ ـ الاجرام الدولي المنظّم.

٥ ـ نوادي الشباب ودورها الوقائي من الانحراف.

٦ ـ حماية المعاقين من أخطار الانحراف.

٧ ـ جرائم الاعتداء على البيئة.

٨ ـ الحالة المعنوية لرجال الأمن وتأثيرها على الاداء الشرطي خصوصاً والأوضاع الأمنية عموماً.

٩ ـ دور علم النفس في اختيار المرشحين للوظيفة الأمنية.

١٠ ـ التنمية الشاملة وعلاقتها بالأمن.

١١ ـ أساليب الإعداد النموذجي لرجل الأمن.

١٢ ـ المسائل السياسية المعاصرة وانعكاساتها الأمنية.

١٣ ـ المسائل الجيوبوليتيكة المعاصرة وانعكاساتها المحلية على الصعيد الأمني.

١٤ ـ الفرق الأمنية المتخصصة وشروط اختيار عناصرها واعدادهم.

١٥ ـ تقويم وتخطيط الأهداف والامكانيات الواجب توفّرها لدى الشرطة من أجل مساعدة الأحداث الذين يعانون من صعوبات أو المشرفين على الجنوح.

١٦ ـ امكانيات التعاون بين الطلبة ورجال الشرطة وميادين هذا التعاون.

١٧ ـ تحديد ميادين فتور العزيمة وسوء الاداء في مراكز الشرطة ودراسة سبل التخلّص منها.

١٨ ـ استثمار المعلومات لتخطيط ستراتيجيات الوظيفة الشرطية في السنوات المقبلة.

١٩ ـ دراسة عن الفترة التي تستغرقها معالجة القضايا الجنائية في جميع مراحلها حتى انتهاء المحاكمة في سبيل التخطيط لسدّ الثغرات.

٢٠ ـ دراسة مدى تأثير مركزية الإدارة على الجريمة في المدن وضواحيها.

٢١ ـ التخطيط لبرامج العلاقات بين الشرطة والجمهور للوقاية من الجريمة.

٢٢ ـ عمل الشرطة واحترام حرية الفرد وحياته الخاصة.

٢٣ ـ تنفيذ العقوبات داخل السجن، ظروفه الراهنة ووسائل تحسينها.

٢٤ ـ تأثير وسائل الاعلام على تصرّف الشباب في مجال الانحراف.

٢٥ ـ دراسة حول قياس درجة الأمن الذي يتمتّع به كل مواطن (غياب الخطر المادي ـ الحماية من الخطر المادي ـ حماية الممتلكات من الفقدان أو التلف ـ انعدام القلق ـ حماية الحقوق... الخ).

٢٦ ـ تكامل دور الشرطة مع العائلة والمدرسة والمحيط لحماية الأحداث من السقوط في الانحراف أو الاجرام.

٢٧ ـ التخطيط لتعاون مثمر بين مؤسسات الضبط الاجتماعي العامة والخاصة لمكافحة المخدرات (الاتجار ـ الادمان).

إلى جانب ذلك، فإنه لا بدّ من الإشارة إلى أن في تنوّع مجالات عمل الشرطة، وتعدّد وسائلها التقنية، سواء لخدمة البوليس الفنّي «Police Technique» أم البوليس العلمي «Police Scientifique»، ما يفرض مساهمة الجامعيين في تطوير الخبرة العلمية أو المساعدة الفنية للعاملين في حقل الأمن. وهو ما يجعل التعاون بين الجامعات والمؤسسات الأمنية غير مقتصر على فرق الباحثين في العلوم الإنسانية، بل يتعدّاه إلى علوم الطبيعة والعلوم التطبيقية على تنوعها ليتناول مواضيع راهنة وملحة كذلك، نذكر منها بعضاً من العناوين التي تشغل حالياً مختبرات ومراكز أبحاث معظم الدول المتقدمة على سبيل الاطلاع من جهة، وعلى سبيل توجيه وتحفيز علمائنا للحاق بركب التقدّم التكنولوجي في مجال خدمة العملية الأمنية، من جهة ثانية، رغم علمنا المسبق بتواضع ما يمتلكونه من وسائل وامكانات.

فأملنا أن تجد هذه المواضيع، وغيرها، من ينبري لها افرادياً أم ضمن فرق عمل تُدعم وتُموّل من الهيئات الجامعية والفكرية أو الثقافية خصوصاً، أو من الهيئات الصناعية عموماً، تبعاً لما رسمته هذه الهيئات لنفسها من غايات وأهداف قد تجد فائدة لها في هذا البحث أو ذاك، شرط أن لا يكون ذلك على حساب موضوعية وحياد الباحثين فيفقد البحث بذلك أهم صفاته العلمية:

١ ـ الحماية من القنابل والرسائل والرزم الملغومة.

٢ ـ أجهزة الانذار المبكر الموصولة بمراكز الشرطة، وتأثيرها في نجاح عمليات الحماية والمراقبة للبنوك والمراكز التجارية أو الصناعية.

٣ ـ استخدام الوسائل العلمية لمعالجة المتفجرات عن بعد ومراقبة الأماكن التي يشكل الاقتراب منها خطراً على حياة الإنسان.

٤ ـ تطوير عتاد حفظ الأمن والنظام (الخوذات ـ المناظير ـ الدروع ـ

الكاميرات... الـخ).

٥ ـ تطوير وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية داخل المؤسسات الأمنية.

٦ ـ استخدام الكومبيوتر في إدارة الشرطة.

٧ ـ استخدام الكومبيوتر في عمليات التحقيق.

٨ ـ الملابس الخاصة برجال الشرطة، وتطوير وسائل تصنيعها وتحسينها (الملابس الواقية من الرصاص ـ الملابس الواقية من المطر ـ الملابس الواقية من الحريق ـ الملابس الخاصة برجال السير)... الـخ.

٩ ـ تطوير وسائل رفع البصمات (استعمال الليزر في رفع البصمات...).

١٠ ـ تحقيق هوية شخص بواسطة «بصمات صوته» المسجلة على شريط مغناطيسي.

١١ ـ استعمال الكومبيوتر في مقارنة البصمات.

١٢ ـ تعميم شبكات الهاتف ذات أرقام النداء الوحيدة والسهلة لاستعمالها في الحالات الـخطيرة والطارئة.

١٣ ـ تطوير وسائل كشف التزوير وتزييف العملة.

١٤ ـ تطوير وسائل مضاهاة الخطوط اليدوية.

١٥ ـ تطوير وسائل مقارنة الخطوط والحروف المطبوعة على الآلة الكاتبة.

١٦ ـ الأرشفة الممكننة للنشرة الوطنية لـلأشخاص المطلوبين والوثائق أو الممتلكات التي يُتحرى عنها (سجل عدلي ـ تحريات... الـخ).

الـخاتمة

لا نريد أن نكون طوباويين أو مثاليين، بل اننا على العكس من ذلك نميل إلى ذلك النهج من التفكير الواقعي والتجريبي لتحقيق رغبتنا بالمساهمة في ردم الهوة بين مؤسساتنا الشرطية ومحيطها، انطلاقاً من إصلاح ما هو قائم وموجود وليس عن طريق استنساخ نماذج غريبة أو ابتداع مؤسسات جديدة تلغي كل ما هو محقق قبلها أو تهمل الالتفات إلى خصوصية كل مجتمع وخصوصية كل مرحلة من مراحله التاريخية. وذلك لسبب جوهري وأساسي، ألا وهو إيماننا بأن إمكانية التعميم في العلوم الإنسانية لا يمكن اعتمادها قاعدة، وان لا وجود للمؤسسة الأمنية المعيارية أو «المثال» الذي يمكن تعميمه في كل زمان وأي مكان.

لذلك، فإن رجاءنا ان تستطيع هذه الأوراق إقامة حلقة حوار متواصلة تسمح بالتعلّم والاستزادة في الاتجاهين. ولعلّ الحكمة في ذلك لا تخفى أبداً طالما أن هدفنا المشترك يُـختصر في العمل على تحسين الاداء الشرطي وتأمين أفضل الظروف أو

المناخات لنجاحه. لأن في ذلك يكون نجاح عمليات الدفاع أو الضبط الاجتماعي التي تسمح بتحقيق تلك الحالة من الطمأنينة أو الهناء أو الاستقرار المسمّاة تجريداً «الأمن الاجتماعي» والتي تعرف في المعيوش بـ «الشعور بالأمان» أو النعمة المجهولة كما وُصفت قديماً(١٣).

ملحق رقم (١)

لائحة ببعض مواد التدريس للضباط في معهد قوى الأمن

١ ـ ضابطة السير.

٢ ـ الاتصالات ـ الاتصالات البعدية.

٣ ـ المخدرات.

٤ ـ التحقيق الجنائي الفنّي.

٥ ـ القلم الجنائي.

٦ ـ علم النفس الجنائي.

٧ ـ المعلوماتية.

٨ ـ الطبيب الشرعي.

٩ ـ تقنيات التدريب.

١٠ ـ دفاع مدني.

١١ ـ أناشيد وطنية وموسيقى.

١٢ ـ التاريخ العسكري.

١٣ ـ الجغرافيا السياسية والاقتصادية والبشرية.

١٤ ـ قواعد الصرف والنحو.

١٥ ـ ثقافة عامة.

١٦ ـ إدارة أعمال.

١٧ ـ الاقتصاد اللبناني.

١٨ ـ منهجية البحث العلمي.

١٩ ـ احصائيات.

٢٠ ـ اعتناء صحي.

٢١ ـ آداب المجتمع.

---

(١٣) انطلاقاً من القول المأثور: «نعمتان مجهولتان: الصحة والأمان».

٢٢ ـ لغات: فرنسي ـ انكليزي.

٢٣ ـ سيكولوجية القيادة.

٢٤ ـ التوجيه والإعداد المعنوي.

٢٥ ـ تقنيات التحقيق.

٢٦ ـ العلاقات العامة والاعلام في قوى الأمن.

المستند: البرنامج العام المصدّق عليه من قبل المديرية العامة رقم ٢٠٦/٩٥/ش٧ تاريخ ١٩٩٣/٣/٣٠.

ملحق رقم (٢)

لائحة بعناوين بعض الأبحاث المنظّمة

من قبل الضباط المرشحين للترقية لرتبة رائد

١ ـ المعلوماتية في قوى الأمن الداخلي واقعها وسبل تطويرها.

٢ ـ مجلة الأمن، واقعها ـ سبل تحسين ادائها ـ الحلول المقترحة للتطوير.

٣ ـ من المقرّر أن يصبح عديد قوى الأمن حوالى الثلاثين ألفاً من مختلف الرتب. فهل هذا برأيك كاف لتثبيت الأمن في ظل الواقع الحالي بمنطقة الشرق الأوسط وما هي مقترحاتك المستقبلية.

٤ ـ مخالفات البناء قضية شائكة تشغل حيّزاً كبيراً من نشاط قوى الأمن الإقليمية وصارت تشكّل ارباكاً لها في العمل. قدّم دراسة عن قانون البناء والنصوص التي ترعى تعاطي قوى الأمن به توصّلاً إلى اقتراحات عملية للتطوير.

٥ ـ علاقة قوى الأمن الداخلي بوزارة العدل لجهة تامين إدارة السجون. دور قوى الأمن الحالي في السجون وهل يفي بالمطلوب. مقترحات مستقبلية للتحسين.

٦ ـ لا يزال المخفر الإقليمي هو القطعة الإقليمية الأساس ويعمل بامرة رتيب، الق نظرة على تطوّر الخدمة الإقليمية في الدرك وبيّن رأيك في وضع المخفر الإقليمي الحالي ومسايرته للتطوّر المدني الحديث وقدم الاقتراحات الآيلة إلى التطوير.

٧ ـ مشكلة الاسكان في قوى الأمن الداخلي وتأثيرها على عمل العناصر من ضباط ورتباء وأفراد والحلول المقترحة لها.

٨ ـ الشرطة البلدية: تاريخها ـ وضعها الحالي ـ دورها إلى جانب قوى الأمن الداخلي.

٩ ـ يعاني لبنان وخاصة العاصمة والمدن الكبرى أزمة سير خانقة تعذّرت معالجتها بالطرق التقليدية. ضع مشروعاً لحل هذه الأزمة.

١٠ ـ ضابطة السير بين قوى الأمن والشرطة البلدية. النصوص الحالية التي ترعى العلاقة بين الاثنين والتعديلات المقترحة للتحسين.

ملحق رقم (٣)

تجارب شخصية نسوقها كنماذج عن حالات تطبيقية

١ ـ على صعيد العلاقة بين الشرطة والمجتمع المحلي

أ ـ توجيه الدوريات إلى وجوب تفقّد أحوال المواطنين خلال جولاتها بالاطمئنان إلى أعمالهم والسؤال عنها. وذلك كي لا يظل الشرطي في نظر المواطن، ذلك الطارق غير المستحب الذي لا يُشاهد إلا لتحرير مخالفة أو تبليغ ورقة جلب. بمعنى آخر «أنسنة العلاقة مع المواطنين»، وهو ما اختبرناه تباعا في مناطق ميناء الحصن ـ وزقاق البلاط ـ والمصيطبة. فكان تأثيره جيداً في مختلف مجالات الخدمة الشرطية.

ب ـ تجربة ميناء الحصن

ـ التنبه إلى واقع ٢١ طفلاً مشرّداً في منطقة وادي أبو جميل، والعمل على رعايتهم بإدخالهم إحدى مدارس المنطقة (مدارس المعهد العربي) بالتعاون مع إحدى الجمعيات المحلية وبمساهمة من صاحب المدارس.

ـ المساهمة في تنظيم حلقات توعية وترفيه لأطفال احياء القنطاري ـ الصنائع ـ مي زيادة بالتعاون مع إدارة معهد هايكازيان ومتطوعات الصليب الأحمر اللبناني، بمعدّل حلقتين في الأسبوع، بحيث أصبح الأطفال يتجمّعون تلقائياً أمام مركز الشرطة ويألفون عناصره بعد أن كان معظمهم ينفر أو يخاف لمجرّد ذكر اسم الشرطة.

ج ـ تجربة المصيطبة

ـ التعاون مع جمعية العناية بالطفل والأم في سبيل تحفيز الأحداث المراهقين على الاعتناء باسوار حديقة التلفزيون وموجوداتها (طلاء السور ـ تثبيت المقاعد...) بحضور ومشاركة عناصر مركز الشرطة.

ـ إزالة التعدّي الفاضح على إحدى فضلات البلدية في شارع المصيطبة (محطة الرائد)، والمساهمة الفعلية في تحويلها إلى حديقة عامة بعد ان بادرنا إلى تصوينها بمساعدة أوجيه لبنان ثم اتصلنا بمسؤولي المدارس في المنطقة للإفادة من بعض ساعات دروس التنشئة الوطنية للصفوف المتوسطة، في سبيل غرس النصوب جنباً إلى جنب مع بعض شرطيي مركز المصيطبة. فنغرس فيهم بذلك حب الأرض وحب رجل الأمن.

٢ ـ على صعيد اعتماد المنهج العلمي لتحليل الأوضاع الأمنية في نطاق عمل المركز

أ ـ تجربة زقاق البلاط: كانت حوادث السلب داخل فسحة شبه مهجورة في إحدى المتفرعات من شارع فردان، تتوالى بمعدل حادثتين يومياً، فتنظم بها المحاضر المتشابهة من حيث عقم الأبحاث ومجهولية الفاعلين، إلى ان أمكن، بنتيجة دراسة هذه المحاضر وتحليلها، وضع الجدول المرفق

الذي سمح بمنع تكرار حصول عمليات السلب بصورة نهائية.

٣ ـ على صعيد إقامة شبكة علاقات إنسانية داخل المركز وانعكاسها على ثقة المواطنين من جهة، وعلى الثقة بالنفس وبالقطعة وبرئيسها من جهة ثانية:

ـ تنظيم اجتماعات دورية لجميع العناصر للتوجيه المعنوي والتثقيف المهني والعام (بالإضافة إلى حلقات التدريب والتمارين المفروضة بالتعليمات).

ـ مسك استمارات يمكن تسميتها «بحث أوضاع اجتماعية وشخصية» للعناصر. إذ كم من رئيس لا يعرف مستوى تعلّم مرؤوسه، أو وضعه العائلي، أو أوضاع عائلته المادية والصحية... الخ. وهو ما نعتقد بعدم جوازه مطلقاً لأسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا.

ـ تنظيم اختبارات لمعرفة مدى «اللحمة أو الانسجام بين العناصر» لكشف الحالات الانطوائية أو المرفوضة ومعالجتها كيلا يشكّل اهمالها سبباً لسلوكيات انفعالية تنعكس سلباً على المركز وعلى المؤسسة.

ـ إعارة بعض التفاصيل الدقيقة الاهتمام الذي تستحقه، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أ ـ نظافة المكان وتخصيص غرف خاصة للراحة وللطعام مع فرض نظام خاص يمنع استعمال باقي الغرف إلا لأغراض الخدمة التي توحي للقادم في أية ساعة، بالجدية والاحترام.

ب ـ مراقبة هندام العناصر وأسلوب التخاطب سواء فيما بينهم، أو مع المواطنين، أكان ذلك مشافهة أم بالهاتف أو بأية وسيلة أخرى. وذلك للمحافظة على المستوى اللائق الذي يبعث على الاحترام المتبادل.

ج ـ المبادرة إلى معالجة جميع القضايا ذات الطابع العائلي أو الشخصي من قبل رئيس المركز شخصياً، والنظر إليها من زاوية انها قضايا هامة وحسّاسة في آن واحد.

د ـ محاربة الفتور والتلكؤ أو الاستخفاف بما يطرحه القادمون من شكاوى ومراجعات مهما كانت وبأي وقت أتت.

هـ ـ التأكد من أن العناصر يمارسون السلطة التي منحهم اياها القانون لحماية مصالح الناس وحقوقهم وليس لحمايتهم الشخصية في ممارسة الضغوط أو الاستئثار أو إساءة استخدام السلطة لمصالح أو منافع شخصية.

جدول مرفق بالملحق رقم (٣)

Tableau comparatif des infractions de hold-up commis aux entourages du tribunal druze-Rue Verdun- à Zoquap- el-blat.

Date	Heure	Zone d'attente	Voiture utilisée	Nombre et signalements des malfaiteurs			
				1	2	3	4
5/10/1979	12H	Hamra-près de la Banque Nationale	Mercedes 190 couleur grise, numéro de plaque non relevé. accent libanais	Long, maigre cheveux noirs frisés et courts visage ovale, 39 ans environ	Long, cheveux courts, noirs 30 ans environ accent libanais	petite taille cheveux châtains, peau à couleur blanche	long, gras, cheveux noirs et longs grosse tête large front
12/6/1979	12H 30	Hamra-même endroit	Mercedes 190 couleur bleu ciel, numéro de plaque nonrelevé.	taille moyenne, maigre, brun, cheveux noirs et courts, 38 ans environ	Taille courte, cheveux châtains, moustache Douglas 30 ans environ	Cheveux Châtains, moustache Douglas 30 ans environ	
4/10.1979	19H 00	Hamra-rue de Rome	sans voiture	Taille courte, trapu, cheveux courts frisés, moustaches Douglas, accent kurde «turc»	Long, Maigre nez pointu cheveux courts accent kurde «turc»		
27/10/979	9H 00	Place Riad-Solh	Mercedes couleur beige, sans plaque	Taille moyenne brun	Brun, visage ovale	Cheveux courts frisés, blond.	
29/10/979	10H 45	Hamra-près de la Banque Nationale	Mercedes 190, couleur beige, numéro de plaque commençant par 88.	Brun, visage ovale	«avec 5 autres qui n'ont pas été identifiés».		

المركزية الإدارية واللامركزية الإدارية

د. فؤاد البيطار(*)

المركزية الادارية واللامركزية الادارية هما أسلوبان من أساليب التنظيم الإداري لجهاز الدولة الداخلي(١). والسلطة الإدارية تمارس، في إطار الدولة، وفق أحد هذين الأسلوبين(٢). فإذا ما انفردت السلطة الإدارية بممارسة الشؤون الوطنية كافة بواسطة جهازها المركزي القائم في العاصمة، أو بواسطة موظفين تابعين لها ويمثلونها في المناطق والمقاطعات(٣)، فنحن أمام أسلوب المركزية الإدارية. وإذا ما توزعت الوظيفة الإدارية بين السلطة المركزية القائمة في العاصمة والهيئات والمؤسسات المحلية، فنحن أمام أسلوب اللامركزية الإدارية(٤). وسوف نحاول شرح هذين الأسلوبين الإداريين وتحليلهما.

أولا: المركزية الإدارية «LA CENTRALISATION ADMINISTRATIVE»

المركزية الإدارية، في الدولة الموحدة(٥)، هي ذلك النظام الإداري الذي يركز القرار الإداري في سلطة موحدة تدير البلاد وتصدر الأوامر إلى مواطني الدولة كافة وعلى كامل الإقليم الوطني(٦). فالسلطة الإدارية تتمركز بيد شخص واحد أو هيئة

(*) عقيد متقاعد. أستاذ في كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية ـ الجامعة اللبنانية.

(١) Encyclopedie Dalloz, Droit Administratif, Décentralisation, P.I article premier.

(٢) د. قباني خالد: «**اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان**»، منشورات بحر المتوسط ومنشورات عويدات، بيروت ـ باريس، الطبعة الأولى ١٩٨١، ص٤٣.

(٣) كالمحافظات والأقضية عندنا.

(٤) الأيوبي عزت: «**مبادىء في نظم الإدارة المحلية**»، دار الطلبة العرب، بيروت، ص٢٥.

(٥) الدولة الموحدة: «L'état unitaire»، أي الدولة التي لها سلطة تشريعية واحدة، وسلطة تنفيذية واحدة، وسلطة قضائية واحدة. وهي تختلف من حيث الشكل والجوهر عن الدولة المركبة «L'état composé».

(٦) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**» المرجع السابق، ص٤٤.

واحدة تقيم في العاصمة. وقد تنتدب موظفين خاضعين لها يتمركزون في المناطق والأقاليم ويعملون باسم السلطة المركزية وحدها. والمركزية الإدارية لا تمنع تقسيم أرض الدولة إلى أقسام جغرافية، بحيث يتمركز في كل من هذه الأقسام ممثل عن السلطة الإدارية المركزية.

لكن المركزية الإدارية لها شكلان متقاربان:

الحصرية الإدارية «La Concentration Administrative»، واللاحصرية الإدارية «La Déconcentration Administrative». الشكل الأول هو النظام الإداري المركزي الذي تتجمع بموجبه سلطة البت والتقرير بيد الرئيس الإداري وحده، وبشأن «جميع المسائل الإدارية الداخلة في دائرة اختصاصه وصلاحياته»(٧). وهذا الشكل هو نوع من المركزية المطلقة، بحيث لا يكون لممثلي السلطة المركزية في المناطق «أية سلطة لجهة الانفراد بالقرارات بصورة مستقلة عن السلطة المركزية»(٨). وفي نظام الحصرية الإدارية، يتمركز القرار الإداري في العاصمة وحدها، ويخضع الممثلون للسلطة المركزية في المناطق والأقاليم لتراتبية إدارية صارمة.

أمام هذا النظام الحصري، ظهر الشكل الثاني وهو نظام اللاحصرية الإدارية، حيث ينقل الرئيس الإداري بعض سلطات التقرير النهائي العائدة له أصلاً، إلى نوابه وبعض مرؤوسيه؛ أما هو فيتفرغ إلى مهام الإشراف والتخطيط والتوجيه داخل إدارته.

ويتفرع عن اللاحصرية الإدارية نوعان: اللاحصرية الداخلية «La Déconcentration Interne»، واللاحصرية الخارجية «La Déconcentration Externe». اللاحصرية الداخلية تعني أن انتقال بعض السلطات يتم من الرئيس الإداري إلى بعض مرؤوسيه أو نوابه داخل الجهاز الإداري المركزي. أما اللاحصرية الخارجية فتعني أن انتقال بعض السلطات يتم من الرئيس الإداري إلى بعض مرؤوسيه القائمين في المناطق والاقاليم المحلية(٩). وهناك وجه ثالث من أوجه النظام المركزي، وهو نظام توزيع تمركز المرافق العامة في المناطق الجغرافية(١٠): «La Délocalisation Administrative». وهذا يعني تخفيف تمركز

---

(٧) د. بيطار فؤاد: **«القانون الدستوري العام»**، بيروت، ١٩٨٨، ص١٢٤.

(٨) د. قباني خالد: **«اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان»**، منشورات بحر المتوسط ومنشورات عويدات، بيروت ـــ باريس، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص ٤٣.

(٩) GICQUEL Jean et HAURIOU André: **«Droit Constitutionnel et Institutions Politiques»** Montchrestien, 8éme édition 1985, P.112.

د. عبد الغني بسيوني عبدالله: **«أصول علم الإدارة العامة»**، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٤، ص٢١١ وما بعدها، و**«النظم السياسية»**، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٥، ص٩٢.

(١٠) GOHIN Olivier: **«Institutions Administratives»**, L.G.D.J. Paris 1992, P.70.

المرافق العامة في العاصمة وتوزيع تمركزها في المدن الكبرى[١١]، دون الخروج عن قاعدة تمركز القرار في الرئيس الإداري وحده.

لكن المركزية الإدارية على اشكالها الواردة أعلاه، لا تلغي الوحدات المحلية المتمثلة بالبلديات[١٢]. ذلك لأن البلدية هي قاعدة الحياة المحلية، وهي حقيقة تاريخية واجتماعية لا يمكن تجاهلها. ووجود البلديات في دولة ما لايعني الانتقال إلى نظام اللامركزية الإدارية، ذلك أنه في النظام المركزي المطلق تكون الهيئات المولجة بإدارة البلديات، هيئات معينة من قبل السلطة المركزية، وغير منتخبة من قبل المواطنين الذين تضمهم البلدية. ولهذا فإن هذه الهيئات لا تتمتع باستقلال أو سلطة تقريرية[١٣].

وعلى هذه الأسس يقوم البناء الإداري في النظام المركزي. فهو ينطلق من قمة الهرم الإداري، حيث سلطة القرار، إلى القاعدة المحكومة، مرورا بهيئات وموظفين ينفذون الأوامر والتعليمات الصادرة لهم. والسلطة التراتبية الدقيقة «Le Pouvoir Hiérarchique» هي المقياس الأساسي للنظام المركزي.

ويميز الفقه الفرنسي بين المركزية الحصرية والمركزية اللاحصرية. فعندما يكون القرار الإداري محصورا بشخص أو هيئة، فنحن أمام المركزية الحصرية، وعندما يشارك في القرار الإداري موظفون من الجهاز المركزي وآخرون من خارج الجهاز، وإن ظل القرار الأخير لعضو الجهاز المركزي الذي يظل المخطط الوحيد لاقاليم الدولة كافة، فنحن أمام المركزية اللاحصرية[١٤]. وفي إطار هذا الشكل الأخير من أشكال المركزية، يتحول جزء من صلاحيات السلطة المركزية في العاصمة، إلى موظفيها في المناطق عن طريق تنظيم قانوني مستقل[١٥]، أو عن طريق تفويض بعض الصلاحيات[١٦]. ويجب عدم الخلط بين اللاحصرية الإدارية

---

(١١) لتخفيف تمركز المرافق العامة في العاصمة الفرنسية (باريس)، تتمركز مصلحة الأحوال الشخصية في مدينة «Nantes»، وكذلك مصلحة السجل العدلي. وتتمركز في مدينة «La Rochelle» مصلحة التقاعد للجيوش الفرنسية. وقد نقلت مؤخراً (١٩٩٢) المدرسة الوطنية للإدارة Ecole Nationale d'Aministration (ENA)، من باريس إلى مدينة «STRASBOURG».

(١٢) د. قباني خالد: «اللامركزية...» المرجع السابق ص٤٤.

(١٣) HAURIOU Maurice: «**Précis Elémentaire de Droit Administratif**», 4ème éd. Receuil Sirey, 1937, P.49.

(١٤) EISENMANN Charles: «**Centralisation et Décentralisation, Esquisse d'une Théorie Générale**», Paris, 1948, P.70 - 71.

(١٥) راجع حول ذلك قانون التنظيم الإداري في لبنان الصادر بموجب المرسوم الاشتراعي رقم ١١٦ تاريخ ١٩٥٩/٦/١٢. وقد أعطى هذا المرسوم الاشتراعي المحافظ والقائمقام بعض الصلاحيات الخاصة في نطاق المناطق الادارية التابعة لهما.

(١٦) د. قباني خالد «اللامركزية...» المرجع السابق، ص٤٧.

واللامركزية الإدارية. فسلطة التقرير في اللاحصرية تعطى لموظفين يخضعون للسلطة المركزية خضوعا كاملا. أما سلطة التقرير في النظام اللاّمركزي فإنها تعطى لهيئات محلية تتمتع بالاستقلال المالي والإداري عن السلطة المركزية. وتؤدي اللاّمركزية الإدارية إلى إنشاء وحدات محلية مستقلة، أما اللاحصرية الإدارية فإنها تنقل فقط «موقع سلطة التقرير»(١٧). واللاحصرية الإدارية لا تغير في جوهر وطبيعة النظام المركزي، بل تتناول الشكل وحده. فهي كما قال أحدهم: «إنها دائماً المطرقة نفسها التي تضرب ولكن مع تقصير مقبضها»(١٨). وعلى هذا الأساس فالنظام اللاحصري هو نظام استبدادي لا يعترف بمبدأ تمثيل المواطنين في إدارة شؤونهم المحلية. والعلاقة بين السلطة المركزية وممثليها في المناطق، هي علاقة تبعية وفق تراتبية هرمية صارمة(١٩).

وانطلاقاً من هذه التحديدات للمركزية الإدارية، تظهر لنا حسنات وسيئات هذا النظام.

١ ـ حسنات المركزية الإدارية(٢٠)

أ ـ المركزية الإدارية تمنع تعددية مصادر القرار الإداري، فتنحصر المسؤولية الإدارية بالسلطة المركزية وحدها.

ب ـ حصرية هذه المسؤولية بالسلطة المركزية، تلزم هذه الأخيرة اتخاذ تدابير متوازنة بين المناطق والمقاطعات والأقضية.

ج ـ يحقق النظام المركزي الوحدة الوطنية لأنه يساهم، بشكل فعال، بتأمين التجانس الاجتماعي والاقليمي.

د ـ يوحد النظام المركزي الاتجاهات الثقافية والتربوية والقيم والعادات والتقاليد السياسية.

هـ ـ يؤمن هذا النظام توفيراً في النفقات المالية، عن طريق الاقلال من عدد الوظائف والموظفين.

و ـ يتيح هذا النظام لموظفي الإدارة المركزية اكتساب الخبرة والكفاية في إدارة

---

(١٧) د. قباني خالد «اللامركزية...» المرجع السابق، ص٤٧.

(١٨) يعود هذا القول إلى الفقيه الفرنسي «**Odillon BARROT**». راجع حول ذلك:
GICQUEL Jean, et HAURIOU André, Op. cit. P.112.

(١٩) WALINE Marcel: «**Droit Administratif**», Paris 1963, p.300.
BURDEAU Georges: «**Traité de Science Politique**», tome II Paris, 1967, P. 363.

(٢٠) د. بيطار فؤاد: «**القانون الدستوري العام**»، المرجع السابق، ص١٢٣، ود. عبدالغني بسيوني عبدالله: «**النظم السياسية**»، المرجع السابق ص٩١. ود. **الخوري يوسف سعدالله**، «**محاضرات في القانون الإداري العام**»، العام الدراسي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤، ص٣٦.

شؤون الدولة، ذلك لأن هؤلاء يطلعون على مشاكل المناطق والاقاليم كافة ويحاولون حلها.

ولكن وإن كان للنظام المركزي كل هذه الحسنات، فإن له سيئات أيضاً جعلته عرضة للانتقاداتِ الشديدة.

٢ ـ سيئات المركزية الإدارية[٢١]

أ ـ يشكو هذا النظام الإداري من تركيز شديد للسلطة المركزية. ولهذا فهو يتعارض تعارضا واضحا مع مبادىء الديمقراطية.

ب ـ النظام المركزي يؤدي غالبا إلى الاهتمام بشؤون العاصمة ومواطنيها على حساب شؤون المناطق البعيدة ومشاكلها.

ج ـ في هذا النظام تبقى الإدارة المركزية بعيدة عن التعرف على المشاكل التي تواجه المناطق والمقاطعات والمدن المنتشرة بعيداً عن العاصمة. وهذا ما يحرم المواطنين من بعض الخدمات العامة، ومن مواكبة التطورات المختلفة.

د ـ يؤدي نظام المركزية الإدارية إلى تراكم المعاملات وتكديسها في الإدارة المركزية، وبالتالي إلى تأخير البت بها وانجازها، وهذا ما يعرقل سير العمل والمصالح العامة والخاصة العائدة للمناطق[٢٢].

هـ ـ يؤدي التراكم في المعاملات الإدارية إلى الفوضى في اتخاذ القرارات التي غالبا ما تأتي ناقصة وغير عادلة.

وقد عرف لبنان المركزية الإدارية على أساس اللاحصرية الخارجية. واعتبر القانون اللبناني أن الموظف المقيم في المنطقة (المحافظ) أو في القضاء (القائمقام)، هو أدرى بما يجب تقريره في الكثير من الشؤون والمسائل الإدارية[٢٣]. فالمحافظ، في كل محافظة، له سلطة منح الإجازات الإدارية والصحية، وفرض العقوبات التأديبية وفقا لأحكام نظام الموظفين[٢٤]. وله أيضا سلطة الترخيص بانشاء المحلات المصنفة للفئتين الأولى والثانية، وممارسة سلطة الوصاية على بعض أعمال البلديات. والقائمقام، في كل قضاء، له حق تعيين النواطير ولجان الري الخاصة، والترخيص بإنشاء المحلات المصنفة للفئة الثالثة، وممارسة سلطة الوصاية على بعض أعمال البلديات.

---

(٢١) د. بيطار فؤاد: «**القانون الدستوري العام**»، المرجع السابق ص١٢٣، ود. يوسف سعداللّه الخوري: «**محاضرات...**» المرجع السابق ص٣٦.

(٢٢) د. بيطار فؤاد: «**أزمة الديمقراطية في العالم العربي**». بيروت، ١٩٨٤، ص٢٩٩.

(٢٣) د. الخوري يوسف سعداللّه: «**محاضرات في القانون الإداري العام**»، المرجع السابق، ص٣٧.

(٢٤) المرسوم الاشتراعي رقم ١١٢ تاريخ ١٩٥٩/٦/١٢.

وإذا كنا شرحنا نظام المركزية الإدارية فما هو النظام الإداري الآخر الذي نسميه اللامركزية الإدارية؟

ثانياً: اللامركزية الإدارية «La Décentralisation Administrative»

اللامركزية الإدارية، في الدولة الموحدة، هي ذلك النظام الإداري الذي بموجبه تكون الوظيفة الإدارية موزعة بين السلطة المركزية القائمة في العاصمة، والهيئات والمؤسسات المحلية. فالهيئات المحلية تكون مستقلة عن السلطة المركزية في ممارسة وظيفتها واتخاذ قراراتها الإدارية، لكنها تظل خاضعة لرقابة السلطة المركزية ووصايتها. أما الاستقلال الإداري الذاتي الذي تتمتع به الهيئات المحلية فيكون في إطار الدولة، وبدون الانفصال عن السلطة المركزية.

وقد نشأت اللامركزية الإدارية أول ما نشأت «على مستوى الاقليم... وكانت البلدية النموذج الطبيعي لصورة اللامركزية الإدارية الاقليمية...»[٢٥]. ومع الزمن، اكتسبت البلدية التنظيم القانوني المستقل والمعترف به من قبل الدولة، وأخذت تتمتع بالشخصية القانونية والمعنوية[٢٦]. وانطلاقا من نموذج البلدية هذا، أصبحت اللامركزية الإدارية تعني أسلوبا من الإدارة الذاتية «Auto-Administration» وأصبحت تعني أيضا تفويض بعض الصلاحيات الإدارية من قبل السلطة المركزية للهيئات المحلية المنتخبة من قبل المواطنين. وانتخاب هذه الهيئات إنما يمثل الحجر الأساسي للنظام اللامركزي[٢٧]. ولهذا فإن اللامركزية الإدارية جاءت نتيجة لتطور الفكرة الديمقراطية، وبخاصة فكرة الديمقراطية المحلية «La Démocratie locale».

ومنذ مطلع القرن العشرين، تزايدت المسؤوليات الملقاة على عاتق الدولة، وتغيرَّ مفهوم وظائفها. فبعد ان كانت وظائف الدولة تقتصر على الدفاع عن الحدود، وحفظ الأمن الداخلي، وتأمين العدالة، أصبحت تتضمَّن أيضاً المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[٢٨]. وهكذا كثرت المشاريع والنشاطات التي ترغب الدولة في تحقيقها على الصعيدين الاقليمي والوطني. ووجدت الحكومات ان تحقيق بعض هذه المشاريع، يحتاج إلى أجهزة فنيّة متخصصة تستقلّ في إدارة أعمالها عن التعقيدات الإدارية الرسمية[٢٩]. ولهذا أحدثت هذه الحكومات مؤسسات أعطيت

---

(٢٥) د. قباني خالد: «اللامركزية...» المرجع السابق، ص٥٦.
(٢٦) د. قباني خالد: «اللامركزية...»، المرجع السابق، ص٥٦.
(٢٧) GICQUEL Jean et HAURIOU André, op. cit., p. 113.
(٢٨) د. بيطار فؤاد: «القانون الدستوري العام»، المرجع السابق، ص١٣٨.
(٢٩) د. قباني خالد«اللامركزية...» المرجع السابق، ص٥٧.

الشخصية القانونية المعنوية، الاستقلال الإداري، وحتى المالي. وهذا ما سمي باللامركزية المرفقيّة «La Décentralisation par Services»(٣٠).

وإلى جانب هذه اللامركزية المرفقية، ظهرت أيضا اللامركزية الاقليمية «La Décentralisation Territoriale». وهي تعني استقلال جزء من إقليم الدولة بإدارة مرافقه العامة المحلية. ويكون لهذا الجزء الجغرافي جهاز إداري أو شخص معنوي عام محلي. ويكون هذا الجهاز الإداري أو هذا الشخص المعنوي أكثر إتصالا ومعرفة بالحاجات المحلية من السلطة المركزية(٣١).

وانطلاقا من هذه التحديدات والأشكال، تظهر لنا العناصر الأساسية المكونة لنظام اللامركزية الإدارية وهي(٣٢):

١ ـ وجود مصالح محلية تختلف عن المصالح الوطنية.

٢ ـ وجود هيئة محلية منتخبة ومستقلة تتمتع بسلطة إدارية.

٣ ـ تخضع الهيئة المحلية هذه لرقابة السلطة المركزية ووصايتها.

١ ـ وجود مصالح محليّة تختلف عن المصالح الوطنية

يرتبط المواطنون في الوحدات المحلية برابط تضامني مبني على أساس المصالح المشتركة. وتكون هذه المصالح مختلفة عن تلك التي تجمع على المستوى الوطني العام. فإلى جانب الحاجة الوطنية العامة للاتصالات البريدية والهاتفية التي تقرب بين جميع المواطنين في الدولة، هناك حاجات خاصة يلتقي حولها سكان قرية أو بلدة أو مدينة أو منطقة أو قضاء، كالحاجة إلى الكهرباء أو إلى الماء. والتضامن بين السكان حول الحاجات المحلية، هو الذي يقود إلى نوع من التنظيم الإداري المحلي، وبالتالي إلى اللامركزية(٣٣). فهناك إذن شؤون ذات طابع وطني عام، وشؤون ذات طابع محلي. وكان الكسي دوتوكفيل «A. De TOCQUEVILLE»، أول من لاحظ هذه الظاهرة حين ميز بين المصالح العامة التي تهم كل أجزاء الدولة، كاصدار القوانين والعلاقة مع الأجانب، والمصالح الخاصة المتعلقة بأجزاء محددة من الدولة، كالشؤون البلدية(٣٤). واشترط الفقيه جورج فيديل «Georges VEDEL» لقيام اللامركزية، وجودا مستقلا لبعض المصالح العامة التي تقل

---

(٣٠) د. قباني خالد،اللامركزية...، المرجع السابق، ص٦٥.

(٣١) د. قباني خالد،اللامركزية...، المرجع السابق، ص٥٨.

(٣٢) DELAUBADERE André: «**Manuel de Droit Administratif**», L.G.D.J. 10ème éd, 1976, P.152.

(٣٣) DELAUBADERE André: «**Manuel de Droit Administratif**», op. cit., p.152.

(٣٤) DE TOCQUEVILLE Alexis: «**De la Democratie en Amerique**», Livre I, chap IV.

عموميتها عن عمومية المصالح التي تقع على عاتق الدولة، كالشؤون البلدية والاقليمية[٣٥]. وإذا كانت توجد على الصعيد المحلي، مصالح محلية، فإن هذه المصالح يجب أن تدار من قبل هيئات محلية، ويجب أن تمارس هذه الهيئات صلاحياتها واختصاصاتها في محيط محلي محدّد[٣٦].

لكن تحديد المصالح المحلية بصورة دقيقة وحصرية لا يتم عن طريق الهيئات المحلية نفسها، بل عن طريق الدستور أو عن طريق القانون. فالدستور الذي يعترف بوجود الهيئات المحلية، يمنح هذه الهيئات صلاحيات مفصلة أو صلاحيات تأتي بشكل مبادىء عامة، على أن يعود للقانون أمر وضع تفصيلاتها. وعندما يحدد الدستور صلاحيات الهيئات المحلية، يعطي هذه الهيئات قدرا من الصلاحيات الثابتة التي لا يمكن المساس بها ما لم يتعدل الدستور بالذات. وتعديل الدستور، كما هو معلوم، إذا كان مدونا وجامدا، يتطلب إجراءات خاصة ومعقدة لا يمكن تحقيقها بسهولة[٣٧]. وفي هذا الإطار، لا تستطيع السلطة المركزية التلاعب بالصلاحيات الدستورية الممنوحة للهيئات المحلية.

أما إذا تحددت المصالح المحلية وصلاحياتها عن طريق القانون، فقد يضعف ضمان استقلال هذه الهيئات. ذلك لأن تعديل هذه الصلاحيات، وحتى إلغاءها، يبقى تحت رحمة السلطة المشترعة وفق الاجراءات المحددة لتعديل القوانين العادية، التي لا تتصف بالتعقيد والصعوبة.

ولكن إذا ما حدد الدستور أو القانون صلاحيات الهيئات المحلية، فهل تشمل هذه الصلاحيات جميع الشؤون المحلية دون استثناء؟ أو أنها تشمل شؤونا محددة على سبيل الحصر، على أن تبقى الشؤون الأخرى غير المحددة، من صلاحيات السلطة المركزية؟ إن الأسلوب الفرنسي في اللامركزية الإدارية، لا يحدد صلاحيات الهيئات المحلية بصورة حصرية، بل تأتي النصوص الدستورية والتشريعية بقاعدة عامة تعتبر بموجبها أن جميع الشؤون المحلية هي من صلاحيات الهيئات المحلية[٣٨]. وعلى هذا الأساس، فإن هذه الهيئات هي التي تحدد اختصاصاتها لحل كل مشكلة أو شأن من المشاكل والشؤون المحلية؛ وكل ذلك يأتي تحت رقابة السلطة المركزية. لكن حرية هذه الهيئات ليست مطلقة بل مقيدة بالقيود التالية[٣٩]:

---

(٣٥) VEDEL Georges: «**Droit Administratif**» 2ème Année de droit THEMIS, p.286.

(٣٦) EISENMANN Charles: «**Centralisation et Décentralisation**», op. cit. p.32.

(٣٧) د. بيطار فؤاد: «**القانون الدستوري العام**»، المرجع السابق ص٥٩.

(٣٨) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق، ص٧٤.

(٣٩) مجلة العلوم الادارية، العدد الأول، ١٩٦١، ص١٥٧.

أ ـ تتناول الهيئات المحلية المرافق العامة المحلية وحدها ولا تتناول المرافق العامة الوطنية.

ب ـ لا تستطيع الهيئات المحلية إنشاء المرافق التي تريد وبخاصة المرافق الاقتصادية. ذلك لأنها لا تستطيع إنشاء مرافق عامة تنافس أصحاب المهن التجارية والصناعية، إلا تلك التي من شأنها تخفيف حدة الغلاء وإشباع حاجات المواطنين المحليين(٤٠).

أما الأسلوب الانجليزي في اللامركزية الإدارية، فهو يحدد صلاحيات الهيئات المحلية تحديدا دقيقا بحيث لا تستطيع هذه الهيئات الخروج على ما حدده لها المشترع. والمشترع البريطاني يحدد لكل هيئة محلية إختصاصات معينة، قد تختلف عن اختصاصات وصلاحيات هيئة محلية أخرى. ولهذا فلا يوجد في بريطانيا نظام موحد للإدارة المحلية(٤١). فالقانون هو الذي يوسع اختصاصات الهيئات المحلية، أو ينشيء مرافق عامة جديدة. ويتحقق ذلك بعد أن تتقدم الهيئة المحلية بطلب ترفعه إلى البرلمان بواسطة الوزير المختص(٤٢).

ومع التطورات الاجتماعية والاقتصادية، وبخاصة تلك التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، أصبح من الصعب التفريق بين المرافق العامة المحلية والمرافق العامة الوطنية، وأصبحت الدولة قادرة في أي وقت على إخراج أي مرفق عام من الدائرة المحلية وإدخاله في الدائرة الوطنية(٤٣). وتتمتع الدولة وحدها بسلطة الاستنساب بحيث تقدر أهمية المرفق بالنسبة للمحلة أو بالنسبة للوطن. فقد تكون لمرفأ بترولي صغير تأثيرات محلية كبيرة، ولكن قد يكون له أيضا تأثيرات وطنية أكبر وأهم. وعلى هذا الأساس، فإن توزيع المرافق العامة، بين ما هو محلي وما هو وطني، يرتبط إلى حد كبير بمستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي توصّل إليه الشعب في دولة من الدول(٤٤).

لكن وجود مرافق عامة محلية لا يعني بالضرورة وجود نظام إداري لامركزي. ذلك لأن هذه المرافق قد توجد ويديرها موظفون تابعون للإدارة المركزية(٤٥).

---

(٤٠) د. خالد قباني: «اللاّمركزية...»، المرجع السابق ص٧٥.

(٤١) د. مصطفى أحمد فهمي: «**العلاقة بين الحكومة المركزية والمجالس المحلّية واتجاهات تطورها في الأنظمة المقارنة**»، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، العدد ٧٠، آب ١٩٧٠، ص٩٠.

(٤٢) مجلة العلوم الإدارية، ١٩٦٣، ص١٥٧ وما بعدها.

(٤٣) MENY Ives: «**Centralisation et Décentralisation dans le Débat Politique Français, 1945 - 1969**», Paris, 1974, p. 29.

(٤٤) ROIG Charles: «**Théorie et Réalité de la Décentralisation**», Revue Française de sciences politiques, Paris, 1966, p.407.

(٤٥) نكون هنا أمام نظام مركزي لا حصري.

فالـلامركزية الإدارية لا تتحقق إلا بوجود هيئات منتخبة ومستقلة تتمتع بسلطات إدارية لادارة المرافق العامة المحلية.

٢ ـ وجود هيئات محلية منتخبة ومستقلة تتمتع بسلطات إدارية

لا يكفي لقيام الـلامركزية وجود مرافق عامة محلية، بل يجب أن توجد هيئة محلية منتخبة ومستقلة عن السلطة المركزية لادارة تلك المرافق العامة. وهكذا يجب أن يتوفر شرطان:

أ ـ هيئة محلّية منتخبة.

ب ـ سلطة إدارية مستقلة.

لكن الفقه تنازع حول هذين الشرطين. فمن الفقهاء من اعتبر أن العنصر الأساس لقيام الـلامركزية، ليس في طريقة اختيار الهيئة المحلية، بل في استقلالها عن السلطة المركزية(٤٦). وإذا كان من الأفضل انتخاب هذه الهيئة المحلية، إلا أن هذا الانتخاب ليس شرطا أساسيا لقيام الـلامركزية. وذهب قسم آخر من الفقهاء إلى القول بأن الـلامركزية الإدارية إنما هي نتيجة عملية للنظام الديمقراطي. فالانتخاب هو الطريقة الجوهرية التي يجب أن تتألف بموجبها المجالس المحلية؛ وبالتالي فهو شرط أساسي لقيام الـلامركزية(٤٧). ويرى بعض هؤلاء الفقهاء، أنه إذا كان النظام المركزي يؤمن على الصعيد الإداري، إدارة أكثر دقة وفعالية من النظام الـلامركزي، فإن الوطن لا يـحتاج فقط إلى إدارة جيدة بل يـحتاج أيضا وبخاصة إلى الحرية السياسية. وتفرض هذه الحرية مشاركة شعبية عريضة في السلطة والحكم والإدارة. ولا تتحقق هذه المشاركة إلا عن طريق الانتخابات المحلية التي من شأنها تحقيق التربية السياسية للمواطنين(٤٨).

وإذا كانت الديمقراطية نظاما سياسيا يقوم على أساس مشاركة المواطنين في السلطة والحكم عن طريق الانتخاب، فهي أيضا نظام إداري يـحقق مشاركة المواطنين في إدارة شؤونهم المحلية باستقلال عن السلطة المركزية. وكان «الكسي دوتوكفيل» اعتبر، في القرن الماضي، أنه في البلديات «Les Communes»، تكمن قوة

---

(٤٦) WALINE Marcel: «**Droit Administratif**», op. cit., p. 195.
et RIVERO J.: «**Droit Administratif**» précis DALLOZ, Paris, 1962, p. 292.
et VEDEL G.: «**Droit Administratif**», Op. cit., p. 418.

(٤٧) BENOIT Francis-Paul: «**Le Droit Administratif Français**», Paris, 1969, P.136.
et DELAUBADERE André : «**Manuel de Droit Administratif**», 10ème édition L.G.D.J., Paris 1976, p. 154.

(٤٨) HAURIOU Maurice: «**Précis de Droit Administratif**», Paris, 1937, P. 49.

الشعوب الحرة؛ كما اعتبر أن المؤسسات المحلية هي مدرسة للحريات السياسية، لانها تحقق للمواطن الممارسة الهادئة للحرية(٤٩).

لكن الهيئة المحلية في نظام اللامركزية الإدارية، لا تستطيع القيام بصلاحياتها كاملة إلا إذا تمتعت بالشخصية القانونية والمعنوية، وبالإستقلال عن السلطة المركزية؛

أ ـ الشخصيّة القانونية والمعنوية للهيئة المحلّية(٥٠)

هذه الشخصية القانونية هي التي تعطي للهيئة المحلية وجودها القانوني وإرادتها الذاتية، فتتمتع بأهلية الأداء وأهلية الوجوب. وبدون اكتساب هذه الهيئة لهذه الشخصية الاعتبارية، لا تستطيع القيام بأي دور. والمشترع هو الذي يعطي الهيئات المحلية تلك الشخصية القانونية، كما فعل المرسوم الاشتراعي رقم ١١٨ الصادر بتاريخ ١٩٧٧/٦/٣٠ حيث جاء في المادة الأولى منه ما يلي:

«البلدية هي إدارة محلية، تقوم، ضمن نطاقها، بممارسة الصلاحيات التي يخولها إياها القانون. تتمتع البلدية بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي والإداري في نطاق هذا القانون».

واكتساب هذه الشخصية المعنوية من قبل الهيئات المحلية يؤدي إلى النتائج التالية(٥١):

ـ تصبح الهيئة المحلية ذات كيان قانوني خاص مستقل عن الدولة، وحتى عن المواطنين المحليين الذين انتخبوها.

ـ يصبح الموظفون التابعون لهذه الهيئة مستقلين في نظامهم عن نظام موظفي الدولة.

ـ تمارس هذه الهيئة بعض مظاهر السلطة العامة المحدّدة في القانون العام، كنزع الملكية، والاستملاك، وإجراء العقود الإدارية.

ـ القرارات التي تصدر عن الهيئة المحلية تخضع للطعن أمام القضاء الإداري.

ـ تتمتع الهيئة المحلية بذمة مالية خاصة بها، مع ما يترتب على ذلك من نتائج قانونية، كاكتساب الحقوق، والقيام بالواجبات، وقبول الهبات، وتنظيم موازنة خاصة بها ومستقلة عن موازنة الدولة.

---

(٤٩) DETOCQUEVILLE Alexis: «De la Démocratie en Amérique», Op. cit. Livre I. chap. V.

(٥٠) الجَرَف طُعيمة: «القانون الإداري»، القاهرة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤، ص٨١ ـ ٨٢.

(٥١) د. قباني خالد: «اللامركزية...»، المرجع السابق ص٨٧ و٨٨.

ـ تتمتع الهيئة المحلية بأهلية التقاضي أمام المحاكم كمدعية أو كمدعى عليها.

ب ـ الاستقلال عن السلطة المركزية

إن وجود مصالح محلية تختلف عن المصالح الوطنية، وقيام هيئات منتخبة تتمتع بالشخصية القانونية، كلها عوامل تساهم في تحقيق الاستقلال الإداري لهذه الهيئيات. وقد اعتبر بعض الفقهاء هذا الاستقلال المعيار الأساسي لوجود اللامركزية(٥٢). والاستقلال هذا يظهر في اتخاذ القرارات المحلية، إدارية كانت هذه القرارات أو مالية. فالهيئات المحلية تتخذ القرارات الضرورية للمصلحة العامة المحلية. وفي هذا المجال، لا تخضع لتوجيهات الإدارة المركزية، ولا تتلقى الأوامر منها لأنها لا تخضع لسلطتها التراتبية(٥٣). وقرارات الهيئة المحلية قد تكون فردية، كإعطاء رخصة بناء، أو قرارات عامة كالأنظمة المتعلقة بالسير والصحة العامة. والشخص اللامركزي يستطيع مقاضاة الدولة، وطلب إبطال قرارات صادرة عن بعض سلطاتها، وبخاصة عن سلطة الوصاية. والقضاء الصالح لهذه المنازعات هو القضاء الإداري(٥٤).

هذا الاستقلال المستحق للشخص اللامركزي، يتطلب وجود جهاز إداري خاص به ليقوم بتنفيذ النشاطات العائدة له. والهيئة اللامركزية هي صاحبة الحق في إختيار موظفيها ووضع نظام خاص بهم. وبالإضافة إلى ذلك، فالشخص اللامركزي يتمتع بالاستقلال المالي. وهذا الاستقلال هو عامل أساسي في استقلال الهيئات اللامركزية. ذلك لأن هذه الهيئات لا تستطيع تنفيذ مشاريعها والقيام بالأعباء الملقاة على عاتقها بدون المال. والمال يأتي من مصادر معينة. ومصادر المال هي التي تقرر مدى الاستقال الحقيقي للهيئات اللامركزية(٥٥). والمشترع هو الذي يحدد عادة مصادر التمويل(٥٦). فقد تأتي الأموال من الأفراد، كالهبات، أو من السكان، كالرسوم البلدية، أو تكون من الدولة، كالمساعدات الحكومية، وقد تأتي من مؤسسات دولية، كالقروض والمساعدات الخارجية(٥٧).

لكن المساعدات الحكومية التي تمول الهيئات المحلية قد تطرح مشكلة استقلال هذه الهيئات عن السلطة المركزية. ذلك أن هذه السلطة تستطيع، عن طريق هذه المساعدات، التأثير على حرية القرار المحلي. وقد نبه بعض الفقهاء إلى خطورة هذا

---

(٥٢) WALINE Marcel: «**Traité de Droit Administratif**», Paris, 1969, P. 302.

(٥٣) د. قبّاني خالد: «اللاّمركزية...»، المرجع السابق ص٨٩.

(٥٤) د. قبّاني خالد: «اللاّمركزية...»، المرجع السابق ص٩٠.

(٥٥) د. قبّاني خالد: «اللاّمركزية...»، المرجع السابق ص٩١.

(٥٦) راجع المادة ٨٦ من قانون البلديات اللبناني الصادر بالمرسوم الاشتراعي رقم ٧٧/١١٨.

(٥٧) د. قبّاني خالد: «اللاّمركزية...»، المرجع السابق ص٩١.

التأثير الذي قد يعطل مفهوم اللامركزية ويؤدي إلى فرض الأسلوب المركزي(٥٨). إلا أنه نظرا لتكاثر الحاجات المحلية المعاصرة، لم يعد بوسع أية هيئة محلية الاكتفاء بواردتها الذاتية؛ ولهذا فهي تلجأ إلى الحكومة لدعمها المالي(٥٩). ومهما حاولت الجماعات المحلية الاستقلال عن السلطة الإدارية المركزية، لجهة اتخاذ قراراتها، أو لجهة تمويل مشاريعها، فإن الوصاية الإدارية تبقى الوسيلة الدائمة لتأمين رقابة السلطة المركزية على أعمال هذه الجماعات.

٣ ـ خضوع الهيئة المحلية لرقابة السلطة المركزية

على الرغم من أن اللامركزية تقوم على قاعدة استقلال الهيئات المحلية عن السلطة المركزية، فإن هذا الاستقلال لا يكون استقلالاً كاملاً عن الدولة. فالاستقلال اللامركزي هو استقلال إداري لادارة الشؤون المحلية ضمن الحدود التي رسمها القانون، مع البقاء في إطار الدولة(٦٠). والعلاقة بين السلطة المركزية والسلطة اللامركزية ليست علاقة تبعية، ولكنها أيضا ليست استقلالا كاملا. ذلك لأن اللامركزية الادارية توازن بين المركزية والفدرالية. هي «مركز قانوني يقع على مسافة واحدة من مركزين قانونيين آخرين، المركزية والفدرالية»(٦١). وتأمين هذا التوازن يتحقق عن طريق الوصاية الإدارية التي تمارسها السلطة المركزية على الهيئات المحلية. والوصاية الإدارية «La tutelle Administrative»، هي «مجموع السلطات التي يمنحها القانون لسلطة عليا على أشخاص الهيئات المحلية وعلى أعمالهم لحماية المصلحة العامة»(٦٢). هي نوع من الرقابة التي تمارسها السلطة المركزية على نشاطات السلطات اللامركزية(٦٣). وتمارس هذه الرقابة، إما على أشخاص الهيئات المحلية، أو على قرارات هذه الهيئات وأعمالها.

أ ـ الرقابة على أشخاص الهيئات المحلية

يعطي القانون الذي ينشىء الهيئات المحلية، لسلطة الوصاية، نوعا من السلطة التأديبية. وتتمثل هذه السلطة بإيقاف أعضاء الهيئات المحلية مؤقتا عن ممارسة صلاحياتهم، كما تتمثل بعزلهم أو بحل هذه الهيئات(٦٤). لكن هذا القانون يحدد الشروط الواجب توفرها لتتمكن سلطة الوصاية من ممارسة هذه الصلاحيات.

---

(٥٨) HAURIOU Maurice: «**Précis de Droit Administratif**», op. cit. p. 67.

(٥٩) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص٩٢.

(٦٠) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص٩٣.

(٦١) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص٩٤.

(٦٢) MASPETOL et LAROQUE: «**La Tutelle Administrative**», Paris, 1930, p. 10.

(٦٣) DELAUBADERE André: «**Manuel de Droit Administratif**», op. cit, p. 154.

(٦٤) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص١٠٠.

وحرصا من المشترع على تأمين استقلال الهيئات المحلية، فإنه يعطي هذه الهيئات الضمانات التالية[٦٥]:

ـ يجب أن يتوافر نص قانوني صريح يعطي سلطة الوصاية حق إجراء الرقابة مع تحديد دقيق وواضح لحدود هذه الرقابة.

ـ إن ممارسة الوصاية الإدارية تأتي وفقا لأصول ومبادىء عامة يجب التقيد بها بدقة تحت طائلة البطلان[٦٦].

ـ إن ممارسة الوصاية الإدارية تأتي وفقا لشكليات يحددها القانون؛ وتعتبر هذه الشكليات من الأصول الجوهرية الملزمة للقرارات الإدارية[٦٧].

يحق لاعضاء الهيئات المحلية مراجعة القضاء الإداري لابطال القرارات الصادرة عن سلطة الوصاية لتجاوز حدّ السلطة[٦٨].

ـ لا يحق لسلطة الوصاية أن تعين عضوا محل العضو المعزول، أو مجلسا محل المجلس المنحل. فالقانون يفرض على سلطة الوصاية، في مثل هذه الحالات، دعوة الهيئات الانتخابية لانتخاب عضو بديل أو مجلس محلي جديد. وتعتبر هذه الضمانة المعيار الأساسي للامركزية[٦٩].

وفي لبنان، فإن قانون البلديات المنفذ بالمرسوم الاشتراعي رقم ١١٨ الصادر بتاريخ ١٩٧٧/٦/٣٠، ينص في المادة الثانية والعشرين منه، على إمكانية حل المجلس البلدي بمرسوم معلل يتخذ في مجلس الوزراء، بناء على اقتراح وزير الداخلية، عندما يرتكب مخالفات هامة ومتكررة أضرت بمصالح البلدية.

وعلى الرغم من أهمية الرقابة التي تمارسها سلطة الوصاية على أشخاص الهيئات المحلية، فإن الرقابة الأكثر أهمية التي تمارسها هذه السلطة تتناول قرارات هذه الهيئات وأعمالها.

ب ـ الرقابة على قرارات الهيئات المحلّية وأعمالها

إن القرارات المتخذة من قبل الهيئة اللامركزية هي، من حيث المبدأ، نافذة بذاتها. لكن القانون يفرض مصادقة سلطة الوصاية على بعض المقررات قبل نفاذها. ولا تستطيع الهيئة المحلية المباشرة بتنفيذ هذه المقررات إلا بعد تصديق

---

(٦٥) د. قباني خالد: «اللامركزية...»، المرجع السابق ص١٠١.

(٦٦) من هذه المبادىء العامة مثلاً أن يتاح لأعضاء الهيئات المحلّية إبداء دفاعهم (حق الدفاع)؛ وإغفال هذا المبدأ يُعرّض القرار الإداري للإبطال.

(٦٧) من هذه الشكليات نذكر مثلاً وجوب أن يصدر قرار حلّ المجالس البلدية بمرسوم يتخّذ في مجلس الوزراء.

(٦٨) DELAUBADERE André: «**Manuel de Droit Administratif**», op. cit., p. 157.

(٦٩) WALINE Marcel: «**Droit Administratif**», op. cit. p. 307.

السلطة المختصة[٧٠]. وقد ينص القانون على أنه يحق لسلطة الوصاية توقيف قرارات الهيئات المحلية، وحتى إلغاء هذه القرارات، وإن حصلت المصادقة عليها. هذا ما نص عليه قانون البلديات اللبناني[٧١] في المادة ٧٢ منه التي أجازت لوزير الداخلية والمحافظ، وقف تنفيذ القرارات الصادرة عن المجالس البلدية، وحتى التي سبق التصديق عليها من قبل سلطة الوصاية، لأسباب تتعلق بالأمن. لكن القرار الذي يلغي أو يوقف قرار الهيئة المحلية هو قرار إداري يمكن الطعن به أمام القضاء الإداري[٧٢]. وقد يعطي القانون الحق لسلطة الوصاية. بالحلول محل السلطة المحلية في اتخاذ بعض القرارات «Pouvoir de Substitution»[٧٣]. لكن القانون يحدد على وجه الحصر أصول ممارسة هذا الحق. وكان قانون البلديات اللبناني القديم الصادر بتاريخ ٢٩/أيار/ ١٩٦٣ قد نص في المادة ٧٥ منه على الحالات التي يحق لسلطة الوصاية الحلول محل المجلس البلدي أو محل رئيسه. وتلخص هذه الحالات في ثلاث:

ـ إذا رفض المجلس البلدي، أو رئيس هذا المجلس، أو أهمل القيام بأعمال أوجبتها القوانين والأنظمة.

ـ إذا رفض المجلس البلدي، أو رئيس هذا المجلس، أو أهمل القيام بأعمال طلبها القائمقام خطيا.

ـ إذا رفض المجلس البلدي أو رئيس هذا المجلس، أو أهمل دفع نفقات ملزمة.

أما قانون البلديات الحالي، فلم يجز لسلطة الوصاية حق الحلول محل المجلس البلدي أو محل رئيسه.

وعليه، فإن الوصاية الإدارية هي شرط أساسي من شروط اللامركزية الإدارية، لأنها تؤمن الوصل الدائم والمستمر بين السلطة المركزية والسلطات اللامركزية في إطار الدولة الواحدة. والواقع أن هذا الربط بين الدولة والهيئات المحلية هو أهم الحسنات التي تتميز بها اللامركزية الإدارية، على الرغم من السيئات التي تشوبها.

٤ـ حسنات اللامركزية الإدارية وسيئاتها

من خلال تحليلاتنا السابقة للامركزية الإدارية، نستطيع أن نستنتج أهم حسنات وسيئات هذا النظام الإداري.

---

(٧٠) د. قباني خالد: «اللامركزية...»، المرجع السابق ص١٠٣.

(٧١) المرسوم الاشتراعي رقم ١٨/٧٧.

(٧٢) CHAOUL Joseph: «**Pouvoir Municipal et Pouvoir de Tutelle en Droit Libanais**», thèse, Beyrouth, 1967, p. 202 - 208.

(٧٣) DELAUBADERE André: op. cit. p. 156.

أ ـ حسنات اللامركزية الإدارية

ـ اللامركزية الإدارية تتوافق مع المبدأ الديمقراطي. فهي تسمح بممارسة الحرية في المجتمع المحلي وتنمي هذه الممارسة. ذلك لأنها تمثل عامل تحرر في هيكلية الإدارة الوطنية، وتحد من سلطة الحكام(٧٤). وهي نظام إداري لكنه نظام مكمل للنظام السياسي. ولا يمكن قيام نظام سياسي ديمقراطي لا يتبنى اللامركزية الإدارية.

ـ اللامركزية الإدارية تخفف من أعباء السلطة المركزية، ذلك لأنها توزع الأعمال الإدارية. وحصرية السلطة الإدارية في العاصمة تؤدي إلى اختناق هذه السلطة، وإلى شلل في الأطراف(٧٥).

ـ اللامركزية الإدارية تقوم على مبدأ إسناد الشؤون المحلية إلى هيئات محلية. والواقع أن هذه الهيئات هي الأكثر إلماما. بالحاجات المحلية، لوجودها على مقربة من السكان. ويؤدي هذا النظام إلى اختصار الوقت الذي يستغرقه إنجاز المعاملات الإدارية، ويساعد على تبسيط الاجراءات العائدة لهذه المعاملات(٧٦).

ـ اللامركزية الإدارية تحقق تضامنا بين أبناء الوحدة المحلية، وتخلق حياة مشتركة في ما بينهم، فتزداد عوامل التآلف والعادات المشتركة(٧٧).

لكن اللامركزية الإدارية لاقت انتقادات شديدة، لانها تحمل أيضا إلى جانب هذه الحسنات، سيئات هي في غاية الأهمية.

ب ـ سيئات اللامركزية الإدارية

ـ اللامركزية الإدارية تنشىء حزبيات محلية ضيقة. وقد تنطلق هذه الحزبيات من الخلفيات البدائية(٧٨) التي تفشل النظام اللامركزي. فقد لا تؤمن الانتخابات المحلية وصول نخبة أبناء المحلة إلى السلطة المحلية، فيصل إليها المتزعمون المحليون وأصحاب النفوذ، الذين يسعون إلى تحقيق مصالحهم الشخصية على حساب المصالح العامة المحلية.

---

(٧٤) BURDEAU Georges: «**Traité de Sciences Politiques**», op. cit. p. 376.

(٧٥) ينسب هذا القول إلى الفقيه الفرنسي LA MENNAIS (١٧٧٢ ـ ١٨٥٤) راجع حول ذلك:
MENY Ives: «**Centralisation et Décentralisation dans le Débat Politique Français**», op. cit., p. 51.

(٧٦) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص١٠٨.

(٧٧) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص١١٠.

(٧٨) هذه الخلفيات هي العائلية، والقبلية، والطائفية، واللغوية إلخ...

ـ اللامركزية الإدارية تهدف إلى تحقيق المصالح المحلية. لكن هذه المصالح قد تتعارض مع المصالح الوطنية. والخطر يكمن في تغليب المصالح المحلية على المصالح الوطنية(٧٩).

ـ اللامركزية الإدارية قد لا تساهم في بناء الوحدة الوطنية، لأنها قد تساهم فقط في بناء الوحدة المحلية بإبراز الفوارق الاجتماعية المختلفة بين الوحدات؛ وهذا ما يخلق نوعا من العزلة بين سكان المحلة والحياة الوطنية العامة، كما يخلق حواجز بين مجتمع محلي ومجتمع محلي آخر في نطاق الدولة الواحدة(٨٠).

اللامركزية الإدارية لا توحد الاتجاهات الثقافية والتربوية، والقيم والعادات الاجتماعية والسياسية، بل تمايز بينها. والخطر يكمن إذا ما تعمقت الأبعاد بين هذه الاتجاهات والقيم والعادات.

ـ اللامركزية الإدارية تواجه دائما خطر التحول إلى لامركزية سياسية. وبخاصة إذا ما ضعفت السلطة المركزية. لأن السلطات المحلية إذا ما استقلت استقلالا كاملا من حيث إتخاذ قراراتها، وتحررت من قيود سلطة الوصاية، تحولت إلى لامركزية سياسية. وهذا يعني أنه تغير شكل الدولة، من دولة بسيطة موحدة إلى دولة مركبة فدرالية. من هنا كانت أهمية الوصاية المركزية في النظام اللامركزي حفاظا على وحدة الدولة وتركيبها السياسي والدستوري(٨١).

وبالاستناد إلى تحليلاتنا حول المركزية الإدارية واللامركزية الإدارية، نستطيع الاستنتاج أن النظام المركزي يصلح للدول الصغيرة المحدودة المساحة والسكان؛ أمّا النظام اللامركزي فيصلح للدول الكبيرة من حيث إتساع رقعة الاقليم الوطني وكثرة عدد السكان. لكن معظم الدول المعاصرة أرادت الافادة من حسنات كل من هذين النظامين وبالتالي تلافي سيئاتهما. وهذا النظام الجديد الذي يجمع بين المركزية واللامركزية، يسمى النظام الإداري الوسط أو النظام شبه اللامركزي «La Semi-Décentralisation»(٨٢). وهو نظام إداري يقوم على أساس التوازن بين السلطة المركزية والسلطات المحلية. وقد أخذ النظام الإداري اللبناني بهذا النظام الذي يجمع بين المركزية واللامركزية. فالمركزية الإدارية تتمثل عندنا بالصلاحيات الإدارية التي أناطها المشترع بالمحافظ والقائمقام(٨٣). وهما موظفان إداريان يمثلان السلطة المركزية ويعملان باسمها ولحسابها. أما اللامركزية الإدارية فتتمثل في

---

(٧٩) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص١٠٨.

(٨٠) د. قباني خالد: «**اللامركزية...**»، المرجع السابق ص١١٠.

(٨١) د. عبدالغني بسيوني عبدالله: «**النظم السياسية**»، الدار الجامعية، ١٩٨٥، ص٩٤.

(٨٢) EISENMANN Charles: «**Centralisation et Décentralisation**», op. cit. p. 87 et s.

(٨٣) أي نظام اللاحصرية الخارجية.

تنظيم أعمال بعض المؤسسات العامة[٨٤] والبلديات. فالسلطة المحلية في البلديات تنتخب من قبل سكان البلدة، وتدير أمور البلدية، وتتمتع بالشخصية القانونية المعنوية التي تجعلها قادرة على اكتساب الحقوق والقيام بالالتزامات، لكنها تخضع لسلطة الوصاية التي تمارس الرقابة على أعمالها وفق الشروط المحددة في القانون.

والواقع الاجتماعي والسياسي اللبناني لا يدعو إلى تطبيق اللامركزية الإدارية على إطلاقها. ذلك لأنها تحمل في طياتها بذور التحول، بحكم التطورات والأحداث، إلى لامركزية سياسية، وبالتالي إلى تغيير شكل الدولة اللبنانية. من هذا المنطلق، يجب الافادة من حسنات كل من المركزية الإدارية واللامركزية الإدارية. وقد مزج المشترع اللبناني بين هذين النظامين. ولكن ينبغي تطوير واقع المركزية الإدارية القائمة عندنا، بحيث تتوسع صلاحيات المحافظ والقائمقام عن طريق نقل بعض صلاحيات الوزير إلى المحافظ، وبعض صلاحيات المحافظ إلى القائمقام. ويجب تطوير اللامركزية الإدارية أيضا بحيث تشمل ليس فقط البلديات بل الأقضية[٨٥]. ويقتضي أيضا إعادة النظر بالتقسيمات الإدارية القائمة حاليا، بحيث يزداد عدد المحافظات وعدد الأقضية. كذلك يجب ألا تضم المحافظة أكثر من ثلاثة أقضية أو أربعة على أبعد حد. كما يجب تقسيم الأقضية الكبيرة إلى أكثر من قضاء.

وبتحقيق هذه المقترحات، يتحقق الاصلاح الإداري بالافادة من حسنات كل من نظامي المركزية واللامركزية الإدارية. لكن الاصلاح الاداري الجذري الذي ينشده اللبنانيون إنما يقوم ليس فقط على هذه المقترحات وحدها، بل أيضا وخاصة على أسس تربية المواطن اللبناني تربية وطنية حقيقية تجعله، في أي عمل يقوم به، يعمل لتحقيق المصلحة الوطنية العامة التي تتقدم على أية مصلحة فردية أو محلية.

---

(٨٤) كالجامعة اللبنانية، ومصلحة كهرباء لبنان إلخ...

(٨٥) نصت وثيقة الوفاق الوطني التي أقرها المجلس النيابي اللبناني في القليعات بتاريخ ١٩٨٩/١١/٥ في باب المبادىء العامة والاصلاحات، وفي فقرة الاصلاحات الإدارية على الآتي: «اعتماد اللامركزية الإدارية الموسعة على مستوى الوحدات الإدارية الصغرى (القضاء وما دون) عن طريق انتخاب مجلس لكل قضاء يرئسه القائمقام، تأميناً للمشاركة المحلية». لكن هذا النص لم يأخذ حتى الآن طريقه إلى التنفيذ.

المراجع

ـ الدكتور بيطار فؤاد: «**القانون الدستوري العام**»، بيروت، ١٩٨٨.

ـ «**أزمة الديمقراطية في العالم العربي**»، بيروت، دار بيروت للنشر، ١٩٨٤.

ـ الدكتور الخوري يوسف سعداللہ: «**محاضرات في القانون الإداري العام**»، كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية ـ الجامعة اللبنانية، العام الدراسي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.

ـ الدكتور عبدالغني بسيوني عبداللہ: «**أصول علم الإدارة العامة**»، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

ـ «**النظم السياسية**»، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

ـ الدكتور قباني خالد: «**اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان**»، منشورات بحر المتوسط ومنشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.

ـ مصطفى فهمي أحمد: «**العلاقة بين الحكومة المركزية والمجالس المحلية واتجاهات تطورها في الأنظمة المقارنة**»، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، العدد ٧، آب ١٩٧٠.

- FRANCIS-PAUL Benoit: «**Le Droit Administratif Français**», Paris, 1969.

- BURDEAU Georges: «**Traité De Science Politique**», L.G.D.J. Tome II, Paris, 1967.

- CHAOUL Joseph: «**Pouvoir Municipal et Pouvoir de Tutelle en Droit Libanais**», thèse Beyrouth, 1976.

- DE LAUBADERE André: «**Manuel de Droit Administratif**», L.G.D.J., 10ème éd. 1976.

- EISENMANN Charles: «**Centralisation et Décentralisation, Esquisse d'une Théorie Générale**», Paris, 1948.

- HAVRIOU Maurice: «**Précis Elémentaire de Droit Administratif**», 4ème éd. Receuil Sirey, Paris 1937.

- GICQUEL Jean et HAURIOU André: «**Droit Constitutionnel et Institutions Politiques**», Montchrétien, 8ème éd. 1985.

- GOHIN Olivier: «**Institutions Administratives**», L.G.D.J., Paris, 1992.

- MASPETOL et LAROQUE: «**La Tutelle Administrative**», Paris, 1930.

- RIVERO Jean: «**Droit Administratif, Précis Dalloz**», Paris, 1962.

- ROIG Charles: «**Théorie et Réalité de la Décentralisation**», Revue Française de Sciences Politiques, 1966.

- WALINE Marcel: «**Droit Administratif**», Paris, 1963.

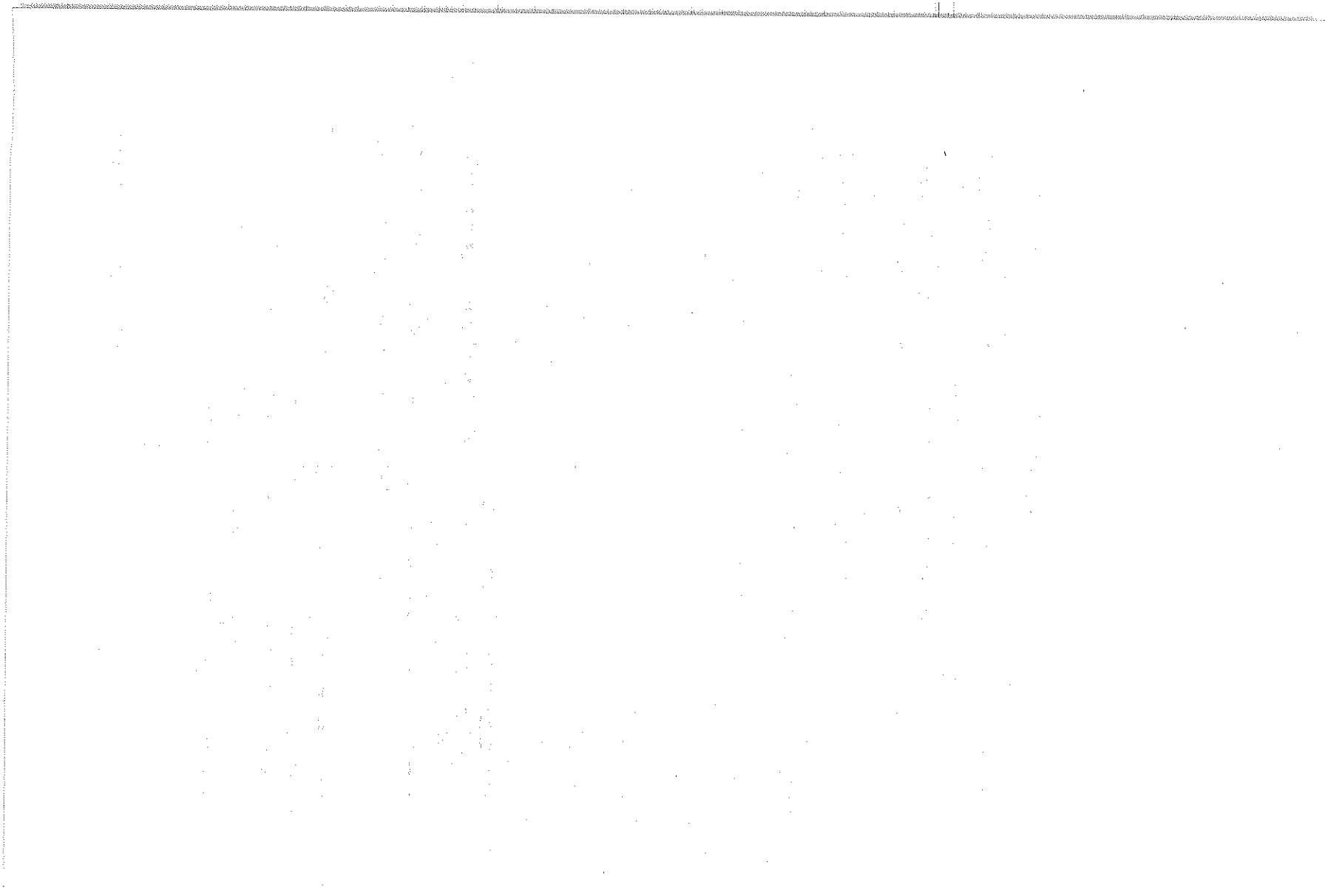

البعثة الفرنسية لتدريب الضابطية اللبنانية في عهد المتصرف داود باشا (١٨٦١ ـ ١٨٦٨)

د. أديب حرب(*)

دام عهد المتصرفية في جبل لبنان نصف قرن تقريباً من ١٨٦١ الى ١٩١٥، ونظمت هذه الفترة وفقاً لبروتوكولين موقعين في ٩ حزيران ١٨٦١ و٦ ايلول ١٨٦٤(١) وافق عليهما آنذاك السلطان العثماني والدول الاوروبية الكبرى. وعيّن داود باشا اول متصرف على جبل لبنان.

وتنفيذاً للبندين ١٥ و١٣ من هذين النظامين الاساسيين، سعى داود باشا الى انشاء وحدة عسكرية لضبط الأوضاع والمحافظة على الأمن الداخلي. فحاول اقناع حكومة باريس بانتداب بعثة فرنسية لتنظيم ضابطية المتصرفية. فاستجابت الامبراطورية الثانية لطلبه وأوفدت ثلاثة مدربين عسكريين لهذه المهمة: النقيب ليون فان ـ Léon Fain، الرقيب اول توركا ـ Tourquet والرقيب ألتاب ـ Althabe(٢).

(*) ضابط متقاعد.

(١) Archives du consulat général de France à Beyrouth , régistre n° 13, Règlement fondamental relatif à l'administration du Mont-Liban en date de 9 juin 1861, article n° XV; (11, 19, 106-107).

ملاحظات:

ـ Archives du consulat général de France à Beyrouth سنختصرها بـ ACGB.

ـ سنختصر Registe بـ R

ـ تشير الارقام التي بين هلالين الى الوثيقة في مجموعة عادل اسماعيل. وتعني هذه الارقام ما يلي: الرقم الاول هو رقم الكتاب في المجموعة، والثاني رقم الوثيقة والثالث رقم الصفحة.
نقرأ هذه الوثيقة مثلاً: الكتاب رقم١١، الوثيقة رقم ١٩؛ الصفحتان ١٠٦ ـ ١٠٧.

- ACGB, R. 15; Règlement organique du Liban en date du 6 septembre 1864, article n° XIII; (12, 4, 38 - 39).

(٢) - ACGB, R 14; Confidentielle n° 61, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, au marquis de Moustier, ambassadeur de France à Constantinople, Beyrouth le 12 mai 1863, (11, 73, 294).

وصل افراد البعثة في ٧ آذار ١٨٦٣[٣] الى جبل لبنان. وباشروا عملهم باندفاع واخلاص رغم الصعوبات الكثيرة التي واجهتهم. واتخذوا دير القمر حيناً وبيت الدين[٤] حيناً آخر مقراً لاقامتهم ومركزاً للتدريب.

جرى اختيار هؤلاء العسكريين الثلاثة وفقاً لشروط معيّنة، منها: تحديد مدة انتدابهم، تدريب عناصر الضابطية، تنفيذ تعليمات رؤسائهم والابتعاد عن السياسة.

اقام فان علاقات مع داود باشا. فكان للضابط الفرنسي رأي من المتصرف لم يتوافق مع موقفي كل من ألتاب والقنصل الفرنسي العام في بيروت..

سنحاول في هذا البحث معالجة ثلاثة مواضيع، وهي:

١ ـ بعض الامور الادارية المتعلقة بافراد البعثة.

٢ ـ المهمات المطلوبة من البعثة.

٣ ـ علاقات فان مع داود باشا ورأيه بالمتصرف.

١ ـ بعض الامور الادارية المتعلقة بافراد البعثة

هي اربعة، وتشمل:

أ ـ شروط اختيار اعضاء البعثة.

ب ـ المقارنة بين الرواتب.

ج ـ مدة خدمة اعضاء البعثة.

د ـ اسباب عودة افراد البعثة.

أ ـ شروط اختيار اعضاء البعثة

كان اختيار هؤلاء العسكريين الثلاثة يتّم وفقاً لشروط عدة، اهمها:

المؤهلات الجسدية: ان يتمتع كل منهم بصحة جيدة تمكنه من تحمل المشقات ومواجهة الصعاب وتنفيذ أمور عملانية عند الحاجة قد تستوجب الانتقال السريع سيراً على الاقدام. وخير مثال على ذلك، عودة الرقيب أول توركا الى فرنسا بعد ان

◄ - ACGB, R 17; Le capitaine Fain, Chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, compte rendu sur l'activité de la mission militaire française au Liban, février 1863- octobre 1865; Paris le 25 décembre 1865; (12, 61, 223).

(٣) - ACGB, R 17, (12, 61, 223)

(٤) المصدر اعلاه.

ساءت صحته[٥]، واصبح غير قادر على القيام بالمهمات المنوطة به.

المؤهلات العلمية والعسكرية: ان الاحاطة بالشؤون العسكرية والمؤهلات العلمية عوامل للاختيار. يضاف اليها السلوك الممتاز والتنسيق مع الرؤساء. ألم يكن التباعد في وجهات النظر والخلاف حول عدد من المواضيع بين المتصرف وفان سبباً لعودة الضابط الفرنسي واستبداله بمساعده الرقيب التاب، الذي رقّي الى رتبة ملازم[٦] قبل تسلّمه رئاسة البعثة.

معرفة اللغة العربية: كان هذا شرطاً أساسياً ايضاً لتعيين افراد البعثة. فالأوامر العسكرية يجب ان تعطى باللغة العربية[٧]، لا سيما وان غالبية عناصر الضابطية اللبنانية بمن فيهم الضباط يجهلون اللغة الفرنسية. مع العلم ان فان قد خدم في الجزائر وكان مع توركا والتاب من عديد فرق الجنرال دوتبول التي قدمت الى جبل لبنان عام ١٨٦٠[٨].

ب ـ المقارنة بين الرواتب

رواتب افراد البعثة: حدّد راتب النقيب فان باثني عشر الف فرنك سنوياً و١٥٠ فرنك شهرياً للرتيبين توركا والتاب معاً[٩]. ويعني هذا ان راتب النقيب الشهري كان يعادل ١٣,٣٣ ضعف ما دفع للرقيب أول والرقيب، مساعدي رئيس البعثة.

---

(٥) - ACGB, R 15; Le capitain Fain, Chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 14 mai 1865; (11, 104, 428).

(٦) - ACGB, R 17; (12, 61, 220).
- ACGB, R 17; (12, 61, 220).
- ACGB, R 17,; Dépêche du sous-lieutenant Althabe à son supérieur au ministre de la guerre à Paris, au sujet de la gendarmerie libanaise, Batroun, le 20 février 1866; (12, 77, 313).

(٧) - ACGB, R 14; Direction politique n° 27, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth à Mr Thouvenel, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 25 septembre 1862. (11, 59, 249).
ـ نعمة جوزيف (نقيب متقاعد). «**تاريخ قوى الأمن الداخلي في لبنان**»، بيروت ـ ١٩٦١، ص ٨. يقول إن ا لأوامر للجندرمة اللبنانية كانت تعطى بالعربية، ثم استبدلت باللغة التركية ابتداء من عام ١٨٨٤.

(٨) - ACGB, R 17; (12, 61, 220); ACGB, R 14; (11, 73, 294).

(٩) - ACGB, R 14; Dépêche n° 6, Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, à Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, Paris le 26 novembre 1862; (11, 63, 258-259).

ونرى كذلك أن:

ـ الفارق كبير بين رواتب كل من الضابط والرتيبين، لا سيما وان التغذية والالبسة ستكون على عاتق كل منهم[١٠]. أما المنامة فهي على حساب حكومة المتصرفية[١١].

ـ لم يحدّد بالضبط راتب كل من توركا والتاب. ونعتقد بأن الأول تقاضى اكثر من الثاني نظراً لرتبته الاعلى ولأقدميته في الجيش الفرنسي.

العميد ماسون والنقيب فان: دفع داود باشا من خزينة جبل لبنان راتباً مقداره ألف فرنك شهرياً لكل من ماسون[١٢] وفان. ونرى بأن المتصرف:

ـ كان يساوي في الراتب بين فئة الضباط، مهما كانت جنسياتهم ورتبهم والمهمات الموكولة اليهم. فلهذا خصّص الراتب ذاته للعميد البريطاني الذي نظّم دائرة البريد والضابطية وللنقيب الفرنسي الذي اهتّم فقط بشؤون المؤسسة العسكرية.

ـ اراد اعطاء فان هذا الراتب ارضاءً لفرنسا التي قد تعترض على معاش النقيب الفرنسي اذا قلّ عما دفعه داود باشا للعميد ماسون. وتوّخى المتصرف بذلك عدم اثارة المشاكل مع حكومة باريس لا سيما وانها استجابت لطلبه وأوفدت الى جبل لبنان بعثة لمساعدته على تنظيم القوى النظامية اللبنانية.

ج ـ مدة خدمة اعضاء البعثة

لم تكن مدة بقاء كل من افراد البعثة الفرنسية في تصرف داود باشا وفرانكو باشا متساوية. فتراوحت بين سنة وسبع سنوات تقريباً. والجدول رقم ١ يبيّن تاريخ مجيئهم وعودتهم والمدة التي قضاها كل من العسكريين الثلاثة في جبل لبنان:

---

(١٠) المصدر اعلاه.

(١١) المصدر اعلاه.

(١٢) - ACGB; R 14; Le Capitaine Fain, chef de la mission française au Liban, au ministre de la guerre, Beiteddin le 13 juin 1863; (11, 76, 306).

جدول رقم (١)

الاسم	مجيء كل من اعضاء البعثة	ذهاب كل من اعضاء البعثة	المدة التي قضاها كل منهم في جبل لبنان	ملاحظات
توركا	٧ آذار ١٨٦٣[١٣]	١٤ آيار ١٨٦٤[١٤]	سنة شهران واسبوع	ـ تعتبر مدة توركا الاقصر يليها مدة النقيب فان وألتاب. وتعدّت مدة بقاء فان في لبنان مدة بقاء توركا بسنة وأربعة اشهر واسبوع وقلّت عن مدة التاب باربع سنوات وعشرة اشهر.
فان	٧ آذار ١٨٦٣	٢٠ ايلول ١٨٦٥[١٥]	سنتان وستة أشهر واسبوعان	ـ ان المدة التي قضاها فان وألتاب كانت كافية لتنشئة ملاكات تدريب واعداد قوة نظامية مهمّة لمتصرفية جبل لبنان.
التاب	٧ آذار ١٨٦٣	تموز ١٨٧٠[١٦]	سبع سنوات واربعة تقريبا	ـ قام المدربون اللبنانيون بعد عودة التاب الى فرنسا اثر اعلان الحرب الفرنسية ـ البروسية عام ١٨٧٠ بمساعدة حكومة جبل لبنان على تنظيم الجندرمة وتولوا في بعض الأحيان قيادة وحداتها العسكرية لحفظ الأمن.

د ـ اسباب عودة افراد البعثة

اختلفت أسباب عودة عناصر البعثة الفرنسية الثلاثة الى بلادهم وتتلّخص بما يلي:

النقيب فان: يعتبر اول ضابط رئس بعثة فرنسية لتدريب الضابطية اللبنانية. بدأ مهمته بكل اندفاع واخلاص وساد بينه وبين داود باشا، في بادىء الامر، جوّ من الوفاق والتفاهم. وقدّر المتصرف تضحياته واراد مراسلة وزير الحربية لشكره على ما قدّمه فان للمؤسسة العسكرية[١٧].

---

(١٣) -. ACGB; R 17; (12, 61, 220).

(١٤) المصدر اعلاه.

(١٥) -. ACGB; R 17; (12, 77, 313)

(١٦) KHAIR, Antoine A - **«Le moutaçarrifat du Mont Liban»**, Beyrouth. 1973, p. 120.
نعمة، ص ٨.

(١٧) - ACGB, R 16; Direction politique n° 30, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 9 février 1865; (12, 19, 94).

لكن الأمور تبدّلت وتباعدت وجهات النظر بين داود باشا وفان حول مواضيع عدة. وعندما علم كل من القنصليين الفرنسيين اوتراي ـ Outrey ودا أسار ـ Des Essards بهذه الخلافات طالبا حكومة باريس باستدعاء فان مركزين على التعارض في الاراء بينه وبين المتصرف. واتخذت مواقف هذين المسؤولين، أحياناً، طابع الخطورة[١٨].

الرقيب أول توركا[١٩]: لم يمكث طويلاً في جبل لبنان. وسبب عودته السريعة تأثير الطقس الجبلي البارد في دير القمر على صحته. مع العلم أن توركا لم يمضِ سوى شتاء واحد في هذه البلاد ١٨٦٣ ـ ١٨٦٤.

الرقيب ألتاب: توقّفت مهمته اثر اعلان الحرب الفرنسية ـ البروسية. وكان قد تسلّم رئاسة تنظيم وتدريب الضابطية اللبنانية في ٢٠ ايلول ١٨٦٥ واستمر في وظيفته حتى رجوعه الى بلاده في تموز ١٨٧٠.

وتجدر الملاحظة، انه قد رافق عودة كل من رئيسي البعثة، فان والتاب، اقتراح من القنصل الفرنسي في بيروت بمنح كل منهما شهادة تقدير وترقية، الاول الى رتبة قائد كتيبة والثاني الى رتبة ملازم. ووافقت وزارة الحربية على ذلك وصدرت الاوامر بهذا الشأن[٢٠].

٢ ـ المهمات المطلوبة من البعثة الفرنسية

يشكّل هذا العنوان الموضوع الثاني من البحث، وينحصر في ثلاثة أمور:

أ ـ تدريب الضابطية اللبنانية المركزية.

ب ـ تنفيذ التعليمات.

ج ـ الابتعاد عن السياسة.

وبشكل تسلسلي سنتكلم عن المهمات الواجب على اعضاء البعثة التقيّد بها. وبشيء من التفصيل سنحاول دراسة المهمة الأخيرة على النحو التالي:

ـ الاحزاب والتيارات السياسية اللبنانية الثلاثة: التيار الحكومي، الحزب الشهابي وحزب يوسف كرم.

---

(١٨) - ACGB, R 16; Direction politique n° 10, Mr Des Essards, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhyus, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 23 mai 1865, (12, 41, 158).

ويشدّد القنصل الفرنسي دا أسا على ان عودة فان الى وحدته الاساسية يجب أن تحصل بأية صورة كانت.

(١٩) -. ACGB, R 15; (11, 104, 428).

(٢٠) -. ACGB, R 16; (12, 19, 94)

ـ مواقف المسيحيين والدروز من الوضع القائم.
ـ موقع رئيس البعثة الفرنسية في هذا الجو السياسي العام.

أ ـ تدريب الضابطية اللبنانية المركزية: وهي المهمة الاساسية للبعثة الفرنسية. قدم افرادها الى جبل لبنان لهذه الغاية. بدأها فان في ٧ آذار ١٨٦٣ واكملها التاب من ٢٠ ايلول ١٨٦٥ الى تموز ١٨٧٠. فكان على عاتقهما تنظيم المؤسسة العسكرية وتدريب عناصرها لأنها: «تحفظ الامن وتدخل روحاً جديدة من الانضباط والنظام في العمل عند موظفي الدولة ويكون لها مستقبلاً أثر اقوى»(٢١). واعتبر داود باشا ان «تدريب ضباط هذه الوحدة له اهمية كبرى وان افرادها يمثلون القوة الوطنية في جبل لبنان»(٢٢).

وتوقف التدريب العسكري للضابطية بعد عودة التاب الى بلاده عام ١٨٧٠، ولم يُطلب من حكومة باريس، في ما بعد، مساعدة هذه الوحدة طيلة عهد المتصرفية. فتكون هذه البعثة هي الوحيدة التي أتت الى جبل لبنان منذ انشاء المتصرفية عام ١٨٦١ وحتى بداية عهد الانتداب الفرنسي سنة ١٩١٨.

ب ـ تنفيذ التعليمات: كان رئيس البعثة الفرنسية يتلقى تعليماته من وزارة الخارجية في باريس بواسطة ممثلها في بيروت، وليس من وزارة الحربية، رغم ان المسؤول عن هذه الوزارة هو الذي يختار أعضاءها(٢٣) ويعرف كفاءتهم وسلوكهم وفقاً للتقارير التي تصله، وبالتسلسل من رؤسائهم المباشرين. ويقول فان إنه أُعطي قبل مجيئه الى جبل لبنان تعليمات شفهية لتنظيم قوة وطنية «ليس لتأمين النظام الداخلي فحسب، بل للمحافظة على مميزات لبنان القديمة العهد ولتحاشي دخول القوات العثمانية، التي قد يكون لوجودها عواقب سيئة على الوضع في جبل لبنان»(٢٤).

وكان وزير الخارجية الفرنسية يطلب من فان وباستمرار افادة القنصل الفرنسي في بيروت عن جميع الامور التي تسهّل مهمته وتخدم مصالح فرنسا.

---

(٢١) - ACGB, R 15; Le capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-Kamar, le 26 décembre 1863, (11, 94, 389).

(٢٢) - ACGB, R 16; Le capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-kamar, le 23 décembre 1864, (12, 16, 83).

(٢٣) -. ACGB, R 14; (11, 63, 258).

(٢٤) - ACGB, R 17; (12, 61, 219).

ولم يتوان رئيس الدبلوماسية في باريس عن حثّ فان أو التاب على الاتصال الدائم بممثله في بيروت[٢٥] لاتخاذ التعليمات الضرورية لعمله وارسال التقارير بواسطته[٢٦].

لقد كلف رئيس البعثة التدريبية الفرنسية تنفيذ الاوامر المعطاة له بدقة وتطبيقها بعدل وبطريقة عملية[٢٧]. وكان القنصل الفرنسي في بيروت يفيد وزارة خارجيته عن المخالفات طالباً اتخاذ الاجراءات المناسبة بحق المسؤول. وهذا ما فعله دا أستار عندما كتب الى باريس عن تنقلات فان المشبوهة، حسب رأيه، والزيارات التي قام بها لبعض المسؤولين اللبنانيين ومنهم البطريرك الماروني. وطلب من وزير الخارجية استدعاءه لأن مثل هذا التصرف قد يعقّد الامور ويسيء كثيراً الى سمعة فرنسا في جبل لبنان[٢٨].

وقد رأينا من المفيد تنظيم الجدول رقم ٢ باسماء وزراء الخارجية الفرنسية وممثليهم المسؤولين في بيروت اثناء اقامة البعثة الفرنسية في جبل لبنان وافيدوا عن جميع الاعمال التي قام بها فان ثم التاب:

---

(٢٥) - ACGB; R 15; Dépêche n° 2, Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, à Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, Paris le 28 juin 1864, (11, 109, 438).
- ACGB; R 15; Mr Drouyn de Lhuys ministre des affaires étrangères, au capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban, Paris le 29 juin 1864, (11, 110, 439-440).

(٢٦) - ACGB; R 15; Le capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-Kamar le 20 février 1864, (11, 99, 408).

(٢٧) -. ACGB, R 14; ((11, 73, 293).

(٢٨) - ACGB; R 16; Direction politique n° 17, Mr Des Essards, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 23 juillet 1865; (12, 51, 182 - 183).

جدول رقم (٢)

الاسم	اول تقرير او رسالة بعثها او تسلمها الوزير او القنصل	آخر تقرير او رسالة بعثها او تسلمها الوزير او القنصل	ملاحظات
١ ـ وزراء الخارجية:			
ـ السيد توفونال Mr Thouvenel	ـ	٨ ت١ ١٨٦٢	ـ تسلّم وزارة الخارجية بعد الكونت دارو
ـ دارون دا ـ ليس Mr Droyn de Lhuys	١٥ ت١ ١٨٦٢	١٣ ت٢ ١٨٦٦	السيد جول Mr Jules
ـ المركيز دا موستيه marquis de moustier	١٢ ك١ ١٨٦٦	٣٠ ت٢ ١٨٦٨	
ـ المركيز دا لافاليت marquis de la Valette Prince de la Tour d'Ouvergne	٣٠ ك١ ١٨٦٨	٢٠ ايلول ١٨٦٩	
ـ الامير دو لاتور دوفرنيه	٢٢ ايلول ١٨٦٩	٨ ك٢ ١٨٧٠	
ـ الكونت دارو Comte Daru	٢٦ آذار ١٨٧٠	اول نيسان ١٨٧١	
٢ ـ القناصل الفرنسيون في بيروت:			
ـ الكونت بنيتفوغليو Comte Bentivoglio	ـ	١٥ ت٢ ١٨٦١	
ـ السيد اوتراي Mr Outrey	٢١ ايار ١٨٦٢	٩ شباط ١٨٦٥	ـ كان السيد بلانش Mr Blanche القنصل الفرنسي المساعد للسيد اوتراي في مدينة طرابلس
ـ السيد دا أسّار Mr Des Essards	٢٥ ايار ١٨٦٥	٧ آب ١٨٦٧	
السيد والوسكي Mr Walewski	٢٢ ت ١ ١٨٦٧	١٢ نيسان ١٨٦٨	ـ أمنّ السيد والوسكي وظيفة القنصل الفرنسي العام بالوكالة
ـ السيد روسو Mr Rousseau	١٢ ايار ١٨٦٨	اول نيسان ١٨٧٠	
ـ السيد روستون Mr Rouston	٧ ك٢ ١٨٧١	٣ حزيران ١٨٧٢	ـ أمنّ السيد روستون وظيفة القنصل الفرنسي العام بالوكالة

ج ـ الابتعاد عن السياسة: كانت مهمة البعثة الفرنسية عسكرية بحتة. فلا يحق لافرادها تعاطي الشأن السياسي ويترك هذا الموضوع للقنصل الفرنسي العام في بيروت. ويقول فان إنه توجه الى زحلة واجتمع بالأب اليسوعي هنري ـ Henry، مدير ميتم المعلقة. واثناء الحديث سأله الأب المسؤول، اذا كانت مهمته تهدف الى تهيئة حركة انفصالية عن الباب العالي، فأجابه الضابط الفرنسي بالنفي مؤكداً إنه لم يسمع مثل هذا الكلام إلاّ منه(٢٩). ويرى اوتراي بأن فان لم يفهم جيداً السياسة في جبل لبنان واعتبره الضابط المؤهّل لادارة الشؤون العسكرية وتنظيم الضابطية اللبنانية وتدريبها(٣٠).

وقد عرف جبل لبنان خلال هذه الفترة ثلاثة تيارات سياسية رئيسية متعارضة المواقف ومتفاوتة الشعبية والتأثير، وهي(٣١): التيار الحكومي، الحزب الشهابي وحزب يوسف كرم. واعتبرنا من المهّم جداً التكلم، ولو باختصار كلي، عن:

ـ الاحزاب والتيارات السياسية الثلاثة.

ـ مواقف المسيحيين والدروز من الوضع القائم.

ـ موقع رئيس البعثة الفرنسية في هذا الجو السياسي العام.

الاحزاب والتيارات السياسية الثلاث

التيار الحكومي: ويمثّله داود باشا. عينّه الباب العالي متصرفاً على جبل لبنان في ٩ حزيران ١٨٦١ بموافقة الدول الاوروبية ودعم فرنسا. وفّق هذا المتصرف في تذليل الصعوبات تدريجياً منذ ان تسلّم سلطاته ونجح في تنفيذ مهمته متغلباً على جميع الاحداث التي اعترضته خاصة بمساعدة القنصل الفرنسي في بيروت.

---

(٢٩) - ACGB, R 15; Le capitaine Fain, Chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères; Deir-el-Kamar le 20 février 1864; (11, 99, 410-411).

ويقول فان إن الأب هنري نشيط وكثير الحركة ويسعى لالحاق الميتم في المعلقة بمتصرفية جبل لبنان بدلاً من ان تكون هذه المؤسسة الانسانية تابعة لدمشق.

(٣٠) - ACGB, R 15; Direction politique n° 72, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 12 décembre 1863, (11, 92, 385).

(٣١) - ACGB, R 14; Direction politique n° 26, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, à Mr Thouvenel, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 24 septembre 1862; (11, 58, 246).

عززّت من مكانته زيارة الامبراطور نابليون الثالث لهذه المنطقة في تموز ١٨٦٣[٣٢] والصلاحيات الواسعة التي منحت له اثر عودته من الاستانة في ايلول من العام التالي[٣٣]. ورغم ذلك لم يتمكن من كسب رضى البطريرك بولس مسعد ولا الموارنة الذين سيطر عليهم القلق والاستياء بعد تعيينه حاكماً للجبل وتغلّبه على انتفاضة اهالي كسروان وثورة يوسف كرم سنة ١٨٦٦.

ومهما يكن من أمر، فقد نظّم داود باشا الادارة والضابطية. ودأب على البناء وجباية الضرائب وتأمين المساواة بين الجميع. فوفّر الامن والرفاهية والطمأنينة، وعرف الجبل عهداً من الرخاء والاستقرار. واعتبره اوتراي «رجلاً يصعب ايجاد مثيل له في الشرق»[٣٤]، لا سيما بعد تجربته الناجحة خلال السنوات الثلاث الأولى في ادارة شؤون جبل لبنان.

ويبقى داود باشا خادم الدولة العثمانية الامين والمتقيّد بتوجيهاتها. كما انه يحتاج الى مساعدة دائمة من حكومة باريس وممثلها في بيروت لضبط الاوضاع في جبل لبنان وحلّ قضاياه المعقّدة والمتشابكة.

الحزب الشهابي: ويرأسه الامير مجيد خليل الشهابي حفيد الامير بشير الثاني الكبير. عاش فترة في مصر حيث ترك الدين المسيحي واعتنق الاسلام. وقبل رجوعه الى جبل لبنان ليتسلّم زعامة الحزب الشهابي طلق امرأته التركية وعاد الى ديانته الاولى[٣٥].

واهمّ من أيّد الامير مجيد:

ـ الجنرال بوفور دوتبول ـ Beaufort d'Hautpoul، قائد الحملة الفرنسية الى جبل لبنان عام ١٨٦٠. وانتهز الضابط القائد مصاعب يوسف كرم في ادارة القائمقامية المسيحية ليقترح الامير مجيد بديلاً عن الزعيم الاهدني. فاستدعاه من

---

(٣٢) - ACGB, R 15; Lettre particulière du capitaine Léon Fain, à son supérieur au ministre de la guerre qui fut communiquée confidentiellement au ministre des affaires étrangères, le 9 octobre 1863, Beitddine le 17 septembre 1863, (11, 85, 344).

(٣٣) - ACGB, R 16; Le capitaine Fain, Chef du personnel militaire français au Liban à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-kamar, le 3 décembre 1864; (12, 11, 68, 70).

(٣٤) - ACGB, R 15; Note sur Daoud Pacha et observations sur le projet du nouveau règlement qu'il a presenté à Mr Oulrey; (11, 95, 398).

(٣٥) ـ رستم، اسد؛ **«لبنان في عهد المتصرفية»**، بيروت ـ ١٩٧٣، ص ٤٠ ـ ٤٤.
ـ مزهر، يوسف، **«تاريخ لبنان العام»**، الجزء الأول، ٦٩٩.

مصر لهذه الغاية[٣٦]. وعاد «مارونياً طامحاً وطامعاً»[٣٧].

ـ القنصل اوتراي[٣٨]: ممثل فرنسا في بيروت. سعى لحمل حكومته على تعيين الأمير مجيد وارث الاسرة الشهابية على امارة الجبل اللبناني.

ـ المطران طوبيا عون[٣٩]: استاء من اختيار يوسف كرم للقائمقامية المسيحية دون استشارته. فدعم ترشيح الامير مجيد لهذا المنصب. ويعتبر ان التخلي عن زعيم الشهابيين لا يتفق وشرف فرنسا.

ـ مندوبا النمسا وبروسيا[٤٠]: ممثلا بلديهما في اللجنة الدولية. ايدا عودة الاسرة الشهابية الى الحكم، بينما عارض السيد ريشار وود Richard Wood قنصل بريطانيا في تونس وسابقاً في دمشق هذا التوجّه، ورفض اعادة السلطة الى الشهابين وانشاء قائمقامية مسيحية كما لم يرض به فؤاد باشا ممثل الباب العالي.

بدأ الأمير مجيد حياته السياسية متشدداً في مواقفه. فاعتقد ان له الحق بتسلّم حكم جبل لبنان بصفته رئيساً للاسرة الشهابية ووريث جده بشير الكبير. فكان

---

(٣٦) - ACGB, R 13; Direction politique n° 99, Le comte Benlivoglio consul général de France à Beyrouth, à Mr Thouvenel, ministre des affaires étrangères, Beyrouth 18 mai 1861; (11, 11, 89).

- ACGB, R 13; Direction politique n° 102. Le comtre Benlivoglio, consul général de France à Beyrouth, à Mr Thouvenel, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 20 mai, 1861; (11, 12, 91).

- ACGB, R 14; Direction politique n° 32, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 15 novembre 1862, (11, 62, 255 - 256).

ـ الصليبي، كمال ـ تاريخ لبنان الحديث، بيروت ـ ١٩٦٩، ص ١٥٠.

ـ مزهر، الجزء الأول، ص ٧٠.

(٣٧) رستم ص ٤٠ ـ ٤٤.

(٣٨) -. ACGB, R 14, (11, 62, 255).

(٣٩) - ACGB, R 15; Direction politique n° 40, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 10 janvier 1863; (11, 67, 265-266).

ـ مزهر، الجزء الأول، ص ٦٩٤.

(٤٠) - ACGB, R 13; Direction politique n° 98, Le comte Benlivoglio, consul général de France à Beyrouth à Mr Thouvenel, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 18 mai 1861; (11, 10, 85 - 86).

- ACGB R 13; Direction politique n° 115, Le comte Benlivoglio, consul général de France à Beyrouth, à Mr Thouvenel, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 27 juin 1861, (11, 24, 122)

يرى نفسه ارفع مرتبة من يوسف كرم ويتهم داود باشا بمحاولة ابعاده عن السلطة(٤١).

ولما فشل في مسعاه قبل بمديرية كسروان. وابقاه المتصرف لفترة رغم شكّه باخلاصه للعمل وعدم قدرته على معالجة الأحداث في قضائه. وفعل ذلك احتراماً لفرنسا ومراعاة لممثلها في بيروت وبناءً على رغبته(٤٢).

وكان تأثير فرنسا لتجديد سلطات داود باشا مؤشراً لضعف مركز الأمير مجيد والحدّ من طموحاته(٤٣). وزاد الامر سوءاً فشله في مواجهة التطورات المتلاحقة في كسروان، وخاصة في غزير، خلال شهر شباط ١٨٦٤(٤٤). فخسر الكثير من التأثير على مؤيديه لموقفه المعتدل من داود باشا وموافقته على تقسيم قضائه الى مديريتين ومعارضة الاكليروس له(٤٥).

وانهى الامير مجيد حياته في بيروت حيث توفي في شهر كانون الثاني عام ١٨٦٨(٤٦).

حزب يوسف كرم: ويتزعمه يوسف بطرس كرم. ولد في اهدن سنة ١٨٢٣ وتعلّم عند اللعازاريين في عينطوره ولعب دوراً بارزاً في احداث ١٨٦٠. عيّنه فؤاد باشا قائمقاماً على المقاطعة المسيحية في ١٩ تشرين الثاني من العام نفسه وبقي في منصبه حتى اواخر ايار من السنة التالية(٤٧).

وبعد انشاء المتصرفية في ٩ حزيران ١٨٦١، عيّن مديراً لقضاء جزين الواقع

---

(٤١) - ACGB, R 14, Direction politique n° 44, Mr Outrey, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 7 mars 1863, (11, 70, 273 - 279).

(٤٢) المصدر اعلاه.

(٤٣) -. ACGB, R 14; (11, 58, 246-247)

(٤٤) - ACGB, R 15; Direction politique n° 7, Mr Ceccaldi, gérant le consulat, consul général à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 6 mars 1864, (11, 100, 413-419).
- ACGB, R 15; Le capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth, le 7 mars 1864, (11, 101, 419-423).

(٤٥) المصدران اعلاه.

(٤٦) - ACGB, R 18; Direction politique n° 101, Mr Walenski, gérant le consulat général de France à Beyrouth, au marquis de Moustier ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 28 janvier 1868; (13, 15, 56).

(٤٧) مزهر، الجزء الأول، ص ٦٩٠ ـ ٦٩٤ و٧٣٢ ـ ٧٨٧.
حاج، اثناسيوس (الارشمندريت). **«الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد»**، الجزء الثاني (١٨٣٣ ـ ١٩٦٦)، بيروت ـ ١٩٧٨، ص ١٨٢ ـ ١٨٤.

ضمن المنطقة الدرزية والبعيد عن بلدته. فما لبث ان استقال كما رفض تسلّم قيادة الضابطية. وجد نفسه مضطراً لمعارضة شخص قادم من الآستانة وسعى الى تحقيق طموحاته كي يصبح حاكماً لجبل لبنان لما عنده من جذور راسخة في هذه المنطقة(٤٨).

ـ تألّف حزبه من الفلاحين وشكّل الموارنة قاعدته الشعبية. وارتكزت معارضته على مساندة:

ـ الجنرال دوكرو ـ Ducrot(٤٩)، قائد المشاة في الحملة الفرنسية عام ١٨٦٠ والضابط الثاني فيها بعد الجنرال دوتبول. وقد أيدّه وطالب باختياره حاكماً لجبل لبنان.

ـ السيد بلانش Blanche(٥٠): قنصل فرنسا في طرابلس. كان من المقربين ليوسف كرم واهتّم به كصديق حميم. واعتبره قائداً مميزاً وباستطاعته ادارة شؤون جبل لبنان.

الاكليروس: وعلى رأسه البطريرك بولس مسعد. واصبح بقاء يوسف كرم قائداً للحركة الثورية ضد النظام القائم رهناً بدعم الاكليروس، بطريركاً وكهنة.

وتتلّخص اهداف حزب يوسف كرم بأمرين:

ـ ابعاد العثمانيين وممثلهم عن جبل لبنان، اذ يعتبرهم سبباً للقلاقل ومقدمة لالغاء امتيازات الجبل. ويرى بنجاح داود باشا قضاءً على مستقبله السياسي.

ـ السيطرة على الوضع الداخلي والاستيلاء على المراكز الحساسة التي يحتلّها منافسه الأمير مجيد الشهابي والشيوخ والامراء، والذين يضمر لهم الكراهية ويكنّ لهم العداء الشديد.

ويعارض يوسف كرم:

ـ القنصل الفرنسي في بيروت: اوتراي ومن بعده دا اسّار. وكان كل منهما ينفّذ اوامر حكومته وتعليماتها بتأييد سياسة المتصرف ودعمه. ويرى أن لزعيم اهدن اعداءً كثر في كسروان ويعتبره عاجزاً عن توجيه دفة الامور وحكم الجبل.

ـ الجنرال دوتبول: كان يشعر ان يوسف كرم رجلاً غير مؤهل لتسلّم حاكمية

---

(٤٨) المرجعان اعلاه.

(٤٩) مزهر، الجزء الأول، ص ٧٣٥.

- **«La vie militaire du général Ducrot d'après sa correspondance (1839 - 1871)»**, publié. par ses enfants, Tome II, Paris-1895, P5-12.

(٥٠) - ACGB, R 16; Direction politique n° 8, Mr Des Essards, consul général de France à Beyrouth, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 19 mai 1865; (12, 40,154-155).

هذه المنطقة، فاقترح عزله عن قائمقامية النصارى مقترحاً الامير مجيد، وريث الاسرة الشهابية، بديلاً عنه.

ـ الاكليروس الماروني: كان الزعيم الاهدني يعتبره مصدر قوته وسنده الاساسي. وسيبقى البطريرك بولس مسعد بعد عام ١٨٦٦ من الداعين لمساعدة كرم حرصاً على الصف المسيحي وتماسكه مع المحافظة على مظاهر المودة لداود باشا. وقد يتخلى عنه الاكليروس عند تراجع قواته العسكرية امام جند المتصرفية.

ـ زعماء محليون: منهم آل الخازن وقسم من فلاحي كسروان، يضاف اليهم الدروز وسكان المناطق المختلطة الذين لا يقبلون به او يتعاونون مع تياره.

نهايته[٥١]: أقلق يوسف كرم داود باشا وحاربه مرات عديدة. فخسر المعركة وقَبِل نهائياً بمغادرة جبل لبنان. فترك بيروت مساء ٣١ كانون الثاني ١٨٦٧ على ظهر البارجة الفرنسية لوفوربون ـ Le Forbin بأمرة النقيب البحري دوبري ـ Duperré. انتهى به المطاف في ايطاليا حيث توفي في رازيبا، قرب نابولي، في ٧ نيسان ١٨٨٩.

مواقف المسيحيين والدروز من الوضع القائم

يحدّد فان هذه المواقف كالتالي:

الموارنة: اصيب المسيحيون، لا سيما الموارنة، بخيبة امل كبيرة لتعيين حاكم مسيحي غير لبناني لجبل لبنان. واعتبروا ذلك تجاوزاً لحقوقهم وانتقاصاً من نفوذهم[٥٢]. فقد دفعوا ثمناً كبيراً لترتيبات ٩ حزيران ١٨٦١ و٦ ايلول ١٨٦٤[٥٣]. ويؤكد فان على تخوف الموارنة من مساعدي داود باشا المسيحيين ذوي الميول العثمانية او الانكليزية، كالضابط المدرب ماسون[٥٣]. وقد استاؤوا من انتقال المتصرف من دير القمر الى بيت الدين، وهي برأي فان، خطوة سيئة لمستقبل هذه البلدة[٥٤]. لكنه يضيف بأن ابقاء سراي الحكومة والمحاكم القضائية في دير القمر ووجود ضابط فرنسي فيها قد يعيد الثقة الى سكانها[٥٥].

---

(٥١) حاج، الجزء الثاني، ص ١٨٦؛ الصليبي ص ١٥١؛ مزهر، الجزء الأول ص ٧٨١.
- CHEVALIER, Dominique. **«La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe»**, Paris-1971, p 289.

(٥٢) - ACGB, R 13; Direction politique n° 132, Le comte Benlivoglio, consul général de France à Beyrouth, à Mr Thouvenel, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 25 septembre 1661, (11, 38, 156).

(٥٣) ACGB, R 17, (12, 61, 241)

(٥٤) ACGB, R 15, (11, 94, 395).

(٥٥) ACGB, R 15, (11, 94, 388-389).

وغضب الموارنة من سوء تطبيق مبدأ التمثيل النسبي، وهم يشكلّون الغالبية من سكان الجبل، أي ١٧١٨٠٠ نسمة، بمعدل ٦٤,٤٧٪ من المجموع العام[٥٦]. ويرون ان داود باشا لا يوظف من طائفتهم إلاّ الاشراف والبورجوازيين. وليس لهؤلاء، برأيهم، نفوذ أو سلطة قوية. فبدل ان يرفعوا من شأن طائفتهم يعملون على اضعافها[٥٧].

ورفض الموارنة الاعتراف بداود باشا بسهولة. فبقي بنظرهم التلميذ الماهر والمكمّل لسياسة فؤاد باشا، وموظفاً عثمانياً اتى من الشرق يمثّل افكار الباب العالي ليس إلا. وقد احتل مركزاً في جبل لبنان ينبغي ان يكون لمواطن منهم[٥٨]. وسيعارضوه على امل تحقيق أهدافهم. فهو ارمني، والارمن هم الوحيدون الذين يرفعون العلم العثماني على الاديرة في هذا الجبل[٥٩].

ويأسف الموارنة ان تكون علاقة بطريركهم بولس مسعد غير حسنة مع داود باشا، الذي يتمتع بثقة بطريرك الروم الكاثوليك الجديد، غريغوريوس يوسف[٦٠]. ويتهم الموارنة اليسوعيين بعزل قادتهم السياسيين وزعمائهم الروحيين. وبقي الاكليروس المارونـي على هامش الادارة حتى بعد نفي يوسف كرم عام ١٨٦٧. واذا صدف ان ساعد بطريركهم داود باشا فلأنه مجبر وفرنسا تريد ذلك. ويرغب الموارنة في اعادة الوضع السابق وهو تطبيق نظام القائمقامتين. وتشكّل منطقة الشمال مركز ثقلهم. فهناك توجد مطابعهم، اديرتهم، مستشفياتهم ومعامل حريرهم[٦١].

وينقسم الموارنة بين مؤيد لفرنسا وبريطانيا. وتشكّل الفئة الأولى الاكثرية. ويتوقف نفوذ حكومة باريس في جبل لبنان على شعبية ممثلها في بيروت وتأييد

---

(٥٦) ACGB, R 17, (12, 61, 299-220).

(٥٧) ACGB, R 17, (12, 61, 241).

(٥٨) ACGB, R 15, (11, 99, 409).

(٥٩) ACGB, R 15, (11, 94, 388-389).

(٦٠) البطريرك غريغوريوس يوسف: ولد في دمشق عام ١٨٣٢. دخل دير المخلص وعمره ١٧ سنة. تعلّم عند اليسوعيين في غزير سنة ١٨٤٦ ثم في المعهد البابوي في روما في السنة التالية. سيم كاهناً سنة ١٨٥٢ وبعد أربع سنوات مطراناً على ابرشية عكا. انتخب بطريركاً في ٢٩ ايلول ١٨٦٤ خلفاً للبطريرك المستقيل الكيمنضوص بحوث. يعتبر من اعظم بطاركة الكرسي الانطاكي. توفي في ١٣ تموز ١٨٩٧ في دمشق عن ٨٤ عاماً، قضى منها ٣٣ سنة في سدة البطريركية. انتخب خلفاً له المطران بطرس جريجيري في ٢٤ شباط ١٨٩٨ والذي توفي في ٢٩ نيسان ١٩٠٢.
ـ حاج، الجزء الثاني؛ ص ١٨٩، ٢٠٣، ٢٣٢، ٢٩٢ ـ ٢٩٣، ٢٩٥.

(٦١) ACGB, R 17, (12, 61, 240).

البطريرك الماروني[٦٢]. ويتألف المجتمع الماروني المؤيد للامبراطورية الفرنسية الثانية من طبقتين، ارستقراطية وبورجوازية:

ـ الأولى[٦٣]: تضمّ ثلث سكان الجبل برئاسة الامير مجيد شهاب. وترتكز قاعدتها على عائلات الاشراف، كالشهابيين واللمعيين ورجال عهد القائمقامتين، الذين لا يتكيّفون مع الأفكار الجديدة ويفضّلون النظام الاقطاعي.

ـ الثانية[٦٤]: اي البورجوازية وتنقسم بدورها الى فئتين:

● الاكليروس: الذي يرى في يوسف كرم ضالته، ويؤيده الاشخاص ذوو الافكار الجديدة.

● الباقون من الموارنة[٦٥]: ويشكّلون قلّة. يعتبرون انفسهم قادرين على تدبير شؤون الطائفة والبلاد. يرغبون في العمل في ادارات الدولة ومساعدة كل حكم وطني يحترم القوانين والانظمة. وتتلاقى توجهاتهم مع تيار البورجوازية الدرزية. يختلطون مع الاوروبيين ويحاولون ابعاد الاكليروس عن الامور الحياتية اليومية.

تتعلّق هذه القلة من الموارنة بتقاليدها الدينية. فقد أتاحت لداود باشا اطلاق افكار تحريرية والتفكير بالقيام بثورة جذرية. ويخطىء من يظن ان باستطاعته التأثير على الموارنة دون العودة الى رؤوسائهم الروحيين. فبطريركهم هو قائدهم الفعلي ولكنه بحاجة اليهم.

بقية الطوائف المسيحية[٦٦]

لا يتكلّم فان الا نادراً عن بقية الطوائف المسيحية. ويرى ان ليس للروم الكاثوليك نفوذ الموارنة، لكنهم يشكلون الاكثرية في مدينة زحلة و٧,٢٨٪ من سكان جبل لبنان. وقد أعطت هذه الطائفة حكومة المتصرفية عدداً من الموظفين فاق ما قدّمه الموارنة. واعتبروا افضل من خدم الدولة. ويتمنى المتصرف ان يحذوا حذوهم جميع موظفي الطوائف الأخرى.

---

(٦٢) .ACGB, R 17, (12, 61, 241 et 244)
(٦٣) .ACGB, R 17, (12, 61, 242)
(٦٤) المصدر اعلاه.
(٦٥) ACGB, R 17, (12, 61, 243-244).
(٦٦) ACGB, R 17, (12, 61, 219-220 et 238).

الدروز(٦٧)

يرى فان أن الدروز عاشوا حالة من التفكك بعد انشاء المتصرفية. فقد استاؤوا من تخلي الباب العالي عنهم بعد احداث ١٨٦٠ وانتقدوا بريطانيا لعدم حماية مناطقهم وزعمائهم. اضف الى ذلك فقدانهم قائمقاميتهم والغاء نظامهم الاقطاعي وخضوعهم لحاكم مسيحي، وإن كان غير لبناني.

واتضح لرئيس البعثة الفرنسية أن هذه الطائفة قد نظرت الى داود باشا في بادىء الأمر بريبة وخوف لأنه يمثل السلطان العثماني. لكنه وجّه اهتمامه نحوهم، فتقربوا منه والتفوّا حوله على أمل استعادة شيء من نفوذهم. ولم يكن إبعادهم عن دير القمر واعتبارها مديرية مستقلّة تابعة له سوى مرحلة عابرة من العلاقات المتوترة بين الفريقين، الدرزي ـ المتصرف. فعمل على تطمينهم ونجح بنقل مركز الحكومة المركزية الى بيت الدين ووظفّهم باعداد كبيرة في ادارات الدولة والمؤسسة العسكرية.

يصنّف فان علاقاته مع الطائفة الدرزية بالجيدة. ويتكلّم عن دعوته الى حفلتي غذاء اقامها له الدروز وعبّروا خلالهما عن تقديرهم لفرنسا وشربوا نخب امبراطورها.

موقع رئيس البعثة الفرنسية في هذا الجو السياسي العام

ونتساءل: اين هو موقع رئيس البعثة الفرنسية من التيارات والأحزاب ورأيه في الوضع العام في جبل لبنان؟

بالنسبة إلى التيارات السياسية والأحزاب

الجواب: مساندة المتصرف داود باشا.

ان انتداب البعثة الفرنسية الى جبل لبنان لتدريب الضابطية جاء بناء على لطلب داود باشا وبموافقة حكومة باريس. وكانت التعليمات لرئيسها واضحة وهي التقيّد

---

(٦٧) ACGB, R 17, (12, 61, 220-224).
- ACGB; R 17, Le capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-Kamar, le 2 août 1865, (12, 53, 189).
- NOUJAIN, Paul. **«La Question de Liban»**, Beyrouth, 1961, p 482.
ـ طربين، احمد. **«لبنان منذ عهد المتصرفية الى بداية الانتداب»**، محاضرات القاها على طلبة قسم الدراسات التاريخية، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة نهضة مصر القاهرة ـ ١٩٦٨، ص١٧ ـ ١٨ ـ ٢٧ ـ ٢٨ و٧٦.

التام بأوامر المتصرف وتوجيهاته، وعند حصول اي خلاف تفاد القنصلية الفرنسية في بيروت لمعالجة الموضوع.

كان من واجبات فان ومن بعده التاب التنسيق مع داود باشا في الشؤون العسكرية والعمل بما يريده المتصرف. وهذا ما تحقّق فعلاً. فقد قام فان بكل ما طلبه داود باشا وإن تباعدت نظرتهما الى امور عدة. فرئس عناصر الضابطية عندما تدخل في تموز ١٨٦٣[٦٨] وشباط من السنة التالية[٦٩] لضبط الأوضاع في بلدة غزير. وكذلك فعل خلفه التاب عندما قاد مجموعة من هذه المؤسسة في شباط ١٨٦٦[٧٠] وعمل مع القوات العثمانية ضد يوسف كرم.

لقد كان الخيار بين هذه التيارات والأحزاب السياسية بالنسبة لاعضاء البعثة مستحيلاً. فلم يكن بالامكان التعاون مع الحزب الشهابي أو حزب يوسف كرم لأنهما كانا يسعيان لالغاء نظام المتصرفية، وهذا ما وافقت عليه الدول الاوروبية لحلّ موضوع جبل لبنان. واي انحياز من أحد اعضاء البعثة الفرنسية الى غير التيار الحكومي كان مصيره العودة الى فرنسا واتخاذ اجراءات تأديبية بحقه.

بالنسبة إلى الوضع العام

يبدو جبل لبنان، برأي فان، قابلاً للتقدّم ومهيأً للاستقلال، ركيزته الأساسية تقاليده العريقة والمتأصلة في مواطنيه. ويظهر ان غالبية اللبنانيين ترفض حكماً لا يستند على قاعدة وطنية قوية ويخفي مشاريع الحاق أو دمج. فيستحيل على حكام جبل لبنان التوسع جغرافياً أو مدّ نفوذهم السياسي خارج حدوده، حيث لا استمرارية لذلك[٧١].

ولا يؤيد رئيس البعثة الفرنسية تعيين حاكم وطني لجبل لبنان ويفضّله أجنبياً لادارة شؤونه شرط أن لا يكون له اي هدف بضمّه الى دولة أخرى[٧٢]. ويرى من المفيد الإكثار من المراكز الادارية واعطاء الطوائف والمجالس المختلفة دوراً اكبر في ادارة شؤون الحكم وتشجيع المؤسسات التربوية المختلطة والمحافظة على قوة عسكرية وطنية قادرة على ضبط الأوضاع. وبكلمة أخرى، تطبيق اللامركزية الادارية والانصهار بين المسيحيين والدروز[٧٣].

---

(٦٨) ACGB, R 15, (11, 94, 391).
(٦٩) ACGB, R 15, (11, 100, 413-423).
(٧٠) ACGB, R 17, (12, 77, 313-321).
(٧١) ACGB, R 17, (12, 61, 244).
(٧٢) ACGB, R 17, (12, 61, 245).
(٧٣) المصدر اعلاه.

ـ اللامركزية الادارية: عملية سهلة التحقيق وترضي طموحات الجميع. فهي تكملة لحق الانتخاب وضمانة ضرورية لفاعليته.

ـ الانصهار بين المسيحيين والدروز: أمر ليس بالمستحيل، اذا اراده المتصرف. ويعطي فان امثلة على ذلك:

- قيام مطران الموارنة ببناء مدرسة في دير القمر معدّة لقبول تلامذة من جميع الطوائف. وكان اول المسجلين فيها ابن المدير الدرزي الذي ساعد في اعادة بناء كنيسة الموارنة في بعقلين، عاصمة الطائفة الدرزية.
- جمع القيمون من مسيحيين ودروز تبرعات لضحايا الكوليرا في بيروت.
- مساعدة ضابطية المتصرفية من مالهم الخاص واعتناؤهم بمرضى دير القمر، مسرح احداث ١٨٦١.

وينهي فان كلامه فيقول انه يجب معالجة مسألة لبنان الحالية بروية وحذر دون اهمال أي حزب، واعتماد الصراحة بين المسؤولين للوصول الى المصالحة الحقيقية.

٣ ـ علاقة فان بداود باشا

هذا الموضوع من البحث هو الثالث والأخير وينقسم الى نقطتين:

أ ـ التباعد في بعض وجهات النظر بين المسؤولين: خمسة امثلة توضيحية حول هذه المسألة.

ب ـ رأي فان بداود باشا: شعبية المتصرف، اخلاصه لدولته، موقفه من اليسوعين ومن انشاء الضابطية اللبنانية.

أ ـ التباعد في بعض وجهات النظر بين المسؤولين

لاحظ القنصل الفرنسي في بيروت، اوتراي، ان بين المتصرف وفان بعض التباعد في وجهات النظر، اذ يشكو داود باشا من تصرفات فان وعدم استجابته لكثير من مطالبه. فيلح على استدعائه الى فرنسا وتكليف ألتاب مكانه لتكملة تنظيم الضابطية وتدريب عناصرها. أما فان، فيعتبر ان سبب سوء التفاهم هذا يعود الى تأثير عدد من مساعدي المتصرف والى مواقفه من الأمور العسكرية والمهمات المطلوبة من البعثة. ويعطي فان امثلة كثيرة وهذه خمسة منها:

توظيف بعض مساعدي داود باشا[٧٤]: طلب المتصرف الحاق كل من العميد ماسون والهولندي، المسؤول عن تدريب فرسان الضابطية، بالبعثة الفرنسية، لكن

(٧٤) ACGB, R 17, (12, 61, 222-223); ACGB, R 15, (11, 99, 408); ACGB, R 15 (11, 94, 391).

فان رفض هذا الاقتراح واعتمد لتنظيم القوة العسكرية اللبنانية على الرتيبين، توركا وألتاب، وعلى الرقيب السابق في الجيش الفرنسي، داريكارد. فأبقي الأخير في وظيفته بناءً على توصية اوتراي، كحارس لمخزن اسلحة الضابطية.

مسألة تفسير المادة ١٥ من بروتوكول ٩ حزيران ١٨٦١:(٧٥) كان داود باشا يعتقد ان تطويع عناصر الضابطية يجب أن لا يستند على الطائفية، ويفكّر بادخال عدد كبير من الدروز الى صفوفها، الذين يقبلون الخدمة بأمرته. ويطلب فان من حكومته البّت بالموضوع، واعتماد التمثيل الطائفي النسبي في المؤسسة العسكرية، وتثبيت مركز المتصرفية في دير القمر، لأن في نية داود باشا الانتقال في ربيع ١٨٦٤ الى بحمدون والسكن فيها، لأنها تعتبر مصيفاً للجالية البريطانية الموجودة في بيروت. ويضيف بأن مثل هذا القرار، اذا ما نفّذ، سيشكل كارثة لبلدة دير القمر المسيحية.

عدم اسناد قيادة الضابطية لفان(٧٦): يرى رئيس البعثة الفرنسية بأن المتصرف يرفض اسناد المهمات العملانية والمسؤوليات العسكرية الرسمية اليه لاعتقاد حاكم جبل لبنان بأن مثل هذا التدبير قد يزيد من نفوذه وسلطته داخل المؤسسة العسكرية اللبنانية.

اختيار الملازم اول دا بوسبارو ـ de Bospereau(٧٧): يعتقد فان ان داود باشا كان يستفيد من الظروف فيلحق مثلاً لخدمته الخاصة الكثير من الاشخاص الذين يرغبون العمل في ادارات الدولة. ولهذا رفض رئيس البعثة الفرنسية بأن يتقدم الملازم اول دا بوسبارو بطلب الى المتصرف لتوظيفه واعتباره مدرباً مع توركا والتاب. ويعارض فان تصرف داود باشا لأنه لا يتوافق اطلاقاً مع كرامة الضابط الفرنسي.

اوضاع خاصة بالرتيبين(٧٨)

ـ توركا: قد تكون عودة هذا الرقيب الأول السريعة الى فرنسا سبباً للخلاف. وقد رفض فان ارسال توركا بمفرده لحفظ الأمن والنظام في كسروان. فاعتبر داود باشا ان هذا الرفض يخالف التعليمات المعطاة للبعثة، والتي من أجلها اتت الى جبل لبنان.

---

(٧٥) ACGB, R 15, (11, 94, 391); CHEVALIER p 290.

(٧٦) ACGB, R 15, (11, 99, 408).

(٧٧) ACGB, R 15, (11, 99, 410).

(٧٨) ACGB, R 15, Le capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-Kamar le 12 juin 1864, (11, 106, 433).

واذا اتسمت علاقة داود باشا ـ فان بجو من الخلافات حول الكثير من المواضيع، إلاّ انها مرت في فترتها الأولى باحترام متبادل بينهما وتوافق على عدد كبير من الأمور. وهذا ما لاحظه الموظف في القنصلية الفرنسية في بيروت، السيد ساكلدي ـ Ceccaldi، اثناء اقامته بضعة ايام في بيت الدين. وكان ذلك خلال شهر آب ١٨٦٤[٧٩]. وقد وعد المتصرف فان بتعيينه آنذاك رئيساً لاركان جيش عربستان في حال تسلّم القيادة. وتتألف منطقة عربستان من ولايتي الشام وحلب[٨٠].

أما التاب، الذي استلم قيادة البعثة بعد فان، فكان داود باشا معجباً به. فقدّره واحترمه طيلة المدة التي قضاها في جبل لبنان لتدريب الضابطية اللبنانية (٧ آذار ١٨٦٣ ـ ايلول ١٨٧٠)[٨١]. ويعود الى الملازم التاب الفضل الكبير في تنظيم المؤسسة الوطنية.

ب ـ رأي فان بداود باشا

تتضح آراء فان بداود باشا من خلال بعض تقاريره[٨٢] المتضمّنة معلومات تفصيلية عن القوة العسكرية اللبنانية التي دربّها وعن بعض الحوادث التي حصلت اثناء اقامة الضابط الفرنسي في جبل لبنان. وتتعارض هذه التقارير احياناً مع تلك المرسلة من القنصل الفرنسي في بيروت، اوتراي أو دا اسّار، والمتعلّقة بداود باشا، التي لا ترضي فان، اذ يعتقد أن ممثل باريس يجهل ما يجري او مخدوع بها. وتنحصر اراء فان بأمور أربعة وهي:

شعبيته[٨٣]: يؤكد فان ان داود باشا لا يتمتّع بشعبية في المنطقة الواقعة شمالي نهر الكلب ولا يثق سكانها به، بينما يرى اوتراي ان المسيحيين يحترمون

---

(٧٩) - ACGB, R 15, Le capitaine Fain, chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-Kamar le 3 septembre 1864: (11, 114, 452).

(٨٠) ACGB, R 15; (11, 99, 408).

- ACGB, R 20; Direction politique n° 33; Mr Tricou, consul général de France à Beyrouth, au Duc Decazes, ministre des affaires étrangères; Beyrouth, le 14 novembre 1876; (13, 115, 390).

(٨١) ACGB, R 18; Dorection politique n° 81, Mr Des Essards, consul général de France à Beyrouth, au marquis de Moustier, ministre des affaires étrangères, Beyrouth le 7 août 1867, (13, 1, 15).

(٨٢) كتب فان ٢١ تقريراً: ١٤ في دير القمر، ثلاثة في كل من بيت الدين وبيروت والأخير في باريس بعد عودته الى بلاده. وهذا التقرير الأخير هو خلاصة لجميع الأعمال التي قام بها في جبل لبنان. يعطي التفاصيل عن الضابطية والوضع السياسي والاجتماعي.

(٨٣) ACGB, R 15; (11, 85, 343-344).

المتصرف رغم خلافاته مع بعض زعمائهم.

اخلاصه لدولته(٨٤): ان داود باشا حاكم غير لبناني يقدّر حكومته ويعمل باخلاص لها لتثبيت جدارته للقب الممنوح إياه. ويعتبر فان ان توجّه المتصرف نحو الدول الاوروبية وممثليها في بيروت، ما هو إلا مناورة لطلب مساعدة من احداها بهدف شلّ عمل الأخرى.

موقفه من اليسوعيين(٨٥): يعترف فان بأن داود باشا قد صرّح أمامه وبحضور الآباء اليسوعين في زحلة في اوائل عام ١٨٦٤، بأن مؤسستهم تثقّف ثواراً. ويعلّق مضيفاً بأن الجيل الجديد الذي يعلّمه اليسوعيون في جبل لبنان يحّب فرنسا ويتقبل الحضارة الأوروبية، ولن يرضى ابداً بالسلطنة العثمانية وحكومتها.

ويقول رئيس البعثة الفرنسية ان الكلام الذي سمعه من مدير ميتم المعلقة في زحله، الاب هنري اليسوعي، يؤكد أقوال المتصرف. فقد قال إنهم يهيئون سكان جبل لبنان لتنفيذ هذا الهدف وقد توافق حكومة باريس على ذلك. ويعتقد أن الدروز والمسيحيين مستعدون للانفصال عن الباب العالي في أي وقت يحدّده الامبراطور نابليون الثالث، وان الشيخ هاني العماد سيقود الدروز بينما يفتقر المسيحيون في الوقت عينه الى زعيم يجمعهم ويقودهم. ويؤكد بأن يوسف كرم قد رفض منذ ثلاثة أشهر تسلّم هذه المهمة عندما قدّم وفد من دروز حوران عرضاً له بهذا الخصوص. ويرى أن بطريرك الموارنة بولس مسعد يفضّل مؤسسة اللعازاريين على جميع المؤسسات الدينية الأخرى لأنها تقوم بواجباتها الدينية دون سواها.

ويعتبر داود باشا ان لليسوعيين تأثير على حكومة فرنسا. فطلب إقناع المسؤولين في باريس باطلاق يده في ادارة شؤون جبل لبنان وعدم معارضته تعيين مدير جديد لقضاء كسروان مكان الأمير مجيد الذي فشل بمعالجة حادثة غزير خلال شهر شباط ١٨٦٤.

وخلاصة الحادثة: ان انصار يوسف كرم، سكان الحي الأسفل من غزير، قد هدموا أسوار مؤسسة اليسوعيين وحطموا أبوابها. وساعدهم في ذلك الكاهن الماروني حنا رعد الذي يعمل عندهم وصرفوه من الوظيفة. إثرها طالب اليسوعيون من السلطة التدخل. فأرسلت للحال فان، الذي وصل الى مكان الحادث في ٢٣ شباط وحلّ الخلاف القائم. ويضيف القنصل الفرنسي انه وبعد الانتهاء من

---

(٨٤) ACGB, R 15; (11, 94, 409)

(٨٥) طربين، ص ٧٧ ـ ٧٨؛ ACGB, R 15; (11, 99, 410-413). ACGB, R 15; (11, 101, 419, 422).

مراسم دفن احد الأشخاص في البلدة، اجتمع الأهالي ونددوا بالآباء اليسوعيين واتهموهم بإهمال قريتهم وتربية الأولاد الغرباء وابناء المشايخ والزعماء، وبأنهم ليسوا فرنسيين ولا يحبّون الامبراطور ويحتقرون الاكليروس المارونـي. وينهي رئيس البعثة كلامه بتصميم اهالي غزير على اللجوء الى حماية غير فرنسية اذا ارادت حكومة باريس التخلي عنهم وإخضاعهم لليسوعيين.

موقفه من انشاء الضابطية(٨٦): تعتبر القوة التنفيذية عنوان رقي الدول وحامية الاستقلال والسيادة. ويفترض أن تكون حسنة التدريب والتنظيم لتنفيذ المهمات التي قد توكل اليها. وان العمل باخلاص واندفاع لصالح الحكومة والشعب هو مناقبية الجند.

كانت ضابطية جبل لبنان في عهد داود باشا احدى عناصر قوة المتصرفية. فشكلّت اداة لتوطيد الأمن والنظام وجباية الضرائب من الجميع وبدون استثناء. ويسجّل على المتصرف تردده وتباطؤه في انشاء هذه المجموعة العسكرية. فتارة كان متحمساً للفكرة وطوراً معارضاً لها لأسباب منها: الابقاء على القوات العثمانية في جبل لبنان والنقص في الأموال. لكن الواقع اثبت في ما بعد أن هذه الوحدة نظمت ودربت، أما عديدها فلم يتعد اثناء وجود فان في جبل لبنان بين آذار ١٨٦٣ وايلول ١٨٦٥ الـ ٣٠٠ عنصر.

ويستنتج من تقارير فان تخوفه من اقدام المتصرف على الغاء هذه القوة. ويرى أن وجود القنصل الفرنسي في بيروت قد يساعد كثيراً على اقناعه بابقاء هذه المؤسسة وتقويتها. ويعتقد بأن داود باشا سيلجأ الى نزع السلاح من الجبل كتدبير وقائي وجعل جبل لبنان كالولايات العثمانية الأخرى.

مصير البعثة الفرنسية

كان بقاء البعثة الفرنسية أو أحد أعضائها في جبل لبنان مرهوناً بموافقة حكومة باريس وداود باشا. وكل تبديل في المدربين أو تعديل في الاتفاقية المعقودة بين الطرفين يعود البّت فيه اليهما.

وكان فان حذراً من اتخاذ المتصرف قرارات قد تسيء الى سمعة البعثة ومعنويات افرادها وربما الى نفوذ فرنسا في جبل لبنان. فلهذا كان باستمرار يفيد رؤساءه عن كل اشاعة أو حديث يسمعه، خاصة من المقربين الى داود بأشا. وفي ما يلي نموذجان من ذلك:

ـ ترك المتصرف بيت الدين في ٨ حزيران ١٨٦٥ ليذهب باجازة ستة أسابيع

(٨٦) ACGB, R 15; (11, 106, 432); ACGB, R 15 (11, 104, 428); ACGB, R 15 (11, 99, 388-389).

الى القسطنطينـية دون ان يصدر قراراً رسمياً بتكليف من ينوب عنه أثناء غيابه. ومن المفترض، كما يقول فان، ان يكون رئيس مجلس الادارة، عيد بوحاتم، هو الذي سيدير شؤون الدولة. ويضيف بأن احد اعضاء هذا المجلس، (لم يذكر اسمه)، استدعاه وتباحث معه في اهداف ذهاب داود باشا واذا ما كان استبداله بضابط آخر من المواضيع التي سيبحثها حاكم جبل لبنان في عاصمة السلطنة العثمانـية. واعتبر فان أن الشيـخ بشارة الخوري، احد عملاء القنصلية الفرنسية في بيروت أو السيد ابرو افندي سيكون بديلاً عنه. وينهي كلامه بأن جميع المسؤولين، باستثناء شاكر آغا، يرون أن الأوضاع قد لا تستمر على ما هي وسوف تتبدل عاجلاً[٨٧].

ـ صرح ضابط تركي بقرب انتهاء مدة البعثة الفرنسية واستقدام عناصر تركية لتكملة تنظيم وتدريب الضابطية اللبنانـية. والضابط هو من موظفي حكومة المتصرفية الجدد، وكان قد ألحق بخدمة داود باشا منذ شهرين فقط[٨٨].

ويعتبر فان بأن فشل البعثة، اذا ما حصل، لا يعود الى تقصير أو عدم اندفاع عناصرها، بل الى الأوضاع السياسية والمالية غير المستقرة في جبل لبنان[٨٩].

ومهما يكن من أمر، فان داود باشا هو المؤسس الأول لعهد المتصرفية في جبل لبنان. وقراره بطلب بعثة فرنسية لتنظيم مؤسسته العسكرية، آنذاك، واستجابة حكومة باريس بانتداب ثلاثة عسكريين، فان توركا والتاب، كان له الأثر في انشاء قوة نظامية، ولو قليلة العدد، عملت على ضبط الأمن في مختلف الأقضية، وساعدت في:

ـ خلق ملاكات تدريب عمل افرادها خلال فترة ١٨٧٠ ـ ١٩١٨ على تكملة ما بدأه فان والتاب رغم المشاكل والصعوبات التي واجهتهم.

ـ تشكيل مجموعة عسكرية كانت نواة لقوى الأمن الداخلي، اليوم. هذه المؤسسة مدينة للبعثة الفرنسية الأولى ١٨٦٣ ـ ١٨٧٠، ولمن أتى بعدها في عهد الانتداب بانشاء وحداتها وتنظيمها وتدريبها.

---

(٨٧) ACGB, R 16; Le capitaine Fain, Chef du personnel militaire français au Liban, à Mr Drouyn de Lhuys, ministre des affaires étrangères, Deir-el-Kamar, 12 juin 1865, (12, 46, 172-173).

(٨٨) ACGB, R 15; (11, 99, 408).

(٨٩) ACGB, R 15; (11, 114, 452).

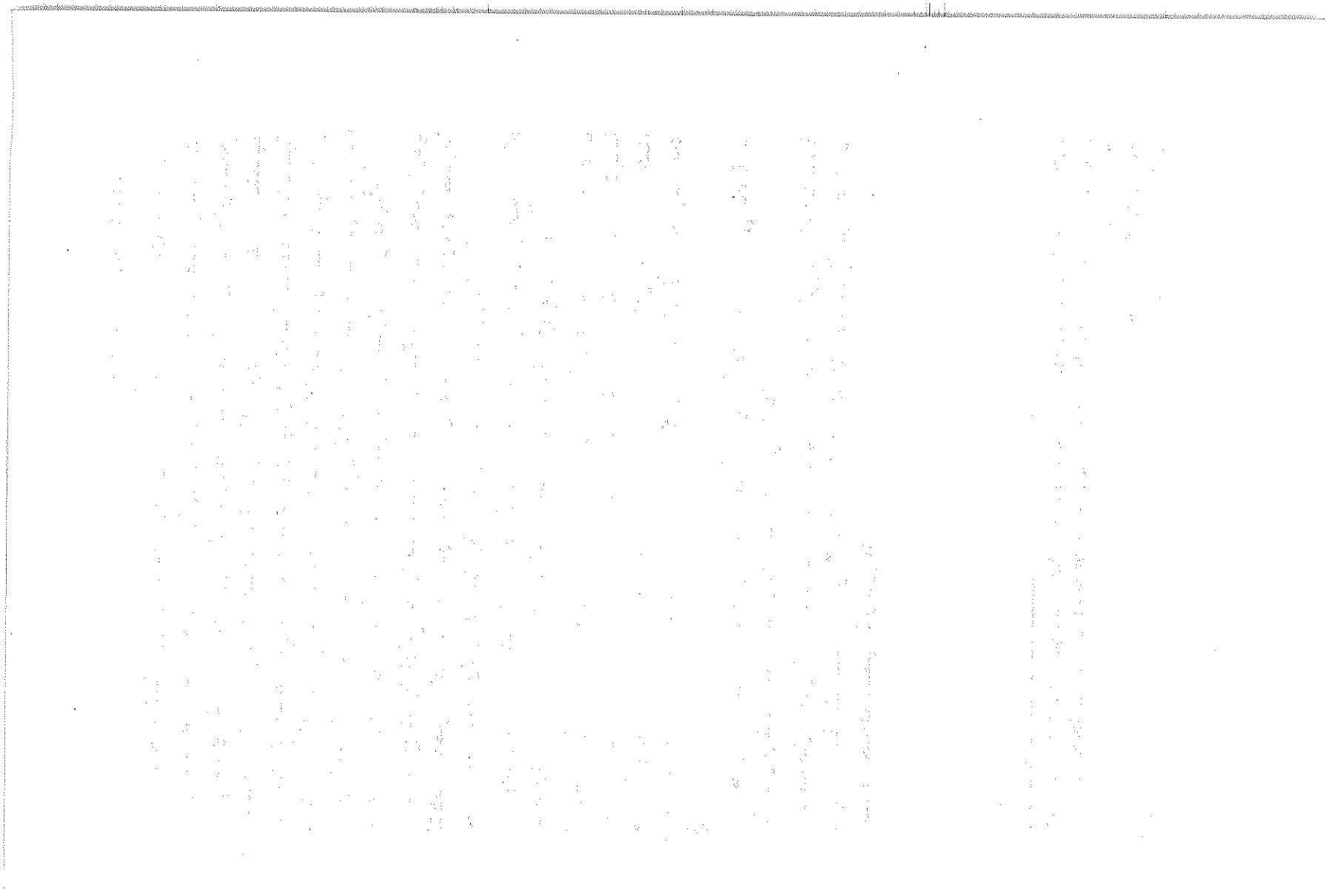

دور علم النفس في معالجة قضايا المجتمع الجريمة بصفة خاصة

د. عبد الفتاح محمد دويدار(*)

إن علم النفس، بوسائله المنهجية الراهنة، وبنظرياته الحالية، لا يعجز عن تلمس الطريق لحل المشكلات السيكولوجية التي تنشأ عند احتكاك الفرد بظروف اجتماعية وبناء تسيطر فيه الصراعات الطبقية، والفقر، وقيم المجتمع المادي، والقهر السياسي والقوة... وغير ذلك.

وإذا كان علم النفس الاجتماعي أحد الفروع الأساسية التي تهتم بدارسة السلوك كما يتشكل في المواقف الاجتماعية المختلفة، بهدف وضع القوانين الأولية الأساسية للسلوك كما يتحدد من خلال هذا الاتجاه؛ فإن علم النفس الاجتماعي التطبيقي ينبغي أن يوجه اهتمامه إلى استغلال القوانين التي تأتي من الفروع الأساسية لعلم النفس جميعها، وتوظيفها في فهم وضبط وحل مشكلات التفاعل الاجتماعي، لمعالجة قضايا المجتمع على تنوعها واختلافها، وبخاصة في مجال الجريمة، لمعرفة ما يلابسها من أسباب ومسببات وعلل ومعلولات.

فالجريمة، منذ فجر التاريخ الإنساني، من أهم منغصات المجتمع وستظل مِعْوَلاً من معاول الهدم فيه. ويكفي أن نشير إلى ما يتكبده المجتمع من خسائر في شتى مجالات الحياة، نتيجة الجريمة بمختلف أبعادها وأنواعها. فقد ذهب المؤتمر الخامس للأمم المتحدة الذي عُقد في جنيف لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين، في العام ١٩٧٥، إلى أنه يمكن تقسيم نفقات الجريمة إلى أربع فئات عامة هي:

١ ـ الخسائر المادية المباشرة التي تلحق ضحايا الجرائم في النفس والمال.

(*) استاذ علم النفس بكلية الآداب في جامعتي الاسكندرية (مصر) وبيروت العربية (لبنان) ومدير تحرير مجلة الثقافة النفسية.

٢ ـ نفقات التدابير الوقائية وإجراءات المحافظة على الأمن العام.

٣ ـ نفقات التأمين والأجور التي يفقدها المجرمون والمحبوسون والمجني عليهم المصابون والمعطلون بسبب ذلك عن أداء ومباشرة أعمالهم.

٤ ـ عبء الإعانات الاجتماعية التي تدفعها الدولة لأسر المسجونين والمجني عليهم. وهذه التكاليف مادية بحتة يوجد بجانبها تكاليف معنوية تتمثل في الخوف والقلق الذي يؤدي إليه انتشار الإجرام لأن مواجهته قد تستتبع فرض بعض الإجراءات نتيجة للقيود العامة لمكافحة الجريمة(١).

لذلك، حاول المجتمع بشتى الطرق والوسائل ـ التي تطورت بتطوره ـ قمع الجريمة والعمل على منعها وعقاب من يتردى فيها وفق نصوص القانون الجنائي الذي يقوم على مفاهيم الإدانة الأخلاقية والردع بالعقاب.

ولكن يبدو أن المعرفة المستمدة من العلوم الاجتماعية، وعلم النفس على وجه الخصوص، تملي علينا ضرورة تعديل تلك المفاهيم بل وتعديل أسلوب التعامل مع الجريمة والجاني.

ومن الواضح أن هناك جرائم معينة تمكن المجتمع من تبسيط أو تجنب المشاكل الاجتماعية، فهي تجعل من السهل أن نلوم فرداً أو مجموعة من الأفراد بدلاً من أن نتعامل مع المشكلة الاجتماعية الأصلية. فعلى سبيل المثال، من السهل أن نلقي باللائمة في تزييف الشيكات على المزّورين بدلاً من أن نواجه مشكلة الحاجة إلى تغيير النظام الائتماني كله. ومن السهل أن نعاقب المحتالين على السكان في قضايا الإسكان بدلاً من مواجهة مشكلة أن هناك نقصاً في المساكن بالفعل(٢).

تعريف الجريمة

الجريمة فعل غير مشروع صادر عن إرادة جنائية يقرر له القانون عقوبة أو تدبيراً احترازياً. ويقوم تعريف الجريمة على العناصر التالية(٣):

أولاً: تفترض الجريمة ارتكاب فعل يتمثل فيه الجانب المادي لها، ونعني بالفعل السلوك الإجرامي أياً كانت صورته، فهو يشمل الإيجابي كما يتسع للامتناع. ومثال النشاط الإيجابي تحريك الجاني يده لاختلاس مال المجني عليه؛ ومثال

---

(١) درويش، عبد الحميد حسني (١٩٨٤) «**الجريمة والتنمية**»، سلسلة إقرأ، العدد ٥٥، القاهرة: دار المعارف، ص ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) LIPPMAN, H. S. (1956) «**Treatment of the Child in Emotional Conflict**», New York: Mc Graw - Hill book, Company, P. 200.

(٣) حسني، محمود نجيب (١٩٧٠) «**دروس في قانون العقوبات القسم الخاص**»، القاهرة: دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، ص ص ٤٥ ـ ٤٧.

الامتناع إحجام الأم عن إرضاع طفلها ليهلك. والأصل أن تترتب على الفعل آثار يتمثل فيها الاعتداء على الحق الذي يحميه القانون.

ثانياً: تفترض الجريمة أن الفعل غير مشروع طبقاً لقانون العقوبات والقوانين المكملة له، فلا تقوم جريمة بفعل مشروع. ويوصف الفعل بأنه غير مشروع إذا تضمن القانون نصاً يُجَرمه، ولم يكن في الظروف التي ارتُكب فيها خاضعاً لسبب أباحَه.

ثالثاً: تفترض الجريمة صدور الفعل غير المشروع عن إرادة جنائية. فليست الجريمة ظاهرة مادية خالصة، بل هي عمل إنسان يُسأل عنها ويتحمل العقاب من أجلها، كذلك يجب أن تكون ذات أصول في نفسيته. وبغير العلاقة بين شخصية الجاني وماديات الجريمة، يستحيل تحديد شخص تقوم مسؤوليته عنها. واشتراط صدور الفعل عن إرادة، يعني اشتراط صدوره عن إنسان، إذ لا تنسب الإرادة لغير الإنسان. ويتعين أن تكون الإرادة مميزة مدركة، وحرة مختارة حتى تُعد عنصراً في الجريمة. وتسمى الأسباب التي تجردها من القيمة القانونية «موانع المسؤولية الجنائية»، مثل: صغر السن والجنون والسُكْر غير الإرادي والإكراه وحالة الضرورة. وللإرادة الجنائية صورتان: القصد الجنائي والخطأ غير العمدي، ويعني القصد الجنائي اتجاه الإرادة إلى الفعل ونتيجته، ويفترض الخطأ غير العمدي اتجاه الإرادة إلى الفعل دون النتيجة.

رابعاً: تفترض الجريمة أن القانون يقرر لها عقوبة أو تدبيراً احترازياً. ويعني ذلك أنه يترتب على ارتكابها تحقق أثر من نوع خاص يمتاز بطابعه الجنائي البحت.

ومن الواضح أن الجريمة ظاهرة وجدت منذ فجر التاريخ واسترعت الانتباه منذ القدم، وعلم القانون له باع طويل في التنظير لها ولكن الاهتمام بالجوانب النفسية للمجرم أدى إلى نشأة ما يسمى بعلم النفس الجنائي الذي يُعد فرعاً من علم النفس الاجتماعي الذي يستند بدوره إلى علم النفس العام.

وعلم النفس الجنائي هو العلم الذي يتناول السلوك الإجرامي تناولاً سيكولوجياً باستخدام طرق البحث ومناهجه وأدواته، وبخاصة أساليب الملاحظة والمقابلة والاختبارات السيكولوجية المقننة.

الجريمة بين علم النفس والقانون الجنائي

إن الجريمة ليست مجرد ظاهرة مضادة للمجتمع يتعامل معها القضاة وفقاً لنصوص قانون العقوبات الثابتة، ولكنها أيضاً مشكلة سيكولوجية تستلزم الدراسة المتعمقة من كل من يهتم بدوافع السلوك الإنساني.

ولقد كان المشتغلون بالقانون وعلماء السلوك يتحدثون عن الفائدة الممكنة والحاجة المتزايدة إلى التعاون بين علميهما في مهمة التعامل مع الجريمة والجاني. حيث يرى المشتغلون بالقانون أن القانون الجنائي يهتم بالسلوك الإنساني، ولذلك ينبغي أن يستفيد من الفهم الذي حصل عليه علم السلوك من خلال الملاحظة العلمية. ويحس علماء السلوك بالتزامهم كمواطنين إزاء فهم وخدمة عمل القانون الجنائي(٤).

ويدعم تلك الاتجاهات المتكاملة نحو التعاون ما يدفعه المجتمع من ضريبة باهظة من المعاناة والفاقد البشري نتيجة مشكلة الجريمة وفشل المجتمع في التعامل معها(٥).

ويرى جلوفر Glover أنه من الصعب أن نتوقع أن يتفق عالم النفس والمشتغل بالقانون في وجهات النظر اتفاقاً تاماً، لأسباب لعل أهمها:

١ ـ أن علم النفس من العلوم التي يهتم بها المحامي والقاضي وعالم الدين ورجل الشارع، دون أن يهتم بكونه فرعاً من فروع المعرفة العلمية التي تتطلب تدريباً طويلاً. كما أن القاضي مطالب بغض النظر عن آرائه الخاصة في موضوع الجريمة ـ بأن يطبق نصوص قانون العقوبات القائم على الأفكار الثابتة الخاصة بطبيعة الجُرْم وفضائل العقوبة.

٢ ـ أن موضوع الجريمة، مثله مثل السياسة والدين والجنس، يثير أقوى الانفعالات والتميزات والمفاهيم القبلية والخرافات.. لأن الجريمة هي أولاً وأخيراً قضية أخلاقية، تتضمن مفاهيم الخير والشر والخطيئة والصواب والخطأ والإصلاح والغفران والتكفير والردع والعقاب(٦).

أما إدوارد ج. ساشتر Edward J. S acher، فيرى أن الجهود المبذولة في مضمار التعاون بين علم النفس والقانون لم تؤت ثمارها المرجوة لأن أهداف هذا التعاون لم تكن محددة بوضوح، كما أن الطرفين المتعاونين لم يحسبا حساب الفروق الهامة بين علميهما في الأهداف والمسلمات وفروض العمل. ويحذرنا «ساشتر» من أن نفترض أن القانون الجنائي وعلم السلوك كينونتان متجانستان لهما وجهات نظر موحدة لأن لكل منهما مدارسه المختلفة في التفكير وله متخصصوه الذين يهمهم التمييز بين التعاليم النظرية والمسائل العملية.

---

(٤) ليلة، سند رزق (١٩٩٠) **«قراءات في علم النفس الجنائي»**، بيروت: دار النهضة العربية، ص ١٨.

(٥) SACHER, E. J. (1963) Behavioral Science and Criminal Law, Journal of Scientific American, Vol. 209, No. 5, P. 39.

(٦) GLOVER, E. (1970) The Roots of Crime, Selected Papers on Psychoanalysis, International Universities Press, Inc., PP. 4 - 5.

ويذكر «ساشتر» أن للقانون الجنائي هدفين:

أولهما: تأكيد الحقائق الأخلاقية المطلقة للمجتمع عن طريق الإدانة الأخلاقية، وعقاب من يتحدى هذه الحقائق المطلقة.

ثانيهما: تخفيض عدد الأفعال الإجرامية في المجتمع عن طريق نظام العقوبة والردع والإصلاح.

ويحاول كل فعل قانوني في القانون الجنائي خدمة كلا الهدفين في آن واحد. ويبدو القانون الجنائي هكذا أداة لتدعيم ونشر المبادىء الأخلاقية للمجتمع، وفي سبيل ذلك يطرد ويدين ويعاقب المتهم.

والفلسفة الكامنة وراء ذلك مؤداها أن كل إنسان يتصرف كما لو كان لديه حرية كاملة للإرادة. وبما إنه يستطيع أن يختار طريق الصواب الأخلاقي أو طريق الخطأ الأخلاقي، فإن ارتكابه لفعل إجرامي يعني أنه قد اختار الشر اختياراً حراً، ويعبر عن الحالة الجنائية للعقل أو النية الإجرامية بمعنى أنه يستحق الإدانة الأخلاقية ويستحق العقوبة من المجتمع وفقاً لمدى بشاعة الجريمة، وعندما يتحقق ذلك تتم العدالة. وعبر السنين، أضيفت الاستثناءات والأهليات حول هذا الجوهر المركزي لنظرية المسؤولية الاجتماعية والجنائية الكاملة، مثل أن المتهم قد يرتكب جريمته دفاعاً عن النفس أو تحت إكراه أو أنه قد يكون حدثاً صغير السن.

كما يذكر «ساشتر» أن العلوم السلوكية تنبثق من مسلمات تتعارض مع المسلمات الأخلاقية للقانون، فإن هدفها فهم السلوك وتعديله. لذلك فمفهوم الإرادة الحرة لا قيمة له، بل إن من الضروري أن نفترض أن سلوك الناس وفكرهم يتحدد وفق قوانين يمكن اكتشافها.

إن التعارض في وجهات النظر بين علم النفس والقانون يمكن رؤيته بشكل أفضل من خلال تلك الفرصة المؤاتية للاختصاصي النفسي لأنه عالم السلوك الذي كثيراً ما يُستدعى إلى ساحة المحكمة لتحديد ما إذا كان المتهم مجنوناً يُستثنى من المسؤولية والإدانة أم أن العكس هو الصحيح.

ويجد المتخصص النفسي مسألة الإدانة الأخلاقية للفرد غير مناسبة، ويدعم مفهومه الخاص عن المسؤولية والذي مؤداه أن اعتبار شخص ما مسؤولاً جنائياً معناه أن هذا الشخص ينبغي أن يتغير قبل أن يستأنف موقعه ووظيفته في المجتمع.

وإذا لم تتم مراجعة النظرة الأساسية للمسؤولية من جانب أو آخر، فإن مساحة التعاون بين علم النفس والقانون لا يمكن أن تكون أرحب مما هي عليه الآن، حيث يقدم عالم السلوك ملاحظاته ويطبق عليها الجهاز القانوني معاييره ليحدد المسؤولية الجنائية.

وتجدر الإشارة إلى أن القانون حين لا تتطور نصوصه وتتعدل باستمرار كي تتماشى مع التطور الدائم في المجتمع وظواهره وعلى وجه الخصوص الظواهر الإجرامية، يصيبه الجمود، ويؤدي ذلك إلى استفحال ظواهر إجرامية ووصولها إلى مرحلة من الصعب أن يتداركها المجتمع. وذلك لأن نصوص القانون تورد ما تعاقبه من أفعال على سبيل الحصر، أي إنها تورد مفردات الأفعال التي يشملها نص التجريم، ومع تطور المجتمع، نجد ظواهر لم يضعها المشرع في حسابه عند صياغة نص القانون. فعلى سبيل المثال، قضية تطبيق عقوبة الإعدام على تجار المخدرات في مصر لم تناقش منذ عشرات السنين... لماذا؟ ولماذا تطبق الآن هذه العقوبة؟... لأن المخدرات استشرى خطرها واستفحل أثرها، وحين أدرك المجتمع تزايد عدد المدمنين من كل الأعمار ومن مختلف الطبقات، طُرحت مسألة تطبيق عقوبة الإعدام على تجار المخدرات، ولكن بعد أن بلغت الظاهرة حداً لا يمكن السكوت عنه أو تجاهله أو إنكاره.

كذلك ظواهر النصب والاحتيال والتي وصلت مؤخراً إلى حد الإضرار بالاقتصاد القومي.

إن جريمة النصب والاحتيال من الجنح التي تتراوح عقوبتها بين الحبس أسبوعاً وثلاث سنوات. فهل هذه عقوبة رادعة لمن احتال على الناس وسلب أموالهم ووصل ما استولى عليه إلى عشرات أو مئات الملايين من الدولارات؟!!

وقد تزايدت تلك الجرائم بشكل كبير، وحين وصلت إلى حد أن اتخذت شكلاً خطيراً، بُذلت محاولات وعُقدت جلسات لوضع قانون جديد لحماية المواطنين من شركات الإسكان وبيع الأراضي والاستثمار والتجارة والسياحة والمقاولات الوهمية، حيث إن نشاط تلك المؤسسات والشركات لم يقتصر على التلاعب بأموال المواطنين العاديين ومدخراتهم بل امتد إلى التلاعب بالأموال العامة والبنوك.

من هذه المنطلقات ـ وغيرها كثير ـ يجب على القانون ومُشرِّعيه أن تكون أعينهم على المجتمع وظواهره الإجرامية شديدة التطور لملاحقة تلك الظواهر بالنصوص القانونية التي تتضمن ما قد يجد من أشكال الجريمة بالتجريم.

أما القضية الثانية، فقضية تخلُّف القانون عن متابعة منجزات العلوم الأخرى، وعلى وجه الخصوص العلوم النفسية الاجتماعية، من حيث السياسة العقابية وأسلوب التعامل مع الجريمة والمجرمين. ويجدر بنا أن نوضح أن المجرم يوضع في السجن بمعزل عن المجتمع فترة العقوبة حيث تستفحل نوازعه العدوانية إزاء الآخرين نتيجة الجو الاجتماعي داخل مجتمع السجن ونتيجة تراكم مشاكله خارج مجتمع السجن. ثم يُفرج عنه ويوضع في المجتمع مرة أخرى حيث يلفظه المجتمع ويرفض التعامل معه وتغلق في وجهه أبواب التكسب فلا يجد إلا الجريمة سبيلاً.

كذلك نجد أن المسجون للمرة الأولى يوضع مع معتادي الإجرام، فيكتسب منهم معارف وعلاقات تسهل له التورط في الجريمة مرات أخرى عديدة حيث يتعرف على مُزَوِّري البطاقات ومن يصرفون المسروقات ومن يُرَوِّجون المخدرات... إلخ وهكذا يخرج من السجن وهو مندمج في شبكة إجرامية. لذلك، ينبغي على القائمين على تطبيق السياسة العقابية الإطلاع المستمر على منجزات العلوم النفسية والاجتماعية للاستفادة منها في ترشيد تطبيق تلك السياسة.

إن هدف القانون الجنائي الخاص القاضي بتخفيض عدد الأفعال الإجرامية عن طريق نظام العقوبة والردع والإصلاح، يتوافق مع أحد الأهداف الرئيسية لعلم النفس وهو فهم السلوك وتصنيفه وتفسيره والتنبوء به ثم ضبطه وتعديله.

والجدير بالذكر، إن منع الجريمة لا يخدمه عقاب المتهمين وانتهال آدميتهم، لأن المناخ الاجتماعي في السجون يميل إلى الوحشية وتغذية الإحساس بالهوية الإجرامية وتدعم الميول الإجرامية بدلاً من تثبيطها. يجب أن يُرسل إلى السجن ليس للعقاب ولكن للعلاج الذي يرشده ويوجهه عالم السلوك، وأن يحل التعريف النفسي ـ الاجتماعي والطبنفسي محل التعريف القانَوني في السياسة العقابية.

ـ أسباب السلوك المضاد للمجتمع والمناهض له

يُمَّيز علم النفس الجنائي بين درجتين من السلوك المخالف للقانون، هما: سلوك الأحداث القُصَّر والذي يُعرف بالجُناح Delinquency، وسلوك الكبار الراشدين والذي يُعرف بالإجرام Criminality.

إن مرحلتي الجريمة اللتين تستثيران الكثير من المناقشات وتحفزان الكثير من البحث والدراسة، هما: أسباب الجريمة ومنع الجريمة(٧).

ولقد تعددت تفسيرات العلماء للسلوك الإجرامي وفقاً لاهتماماتهم البحثية وانتماءاتهم النظرية، فنجد، على سبيل المثال، أن العالم الفرنسي الشهير «دانييل لاجاش» يرى أن تكوين شخصية المجرمين هو الجزء الرئيسي من مشكلة النشأة النفسية للجريمة. فإذا كانت الشخصية دائماً في موقف ما فإن القوة المولدَّة للجريمة في هذا الموقف تتوقف على الشخصية. ثم إنه في الغالب، يمكن إثبات إن مثل هذا الموقف لا يوجد إلا لأن الفرد قد وضع نفسه فيه. وبالنسبة إلى تنوع مذاهب التأويل، هناك اتجاهان كبيران وفقاً للأهمية التي يعطونها للمحددات الجبلية أو التعليم. والاتجاه الغالب حالياً هو الأخذ بالتفاعل بين المحددات الجبلية

---

(٧) مراد، يوسف (١٩٤٨) «**بعض نواحي علم النفس الجنائي من الوجهة التكاملية**»، مجلة علم النفس، المجلد الرابع، العدد الثاني.

والخبرات الفردية[٨] أي أن الاتجاه السائد الآن هو عدم إغفال الأثر النسبي لكل من الوراثة والبيئة في تفسير السلوك الإجرامي.

وينظر لاجاش إلى السلوك الإجرامي من جانبين أساسيين هما:

١ ـ جانب وصفي، ينظر إلى العلاقة بين المجرم والجماعات التي ينتمي إليها.

٢ ـ جانب دينامي، ينظر فيه إلى العلاقة بين شخص المجرم وفعله[٩].

أما مصطفى حجازي، فيرى أن السلوك الجانح في مُجتمع ما هو دائماً مؤشر يتجسد في تصرف بعض الأفراد الخارجين على القانون للدلالة على ما يعتمل باطنياً في بنية ذلك المجتمع من اضطراب وما يتراكم فيها من عدوانية كامنة قابلة للانفجار في ظروف معينة[١٠]. ويتفق معه في ذلك أحمد فائق حيث يرى أنه إذا تبين لنا أن مرضاً نفسياً أو جريمة قد شاعا أو انتشرا في المجتمع، يصبح من الميسور لنا والمسموح به أن نستنتج أن عدداً كبيراً من أفراد المجتمع يعانون من ظروف موحدة تثير لديهم صراعات متشابهة وإحباطات نمطية، وأن المجتمع يتيح الفرصة لأساليب إشباع وهمية للرغبات المحبطة مما يجعل الأفراد غير الأسوياء يلجأون إلى هذه الأساليب كمظهر من مظاهر فشل المجتمع بقدر ما هو مظهر من مظاهر فشل هؤلاء الأفراد[١١].

أما مصطفى سويف، فيرى أن المجرم شخص قد أحاطت به ظروف اجتماعية معينة فاندفع إلى الإجرام، ومن ثم فإن مسؤولية الجريمة لا تقع على عاتقه وحده بل على عاتق المجتمع أيضاً. وظهور الإجرام بنسبة متفوقة دائماً في مجتمع معين، دليل على أن ثمة عوامل اجتماعية معينة تساهم في توجيه الإجرام وتحديد مداه وتعيين خصائصه[١٢].

ويحدد «جلوفر» أسباب الاضطراب السيكوباتي (الإجرامي) والسلوكيات المضادة للمجتمع، في ثلاثة أسباب رئيسية هي[١٣]:

---

(٨) دانييل لاجاش، (١٩٧٠) «**المنشأ النفسي للجريمة**»، ترجمة عبد الحليم محمود السيد، المجلة الجنائية القومية، القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، المجلد ١٣، العدد الأول، ص ١١٢.

(٩) حسني، درويش عبد الحميد (١٩٨٤) «**الجريمة والتنمية**»، سلسلة إقرأ، العدد ٥٠٥، القاهرة: دار المعارف، ص ١١٦.

(١٠) حجازي مصطفى (١٩٧٦) «**التخلف الاجتماعي: مدخل إلى «سيكولوجية الإنسان المقهور»**»، معهد الإنماء العربي، ص ٢٦٦.

(١١) أحمد فائق (١٩٨٢) «**الأمراض النفسية الاجتماعية: دراسة في اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع**»، القاهرة: دار آتون للطباعة والنشر، ص ١٣٥.

(١٢) مصطفى إسماعيل سويف (١٩٤٩) «**الأسس الدينامية للسلوك الإجرامي**»، مجلة علم النفس، مجلد ٤، عدد ٣، ص ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(١٣) محمد، علي عبد السلام (١٩٨٥) «**سيكولوجية النشل**»: دراسة عن التنشئة الاجتماعية والشخصية

١ ـ الأسباب الدينامية الغريزية: فالسيكوباتي (المجرم) يتوقع أن يحصل على ما يريد متى أراد من المجتمع، ويشعر أن الخطأ خطأ المجتمع إذا لم يحصل على ما يريد، ويتسبب أي إحباط لديه في ثورة عدم صبر مع وجود الحقد والضغينة والاحساس بالظلم. ويتميز السيكوباتي المجرم في هذا النمط، بالثنائية الوجدانية (التناقض الوجداني) تجاه الموضوعات، كما يتميز بالاستجابات الحركية السريعة للإحباط والتفريغ الانفعالي السريع أيضاً. ويرفض السيكوباتي النصيحة في الغالب، كما تسبب سمة العناد والتشبث بالرأي الإحساس بالقهر في الفعل. ومع ذلك، تكون الاستجابة السادسة (التلذذ بايذاء الآخر وتعذيبه) للموضوعات المحبطة ملحوظة بشكل متطرف وتتدعم من خلال العناد. وتكون الاستجابات للإحباط سبباً في تضخيم التقييم النرجسي للأنا (عشق الذات) النامي، مما يزيد من حساسية السيكوباتي وتمركزه حول ذاته وانخفاض الإيثار والقدرة على الحب. وتكون قيمة الموضوع بقدر ما يعزز «أنا» المريض ومفهومه عن ذاته. وهكذا يتضح الميل إلى استغلال المجتمع الذي يعتبر ملمُحاً لدى المجرم السيكوباتي.

٢ ـ الأسباب الاقتصادية (الميكانيزمية): ليس هناك من ميكانيزم عقلي خاص بالسيكوباتي (المجرم). إن القائمة الكلية من ميكانيزمات التوافق أو الحيل الدفاعية اللاشعورية (النكوص والكبت والإنكار والإسقاط والإزاحة أو النقل والاستدماج(*) والقمع والتسامي أو الإعلاء والتعيين الذاتي والتكوين العكسي والتعويض المسرف... إلخ)، هي أساليب طبيعية يتعامل بها العقل مع العمليات المثيرة، وهي تلعب دوراً هاماً في النمو والسلوك السوي. ولعل الإسقاط هو الميكانيزم الأكثر استخداماً بشكل دائم لدى السيكوباتي المجرم.

٣ ـ السببية الطبوغرافية (البنائية): إن الطفل الذي يُسقط تخيلات عدائية على صور الوالدين، يكون لديه أخلاق أكثر قوة ووحشية من أخلاق الوالدين الفعلية. وعندما يستدمج الطفل صور الوالدين فإنه يستدمج هذه العناصر المشوهة أيضاً ونتيجة لذلك يكون ضميره اللاشعوري قاسياً وسادياً.

لدى النشالين. رسالة ماجيستير ـ غير منشورة ـ مودعة في مكتبة كلية الآداب ـ جامعة عين شمس/ مصر.

(*) الاستدماج Introjection هو تبني المعتقدات والمواقف والأنماط السلوكية للآخرين، كأن يتبنى المراهق مثلاً، مواقف والده نحو قضايا التطوع. والاستدماج جزء لا يتجزأ من التقمص Identification. فعندما يلجأ الشخص الى الاستدماج فإنه لا يقلد النموذج وحسب، بل يستعير ويتمثل جوانب من شخصية هذا النموذج ويدمجها مع العناصر والخصائص المميزة لشخصيته. فالطفل الذي يقول له أبواه مراراً وتكراراً أنه «فاشل» قد يصل به الأمر في نهاية المطاف الى قبول مضمون الكلمة، والاعتقاد بصحتها. فتعبير الوالد أو الوالدة: «أنت فاشل» يترجم لدى الطفل الى «أنا فاشل»... وهكذا.

النفس البريطاني البارز «سيرل بيرت» Cyril Burt، إذ كتب يقول: «لا يمكن عزو الجريمة إلى مصدر عام مفرد ولا إلى مصدرين أو ثلاثة... إن الجريمة تتحدد من تشكيلة واسعة وفيرة من التأثيرات المتعاقبة والمتضافرة، إذ إن طبيعة هذه العوامل واتحاداتها المتنوعة تختلف إلى حد كبير من فرد إلى آخر».

ويقرر «بيرت» إن هناك على الأقل أربعه درجات من العوامل التي يمكن تحديدها في أي حالة خاصة من الجريمة والتي يمكن تحديدها حسب أهميتها من حيث الشدة. وهذه العوامل هي(١٦):

١ ـ التأثير الرئيسي شديد البروز (إن وُجد).

٢ ـ العامل أو العوامل الرئيسية المساعدة.

٣ ـ الظروف الثانوية المهيئة أو التي تساعد على تفاقم الحالة.

٤ ـ عوامل حاضرة ولكنها لا تعمل بشكل ظاهر.

ولقد ميَّز «جيمس شورت» و «روبرت مير» بين ثلاثة مستويات من التفسير للسلوك الإجرامي، هي(١٧):

أولاً: المستوى الفردي الذي يستفسر عن الخصائص الفردية التي تفسر السلوك. وهذا المستوى يتحدث عنه في الغالب علم النفس والعلوم البيولوجية.

ثانياً: المستوى الاجتماعي الواسع النطاق الذي يبحث عن التفسير في خصائص النظم الاجتماعية والتنوع الحضاري.

ثالثاً: المستوى الاجتماعي الدقيق الذي يفحص خصائص التفاعل المستمر الذي يشكل نتائج السلوك(١٨).

الدراسة الميدانية

مشكلة البحث وأهميته

إن ارتفاع مُعدَّلات العنف الفردي والجماعي بمختلف أنواعه، يُمَّثل ظاهرة تعد نذيراً خطيراً لا ينبغي تجاهله أو الإقلال من دلالته. فلقد أوضحت بعض الدراسات أسباب فشل الوصول إلى تحديد لعناصر المدخل السيكولوجي (النفسي) لجرائم

---

(١٦) BARNES, H. E. & TEATERS, N, K., (1966) **«New Horizons in Criminology.** Third Ed., New Jersy: Prentice - Hall, Inc., PP. 206 - 208.

(١٧) SHORT, J. F. MEIER, R.F., (1981). **«Criminology and The Study of Deviance».** American Behavioral Scientist. Vol. 24, N°. 3.

(١٨) SHORT, J.F. & MEIER, R.F., (1981), **«Criminology and the Study of Deviance».** American Behavioral Scientist, Vol. 24, N°. 3, P. 469.

العنف، لأن مجالات دراسة العنف متشابكة. وبذلك لا نجد إلاّ القليل من المفاهيم المتعلقة به في معظم الدراسات، حيث تبرز مشكلتان أمام المتخصصين في العلوم السلوكية والباحثين القانونيين عند محاولتهم التصدي لهذا المجال عبر اتصالاتهم. هاتان المشكلتان، هما[١٩].

أولاً: تتنوع المفاهيم في مجال القانون مما يؤدي إلى صياغة مفهوم عام، بينما يرى متخصصو العلوم السلوكية أن هدف البحث هو الوصول إلى حقائق عامة بصرف النظر عن اختلافات التشريع القانوني، مع وعي الاختلافات الثقافية والاجتماعية.

ثانياً: صعوبة المقارنة بين التشريع القانوني والتحديد الإجرائي للسلوك الإجرامي والعنف السيكوباتي، بالإضافة إلى مشكلة تحديد الأفعال التي تغطيها جرائم العنف.

وهناك أسباب أخرى تثير الشك حول دراسات جرائم العنف، منها: «أسطورة الانفصال»، وهي الميل في بحوث الجرائم إلى اعتبار السلوك الإجرامي وحدة منفصلة عن أشكال السلوك الأخرى[٢٠].

ولذا، فمن الأهمية بمكان وضع مفهوم واضح لجرائم العنف، ودراسة وجهة نظر الضحية، والتفاعل بين الضحية ومرتكب الجريمة، والبيئة التي يقع فيها الحدث الإجرامي، في محاولة لفهم هذه الجرائم وديناميّاتها والوقاية منها.

فلا شك أنه مع تزايد ما يواجهه الشباب من إحباطات، تنقلب طاقاته العدوانية إلى الأفراد والجماعات بما يمثل تهديداً خطيراً لكيان المجتمع (أي خطر التمزق والتفجير من الداخل) بتصاعد أحداث العنف الفردي والجماعي بين الشباب، فضلاً عما نشاهده من خشونة متزايدة في تعامل الأفراد خلال ممارساتهم لأمور حياتهم اليومية، خاصة وأن الشباب يمثل العنصر الرئيسي لقوى مختلف مجالات الإنتاج في المجتمع، أي الركيزة الأساسية لاستمرارية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بما يؤكد ضرورة الحفاظ على هذه القوى ورعايتها من أجل مجتمع أفضل.

---

(١٩) دويدار عبد الفتاح (١٩٩٢) «**ديناميات الاتجاه نحو السلوك السيكوباتي في المجتمع اللبناني**». بحث منشور بمجلة الثقافة النفسية، العدد العاشر، المجلد الثالث، نيسان (أبريل) ١٩٩٢، بيروت: دار النهضة العربية، ص ص (٧٠ ـ ٧٦)، ضمن بحوث المؤتمر الأول للمجلة تحت شعار: «نحو علم نفس عربي» الذي نظمه مركز الدراسات النفسية والنفسية ـ الجسدية في طرابلس/ لبنان في يناير ١٩٩٢.

(٢٠) BRODSKY, S.L. & SMITHERMAN, H. O., (1983). «**Handbook of Scales for Research**» in Crime and Delinquency. New York: Plenum Press, P. 166.

ولعل نظرة سريعة فاحصة ومدققة لإحصاءات الجريمة في المجتمع ـ أي مجتمع ـ تؤكد خطورة تزايد انتشار ظاهرة السلوك الإجرامي وانعكاس ضرره البالغ على المجتمع واختلال نسقه* (نظامه) القيمي، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأنه إذا لم تنشط البحوث والدراسات في مجال الجريمة للوقوف على أسبابها واتجاهات الشباب نحوها، والخروج بتوصيات ومقترحات تساعد في الحد من مثيرات الإحباط لدى الشباب، وتحويل طاقاته العدوانية إلى طاقة بناءة؛ فإن هذا الإحباط سيكون مصدراً للتفكك وتدمير الذات.

إحصاءات الجريمة

يلجأ دارسو الجريمة، في الغالب، إلى الإحصاءات المنشورة عن الجرائم المختلفة والتي تبين معدلات الجريمة Rates Crime، أي المعدل الذي تظهر عليه الجريمة بالرجوع إلى المجموع الكلي للسكان. ويقاس ذلك بعدد الجرائم التي تم تسجيلها في فترة زمنية معنية. ويتركز الاهتمام بمحاولة عقد مقارنات عبر فترة زمنية محددة في جريمة بعينها أو مجموعة من الجرائم أو بين المناطق السكنية أو الجغرافية المختلفة في الجرائم نفسها، ثم الخروج باستدلالات تفسر التباين.

وتنشأ الصعوبات من أن الإحصاءات قد تكون غير ثابتة ولا يمكن الوثوق بها، وبذلك تكون الاستدلالات غير صادقة(٢١).

فبالنظر إلى الأرقام والنسب المئوية المجردة التي توردها تقارير الأمن العام ومصلحة السجون، نلاحظ أنها تفتقر إلى الأساس المنطقي والبديهي الذي يمكن أن يُكسبها معناها. فعدد الجرائم، سواء أكانت من الجنايات أم الجنح، ينبغي أن يُنسب إلى عدد السكان في المجتمع، وينبغي بيان نسبة عدد كل من الجنايات والجنح إلى المجموع العام للجرائم كل على حدة. كما ينبغي بيان نسبة عدد الجنايات والجنح إلى عدد المسجونين الفعلي في السجون(٢٢)

(*) نسق القيم هو مجموعة القيم المترابطة التي تنظم سلوك الفرد وتصرفاته. ومفهوم القيم عبارة عن الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للأشخاص والأشياء والموضوعات، وذلك في ضوء تقديره الشخصي أو تقييمه لهذه الأمور. وتتم هذه العملية من خلال التفاعل بين الفرد بعارفه ومدركاته وخبراته ومفهومه عن ذاته، وبين ممثلي الإطار الحضاري الذي يعيش فيه ويكتسب من خلاله ثقافته.

(٢١) WALSH, D., POOLE, A., (1983). **«A Dictionary of Criminology»**. New York: Routledge and Kegan Paul, P. 52.

(٢٢) WILKINS, I. T., (1968). **«Criminology; An Operational Research Approach in Society»**: Psychological Problems and Methods of Study. Routledge and Kegan Paul.

فمثلاً، قد يرتكب الفرد العديد من حوادث النصب والاحتيال قبل أن ينكشف أمره ويُقبض عليه ربما لأول مرة في حياته. هذا إلى جانب أن إحساس المجني عليه (الضحية) في جنح النصب والاحتيال بالخزي لأنه قد غُرِّر به، يجعله يحجم في كثير من الأحيان عن الإبلاغ عن الواقعة. وقد يُمسك هذا الضحية بتلابيب الجاني فيعده بإرجاع ما سلبه منه أو يرده إليه بالفعل ويرضى الضحية بذلك، ولا يصل الأمر إلى حد الاحتكام إلى القانون(٢٣).

كما أن كثيراً من أفراد المجتمع يُحجمون عن الإبلاغ عن وقائع الرشوة لعدم ثقتهم بعدالة المحاكمة، وطول إجراءات التقاضي، وتستر الرؤساء على أخطاء مرؤوسيهم(٢٤). هذا فضلاً عن طبيعة العلاقة بين الراشي والمرتشي إذ إن كلاً منهما يكون مستفيداً من الجريمة، وبالتالي يندر الإبلاغ عنها. ومن ناحية أخرى، فإن بعض كبار العاملين بالدولة من ذوي المكانات الوظيفية العليا، يُمارسون الرشوة ويصبحون بمنأى عن أن تطالهم يد القانون(٢٥).

ثم أننا لا نستطيع أن نثق بما ينشر من إحصاءات عن معدلات الجريمة في المجتمع، إذ إنها لا تُعبِّر عن الواقع الفعلي لهذه المعدلات، وكل ما نستطيع أن نقوله أنها تُعبِّر عن نشاط البوليس في تتبع الجريمة وملاحقتها، «وما خفي كان أعظم».

وهذا يدعونا إلى محاولة استقصاء أسباب الجرائم، وقياس اتجاهات الناس نحو الجريمة، والتعرف إلى آرائهم في قوانين معاقبة المجرمين، لاستخلاص العوامل الكامنة وراء تلك الاتجاهات.

إن السلوك الاجتماعي في حد ذاته لا يمكن أن يقال عنه أنه سلوك إجرامي أو غير إجرامي، منحرف أو غير منحرف، سويّ أو مَرَضيّ. لكن الذي يصفه بهذه الصفة أو تلك هو تقويم المجتمع له في ضوء مدى التزامه أو خروجه عن المعايير الاجتماعية للسلوك. ولقد اهتم علماء النفس وعلماء الاجتماع بالأمراض الاجتماعية أو ما يسمى أحياناً الباثولوجيا الاجتماعية Social Pathology. ويُعرَّف المرض الاجتماعي بأنه سلوك شاذ هدَّام، يمثل مشكلة اجتماعية تهدد أمن الفرد والجماعة(٢٦).

---

(٢٣) ليلة رزق سند إبراهيم (١٩٨٦) «**دراسة في سيكولوجية النصَّاب**»، رسالة دكتوراه مودعة بمكتبة كلية الآداب ـ جامعة عين شمس، ص ٢٣.

(٢٤) قناوي شادية علي (١٩٧٦) «**ظاهرة الرشوة في المجتمع المصري**»، دراسة اجتماعية ميدانية، رسالة ماجستير مودعة بمكتبة الآداب جامعة عين شمس.

(٢٥) شحاتة مجدي رزق محمد (١٩٨٧) «**سيكولوجية الرشوة**»: دراسة عن الشخصية والتنشئة الاجتماعية للموظف المرتشي، رسالة ماجستير مودعة بمكتبة كلية الآداب جامعة عين شمس.

(٢٦) دويدار عبد الفتاح محمد (١٩٩٤) «**علم النفس الاجتماعي: أصوله ومبادئه**»، بيروت: دار النهضة العربية.

إن المجرمين والمنحرفين والجانحين والشذّاذ وذوي السلوك المضاد للمجتمع، يمثلون خطراً على حياة الآخرين، ويكونون عنصر قلق واضطراب، قد يعرضون فيه حياة غيرهم للخطر، فهم إما أن يسرقوهم أو يقتلوهم أو يغتصبوهم أو يحتالوا عليهم بالنصب والغش والرشوة والخداع... إلخ، وهم في الوقت نفسه يمثلون خطراً على حياة أنفسهم؛ لأنهم نتيجة لانحرافهم يقاومهم المجتمع مما يجعلهم عرضة لاضطرابات نفسية عديدة أقلها القلق، وهم أيضاً يمثلون مشكلة اجتماعية اقتصادية خطيرة؛ بوصفهم فاقد بشري بالنسبة إلى عملية البناء الاجتماعي.

والواقع أننا لو حللنا أي مشكلة، لوجدنا أن معظمها متعددة الجوانب، فيها الجانب الاجتماعي، والجانب النفسي، والجانب الصحي، والجانب الاقتصادي، والجانب الثقافي... إلخ. ولعل هذا هو السبب في انتشار العيادات النفسية Psychological Clinics، التي يعمل فيها فريق من مختلف التخصصات: الطبيب والأخصائي النفسي والأخصائي الاجتماعي.

وقد تُصادفنا مشكلة سرقة يصاحبها اضطرابات نفسية متعددة، ويتضح أن السبب الرئيسي لهذا الانحراف هو الحاجة إلى المال، ويكفي علاج الموقف الاقتصادي للشخص وأسرته حتى تُضبط الأحوال جميعها. أي إن إصلاح جانب واحد قد يكفي لضبط الحالة بأكملها(*).

ولقد انتشرت في السنوات الأخيرة مراكز التحويل Referral units وظيفتها مقابلة الحالة مقابلة مبدئية، وتجميع البيانات التي توضح جوانبها أو الجانب المتغلب فيها والذي يستحس البدء به والذي قد تنتهي عنده المشاكل، فتحول إحدى الحالات، إلى مصحة أو مستشفى عام أو متخصص، وحالة أخرى، إلى جمعية خيرية ترعى فئة معينة، وحالة ثالثة إلى الضمان الاجتماعي، ورابعة إلى مؤسسة للتأهيل المهني، وخامسة إلى مكتب التشغيل والعمل... أما الحالات التي يتضح تَعدد جوانبها، فإنها تحال إلى إحدى العيادات السيكولوجية حيث تتضافر جهود فريق المتخصصين في العلاج وإعادة التكيف الشخصي والتوافق الاجتماعي(**).

أهداف العقوبة

إن أهداف العقاب أو فلسفات التأديب هي الأغراض المنشودة من قِبل المعاقِب، أو

(*) علاج الموقف الاقتصادي لا يعني دائماً إعطاء المال، بل ربما كان الأفضل هو العلاج السببي Causal Treatment الدائم، والبحث عن عمل للشخص نفسه أو لأحد أفراد أسرته. وفي إحدى الحالات كان الحل هو إعطاء ماكينة خياطة لوالدته وتعليمها التفصيل والحياكة ومعاونتها على تسويق منتجاتها. وهنا حكمة صينية تقول: إذا طلب منك أحد سمكة فلا تعطه إياها بل علمه الصيد.

(**) هذه المراكز أنشئت في مصر لخدمة تلاميذ المدارس وأطلق عليها اسم مكاتب الخدمة الاجتماعية المدرسية. فضلاً عن تقديم الخدمة النفسية بواسطة الأخصائي النفسي في كل مدرسة.

بواسطة الستراتيجية المفضلة للسيطرة على الجريمة. وتذكر الكتابات القانونية خمسة أهداف نموذجية للعقاب، هي:

(أ) عقاب أو جزاء مستحق وفقاً لنوع الجريمة، أي عقوبات ومثوبات عادلة.

(ب) إعادة تأهيل المجرم Rehabilitation، بوضعه تحت الرقابة.

(جـ) تعجيز المجرم عن ارتكاب جريمته، أو إبعاده من المجتمع لحماية الجمهور من شروره.

(د) إعاقة عامة أو عدم تشجيع الجريمة بمعاقبة بعض «نماذج» من مرتكبيها بالقصاص وتنفيذ الحدود، ليكونا عبرة لغيرهم.

(هـ) إعاقة خاصة أو عدم تشجيع الآثم المعاقَب للحيلولة دون ارتكابه لجرائم مستقبلاً.

وليس من شك في أن تفضيل نوع معين من العقاب يختلف باختلاف القضاة، حتى في الجرائم والقضايا المتشابهة. فالقضاة الذين يساندون التعجيز، يُصدرون أحكاماً بالسجن لمدة طويلة، والذين يؤيدون إعادة التأهيل يمنحون فرصاً أكثر للمجرمين بوضعهم تحت المراقبة لفترات طويلة بعد إطلاق سراحهم.

أسباب الجرائم

عادة ما تفيد استطلاعات الرأي العام أن الأسباب الرئيسية للجريمة تتضمن: الأساليب والممارسات التي يتبعها الآباء والأمهات في التنشئة الاجتماعية وفي تربية الأبناء، وانهيار الحياة الأسرية، والبيئة السيئة، والتساهل في القوانين وفي النظام القضائي الجنائي، وبطء إجراءات التقاضي، والمخدرات، والمرض العقلي، وتساهل المجتمع، والفقر، والبطالة، والتردي الأخلاقي، وانهيار القيم، إلى غير ذلك من العوامل الاجتماعية والاقتصادية كأسباب للجريمة. وتتولد أسباب أكثر تعييناً وتحديداً وأكثر مباشرة عند سؤال المجرم نفسه عن الجريمة نفسها[٢٨].

إن الباحثين في مجال الجريمة ينسبون ثلاثة أرباع الجرائم إلى عشرة أسباب،

---

(٢٧) دويدار عبد الفتاح (١٩٩٠) منهج دراسة الحالة في علم النفس والعلوم المتصلة به: مع نموذج تطبيقي لدراسة حالة واقعية في المجال الإكلينيكي. بحث منشور بمجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية/ مصر، المجلد (٣٨)، الجزء الثاني، ص ص (٥٧٧ ـ ٦١٦).

(٢٨) دويدار عبد الفتاح محمد (١٩٩٠) خبرات الطفولة وعلاقتها بالسلوك العدواني وسوء التوافق: مشكلات التكيف. بحث ألقي في مؤتمر الجمعية المصرية للطب والقانون بالاسكندرية (المؤتمر السنوي الثالث عشر) تحت شعار: «الانحراف والعنف في المجتمع المصري: أسبابهما، ومظاهرهما، وطرق الوقاية منهما».

هي: اساءة استخدام المخدرات، الإفراط في تعاطي الخمور والمسكرات، الطمع، الحاجة إلى النقود، تهور الضحية، السُكْر أثناء ارتكاب الجريمة، تأثير الشركاء، نقص السيطرة، مشاكل عقلية، خلافات أسرية ومشكلات منزلية.

والواقع أن الفلسفات الفردية العقابية للقضاة، عادة ما تكون متصلة ومتسقة مع معتقداتهم عن أسباب الجريمة فالذين يناصرون مبدأ إعادة تأهيل المجرم، ينسبون الجريمة أكثر إلى عوامل اقتصادية واجتماعية، ويؤمنون بأن معظم المجرمين معتلون عقلياً ويعانون من أمراض نفسية. في حين أن الذين يؤيدون سياسة العقاب للمجرمين، يميلون إلى النظر إلى الجريمة بوصفها راجعة إلى نقص في الذكاء وإلى إدمان المخدرات وإلى ظروف اجتماعية ـ اقتصادية متدنية، ولا يعترفون بالمرض النفسي، ويؤمنون أن قليلاً من المجرمين مختلون عقلياً... ويتساوق ذلك مع النسب والأحكام التي يصدرونها في حالات فردية[٢٩].

أيديولوجيات محاربة الجريمة

تتحد الأيديولوجيات الاجتماعية ـ السياسية مع مختلف الآراء بشأن السلوك الإجرامي ومقترحات محاربة الجريمة والسيطرة عليها.

وتتطلب السيطرة على الجريمة أن يكون الخوف هو الدافع لضبط النفس[*]، ولا يتأتى ذلك إلا بتشديد العقوبات على المجرمين في محاكمات علنية تبثها وسائل الإعلام للجمهور على سبيل الترهيب.

وعندما لا يُعاقب المجرمون، كأن تشجع قيم المجتمع الليبرالية تحدي السلطة القانونية والتساهل في النظام القضائي ـ الجنائي، تزداد الجريمة. وعلى النقيض، نجد أن اليسار السياسي الليبرالي يعتبر أن الظروف الاجتماعية لعدم المساواة والتمييز هي المسؤولة عن الجريمة، أي ان المجرمين هم ضحايا النظام، كما أنهم أيضاً ضحايا لأن تنفيذ القانون يُفرّق بين الفقراء والأغنياء، وبين الضعفاء والأقوياء، في العقوبَة والأحكام، فهو يُعاقب الجريمة التي يرتكبها الفقراء لكنه يتجاهل جرائم الأغنياء[**]. ويُحَبذ الليبراليون إصلاح النظام وإعادة تأهيل

---

(٢٩) ERKINE, H., (1974). «The Polls: Causes of Crime». Public Opinion Quarterly, 38, PP. 288 - 298.

(*) يذكر «ميللر» (١٩٧٣) أن اليمين السياسي المحافظ يرى أن أخطر جريمة يرتكبها اناس ينقصهم ضبط النفس والضمير الأخلاقي.

(**) جاء في معنى الحديث الوارد في الهدْي النبوي الشريف، قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «..... إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

الأشخاص الذين أصبحوا ضحايا المحن الاجتماعية والاقتصادية، من قبيل رد الاعتبار إليهم.

منهج البحث وإجراءاته

أوّلاً: عيّنة الدراسة

لتحقيق أهداف البحث، قام الباحث بتطبيق أدوات بحثه على عيّنة قوامها ٤٦٨ طالباً وطالبة من طلبة الفرق الدراسية الأربع بكلية الحقوق في جامعة بيروت العربية (منهم ٢٩١ طالباً، ١٧٧ طالبة)، بوصفهم دارسين للقانون الجنائي، وسيعملون مستقبلاً في سلك القضاء. وذلك للتعرف إلى آرائهم في أهداف الحكم بالعقوبة، وأسباب ارتكاب الجرائم. تراوحت أعمار أفراد عينة البحث في هذه الدراسة بين ١٩، ٢٥ عاماً بمتوسط قدره ٢١,٦ سنة $\pm$ ٨ و ١ عاماً. طبقت عليهم أدوات الدراسة في موقف قياس جمعي في كل معرفة دراسية على حدة.

ثانياً: أدوات الدراسة

طُبِّق في هذه الدراسة مقياسان، قام الباحث بإعدادهما وتحقق من الكفاءة السيكومترية لهما بحساب معاملات الثبات والصدق، وهما[٣٠].

١ ـ مقياس الاتجاه نحو الجريمة: ويتكون من سبعة عشر بنداً تقيس أهداف الأحكام القضائية بالعقوبات الجنائية، على مقياس سُباعي الدرجات (بطريقة ليكرتَ في قياس الاتجاهات) تتراوح بين عدم الموافقة الشديدة إلى الموافقة بشدة، على كل بند من البنود السبعة عشر، وذلك على النحو التالي:

١ ـ غير موافق إطلاقاً	درجة واحدة
٢ ـ غير موافق إلى حدٍ ما	درجتان
٣ ـ غير موافق	ثلاث درجات
٤ ـ محايد	أربع درجات
٥ ـ موافق	خمس درجات
٦ ـ موافق كثيراً	ست درجات
٧ ـ موافق دائماً	سبع درجات

وتتركز البنود السبعة عشر في هذا المقياس على ثلاثة محاور، تُمثل ثلاثة مقاييس فرعية، وتشمل: بنود موجهة نحو ما يقوم به الآن النظام القضائي

(٣٠) CARROLL, J.S.; et al., (1987) «**Sentencing Goals, Causal Attributions, Ideology, and Personality**». Journal of Personality and Social Psychology, Vol. 52, No. 1, 107 - 118

الجنائي؛ بنود موجهة نحو ما يحاول النظام القضائي القيام به؛ وبنود موجهة نحو ما يجب على النظام القضائي النهوض به.

٢ ـ استخبار مسح الاتجاهات نحو أسباب الجريمة: ويتكون من ستة عشر بنداً، تقيس الأسباب التي تؤدي إلى ارتكاب الجرائم، على المقياس نفسه السابق المؤلف من سبع نقاط.

ثالثاً: التحليل الإحصائي للبيانات

قام الباحث بحساب المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية، ومعاملات الارتباط(*) بين كل بند والدرجة الكلية في كل من المقياسين، ثم حللت المصفوفات الارتباطية عاملياً(**)، باستخدام منهج التحليل العاملي للبنود Item Factor - Anlysis لاستخلاص العوامل المتضمنة في كلا المقياسين.

نتائج الدراسة

أولاً نتائج مقياس الاتجاه نحو الجريمة

أسفر التحليل العاملي لبنود هذا المقياس عن استخلاص ثلاثة عوامل مستقلة ومتعامدة كمحددات لأهداف الأحكام القضائية والعقوبات التي يصدرها القضاة في المحاكم بإزاء الجرائم المنظورة أمامها. وهذه العوامل، هي:

العامل الأول: «الأداء المُرضي»، وقد تشبعت بهذا العامل ستة بنود، تراوحت تشبعاتها بين ٠,٥٣، ٠,٦١، وتشير مضامين هذه البنود إلى ما يلي:

(أ) يؤدي نظام القضاء الجنائي الحالي مهمته بجودة معقولة.

(ب) يحاول نظام القضاء الجنائي العمل بجد وجهد بهدف التحسن.

والجدول رقم (١) يوضح البنود الستة، التي تشبع بها العامل الأول، وقيمة التشبع في كل بند على هذا العامل مُرتَّبة من الأعلى إلى الأدنى بحسب مقدار التشبعات.

(*) معامل الارتباط معيار احصائي كمي (عددي) تنحصر قيمته بين + ١، ـ ١.

(**) اي اننا استخدمنا منهج التحليل العاملي Factor Analysis بوصفه منهجاً إحصائياً كمياً في تحليل معاملات الارتباط الناتجة من حساب العلاقات بين كل بند من بنود المقياس المستخدم والدرجة الكلية على المقياس ذاته وذلك بهدف استخلاص العوامل الكامنة في المقياس بوصفها محددات ترمي الى تنظيم الحقائق والمفهومات تنظيماً يوضح ما بينها من علاقات، أو تقسيمها على أساس ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف.

جدول رقم (١)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الأول
١ ـ إن النظام القضائي الجنائي يعمل بكفاءة معقولة بالطريقة التي يسير بها الآن.	٠,٦١
٢ ـ النظام القضائي الجنائي حالياً يُكرِّس كثيراً من طاقته لمنع الناس من ارتكاب الجرائم والأفعال الجنائية المتكررة.	٠,٥٧
٣ ـ يجد القضاء الجنائي باستمرار طرقاً أفضل لمحاربة الجريمة.	٠,٥٦
٤ ـ يحاول النظام القضائي الجنائي جاهداً العثور على طرق أفضل لإعادة تأهيل المجرمين.	٠,٥٣
٥ ـ تسعى الشرطة والمحاكم والإصلاحيات باستمرار في طلب وسائل للتحسن.	٠,٥٣
٦ ـ تحاول الشرطة والمحاكم والإصلاحيات أن تبين لكل مجرم عدم جدوى السلوك الإجرامي.	٠,٥٣

٢ ـ العامل الثاني: «العقاب»، وتشبعت به أيضاً ستة بنود، وتراوحت التشبعات بهذا العامل بين ٠,٥٦، ٠,٦٧ ويشير محتوى هذه البنود الستة إلى أن النظام القضائي الجنائي المعمول به حالياً متساهل جداً مع المجرمين، وأن تشديد العقوبات من شأنه أن يؤدي إلى تخفيض عدد الجرائم وتقليل عدد المجرمين.

ويوضح الجدول (٢) محتوى البنود الستة مُرَّتبة بحسب قيمة تشبع كل بند بالعامل الثاني المستخرج، الأعلى فالأدنى على التربيب.

جدول (٢)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الثاني
١ ـ كثير من الإجراءات الإصلاحية الجديدة متساهلة جداً.	١,٦٧
٢ ـ معظم الذين يؤيدون معاملة متساهلة للمجرمين لا يعلقون أهمية كبيرة على جسامة الجرائم التي تحدث.	٠,٦٦
٣ ـ يجب أن يُؤكِد أكثر على إبقاء المجرمين خلف القضبان.	٠,٦٢
٤ ـ يجب أن تتبنى السلطات شعار «كن متشدداً» مع المجرمين المعاودين لارتكاب الجرائم.	٠,٥٧
٥ ـ إذا شرعت القوانين اكثر قسوة ازاء الجريمة والمجرمين فلن يكون لدينا هذا العدد من الجرائم ولا هذه الكثرة من المجرمين.	٠,٥٩
٦ ـ ينبغي معاقبة المجرمين على جرائمهم كي نجبرهم على دفع دَينهم للمجتمع.	٠,٥٦

٣ ـ العامل الثالث: «رد الإعتبار وإعادة التأهيل»، ولقد تَشبعت بهذا العامل خمسة بنود، تراوحت تشعباتها بين ٠,٤٨، ٠,٦٤ ويشير محتوى هذه البنود الخمسة إلى أن الاهتمام بتطوير برامج أكثر وأفضل لإعادة تأهيل المجرمين واستثمار فترة العقوبة في تعليمهم مهنة أو حرفة أو عمل، من شأنه أن يؤدي إلى تخفيض الجريمة.

ويوضح الجدول (٣) محتوى البنود الخمسة مرتبة بحسب قيمة تشبع كل بند بالعامل الثالث المستخلص من التحليل العاملي لبنود المقياس.

جدول (٣)

مضمون البند ومحتواه	قيمة التشبع بالعامل الثالث
١ ـ ينبغي تطوير برامج أكثر وأفضل لإعادة تأهيل المجرمين.	٠,٦٤
٢ ـ إذا حوّل القضاة أناساً أكثر من السجون إلى برامج إعادة تأهيل، فسوف يكون هناك عدد أقل من الجرائم.	٠,٥٧
٣ ـ ينبغي استمرار الاتجاه الحالي في تحويل المجرمين من السجن إلى برامج لإعادة التأهيل.	٠,٥٦
٤ ـ نحن نخطىء إذا اعتقدنا أن الأمر الوحيد الذي يمكن أن نفعله للمجرمين هو القاؤهم في السجن.	٠,٤٩
٥ ـ إذا اجتمع علماء النفس وعلماء القانون وعلماء الاجتماع معاً باستمرار، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تحسين نظام القضاء الجنائي المعمول به الآن.	٠,٤٨

ثانياً: استخبار مسح الاتجاهات نحو أسباب الجريمة

أسفر التحليل العاملي لبنود هذا المقياس عن استخلاص ثلاثة عوامل ذات تشبعات مرتفعة بوصفها محددات للجريمة والأسباب الكامنة وراء ارتكاب الجرائم. وهذه العوامل هي:

١ ـ العامل الأول: «الأسباب الاجتماعية»

تشبَّعت بهذا العامل ستة بنود يوضحها الجدول (٤)، تراوحت التشبعات بالعامل الأول بين ٠,٤٣، ٠,٥٥ ويشير محتوى هذه البنود الستة إلى أن الجريمة تأتي عادة من المشاكل الأسرية ورفقاء السوء وإدمان المخدرات. أي أن العامل الأول المسؤول عن الجريمة عامل اجتماعي أو أسباب اجتماعية في الأغلب الأعم.

والجدول التالي يوضح البنود الستة مرتبة تبعاً لمقدار التشبع في كل بند، الأعلى فالأقل:

جدول (٤)

محتوى البند	مقدار التشبع بالعامل الأول
١ ـ ترجع جذور أكثر الجرائم إلى المشاكل الأسرية.	٠,٥٥
٢ ـ المخدرات عامل أساسي في جرائم كثيرة.	٠,٥١
٣ ـ رفقاء السوء وأوكارهم سبب رئيسي في تعلم الإجرام.	٠,٤٥
٤ ـ إدمان الخمور والمخدرات يُفقد الإنسان القدرة على التحكم بسلوكه، ومن ثم يكون سبباف في الجريمة.	٠,٤٥
٥ ـ يمكن التنبؤ بالسلوك الاجرامي لفرد ما إذا استطعنا معرفة الأشخاص الذين يتعامل معهم ويتصل بهم.	٠,٤٤
٦ ـ كثير من الناس الذين يصبحون مجرمين كانوا مُهمَلين أو منبوذين من قِبل والديهم.	٠,٤٣

٢ ـ العامل الثاني: «الأسباب الاقتصادية»

تشبعت بهذا العامل خمسة بنود يوضحها الجدول (٥)، وتراوحت تَشبعاتها بالعامل بين ٠,٤٨، ٠,٦٢ ويشير محتوى هذه البنود إلى أن الجرائم تأتي من أسباب اقتصادية أهمها تدني الظروف الاجتماعية ـ الاقتصادية، والفقر وعدم المساواة. وسيرد ترتيب البنود وفقاً لمقدار التشبع من الأعلى إلى الأدنى.

جدول (٥)

محتوى البند	مقدار التشبع بالعامل الثاني
١ ـ إن الفقر وعدم المساواة في المجتمع هما السبب في كثير من الجرائم.	٠,٦٢
٢ ـ كثير من الجرائم مرجعها عيوب في المجتمع أكثر منها غرائز إجرامية في نفسية مرتكب الجريمة.	٠,٥٨
٣ ـ إن الناس الذين يرتكبون الجرائم، عادة ما يكونوا مدفوعين إلى ذلك بسبب الأوضاع التي يجدون أنفسهم فيها.	٠,٥٥
٤ ـ إن التوزيع العادل للثروة في المجتمع هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن نتوقعه لمنع الجريمة أو الحد منها على الأقل.	٠,٥١
٥ ـ الجريمة هي البديل الوحيد أحياناً أمام الناس ليبقوا على قيد الحياة.	٠,٤٨

٣ ـ العامل الثالث: «الأسباب الفردية»

تَشبعت بهذا العامل أيضاً خمسة بنود تراوحت تشبعاتها بين ٠,٤، ٠,٦ ويشير محتوى هذه البنود إلى أن مرتكبي الجرائم معظمهم من الأشخاص الكسالى، والذين لا يشعرون بالمسؤولية، وغير المبالين. ويوضح الجدول (٦) هذه البنود مرتبة طبقاً لتشبع كل بند بالعامل الثالث من الأعلى إلى الأدنى.

جدول (٦)

محتوى البند	مقدار التشبع بالعامل الثالث
١ ـ الكسولون جداً من الناس يتحولون إلى الجريمة.	٠,٦٠
٢ ـ إن معظم المجرمين يتعمدون إيذاء المجتمع.	٠,٤٩
٣ ـ المجرمون هم أناس لا يبالون بحقوق الآخرين أو بمسؤوليتهم نحو المجتمع.	٠,٤٤
٤ ـ المجرم لمرة واحدة هو دائماً مجرم.	٠,٤٢
٥ ـ إجمالاً، فإن أجراءات الخدمة الاجتماعية المنظمة، مثل تأمين البطالة والمساعدة الاجتماعية، جعلت الجريمة أكثر سوءاً.	٠,٤٠

مناقشة نتائج البحث

أولاً: النتائج الخاصة بأهداف الأحكام القضائية: Sentencing Goals

كشف التحليل العاملي لبنود مقياس الاتجاه نحو الجريمة عن استخلاص ثلاثة عوامل تحدد أهداف الأحكام القضائية بالعقوبات التي تصدر ضد المجرمين في الجرائم المختلفة. ونلاحظ أن هذه العوامل تشير إلى الرضا عن النظام القضائي الحالي بشأن العقاب، كما تشير إلى أن أفراد عينة الدراسة يعتقدون في العقاب للجرائم التي تُرتكب لأسباب فردية، ويؤيدون فكرة إعادة التأهيل للمجرمين الذين يرتكبون الجرائم بدوافع بيئية واجتماعية.

ثانياً: النتائج الخاصة بأسباب الجريمة: Causal Attributions

كشف التحليل العاملي لاستخبار مسح الاتجاهات نحو أسباب الجريمة عن استخراج ثلاثة عوامل تحدد أسباب الجريمة، وهي إما أسباب اجتماعية أو اقتصادية أو شخصية. وتشير نتائج هذا التحليل إلى أن الأشخاص الذين يؤمنون بالتسبيب الاجتماعي يميلون أيضاً إلى التصديق بأن الحياة صعبة وأن الناس يحصلون في النهاية على ما يستحقونه. والذين يعتقدون في التسبيب الاقتصادي

يميلون بشدة إلى الإيمان بفكرة الانعاش للخدمات الاجتماعية، ويرون أن الحكومة ينبغي عليها أن توفر مستوى محدداً للمعيشة كحد أدنى بصرف النظر عن المقدرة على الدفع. أما الذين يردون الجريمة إلى أسباب فردية أو شخصية، فإنهم يرون أن ذلك يتنافى مع مبادىء الدين والأخلاق، ومن ثم فإن ذوي الأخلاق الصارمة يؤمنون بأن الجريمة تبدأ من أفراد جشعين يستحقون العقاب.

وتتفق هذه النتائج مع نتائج بحث آخر كشف أن مقاييس أهداف الحكم بالعقوبة مترابطة: فهؤلاء الذين يؤيدون العقاب الشديد للمجرمين، يؤمنون بأن هذه الاستجابات توفر في الوقت نفسه عقاباً عادلاً، وتثني المجرمين، وتحمي المجتمع .

خلاصة هذه النتائج، أنه يجب أعادة النظر في سياسة السجون والإصلاحيات والأحكام القضائية، وذلك بالعمل على ربط أهداف العقوبة بأسباب الجريمة وظروفها وملابساتها وتعديل نظام التقاضي ذاته. مع الحرص في الوقت ذاته على حل مشكلات الشباب الانفعالية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية والجنسية والأخلاقية، إذ أن الوقاية خير من العلاج.

التوصيات

لا جدال في أن وقاية الشباب من الوقوع في المشكلات خير من العلاج وتغني عنه. إذا يجب بذل الجهود لتهيئة البيئة الصالحة التي ينمو فيها المراهق، وإتاحة الجو النفسي لنمو الشخصية السوية، وضرب المثل الصالح والقدوة الحسنة أمام الشباب، ومساعدة الشباب على فهم نفسه وتقبل ذاته وتقبل الآخرين، وتحمل المسؤولية بخصوص تنمية المفهوم الايجابي لدى الشباب، والاهتمام بالتوجيه والإرشاد النفسي والتربوي والمهني.

وفي ما يلي، نذكر بعض التوصيات لعلاج مشكلات الشباب، وبالتالي الحد من الجريمة:

١ ـ إكتشاف المشكلات العامة التي يعاني منها الشباب، ومعرفة أسبابها، والعمل على إزالة هذه الأسباب أو التخفيف من حدتها، والاستعانة بالأخصائيين النفسيين، واستشارتهم ضماناً لنجاح علاج مشكلات الشباب.

٢ ـ توجيه الشباب توجيهاً سليماً، واتباع الطرق التربوية الصحيحة في توجيهه من خلال تنظيم معسكرات العمل ومخيمات الشباب والنوادي والملاعب.

٣ ـ علاج مشكلات الأسرة، وتوجيه الآباء، وتعريفهم بضرورة مراعاة الفروق بين الشباب.

٤ ـ إعداد برامج منظمة لخدمة التوجيه والإرشاد النفسي في المدارس

والجامعات والمنظمات المختلفة لإعادة التأهيل النفسي والعقلي والاجتماعي والأمني، وإعادة النتماء المادي والمعنوي الى الوطن والمجتمع.

٥ ـ المساعدة في عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعي وتعليم المعايير السلوكية الاجتماعية السليمة والسلوك الاجتماعي السوي والمهارات الاجتماعية والقواعد الأخلاقية.

٦ ـ تهيئة الفرص للمناقشات الجماعية حول مشكلات الشباب، وشغل أوقات فراغهم بطريقة مفيدة مدروسة، واستغلال الميول والهوايات مع الحرص على إعادة الثقة الى المواطن في مؤسساته الوطنية الدستورية والقانونية والقضائية والادارية والأمنية والعسكرية والتعليمية والطبية.

٧ ـ مساعدة الشباب في التوجيه المهني والإعداد للمهنة وإدراك الفرص المتاحة بالفعل في ميدان العمل، ومدهم بأدق المعلومات المهنية، ومساعدتهم في إدارك قيمة جميع أنواع العمل وأهميتها.

٨ ـ إمداد الشباب بالحقائق عن الحياة الأسرية ومسؤولياتها، مع الاهتمام بالتربية الجنسية العلمية للشباب.

٩ ـ ترشيد البرامج في وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، وبخاصة التليفزيون وأفلام الفيديو ودور السينما، وتوجيهها توجيهاً سليماً مع التركيز على تفعيل دور المواطن في العملية الأمنية، وزرع هيبة القانون ومحبته في نفوس الجميع.

١٠ ـ توجيه عناية خاصة إلى التربية الدينية للشباب وذلك لمساعدته على الخروج من واقعه المتأزم وتشجيعه على الأنخراط في المجتمع.

١١ ـ الحرص على بث القيم الأخلاقية، وتعليم المعايير الاجتماعية للشباب وذلك بالقدوة الحسنة.

١٢ ـ مساعدة الشباب في تكوين فلسفة ناضجة للحياة والعمل على تحقيقها بمهارة، مع الحرص على نمو الضمير والضبط الذاتي للسلوك، حتى يتحقق النجاح في الحياة.

١٣ ـ رفع الكفاية الانتاجية للدولة. بتخطيط المشروعات التي تعمل على زيادة الانتاج، ورفع المستوى الاقتصادي للأسرة.

١٤ ـ الاهتمام بالبحوث العلمية للكشف عن أسباب الجريمة باستمرار حتى يمكن علاجها والوقاية منها قبل استفحالها، شريطة وضع نتائج هذه البحوث موضع التنفيذ الفعلي.

١٥ ـ محاربة العصابات من خلال المسح الشامل للأحياء التي يكثر فيها

ارتكاب الجرائم واعادة النظر في التشريعات الجزائية والمؤسسات العقابية، وتطبيق القانون بحزم بحق الجميع على حد سواء دون تفرقة ودون تمييز.

١٦ ـ تحسين الظروف الاجتماعية أي ظروف المعيشة، وتتناول برامج تدعيم الأسرة ورعاية الطفولة، وتحسين الإسكان والخدمات التربوية والصحية والضمان الاجتماعي والتأمينات العمالية وغيرها.

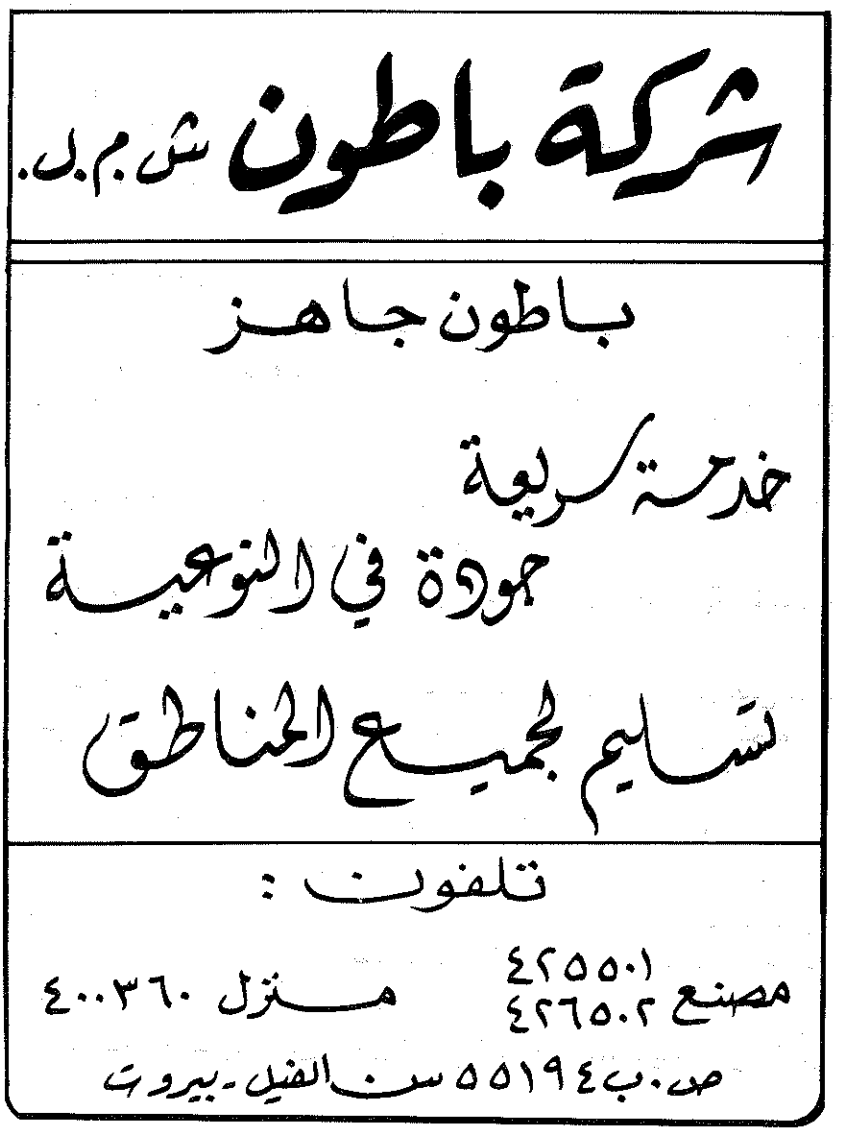

الإنسان بين العلم والحضارة

د. حسين سبيتي (*)

قد يكون من الصعب جدا تحديد العلم والحضارة بشكل دقيق ومطلق خاصة أن العلماء والفلاسفة لم يقدموا لنا شيئا نهائيا في هذا المجال ففي معظم الأحيان، يخضع التحديد لحالة العصر والعلم والمدرسة الفلسفية التي ينتمي إليها المؤرخ أو عالم الإجتماع. ومن هنا نفهم التباين والتباعد والتناقض التي نجدها بين مواقف كبار المفكرين من أمثال توينبي وماكس فيبر وماوس وشتراوس واشبنغلر وأمثالهم عندما نحاول مقارنة ما قدموه من معطيات حول تحديد الحضارة والثقافة والعلم وغير ذلك.

ومع ذلك، فإننا نميل إلى ترجيح أنه بالأمكان تقديم نوع من التحديد المبسط إلى حد ما للعلم والحضارة على ضوء ما وصل إليه تقدم علوم الطبيعة والانتروبولوجيا والأنتولوجيا وفلسفة التاريخ وسائر العلوم الاجتماعية والإنسانية:

إن العلم هو المعرفة الموضوعية للأشياء أو الحوادث أو العوامل الطبيعية والإنسانية، والمحاولة لضبط هذه المعرفة قدر الإمكان في معادلات رياضية دقيقة وعامة. ومثل هذه المحاولة تنجح في مجالات العلوم الطبيعية أكثر من العلوم الإنسانية نظرا لصعوبة فهمها وتعدد عواملها وتشابك عناصرها المكونة. فلا عجب إذا وجدنا بعد ذلك أن المعادلات الرياضية كثيرة في الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك وبعد ذلك في البيولوجيا، وتقل في علوم الاجتماع والنفس والتاريخ، فتحول إلى ترجيحات إحصائية وتقريبية.

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الانسانية ـ الفرع الأول.

فالانتقال من عالم المادة إلى عالم الإنسان يزيد الصعوبة في الدرس ويجعل موضوع حصر واستنفاد كل العوامل الفاعلة في الحياة نفسها أمرا مستحيلا. وهذا ما يضعف المعرفة الموضوعية ويمنع تحقيق المعرفة الرياضية وحصر الحادثة الإنسانية في المعادلة المجردة والعامة.

وقد عالج هذه المشكلة كبار المفكرين في القديم والحديث.

أما إذا عدنا إلى الحضارة وتحديدها، فنرى أن حضارة شعب من الشعوب هي إنتاج هذا الشعب على جميع المستويات وفي جميع الميادين المادية والروحية والثقافية[١]. وعلى سبيل المثال، نقول إن حضارة الإغريق تشمل الفن والدين والأساطير والفلسفة والعلم ونظام المدن والمؤسسات العسكرية والمدنية والآداب بما فيها الملاحم والمسرحيات والشعر الغنائي... كما أنها تشمل أنواع البناء والمعابد والهياكل والتماثيل الخ... وحضارة الرومان تحتوي أشياء مشابهة وزيادة عن ذلك القوانين ومؤسسات القضاء. وهكذا فلكل شعب من الشعوب حضارة خاصة به.

فالحضارة إذن ليست الجانب النظري أو الجانب الثقافي أو الجانب السياسي أو الجانب العسكري... بل تشمل كل ما أنتج الشعب وعلى جميع المستويات دون استثناء. فحملة الإسكندر الكبير على الشرق وما نتج عنها من أمور عسكرية وسياسية وثقافية هي جانب مهم من الحضارة اليونانية، كما أن محاورات أفلاطون ومؤلفات أرسطو وملاحم هوميروس تمثل الجانب الآخر. ومسرحيات أشيليوس وسفوكليس وأوربيدس وأرستوفان والشعر الغنائي في آثار بندار تشكل بعدا من أبعاد الفكر اليوناني. كذلك فإن المعابد والهياكل والألعاب الأولمبية والصراع بين المدن، تشكل أبعاداً متنوعة من هذه الحضارة اليونانية نفسها.

هذا التحديد المبسط للحضارة لا يمنعنا أبداً من إدراك الفروق الحضارية التي نشأت تاريخيا بين شعب وشعب أو بين بيئة وبيئة وعلى مر العصور. فللحضارة اليونانية خصائصها، وكذلك بالنسبة للحضارة الرومانية والحضارة العربية والحضارة الأوروبية والحضارة الأميركية. فلكل واحدة من هذه الحضارات صفات ومزايا خاصة بها، أكسبتها خصوصيتها وفرديتها خلال التاريخ، وإن كانت قد شاركت باقي الحضارات ببعض الأمور أو مظاهر الإنتاج العلمي والأدبي فالشخصية الحضارية والفردية الحضارية واللون الحضاري، أمور يجب التسليم بها بالرغم من اهتمامنا بالإنسانية ومحبتنا لجميع البشر ومحاولتنا تعميم الثقافة والفائدة على جميع الشعوب وفي شتى بقاع الأرض.

---

(١) شيخ الأرض تيسير: «**إرادة الحضارة**» ص٣٩.

أولاً: الإنسان والآلة

في المرحلة الأولى من حياته، واجه الإنسان الطبيعة الخارجية بقوته الجسدية وأعضائه شأن معظم الحيوانات، فاستعمل يديه لتأمين قوته ورجليه للركض والمطاردة والهرب، كما استعمل أظافره وأسنانه، فكانت أعضاؤه هي أسلحته الأولى مشاركا بذلك الحيوانات التي عاشت معه في البيئة نفسها. فلقد استعمل النسر جناحيه ومنقاره ومخالبه، واستعمل النمر أنيابه وأظافره، واستعمل الأرنب ساقيْه للركض وأفادت الزرافة من طول عنقها لتناول أوراق الأغصان العالية كما استغل الفيل خرطومه في الشرب والشد والتقاط الأشياء.

أما في المرحلة الثانية، فقد بدأ يظهر تفوق الإنسان على الحيوان والطير وجميع أنواع الزحافات والحشرات لأن هذا الإنسان لم يكتف باستعمال أعضائه كآلات لتحقيق التكيف مع المحيط الخارجي في عمليات تأمين الغذاء والحماية والسيطرة، بل بدأ بمرحلة الاختراع أو الابتكار فكانت بداية عهود التقنية التي تطورت كثيرا في ما بعد حتى وصلت إلى الحالة التي نعرفها في العصر الحاضر. وقد بدأ الإنسان بتحقيق بعض الاختراعات الهامة بدءا من معطيات الطبيعة:

أ ـ قطع الإنسان القديم غصنا ونزع عنه الأوراق وحوله إلى عصا يصطاد بها الحيوانات ويدافع بها عن نفسه.

ب ـ أخذ بعض الحجارة وشحذها بحجارة أخرى وحولها إلى أسلحة.

ج ـ حول بعض الأغصان والألياف إلى حبال يتسلق عليها ويربط بها وأحيانا استعملها كجسور معلقة.

د ـ جعل من بعض المغاور الطبيعية بيوتا فسد جانبا من فتحتها وترك ممرا له فيها.

هـ ـ حول بعض جذوع الأشجار أو بعض الحجارة درجا أو سلالم يرتقيها كما استعمل جلود الحيوانات التي اصطادها كثياب واقية لجسمه.

و ـ تعلم إستعمال النار التي أخذها من سقوط صاعقة في غابة أو من قدح حجارة صوانية.

وبعد هذا التطور الطويل، انتقل إلى استعمال البرونز والأسلحة المعدنية فتطور بسرعة من النواحي التقنية.

وهكذا نرى أن الآلة كانت في أساس تطوير حياة الإنسان وسيطرته على الطبيعة الخارجية والقوى المحيطة به.

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن العلم قد بدأ في هذه المرحلة على المستوى العملي والتقني لا النظري والرياضي والتجريدي. نقصد بذلك أن المعرفة أو

الحقيقة كانت تعنـي النجاح في العمل واجتياز الصعوبة وتأمين الحياة والقوت والحماية، وهي لم تتحول إلى تصورات نظرية إلا في ما بعد، وبعد تطور طويل جدا. فأصول العلم وجذور المعرفة هي كلها واقعية ومنفعية ومرتبطة بحاجات الإنسان المباشرة في البيئة التي يعيش فيها والإمكانات الموجودة في المحيط الخارجي والتي تنبه العقل البشري إلى العمل والاختراع وتقدم له إمكانية الإبداع والتخطي لأن العقل البشري لا يعمل في الفراغ ولا ينتج بدون معطيات ولا يخترع بدون وسائل.

وبعد عهود طويلة من التطور، بدأت المعرفة النظرية تستقل أو تبرز في المقابل المعرفة العملية أو التقنية. ومثل هذه الحالة استلزمت تقدما حضاريا عظيما، وقد شاهدنا شبيها لها في الحضارة اليونانية حيث ميز أرسطو بين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية وأكد أن الأعمال اليدوية لا تليق بالسيد بل هي خاصة بالعبد.

أما في العصور الحديثة فإن تقدم العلوم على أنواعها وتقدم التقنيات قد سمح بدراستها بأشكالها المتطورة وفي جوانبها النظرية والرياضية والتقنية والتطبيقية. ولقد أسهمت الصناعة إلى حد عظيم في تطوير التقنية كما أسهم تقدم العلوم في توسيع أفق الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها. كذلك أعطى الحاسوب المتطور اليوم إمكانيات جديدة لتوحيد بعض مظاهر هذه العلوم وتقريب أبعادها الرياضية بواسطة الرموز. ولقد استطاعت الآلات الالكترونية خلق ثورة جديدة في العلوم والتقنية والحياة العملية والاجتماعية نفسها.

ثانيا: الوراثة الحضارية والتقنية

تكشف لنا دراسة التاريخ عن وجود مجموعة كبيرة من الحضارات القديمة والحديثة. وبعض هذه الحضارات قد غاب في مجاهل الماضي وأغوار النسيان بحيث لم يعرف العلماء حتى الآن تاريخ ظهورها بشكل دقيق وعمرها وبدء نشوئها وموعد زوالها. ولا يزال معظم المؤرخين والباحثين يصنفون حضارات الصين وسومر والهند والفراعنة من جملة الحضارات القديمة وإن كانت الإكتشافات الحديثة قد أثبتت وجود حضارات أسبق منها من الناحية الزمانية في بقاع عديدة من آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية. أما حضارات اليونان والرومان والعرب والفرس فهي نسبيا أحدث من التي ذكرناها، والمعلومات التي وصلتنا عنها أوسع وأكثر وأدق نتيجة الآثار والكتابة والانتاج الفكري والأدبي والفني. وتبقى حضارات ألمانيا وفرنسا والنمسا وإنكلترا وأميركا الشمالية وغيرها من الحضارات الحديثة والمعاصرة، مدينة الحضارة العربية (٢) التي بلغت ذروتها خلال القرون

(٢) حتّي فيليب: «تاريخ العرب المطوّل» ص٣٧٤ و٣٧٨.

الوسطى. وقد فعلت الحضارة اليونانية في الثقافة العربية كثيرا قبل أن يشمل أثرها أوروبا في العصر الوسيط والعصر الحاضر.

ولا نهدف الآن إلى مقارنة بين بعض الحضارات القديمة أو الحديثة أو بين الأشكال القديمة والأشكال الجديدة للحضارات، بل نريد التوقف عند نقطة هامة وضرورية لبحثنا هذا، وهي الوراثة التقنية:

أ ـ الوراثة التقنية لا تعني بالضرورة الوراثة الحضارية بوجه عام، فهي لا تشمل الفلسفة والأدب والفن والدين وغير ذلك من مظاهر الثقافة، بل تنحصر بالجانب العملي أو التطبيقي للعلم.

ب ـ قد يرث شعب عن شعب آخر الكثير من العلوم الوضعية والتقنيات بدون أن يرث روحه ونبوغه في الفلسفة والأدب والفن والشعر إلخ... فقد أفادت معظم الشعوب من الفكر اليوناني والعلم اليوناني والثقافة اليونانية، بدون أن يكون عندها فلاسفة بمستوى أفلاطون وعلماء بمستوى أرسطو وفنانون بمستوى فيدياس وشعراء بمستوى هوميروس.

ج ـ وهذا ما يدفعنا إلى القول. إن العلوم والتقنيات هي دائما في حالة تقدم، بينما تمر الآداب والفنون والفلسفات بحالة تقدم وتأخر وأحيانا تنعدم تماما. وعلى سبيل المثال، نرى أن الآلات والإختراعات قد تطورت كثيرا بالنسبة للعهود القديمة، ولكننا لا نجد اليوم وفي عصرنا الحاضر شعراء بمستوى هوميروس أو المتنبي أو فلاسفة بمستوى هيغل أو مصورين بمستوى رفاييل أو مسرحيين بمستوى شكسبير، هذا مع قناعتنا التامة بأن الطائرة أسرع من السيارة والسيارة أسرع من العربة وأن الكهرباء أفضل من مصابيح الزيت والبترول والشموع وأن وسائل البناء الهندسية أفضل وأكثر تطوراً من وسائل القدماء في مجال بيوت السكن والجسور وشق الطرقات الخ...

د ـ إن تقنية العصر الحاضر بما فيها من تطور وتقدم وتحسين وتسهيل لحياة الإنسان وفرض سيطرته على الطبيعة وإنجاح عمليات التكيف مع المحيط الطبيعي كل هذه التقنية الحديثة والمعاصرة والتي وصلت إلى الكمبيوتر والليزر وسائر الآلات الألكترونية قد بدأت قديما بالدولاب والحبل والسلم والقوس، ثم تابعت من خلال أعمال عبقريات البشرية في هذا المضمار من أمثال أخميدس وليوناردو دا فينشي وأديسون وغيرهم. التقنية هي سلسلة متصلة بعضها ببعض ولا يجوز فصل حلقاتها أو عزل أجزائها. فالطائرة أو السيارة أو الجسور المعلقة أو أجهزة التلفزة، لم تنشأ دفعة واحدة وبشكل طفرة ومن لا شيء، بل هي ثمرة جهود طويلة وأعمال واكتشافات واختراعات عديدة ومتكاملة بدأت قديما وتطورت حتى وصلت إلينا على الحالة التي نعرفها.

هـ ـ ومثل هذا الموقف لا ينطبق بشكل حتمي ومطلق على الفلسفة والأدب والفن، وإن كان الفلاسفة والشعراء والفنانون يأخذ بعضهم من بعض ويتأثر بعضهم ببعض. فالمسرحيات التي أعطاها القرن العشرون ليست ذات قيمة تذكر بالنسبة إلى مسرحيات. شكسبير، والرسم الرمزي والتجريدي الذي أبدعه مصور هذه الحقبة الأخيرة لا يعادل ما أعطاه رفاييل.

ثالثا: العلم والبيئة الحضارية

يتحدث الناس عن بيئة حضارية وعن بيئة غير حضارية. ولعل المقصود بذلك البيئة التي تسمح للفرد بإظهار مواهبه وتنمية ذكائه وبالتالي هي التي تجعله يثمر فيها فيفيد من طاقاته ومواهبه. وهنا لا بد من ذكر عوامل عديدة، كالعوامل الإقتصادية والثقافية والإجتماعية وأوضاع البيئة بوجه عام. فنمو الذكاء وتفتّح الشخصية الفردية وإبراز المواهب الخ... كلها مرتبطة بإمكانيات الفرد الطبيعية. والبيئة (أو المحيط الطبيعي) قد تساعد أو تعيق أو تقضي أحيانا على الميول والإمكانات الفردية. فالتفاعل الطبيعي والمتكامل بين الفرد والمحيط[٣] الطبيعي، أي بين الإنسان والمجتمع أو بين الكائن الحي والبيئة، كان ولا يزال الشرط الأساسي والأولي للحياة والاستمرار والإبداع والتطور والتقدم.

وإذا لاحظنا في بعض البلدان الأوروبية اهتماما زائدا في بعض الأحيان بالرياضيات والعلوم الطبيعية وتدفق التلاميذ إلى مثل هذه الفروع والاختصاصات، فذلك لا يعني أن التلميذ الأوروبي عالم بطبيعته والتلميذ الشرقي شاعر أو أديب. فالسبب الرئيس يعود إلى كون الدول الأوروبية هي دول صناعية وتحتاج لتنمية وتطوير صناعاتها إلى عدد كبير من المتخصصين في الرياضيات والعلوم وسائر فروع التقنيات الحديثة. ومثل هذه الحالة لا نجدها في معظم بلدان العالم الثالث، أي عالم الشعوب التي هي في طور النمو. الفروقات إذا هي في البيئة وفي مستوى التطور الإقتصادي والصناعي لا في مستوى الذكاء أو تركيب الشخصية ونوعية الميول.

ومشكلة من هذا النوع تجعلنا نفتح باب النقاش على مصراعيه في مجال الأجناس البشرية والسلالات والعرق وغير ذلك. وكلنا يعرف أن هناك بعض النظريات التي تزعم أن ثمة فروقا أساسية وطبقية موجودة بين الأجناس البشرية وبين العروق وبين الألوان. وبعض رجال هذه النظريات ربط العرق أو السلالة أو اللون بالتفوق الحضاري، فكانت مشكلة الرق المعروفة منذ القدم والتي اعتمدها بعض كبار المفكرين من أمثال أرسطو الذي قال إنه هناك أعمالا يدوية في مجالات

---

(٣) A. TOYNBEE: «A Study of History» (Abrigement) p78.

المهن تليق بالعبد ولا تليق بالسيد أن يزاولها. ولقد رأى أرسطو في العبد آلة حية، ونسب أمر العبودية إلى الطبيعة[٤] لا إلى الوضع الاجتماعي والسياسي. كذلك جاءت بعض التيارات السياسية الحديثة وتبنت نظرية العرق أو السلالة، كما دافعت نظرية الطبقية بين الشعوب والفروقات في الذكاء والمستوى الحضاري كما فعلت النازية. ومن حسن الحظ أن الدراسات العلمية الحديثة قد تخطت مثل هذا الموقف واكتشفت أن اللون ينتج عن تكيف الجسم مع البيئة: فاللون الأسود ينتج من العيش في البلاد الحارة واللون الأبيض أو الأشقر هو نتيجة الحياة في البقاع الباردة والأطفال مهما كان لونهم وأصلهم وعرفهم ومحيطهم فإنهم يستطيعون التعلم والعطاء والتفوق في جميع مجالات الثقافة، وكل واحد حسب ميوله الطبيعية وبنسب متقاربة لجميع الألوان أو السلالات أو البيئات، شرط تأمين المناخ الصالح للجميع من النواحي النفسية والعاطفية والاجتماعية والثقافية وشرط إخضاعهم لوسائل تربوية ناجحة وملائمة لشخصياتهم وميولهم واستعداداتهم الطبيعية. ونستطيع التأكيد في عصرنا هذا أن العلوم الاجتماعية والبيولوجية على أنواعها قد تخطت نهائيا نظرية التفاوت العرقي والطبقي ونظريات السلالات والألوان. وهذا ما أكدته الاكتشافات الحديثة عن بقايا حضارات هامة في الأزمنة الغابرة كانت قد ظهرت وازدهرت في بيئات حارة جدا كإفريقيا وجنوب آسيا وبعض مناطق من الهند وأميركا الجنوبية. ومثل هذه الاكتشافات الهامة في ميادين التاريخ والحضارة ترد بشكل قاطع على جميع المفكرين كأرسطو وابن خلدون وأمثالهم[٥] الذين زعموا أن الحضارة والثقافة وسائر مظاهر الفكر والاجتماع لا تظهر بشكل مزدهر إلا في البلاد ذات المناخ المعتدل وقد حصروها بحوض البحر المتوسط. إن مفكري اليونان والرومان والقرون الوسطى وعصر النهضة لم يعرفوا سوى الثقافة اليونانية بوجه خاص وثقافة شعوب البحر المتوسط بشكل عام. أما اليوم فيعرف علماء التاريخ والأتنولوجيا أن الهند هي في معظمها بلاد حارة ولقد ظهرت فيها حضارة من أغنى وأعرق الحضارات، وأن جنوب مصر[٦] وشمال السودان هي من المناطق الحارة ومع ذلك فالحضارة المصرية القديمة هي من أعظم الحضارات وقد سبقت الحضارة اليونانية إذ أتى الفلاسفة والعلماء اليونان ودرسوا في مصر وأخذوا عن كهنتها. وفي العراق، لا تزال الاكتشافات تبهر العلماء إذ كانت سومر مهْد إحدى أقدم الحضارات في العالم وهي موجودة في إحدى أحر بقاع الأرض على الإطلاق.

---

(٤) Aristote: «**La Politique**» P17.

(٥) ابن خلدون: «**المقدّمة**» ص ٧٥.

(٦) المصدر السّابق، ص٧٨.

ومثل هذه الملاحظات تدفعنا إلى الحذر من التصنيف السريع للحضارات في مجالات التقييم وعدم اعتبار الحضارات الحديثة على أنها الأكمل والأرقى بل على اعتبارها كغيرها من الحضارات حلقات عديدة في سلسلة التطور البشري وتقدم الإنسانية.

رابعا: العلم وسيطرة الإنسان على الطبيعة

في المراحل الأولى من الحياة والتطور، سيطر الخوف على الإنسان نتيجة القوى الغريبة والأخطار المحدقة به، فالأنهار والبحار والصواعق والرياح العاتية والسيول الجارفة إلى جانب الحيوانات المفترسة والظلمة الخ... كانت مصادر عديدة للقلق والخوف والاضطراب التي سيطرت على عقله وقلبه. وكان همه الأول تأمين حاجاته الضرورية كالغذاء والماء والمأوى والثياب التي اتخذها من جلود الحيوانات وريش الطيور ولذلك ابتكر بعض الأسلحة البسيطة كالفأس والقوس والسهم وبعض الوسائل الحجرية لتحقيق مثل هذه الغاية.

ونستطيع أن نسمي هذه الحقبة مرحلة التكيف مع البيئة والمحافظة على النوع والاستمرار ضمن معطيات وشروط البيئة القاسية. ولكن السيطرة كانت للطبيعة الخارجية بأبعادها وعواملها العديدة وأسرارها وقواها التي تتحدى الإنسان باستمرار وتؤكد على ضعفه وعجزه أمامها. وإذا كان تعدد الآلهة والأرواح هو من الوسائل الهامة لفهم الطبيعة والحياة والبيئة والكون، فإن ابتكار السحر والشعوذة والتنجيم وما نتج عنها من ممارسات واعتقادات، كانت بوجه عام الرد القاسي أو المحاولة الأولى لسيطرة الإنسان على قوى الطبيعة والكشف عن ألغازها، قبل نشوء العلم والمعرفة الموضوعية التي عرفها العالم المتمدن بدءا من علماء اليونان ومفكريهم. ولقد اعتقد البشر في العصور الغابرة أن السحر يسمح لهم بشفاء المريض وإيقاف فيضان النهر ومنع الوحوش الضارية من الاقتراب من الكهف وانتصار القبيلة في حربها مع قبيلة معادية، كما أنه يستطيع أن يسهل عمليات الولادة وإرجاع أرواح الموتى ومشاركتهم في الأعياد والطقوس والعبادة الخ...

غير أن الإيمان المطلق بالسحر وقدرته لا يعني من الناحية العملية انتصار الإنسان على المحيط الطبيعي بالشكل الواقعي والعملي، وهو يبقى في حدود الإيمان والاعتقاد والدين لا أكثر. ولذلك، وحتى في هذه المرحلة فإن الطبيعة هي المسيطرة على الإنسان وهي التي تفرض سلطتها عليه وتملي شروطها القاسية على وجوده وسلوكه ومشاعره وأفكاره.

أما المرحلة الجديدة والهامة فبدأت عندما بدأ الإنسان بابتكار التقنية أي بالاختراع لأن الإختراعات العديدة والتي بدأت على مستوى الأدوات العملية والضرورية للحياة والتكيف والاستمرار قد شكلت الحد الفاصل بين موقف

الضعف وموقف القوة عند الإنسان بالنسبة إلى الطبيعة والبيئة.

ويعني ابتكار التقنية واستعمالها وتطويرها أن العقل يرد بشكل عملي ومادي وواقعي على مشكلات الطبيعة، ويحاول إيجاد حلول علمية لما يعترض سيره في الحياة دون الاكتفاء بالاعتقاد والإيمان والسحر والبحث عن العالم غير المنظور.

ـ فابتكار الجسر أو العبّارة يسمح باجتياز النهر، وهذا شيء لا يفعله الدعاء أو السحر أو مناجاة القوى الخفية.

ـ واختراع القوس والسهم يعطي إمكانية القنص والصيد التي لا يؤمنها الركض أو طول الذراع أو قوة الإنسان الخ...

والأمثلة في هذا المجال كثيرة، لذلك نقول إن بدء السيطرة على الطبيعة يترافق مع نشوء التقنية في تاريخ الإنسان. ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على حالة التقنية في العصور الحديثة وخاصة في القرن العشرين لنتأكد من صحة هذه الفكرة فلقد ساعدت الطائرات على اختصار المسافات، كما ساعدت الصحف وأجهزة الإعلام والتلفزة على الانفتاح بين الشعوب، كما عملت تقنية العلوم الطبيعية على تحسين حالات وسائل النقل كالسيارات والقطارات وأبنية السكن والأدوية والشوارع والمكتبات وتجهيز المدارس وحدائق الأطفال الخ... هذا إلى جانب الكمبيوتر والليزر وغيرها.

فإذا زعم إنسان القرن العشرين أنه في حالة سيطرة كبيرة أو شبه تامة على الطبيعة والبيئة، فذلك يعود إلى التقدم الهائل الذي حققته التقنية في العصور الحاضرة بعد التحضير الطويل خلال التطور الذي حصل في العهود الغابرة وخلال الحضارات القديمة. لقد فرض الإنسان نفسه على الطبيعة والبيئة بعد أن كان ضعيفا أمامها، بفضل الابتكارات العديدة التي شكلت مجموعة تقنياته المختلفة والتي يستعملها على مستوى فكره وحياته وفي جميع ميادين حياته الفردية والاجتماعية.

خامسا: الحضارة ومصادر الطاقة

لا تقنية بدون طاقة. فالآلات على أنواعها، ومهما كانت درجة بساطتها أو تعقيدها، تحتاج إلى قوة تحركها وهذه القوة نسميها عادة الطاقة. فقد يستعمل الإنسان عضلاته لتحريك دراجة أو حمل وزن وعند ذلك يكون جسده وتكون عضلاته هي مصدر الطاقة.

وإذا كان تقدم العلم وتقدم التقنية متلازمين، فعلينا ألا ننسى أبدا مشكلة المصادر الرئيسة لتأمين الطاقة في القديم والحديث:

أ ـ إن أول مصدر للطاقة عند الإنسان القديم كان جسده وعضلاته. فكان

يحمل ما يصطاد بيديه، ويتسلّق بواسطة يديه ورجليه معا، ويركض ويقفز ويقاتل ويصطاد ويحارب معتمدا على قوته الجسدية بالدرجة الأولى. وحتى عندما استعمل العصا والقوس والأسلحة الحجرية والسلالم، فإنه كان يحركها بيديه ويعتمد في نجاح عمله فيها على قوة عضلاته.

ب ـ في المرحلة الثانية، بدأ الإنسان يستفيد من قوى الطبيعة الخارجية كمصدر للطاقة أي اكتشف في البيئة أو الميحط الطبيعي إمكانات تحريك بعض الأجسام والآلات بالإفادة منها في حياته اليومية وفي أسفاره. وهنا نذكر أنه استعمل الرياح[٧] لتحريك شراع السفن، والمياه التي يضربها بالمجاذيف ليدفع بالزورق إلى الأمام، والشلالات لإدارة بعض الدواليب من أجل طحن الحبوب أو نقل المياه إلى مستوى أعلى من الارض من أجل الري وتحسين شؤون الزراعة. وكان قد استعمل الخيول والحمير والجمال والبغال كوسائل للركوب وحمل الأثقال ونقل الأمتعة وإدارة الطواحين والنواعير الخ... وهكذا استعمل الإنسان قوى عديدة في المحيط الطبيعي كانت موجودة في الأساس قبله ولكنه استطاع السيطرة عليها وتسخيرها لمصلحته.

ج ـ ولا بد من التشديد على الفحم الحجري كمصدر حيوي وأساسي للطاقة. فقد لعب خلال المئات من السنين الدور الأول في تأمين حاجات الإنسان في المنازل وفي الآلات البخارية والسكك الحديدية وغيرها. وبدأ يفقد دوره تدريجيا بعد اكتشاف الكهرباء واختراع المولدات للطاقة الكهربائية.

وكان البحث عن مناجم الفحم الحجري والعمل فيها واستخراج ما فيها وبيع وتوزيع انتاجها، قد لعب دورا هاما في التجارة والصناعة والاقتصاد القومي والعالمي وعلاقة الدول بعضها ببعض. وكانت حياة عمال المناجم وما يتعرضون له من أخطار ورداءة المستوى والمعاملة وانخفاض الأجور، من أهم الأسباب التي ساعدت على ظهور الفلسفات والأحزاب الشيوعية والاشتراكية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

لقد أخذ الفحم الحجري مكان الحطب في الموقد المنزلي وفي مواقد القطارات والبواخر والشاحنات. فالبخار الساخن الذي كان يدير المحركات والتوربينات كان ينتج في غالب الأحيان عن تسخين المياه بالنار الحامية جدا والمتولد من احتراق الفحم الحجري الذي يعطي باشتعاله حرارة وطاقة يعجز الخشب أو الحطب عن الوصول إلى مستواها.

والفحم الحجري هو في الأساس، وكما يقول العلماء، عبارة عن بقايا أشجار قد

---

(٧) كارتسيف فلاديمير: **آلاف السنين من الطاقة**»، ص٢٧.

غارت في باطن الأرض وتحجرت وانضغطت ولا تزال قطع كثيرة منه تحمل أشكال أوراق الأشجار والأغصان المدفونة في أعماق الأرض. وزيادة عن ذلك، فإن مناجم الفحم الحجري هي منابع غاز الإنارة والذي يستعمله الناس في البيوت للإنارة والطبخ أو لإضاءة الشوارع في المدن والذي يعبر من مشتقات كربير الهيدروجين. ولقد قام أصحاب المناجم بمد شبكات وأنابيب شبيهة بأنابيب المياه يصل بواسطتها الغاز من المنجم إلى المنازل والشوارع بغية الاستعمال ولقاء أثمان متفق عليها تحددها شركات المناجم والغاز في غالب الأحيان.

د ـ إن استعمال البخار كقوة فاعلة في التقنية تحول إلى ثورة بعد اختراع الآلة البخارية أو المحرك البخاري[٨] والذي وجد عدة تطبيقات له ومجالا في البواخر والقطارات والصناعة وغيرها:

وكان العلامة نيوتن قد قام بعدة تجارب على البخار وتصور آلة لها إمكانية السير بالبخار، وهذا سبق هائل وتنبؤ بالنسبة لعصره وإمكانيات بيئته. غير أن خيال نيوتن لم يجد تحقيقا عمليا له إلا في أواسط القرن التاسع عشر عندما ابتكر جون ستيفنس القاطرة التي تسير بقوة البخار على خطين من السكك الحديد، فشكلت فتحا جديدا في عالم الاختراع والتقنية فكان القطار الذي يسير بالبخار ثم تطور فأصبح القطار الذي يسير بمحرك الديزل ثم القطار الذي نعرفه اليوم ويسير بقوة الكهرباء.

المحرك البخاري أحدث ثورة في عالم الحياة والصناعة والأسفار، فأصبحت البواخر تسير بقوة البخار الذي ينتجه تبخر الماء بتأثير احتراق الفحم الحجري. وبذلك وضع المحرك البخاري حدا للشراع والمجذاف وسائر الوسائل القديمة. والمحرك البخاري مرتبط بالفحم الحجري لأن توليد البخار في القاطرة أو الباخرة أو المصنع يحتاج إلى حرارة عالية جدا لا يستطيع الحطب تأمينها. كذلك أدخل جيمس واط ثورة في عالم الصناعة والتقنية عندما طور صناعة المحرك وجعله يدخل المصانع بشكل منتظم. وقد نتج عن ذلك زيادة في سرعة الانتاج بالإضافة إلى المشكلات العديدة في الطبقات العمالية من زاوية البطالة والأجور وغيرها.

وهكذا فإن ارتباط المحرك البخاري بالفحم الحجري وعلاقة المحرك بالصناعة وما نتج عن ذلك من أمور اقتصادية واجتماعية، قد ترك صداه في الفلسفة الخاصة بالنصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي جميع النواحي النظرية والنقابية والسياسية.

هـ ـ ثم جاء عصر الكهرباء فكانت مجموعة الاختراعات الكهربائية، كالمصباح

---

(٨) المرجع السَّابق ص١٠١.

والراديو وما نتج عن ذلك من آلات عديدة.

لقد أصبحت الكهرباء مصدرا هاما وأساسيا للطاقة في الحياة العملية والاجتماعية. ويتم توليد الكهرباء اليوم بواسطة توربينات مائية أو بخارية أو محركات ديزل أو مفاعلات نووية الخ...

ولا نبالغ إذا قلنا إن الكهرباء تسيطر على حياتنا تماما في العصر الحاضر، وأصبحت مرادفة للتطور والتمدن. ومن علمائها ومخترعيها الكبار نذكر فارادي وأديسون وأمبير وغرام الخ...

وتميل بعض مصانع السيارات الحديثة في الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية إلى انتاج سيارات تسير على كهرباء بعض البطاريات التي يمكن شحنها بسهولة وذلك خوفا من التلوث الذي يسببه احتراق الوقود.

و ـ إن إستعمال الكهرباء كمصدر هام للطاقة قد تم بالتوازي مع استعمال البترول ومشتقاته في المحركات. فهناك محركات تعمل على الفيول أو على المازوت أو على البنزين، كما أن بعض محركات الطائرات تعمل على نوع من الكاز أو البنزين.

وإذا كان التزاحم على البترول وحروب البترول وسياسة البترول وعلوم البترول تتطور بسرعة، فذلك للدور الهام الذي تلعبه هذه المادة في الحياة الخاصة والعامة كمصدر للطاقة. فهي، عدا عن كونها ضرورية للطائرات والسيارات والشاحنات، ضرورية لتأمين الدفء والنار في البيوت والمطابخ. وهي مادة أساسية في الصناعة التي تستفيد كثيرا من مشتقات البترول الكيميائية في الكثير من منتوجاتها.

وحسب الخبراء في هذا المجال، فإن كمية عظيمة من احتياط البترول في العالم موجودة في السعودية ومناطق الخليج(٩).

ز ـ هذه الأسباب العديدة تجعلنا نفهم موقف بعض الدول الأميركية والأوروبية من البلاد العربية التي تحتوي على منابع البترول والتي تشكل بذلك أعظم مناجم للطاقة في ميادين الحياة والصناعة. كما أن هذه الأسباب تجعلنا نربط بين نوعية الاختراعات ونوع الطاقة المعروفة في البيئة والعصر. فأرخميدس وليوناردو دا فينشي لم يعرفا البخار والكهرباء والبترول كمصادر للطاقة، بل عرفا الرياح والماء وقوة الخيول وسائر القوى الطبيعية الموجودة في محيطهم، فجاءت اختراعاتهما على أهميتها محدودة بالبيئة ونوع الطاقة المستعملة في عهدهما بالرغم من العبقرية الهائلة التي تمتعا بها في شتى العلوم الوصفية والرياضية.

---

(٩) بدران شارل جورج: «**أطلس العالم**»، ص٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧١.

فتقدم العلم والتقنية والحضارة مرتبط إلى حد عظيم بتطور الطاقة التي يستعملها العلماء لتحريك آلاتهم وجعل إبداعهم شيئا عمليا ومقبولا واقتصاديا وفي متناول الناس. وهذا ينطبق على الاختراعات التي يستعملها الأطباء في الجراحة كالليزر وعلى الاختراعات التي دخلت الحياة العملية واليومية لعامة الشعوب كالسيارة والطائرة والقطار والتلفزيون الـخ...

ولعل الجيل القادم سيستعمل بشكل واضح الطاقة الذرية كمصدر الكهرباء والتي لا يزال استعمالها اليوم مكلفاً للغاية. والعلماء في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية يعملون لإيجاد طريقة لإخراج الطاقة من الذرة بدون إحداث الأخطار وبأثمان بسيطة بحيث يصبح ثمن الكهرباء الناتجة عنها شيئا زهيدا للغاية. ولعل أبناء القرن الواحد والعشرين سينعمون بالمصدر الجديد للطاقة، أي المصدر الذري الذي سيعم الحياة ويأخذ مكان توربينات المياه والبخار ومحركات الديزل وأمثالها التي تؤمن لنا الطاقة في يومنا هذا.

سادسا: التقنية والعلوم الرياضية والطبيعية

إن كل إختراع على المستوى التقنـي، يفترض تحويل بعض المعلومات أو الخبرات إلى وسائل حسية وآلات فاعلة على صعيد الواقع. فاختراع القوس والسهم في قديم الزمان يفترض معرفة الإنسان القديم لبعض الخصائص كمرونة أغصان بعض الأشجار والعلاقة بين إيجاد قوة عن طريق إحناء القوس واستعماله في إطلاق السهم بهدف الصيد أو الدفاع عن النفس. ولذلك نقول إن المعرفة تتحول إلى آلة بواسطة العقل البشري. وهذا هو معنى الاختراع وهذا هو بالتالي التحديد المبسط للتقنية. ولكننا نلاحظ مع تطور العلم وتقدم الحضارة، أن علوم الرياضيات دخلت تدريجيا في جميع ميادين المعرفة تقريبا وخاصة المعرفة الخاصة بالعالم الطبيعي. فالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم الفلك تقوم كلها على أسس رياضية دقيقة للغاية. وحتى الصناعة في عصرنا هذا تقوم على معرفة واسعة لعلوم الفيزياء والكيمياء وخاصة علوم الرياضيات. فلا توجد صناعة طائرات وسيارات وتلفزيونات وراديوات ومصابيـح كهربائية بدون هذه العلوم كلها. إن الاكتشافات والابتكارات التي بدأت بأرخميدس والبيرونـي ونيوتن وغاليليه قد تابع تطورها في أعمال واط وفارادي وأديسون وأينشتاين الـخ... وبالتالي فالتقنية الحديثة بكل ما فيها من غنـى وتنوع وشمول وتعقيد، والأهمية التي اكتسبتها في الحياة والسلم والحرب وعلى جميع مستويات الفكر والواقع هي مدينة بالدرجة الأولى إلى تقدم العلوم واستعمال المعادلات الرياضية الكثيرة والتي تكاد لا تعد ولا تحصى بالرغم من محاولات العلماء توحيدها في مبادىء عامة شبيهة بالمثل الأفلاطونية. فبناء الطائرات المدنية والعسكرية المتطورة في هذا العصر، واختراع آلات الليزر، وصنع

الكومبيوتر الكبير والمتعدد الوظائف الـخ... كل هذه الأشياء تفترض الاختصاصات العالية جدا والعميقة جدا والصعبة جدا والتي تتخطى مستوى الهواة وأصحاب الثقافة العادية والمتوسطة. فالفيزياء الحديثة، كتفجير الذرة وبناء المحطات الذرية والقنابل الهيدروجينية تتخطى الإمكانية الفردية للناس العاديين من نواح عديدة:

أ ـ من ناحية المعرفة المتخصصة جدا والصعبة والتي لا تبقى على حدود الهواية. وإذا كان إنسان القرن السابع عشر أو الثامن عشر يستطيع ساعة يشاء القيام بالتجارب التي قام بها كل من ديكارت وباسكال وغاليليه للتحقق من صحة آرائهم ودقة معادلاتهم، فإن إنسان هذا القرن العشرين لا يستطيع ولن يستطيع القيام في بيته بتجربة تفكيك الذرة وبناء المفاعل النووي لأن المعرفة العلمية تنقصه وكذلك الآلات والوسائل والمواد الأولية الـخ...

ب ـ من ناحية فريق العمل، فالطائرة أو الصاروخ أو الباخرة أو القنبلة الهيدروجينية أو السفينة الفضائية ليست من عمل فرد واحد بل من انتاج فريق من العلماء أو عدّة فرقاء من العلماء والتقنيين والمتخصصين.

ج ـ من ناحية الكلفة الإقتصادية، في الماضي كان الإنسان الفرد يستطيع شراء ميزان أو أنبوب ضغط للقيام ببعض التجارب التي قام بها علماء القرن السابع عشر. أما اليوم، فلا يستطيع فرد واحد مهما كان ثريا القيام لوحده بعملية تركيب قنبلة ذرية أو تركيب طائرة مقاتلة تفوق سرعتها سرعة الصوت أو بناء حاملة طائرات كالتي نشاهدها في هذا العصر والتي يكلف بناؤها وتجهيزها ميزانية دول كبيرة لا أفراد أغنياء فقط. ولذلك قلنا إن التقنية اليوم والعلوم والاختراعات قد تخطت حدود الأفراد العقلية والاقتصادية.

سابعاً: الحضارة ومستقبل الطاقة:

قد يكون من أصعب الأمور التنبؤ بالمستقبل ومعرفة المصادر التي سيأخذ منها إنسان الغد الطاقة لتأمين حياته وتطوير تقنياته العديدة في شتى الميادين. فلقد استفاد الإنسان من الماء والرياح والفحم الحجري والبترول والذرة، ولا يزال يستعمل الكثير منها في يومنا هذا فما هي أهم اتجاهات العلماء لتأمين الطاقة في المستقبل؟

أ ـ هناك اتجاه يعتمد على العودة إلى ضوء الشمس وحرارة الشمس والإفادة من الطاقة الشمسية[١٠] لتشغيل الآلات وتأمين الدفء وتوليد الكهرباء إما بواسطة البخار الذي تولده أشعة الشمس من الماء وإما بواسطة خلايا ضوئية وكهربائية

(١٠) كارتسيف فلاديمير: «آلاف السّنين من الطاقة»، ص٢١٩.
قبيسي حافظ: «الطاقة الشّمسيّة»، ص٣٢ ـ ٣٥.

تحول أشعة الشمس مباشرة إلى كهرباء. فيقيم العلماء حقولا كاملة ومساحات شاسعة مكسوة بهذا النوع من الخلايا الكهربائية والضوئية، ويتم بذلك تأمين تيار كهربائي كاف لإضاءة المدن وإدارة المحركات على أنواعها وتشغيل الأفران وغيرها(١١).

ب ـ أما الاتجاه الثاني، فيحمل في طياته نوعا من العودة إلى الوراء إذ يحاول الاعتماد من جديد على الرياح التي تهب باستمرار في الجبال، أي في البقاع المقابلة للبحار والأودية العميقة، لإدارة المراوح التي تدير بدورها مولدات الكهرباء. ومن الأفضل في مثل هذه الحالة وضع عدد كبير جدا من المراوح في حقل واسع حتى إذا تعطل عدد منها استمر الباقي في إعطاء الكهرباء. وهذا العدد الكبير للمراوح يقابله عدد متساو لمولدات الكهرباء ثم بعد ذلك شبكات لنقل الطاقة من حقول التوليد إلى المدن والقرى. ويظهر أن هذه الطريقة في توليد الكهرباء هي الأوفر من الناحية الاقتصادية لأنها لا تحتاج إلى أي نوع من الوقود لإدارة المحركات والتوربينات. فلا حاجة أبدا للفحم الحجري ولا إلى البترول أو مشتقاته الكثيرة.

ج ـ الإكثار من مولدات الكهرباء المائية أي الناتجة عن المولدات التي تديرها توربينات تعمل بواسطة شلالات الماء المنحدر من مناطق عالية. وحيث أن البحيرات والأنهار عديدة وحيث أنه بالإمكان بناء سدود كثيرة في عدد هائل من الأودية لحصر ماء المطر والسيول أو لحصر مياه الأنهار، فإن إمكانيات الإفادة من الماء كمصدر للطاقة الكهربائية وما ينتج عنها لا تزال في طورها الأول والبسيط والعلماء لم يستفيدوا حتى الآن منها كفاية، إذ بالإمكان القيام بحملة علمية وتقنية لتأمين طاقة كهربائية لكل الشعوب بواسطة الشبكات، والتعاون بين جميع الدول بحيث تتم الإفادة من الثروة المائية والطاقة المخزونة في الأنهار والبحيرات والبرك والسيول. وعلى سبيل المثال، نقول إن نهر النيل ونهر الكونغو يكفيان لتأمين الطاقة لكل شعوب أفريقيا إذا أقيمت عليهما السدود الكافية وعلى عدة مراحل من مجرى كلّ واحد منهما. وكذلك، فأنهار البارانا والسان لوران والميسيسيبي والميسوري والأمازون والبحيرات الخمس والشلالات في كندا والبرازيل والأرجنتين، تكفي لتأمين الطاقة لكل أميركا الشمالية والوسطى والجنوبية.

د ـ وقد يكون الاتجاه الأكثر حداثة في عصرنا اليوم هو إلى خلق مفاعلات ذرية من نوع جديد بحيث تعمل [ببرودة وبدون خطر] لتأمين الطاقة الكهربائية. ولقد تم النجاح على الصعيد الاختباري المحدود، ولكن الشكل الصناعي والتجاري لم ينجحا بعد.

---

(١١) دبس محمد: «**بدائل الطاقة**» ص٨٣ ـ ٨٤.

ولا يزال العلماء يجهدون أنفسهم في هذا الاتجاه وقد ينجحون في القريب العاجل بتأمين الطاقة بواسطة مفاعل ذرية من نوع جديد وبعيد عن شبح القنابل الذرية التي دمرت وأحرقت هيروشيما وناكازاكي والتي جعلت عبارة «الإنشطار الذري» مرادفة للموت والدمار والخراب واليأس والحرب.

هـ ـ أما آخر الاتجاهات فيكمن في الرجوع إلى الكائنات الحية نفسها واكتشاف مصدر الطاقة فيها. فالأجسام البكتيرية والطحالب ومعظم الكائنات العضوية تختزن في داخلها نوعا من الطاقة وبالإمكان الإفادة منها في حياة الإنسان. ومن حسن الحظ أن هذه الكائنات العضوية والبكتيرية موجودة بوفرة في الأنهار وقاع البحيرات والبحار.

هذا مع الاعتراف التام بأن لكل مرحلة من مراحل التطور مستوى خاصاً من العلم والتقنية وطريقة في فهم واستيعاب وحل مشكلات الطاقة وتسخيرها لخدمة الإنسان. ولذلك تبقى أبواب الغد موصدة حتى أمام أكبر الأدمغة وتبقى آفاق المستقبل غامضة حتى بالنسبة لأنفذ الأبصار. ولا يجوز أبدا بناء المستقبل على صورة الماضي أو حصره بإمكانيات العلم والتقنية التي عرفتها العصور البائدة. فعناصر التغيير والمفاجأة والتخطي والانقلاب الحاصل في المنطق والنظريات للأمور وفي معطيات العقل الأساسية وبديهيات العلم والمعرفة وأشكال الزمان والمكان والمادة والطاقة والسببية كلها من التي الأمور تجعل عمليات التنبؤ مستحيلة أو محدودة للغاية كما تجعل مفاهيمنا ومعارفنا بالية وعابرة ونسبية وقابلة للتبديل والزوال بشأن كل ما يرتبط بالإنسان والحياة الإنسانية ومعطيات الحواس والشعور والمخيلة والعقل واللاشعور.

ثامناً: الحضارة والإنسانية

السؤال يطرح نفسه على الشكل التالي: هل بالإمكان الكلام على حضارة عامة للإنسانية وتاريخ عام للبشرية وثقافة موحدة لكل الشعوب؟ هذا السؤال يبدو على درجة عظيمة من الصعوبة والأهمية وذلك لأسباب عديدة نذكر منها على سبيل المثال:

أ ـ بعض العلماء لا يزالون حتى يومنا هذا يفرقون بين حضارة وثقافة، ويجدون في الثقافة المظهر النظري فقط للانتاج البشري، بينما يرون أن لفظة حضارة أشمل وأعم بكثير من لفظة ثقافة لأن الحضارة تشمل جميع أشكال انتاج العقل البشري في جميع الميادين النظرية والعملية والتقنية. فهي تشمل الدين والفلسفة والعادات والقوانين والفنون والآداب إلى جانب المؤسسات والعلوم والاختراعات والتقنيات وأشكال العمران وطرق العيش والتنظيم وممارسة الحكم

الـخ... وفي بعض الحالات فقط، وعند عدد ضئيل من العلماء المعاصرين، بدأت كلمة ثقافة تصبح مرادفة لكلمة حضارة وخاصة عند العلماء والمؤرخين الألمان خلال القرن العشرين.

ب ـ إن معظم الشعوب القديمة وحتى التي كانت على درجة عالية من الحضارة والتمدن، كانت تؤرخ لنفسها فقط وتهمل تاريخ وحضارات باقي الشعوب. فهذا هيرودوت[١٢]، أبو التاريخ، قد كتب في تاريخ اليونان وحروبهم مع الفرس وعلاقاتهم بمصر القديمة، غير أن موضوع كتاباته ومحور اهتماماته ومركز تفكيره كان اليونان قبل الجميع. وكذلك عندما جاء توسيديد الذي أرخ الحرب (البولوبونيزية) بشكل موضوعي ونقدي رائع بعد أن شارك فيها كقائد ورجل دولة. فقد تناول جانبا من حياة بلاد اليونان وحياة المدن وحروبها في ما بينها. ولعل اليونان كانوا يعتبرون باقي الشعوب برابرة ومتأخرين باستثناء بعض الفلاسفة والعلماء من أمثال أفلاطون وفيثاغوراس وإقليدس الذين ذهبوا إلى بلاد النيل للدراسة والتعلم لقناعتهم بأهمية حضارة مصر القديمة وتقدم علومها في الهندسة والبناء والتنجيم وعلم الفلك والطب والفلسفة الـخ... وعندما قام الاسكندر الكبير باجتياح بلاد الشرق واكتشاف حضارات الشعوب في اليونان والحضارة المصرية والبابلية والفارسية والهندية الـخ... أصيب بالدهشة لأنه اكتشف أن ما تعلمه في بلاد اليونان عن باقي الشعوب كان في معظمه مغلوطا ومشوها. ومن حسن الحظ أنه كان على مرونة فكرية عظيمة، فغير آراءه بسرعة وبدلها باتجاه جديد هو توحيد جميع الشعوب بالثقافة والزواج والعلاقات الدبلوماسية.

ج ـ إن مبدأ وحدة الإنسانية ووحدة الإنسان ووحدة التاريـخ أمور لم يعرفها العقل البشري إلا بعد ظهور بعض الأديان القديمة في الهند وبعض الأديان المنزلة التي وحدت الجنس البشري أمام الله بعامل الإيمان والمسؤولية الأخلاقية والتي ساوت بين جميع الأفراد والشعوب بصرف النظر عن البيئة واللون والعرق الـخ... فهذه الأديان نفخت في حياة البشر نفحة صوفية جديدة وأعطتها نظرة كونية خرج بواسطتها الإنسان من إطار الحدود الجغرافية والعائلية والسلالية والسياسية فساعدته على فهم التاريـخ كتطور للجنس البشري يسير بإرادة الله نـحو غاية مثلى أو كتحقيق لإرادة الله والمثل الدينية العليا التي نصت عليها الأديان والتي ستستمر بعد الموت وستنتصر في الحساب والعقاب ومن خلال الجحيم والنعيم.

د ـ كذلك فالنظرة العقلية للتاريـخ الواحد لـلإنسانية لم تبدأ من الناحية التجريدية إلا في عصر الأنوار أي في القرن الثامن عشر مع أشهر الأدباء الفرنسيين

---

(١٢) R.G. COLLINGWOOD: «The Idea of History» P35.

من أمثال فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو... فهؤلاء خاطبوا العقل البشري والوجدان البشري والإرادة البشرية كأشياء عامة وموجودة في جميع الناس. ومن هنا كانت المناداة بالحرية والمساواة وقلب النظام السياسي والتحرر من العبودية. وهذا التيار هو الذي أوحى في ما الثورة الفرنسية بعد التي غيرت فرنسا كما غيرت وجه أوروبا السياسي والفكري والاجتماعي على حد سواء. ولا نستطيع فهم نابليون وحروبه إلا من خلال الثورة الفرنسية.

هـ ـ فلا عجب بعد هذا كله إذا ظهرت مذاهب فلسفية عديدة ذات طابع شمولي وعام تدرس تواريخ الشعوب كحلقات مترابطة بعضها ببعض أو تفهم التطور التاريخي كحركة حية مستمرة وتيار يحقق هدفا أو غاية خلال تعاقب العصور حتى يتمّ له ما يراد في آخر الزمان.

وهذا باختصار مذهب هيغل[١٣] الذي وجد في التاريخ العام للشعوب وتطور الديالكتيك تحقيقا للمثال أو الله. وهذا هو مذهب ماركس الذي أعطى للديالتيك الهيغلي محتوما ماديا واقتصاديا واتجه به إلى حرب الطبقات وتطور الرأسمال وانتصار الشيوعية في النهاية. وهذا هو مذهب أوغيست كونت في تطور الإنسانية من تطور العقل البشري ومن مراحله الدينية ثم الميتافيزيكية ثم الوضعية. وهذا هو مذهب سبنسر في تطور المجتمع بأشكاله العديدة، ومذهب مونتسكيو في اكتشاف القوانين العامة التي تسيّر الحياة الاجتماعية والسياسية والدستورية. وهذا هو مذهب داروين الذي شرح الحياة والأجناس الحية بمبدأ الاختيار الطبيعي القائم على الصراع المستمر وانتصار الأقوى والأصلح الذي يؤكد ما قاله لامارك عن التكيف مع المحيط الطبيعي وعوامل التغير في البيئة الجغرافية الخ...

وهكذا نرى أن العصر الحاضر قد انتقل إجمالا من الحدود الضيقة لتاريخ الشعب الواحد والبيئة الواحدة والعصر الواحد إلى حياة الإنسانية وتطور البشرية وتقدم الجنس البشري في العلوم والتقنيات والقوانين والفنون والآداب وغيرها. من هنا نفهم نداء الشاعر الألماني الكبير غوتيه لبناء أدب أوروبي وإنساني موحد بدل الأدب الألماني والأدب الفرنسي والأدب الإنكليزي الخ...

ومثل هذه النظرة الشاملة للبشرية والشعوب لا تمنع أبدا القيام بدراسات متخصصة لكل شعب ولكل حضارة على حدة لإظهار دورها ومزاياها وما قدمته للبشرية من ثروات علمية وأدبية وفنية.

---

(١٣) Ibid P95.

(١٤) عالم طبيعي وبيولوجي صاحب مذهب الداروينية التي تبحث في أصل الأنواع عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى والأصلح.

ثامناً: معرفة الحضارات

إن كتب التاريـخ والحضارة مليئة بأخبار اليونان والرومان والعرب وحضارة عصر النهضة والحضارات الحديثة. كذلك نجد عددا لا بأس به من الكتب صدرت في لغات عديدة عن حضارات الهند والصين وبلاد ما بين النهرين وفارس ووادي النيل وغيرها[١٥]. ولكن هل تكفي هذه المعلومات التي وصلتنا للحكم على كل تاريـخ الحضارة والزعم أن الحضارات التي ندرسها والتي وصلتنا أخبارها هي الحضارات الوحيدة التي ظهرت على وجه الأرض؟

لقد حاول البعض تأكيد مثل هذه الفرضية زاعما أن الحضارات التي لم تصلنا أخبارها لم تكن موجودة أو كانت موجودة ولكن لا أهمية لها بدليل أنها لم تترك أثرا يذكر في التاريـخ الذي أتى بعدها وفي محتوى الحضارات التي وصلت إلينا. ونـحن نرجح أن مثل هذا الموقف لا يرتكز على أي أساس من العلم والصحة، وذلك لـلأسباب التالية:

أ ـ إن شكل الأرض من النواحي الجغرافية لم يكن ثابتا أبدا، فلقد لعبت الزلازل والفيضـانات وحركات المد والجزر والكوارث البركانية وحالات القحط والحرائق وغيرها، أدوارا سلبية في حياة الإنسان والجماعات القديمة، كما غيرت مرارا عديدة شكل الجبال والسـهول والأنهار، فغمر البحر الأرض وتحولت الجبال إلى أودية والسـهول إلى قمم وابتعدت الأنهار عن خط جريانها المألوف. وأدى ذلك إلى تدمير المنازل وقتل الجماعات ودفن معالم الحضارة وسائر أنواع الانتاج الفكري والثقافي والتقني للشعوب القديمة.

ب ـ هناك شعوب أو قبائل عرفت نوعا من العلوم والتقنيات والثقافات ولكن خارج اللغة المكتوبة التي نستعملها اليوم، فبقيت أسيرة اللغة المحكية وبعض اللغات التي كانوا يكتبونها بطريقتهم. وهكذا اندثر المحتوى الحضاري والعلمي والأدبي لهذه الجماعات باندثار مجتمعاتهم، لأنهم لم يعرفوا الكتابة نفسـها التي نعرفها اليوم. ويكفي أن نعرف أن اللغة الهيروغليفية بقيت سرا عجيبا للناس حتى جاء العالم الفرنسي شمبوليون في النصف الأول من القرن التاسع عشر وحل رموزها وألغازها بدءاً من تحليل الكتابات الموجودة على حجر الرشيد الذي تم اكتشافه خلال حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨. كذلك فالكتابة المسمارية القديمة وغيرها من الكتابات بقيت عهودا طويلة في غموض الرموز والألغاز حتى أتى علماء وفسروها.

ج ـ إن معرفة العلماء للماضي التاريخي ليست من الشمول والعمق والبعد على

---

(١٥) مؤنس حسين: الحضارة ـ عالم المعرفة، العدد ٢٥، ص٨٦.

شيء عظيم. فمعظم التواريخ التي يعرفها المؤرخون وعلماء الآثار ودارسو الحضارات، تعود إلى ما يقرب من سبعة أو عشرة آلاف سنة قبل المسيح كحد أقصى. وقد بدأ الخلاف بين العلماء لمعرفة أي الحضارات أسبق إلى الوجود: الحضارة السومرية أم الحضارة الصينية أم حضارة أواسط أفريقيا ولكننا نميل إلى القول بأن هناك حضارات كثيرة قبل هذه الحضارات وقبل هذه التواريخ، ولكن العلماء لم يكتشفوا أسرارها بعد، مع أنهم وجدوا شيئا قليلا من آثارها في شتى بقاع الأرض كأواسط آسيا وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية وغيرها.

هذه الأسباب وغيرها تدفعنا إلى الحذر عند الكلام على تصنيف الحضارات إلى قديمة وحديثة والاعتراف بأن ما نقوله اليوم هو نسبي جدا وهو من باب تسهيل الفهم والشرح على الطالب لا باب الحقيقة العلمية والتاريخية بشكلها الموضوعي. فقد تغير الاكتشافات في المستقبل كل آرائنا ومعلوماتنا حول تاريخ الحضارة على الأرض.

تاسعاً: كيف نفسر نشوء العلم والحضارة

والآن نصل إلى هذا السؤال الشديد الصعوبة والذي يدور حول تفسير أسباب نشوء العلم والحضارة في حياة البشر. فهل ننسب كل ذلك إلى ذكاء الإنسان لوحده أو إلى الوراثة أو إلى عوامل ثانية؟

الحقيقة، إن العلماء والفلاسفة والمؤرخين لم يجمعوا حتى الآن على أجوبة واضحة وموحدة في هذا الشأن. ولكننا نرى مع ذلك أنه من الضروري الوقوف في هذه الدراسة السريعة عند النقاط التالية:

أ ـ ذكاء الإنسان وتطور هذا الذكاء عبر التاريخ، وتفوق الإنسان على الحيوان وحتى على جميع أنواع القردة العليا، وقابلية الإنسان للتكيف والتعلم والمرونة في التحرك وإيجاد الحلول لمشكلاته العديدة. وسواء كان هذا الذكاء من معطيات الوراثة أو مكتسباً، وسواء كان من عمل الدماغ لوحده أم من عمل جميع الأجهزة العصبية والغدد والعظام والخلايا مجتمعة إلى جانب الاكتساب والتدرب والتعلم؛ فإن ذكاء الإنسان كان ولا يزال من أهم العوامل التي كانت في أساس ظهور العلم والمعرفة والإجابة عن تساؤلات العقل في هذا الكون والقدرة على حل المعضلات وابتكار الآلات والقيام بالاكتشافات وخلق وتوسيع وتطوير التقنية على جميع مستوياتها.

ب ـ البيئة الخارجية ومجموعة العوامل الجغرافية الآتية من المحيط الطبيعي والتي تخلق نوعا من التحدي للعقل البشري الذي يسعى للحل والمجابهة والقيام بعمليات التكيف المتنوعة للسيطرة على البيئة. فالبحر والبحيرة والجبل والغابة والصحراء إلخ... كانت ولا تزال من المشكلات والمعطيات الجغرافية التي تتحدى الإنسان وتشحذ عقله للانتصار عليها وتسخيرها لمصالحه وحياته. وهذا لا يعني أن

جميع الناس على الأرض ينجحون بالطريقة نفسها والمستوى نفسه، بل يتنوع ذلك حسب ذكائهم وقدرتهم وطموحهم واستعدادهم للحياة ومجابهة الخطر والتحدي، إذ لم ينجح جميع سكان الشواطىء بترويض البحار كما نجح الفينيقيون بهدف التجارة، ولم ينجح جميع المفكرين بتقديم مذاهب علمية وفلسفية لتفسير الكون والحياة نجاح اليونان. ولذلك نقول إن التحدي الآتي من البيئة لا يعطي حضارة إذا لم يقابله عقل خلاق وإرادة حياة صلبة واستعداد للابتكار. وهذا هو جوهر نظرية التحدي التي قال بها المؤرخ والفيلسوف الانكليزي أرنولد توينبي.

ج ـ الحضارة بمعناها العام هي في الحقيقة مجموعة الأجوبة التي قدمها شعب عن الأسئلة التي اعترضت فكره وحياته في هذا الوجود. فالفلسفة والعلم والتقنية والقوانين والفنون الـخ... هي مجموعة الوسائل النظرية والعملية التي أجاب بها أو رد بها شعب في فترة معينة من فترات تطوّره خلال التاريـخ. وهذا هو معنى الحضارة اليونانية أو الرومانية أو العربية الـخ... إذ لا يجوز النظر إلى حضارة أو إلى نتاج حضارة مهما كانت أهميتها على أنه مطلق وصالح لكل الشعوب والعصور والبيئات. فمثل هذا الموقف مناقض للطبيعة التاريخية للإنسان والمعرفة والتراث.

د ـ وعلينا ألا ننسى أنه في المراحل المتطورة للعلم والتقنية، لا يعمل العقل البشري وحده في الاختراع بل بما لديه من علوم وآلات ومعارف، أي أن العلم يعطي العلم والتقنية تنتج التقنية. ومن هذا نفهم دور الكومبيوتر في الكثير من عمليات البرمجة والاختراع والتخطيط في ميادين الحروب والهندسة المعمارية والميكانيك والقطارات وصناعة السيارات وغيرها. فالطائرات والآلات التي تعمل بدون إنسان بل بواسطة التوجيه من بعيد، وآلاف الربوت (Robot) التي تعمل في مصانع السيارات وغيرها، تدل على مدى تطور مفهوم الاختراع والتقنية عند الإنسان الحديث وكيف بقي الحيوان على المستوى الوضيع من استعمال أعضاء جسمه وبشكل مباشر في تأمين طعامه وحمايته ومخبئه وكيف بقي ذكاء الحيوان محدودا بالرغم من تطوره النسبي خلال ملايين السنين بالنسبة للتطور الهائل الذي أصاب العقل البشري والعلم والحضارة.

هـ ـ العلم والحضارة والتقدم عند الإنسان مدينة كلها للغة المكتوبة. ولو بقيت المعارف الإنسانية على مستوى اللغة الشفوية لضاع معظمها ولبقي العلم والتقنية والحضارة محدودة للغاية.

إن تراث الحضارات القديمة، الهندية والمصرية واليونانية والرومانية والعربية، قد وصل إلى أوروبا في العصر الوسيط ثم إلينا اليوم في العصر الحاضر بواسطة اللغة المكتوبة. ولقد اجتاح الاسكندر الكبير العديد من البلدان في أفريقيا وآسيا، وكان له الفضل الأكبر في حفظ الثقافة اليونانية ونشرها في العالم ووصولها إلينا في

العصر الحاضر.

اللغة المكتوبة هي الوعاء الذي حفظ واختزن التراث العلمي والحضاري للبشرية، ولذلك فظهور اللغة المكتوبة في حياة البشر هي بدء تاريخ التمدن بالمعنى، الحضاري الحديث والدقيق، وهي وسيلة التواصل بين الشعوب واستمرار انتقال الحضارات من عصر إلى عصر وكذلك نموها وتطورها.

واللغة المكتوبة لا تشمل الأدب والشعر والفلسفة فقط، بل تتناول كل أنواع الكتابة وحتى الرموز الرياضية والرموز الموسيقية والأسماء العلمية ورموز الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والعوالم العديدة لشرائط التسجيل والاسطوانات والليزر والكومبيوتر والأفلام وجميع أشكال الاتصالات والتصوير التي نعرفها والتي سيعطيها المستقبل نتيجة تطور وسائل التعبير والتسجيل بسرعة مذهلة.

إن تاريخ حضارة الإنسان وسجل تمدنه وآثار حفرياته هي الشاهد على تفوقه على الحيوان وتخطيه لسائر المخلوقات التي عرفتها الحياة على الارض عبر تطورها الطويل وتجتمع كلها في اللغة المكتوبة وفي سائر أشكال التسجيل التي ابتدعها العلم في القديم والحديث والتي لا يزال يزيد عليها ويحسنها ويوسع مجالات استعمالها. فاللغة المكتوبة أصبحت مرادفة للعقل والعلم والحضارة.

عاشراً: العلم وسعادة الإنسان

مما لا شك فيه أن العلم والتقنية والتطور الحضاري امور قد حققت نوعا من الهناء والرخاء والسعادة في حياة الانسان والمجتمع. فلقد أطال تقدم الطب وكثرة الأدوية والعمليات الجراحية من معدل عمر الإنسان. ولقد سهلت التقنية وسائل الانتقال السريع في الأسفار والرحلات كما عملت الرافعات والشاحنات على حمل الأوزان الثقيلة وتخفيف عبئها عن كتف وظهر الإنسان كذلك فعلت الخرائط والاكتشافات، فقد وسعت آفاق العالم وجعلت معرفة المرء لمناطق الأرض أكمل وبالتالي أصبح أكثر استعدادا للإفادة منها. وابتكار آلات الحفر والتنقيب ساعد على استخراج البترول والمعادن من جوف الأرض ومن قعر البحار وابتكار المطبعة وتطويرها بالأشكال الحديثة، ساعد على انتشار الثقافة في العالم وفي جميع الطبقات، كما ساعد على الترجمة والنقل وانفتاح ثقافات الشعوب بعضها على بعض. وفي هذا المجال، لا بد من ذكر وسائل الاتصال والإعلام كالهاتف والراديو والتلفزيون والأقمار الصّناعيّة وغيرها من الأشكال الحديثة للاتصال والتي لعبت دورا هاما في الإعلام والتجارة وتسريع الاتصال بين المراكز الصناعية والمراكز التجارية وأسواق العمل وبين المدن والقرى. أضف إلى ذلك شبكة المواصلات البحرية والبرية والجوية والتي تشمل السيارات والأتوبيسات والقطارات والطائرات والبواخر والتي تتطور أشكالها بسرعة بحيث تساعد على السفر والسياحة

والانفتاح على باقي الشعوب وعلى نقل البضائع حتى إلى الأماكن البعيدة في شتى أنحاء الأرض وبسرعة مقبولة نسبيا.

وإذا كان المخترع أديسون[١٦] قد أحدث ثورة عند اختراعه للمصباح الكهربائي، فإن شكل الإضاءة الكهربائية قد تطور كثيرا، كما أن مصباح أديسون كان الأساس في بدء التفكير بالألكترونيات التي أعطت الراديو في ما بعد على يد برانلي Branly وفورست Forest وماركوني، والتلفزيون على يد جون بيرد، وأشعة اكس على يد راينتن Röntgen. وهكذا حقق التقدم العلمي للإنسان نوعا من السعادة والرفاهية والترف، وساعده على إحكام سيطرته على الطبيعة والإفادة من المحيط الطبيعي وتحويل المعطيات الخارجية إلى مواد خام يحولها باستمرار لصالحه وبقائه وسعادته. هذا الإنسان الذي كان يخاف من الحيوانات المفترسة في الغابة، استطاع في النهاية بواسطة عقله وسلاحه أن يصطاد الحيوان المفترس أو أن يسجنه في قفص أو أن يدربه ويلهو بالتفرج عليه في المسرح أو في حديقة الحيوانات. وهذا الإنسان الذي يلبس جلود الحيوانات لينعم بالدفء، أصبح ينعم في عصرنا هذا بأنواع عديدة من المدفآت، كما أن الصناعة قدمت له الأنواع من الألبسة الشتوية أو الصيفية وبألوان مختلفة ومن الألبسة الخاصة بالعمل اليومي أو بالرحلات أو بالسهرات أو بالمهمات المهنية أو العسكرية الخ... ومن الألبسة الخاصة بالأطفال أو بالسيدات أو الشبان أو بالشابات الخ... لذلك يحق لنا أن نتكلم عن السعادة والرفاهية والترف والرخاء التي قدمها العلم والتقنية للإنسان المعاصر بعد عصور طويلة من التطور في عالم المعرفة والحضارة. وبالمقارنة، فقد ظل عالم الحيوان محدودا وفقيراً للغاية. فالحيوانات لا تلبس سوى جلودها المكسوة بالشعر، والطيور لا تعرف سوى الريش الذي يكسو جسمها ويحميها من البرد ويساعدها في الطيران. الحيوان يجهد نفسه في كل عمل يقوم به كما كان يفعل أجداده، فهو يرعى العشب ويبحث عنه في الحقول أو يصطاد حيوانات أخرى ليؤمن غذاءه فيركض ويطارد ويتعب قوائمه من أجل ذلك ويعرض نفسه للأخطار. الحيوان لم يستطع أن يخلق لنفسه صناعة ومصانع كما فعل الإنسان. وإذا أوجد الحيوان أو الحشرة نوعا من الصناعة فيبقى ذلك محدودا للغاية، كما تكتفي العناكب بحياكة شباك الصيد ودودة القز بصنع الشرنقة التي تسجن نفسها فيها لتتحول في ما بعد إلى فراشة قادرة على وضع البيض.

إحدى عشر: العلم وشقاء الإنسان

إنها لمأساة عظيمة أن يشعر المرء بأن العلم الذي شكل في حياته البعد الإيجابي

---

(١٦) فيزيائي أميركي صاحب عدَّة اختراعات أهمُّها الإرسال المزدوج ١٨٦٤ والفونوغراف ١٨٧٨ والمصباح الكهربائي ١٨٧٨.

والصناعة بشكل لم تعرفه باقي الحضارات القديمة التي وصلتنا أخبارها.

ج ـ إن أخطار التفجير النووي[١٨] لا تزال تهدد البشرية جمعاء. وعدد القنابل الذرية والهيدروجينية الموجودة لدى الدول يكفي لنسف الكرة الأرضية والقضاء النهائي على الجنس البشري وعلى كل مظاهر الحياة على كوكبنا. ونتيجة لذلك فالإنسانية تعيش خطر الموت والانقراض والخطر يهددها باستمرار. ومثل هذا الخطر هو نتيجة حتمية لتطور العلم في القرن العشرين وعمليات انشطار الذرة وقد حذر العالم آنشتاين الدول أجمع من أخطار التفجير النووي، وفي قنبلتي هيروشيما وناكازاكي الأدلة الواضحة على ذلك.

ومع أن بعض العلماء يحاولون اليوم ترويض الطاقة النووية وجعلها في خدمة الإنسان لتوليد الكهرباء وتسيير البواخر والطائرات والسيارات والقطارات الخ... فإن هذه المحاولات الهامة لا تزال متواضعة كما أنها لا تزال في المراحل الأولى من التحقيق العملي وذلك نتيجة الصعوبات التقنية والاقتصادية في آن واحد.

ولذلك يصح أن نقول من جديد أن الأخطار النووية هي وليدة الحضارة الحديثة، وأن القلق الذي يعيشه إنسان اليوم نتيجة الخوف من الموت والدمار والانقراض له أسبابه وتبريراته العديدة.

هـ ـ زد على ذلك أن تقدم علوم الفلك وتطوير التلسكوبات والسفن الفضائية والدراسات الفيزيائية والاشعاعية، قد كشف للعلماء أولا ولعامة الناس ثانيا أن الكرة الأرضية تتعرض باستمرار لسقوط مستمر لنيازك آتية من النجوم أو الكواكب الأخرى. وبعض ما يسقط صغير للغاية وبعضها كبير وخطير ويسبب الخراب والدمار والموت كما حصل سنة ١٩٠٨م عندما وقع نيزك في سيبريا بعد مرور المذنب «أنك» بالقرب من الأرض. ومن هذه الناحية، فشأن الأرض شأن باقي الكواكب السيارة التي تصيبها النيازك والمذنبات باستمرار[١٩] وفي فترات متفاوتة من الزمن. ومنذ وقت قريب جدا، اصطدم مذنب بكوكب المشتري وتحطم عليه. ولو أنه أصاب الأرض لحصل عليها ما لا يحصى من الكوارث والمآسي. وهكذا شعر الإنسان، نتيجة العلم الحديث والتقنية الحديثة والحضارة الحديثة، أنه يعيش في خطر كوني يأتيه ويهدده من خارج الأرض وينزل عليه من السماء، فلا عجب بعد ذلك إذا عرفنا أن القدماء كانوا يتشاءمون كثيرا عند رؤية المذنبات تخط بضوئها الساطع وذيلها الطويل طريقها في السماء، ويعتبرونها مرادفة للكوارث والشؤم ونذيرا للموت والدمار والفناء. والذي زاد الطين بلة أن بعض العلماء ربط

---

(١٨) كلوز فرانك: «**النهاية (الكوارث الكونية)**» تعريب مصطفى إبراهيم فهمي ص ١٤ ـ ١٥.
(١٩) المرجع السابق ص ٩٤ ـ ٩٥.

بين انقراض بعض الأجناس من الحيوانات على الأرض كالديناصورات وبين سقوط النيازك على كوكبنا محدثة ارتجاجا قد حطم عمودها الفقري[٢٠] الخ...

خلاصة القول إن العلم والتقنية والحضارة هي أبعاد ملازمة للعقل البشري دون سواه من المخلوقات على وجه البسيطة. ولقد نشأت وتقدمت كلها بالتطور خلال العصور حتى وصلت إلى الحالة التي وصلت إليها في العصر الحاضر، بينما بقي الحيوان في معظم الأحيان يعيد نفسه ويكرر تجاربه ولا يتقدم إلا في حدود ضيقة ومحصورة جدا. فالنحلة مثلا لا تزال تصنع الشمع والعسل في هذا اليوم تماما كالنحلة التي عاشت منذ ملايين السنين، وكلب البحر والنمر والأسد والفهد والقط الخ... لا تزال تصطاد فرائسها بأظافرها وأنيابها بالطريقة التي استعملها أسلافها في القديم الغابر، والماعز والخراف والزرافات والأبقار ترعى العشب وتتغذى منه كما فعلت القطعان في العصور القديمة. إذا لا تقدم تقني يذكر على هذا المستوى، بينما تقدم الإنسان بواسطة العلم والتقنية وحسن أوضاع حياته وخلق لنفسه مناخا من الحرية والرفاهية والترف وأراح أعضاءه من الاحتكاك المباشر بالطبيعة الخارجية لقضاء حاجاته مستعملا الآلات والاختراعات على أنواعها وفي جميع ميادين الخشب والمعادن والكهرباء والمواصلات والألكترونيات وغيرها. وبذلك سيطر الإنسان، ولو بشكل نسبي، على الطبيعة، وحقق نوعا من التكيف الإيجابي، وحول معطيات العالم الخارجية إلى وسائل ليستعملها ويستفيد منها في حياته وثقافته وهواياته وسائر أعماله ونشاطاته الفردية والاجتماعية. كما أن الثقافة المتطورة باستمرار والتي تشمل الآداب والفنون والأديان والقوانين والمؤسسات السياسية والفلسفة الخ... قد رفعته عاليا في سلم الحضارة وجعلته أرقى الكائنات الحية على كوكبنا. فالحضارة والثقافة والعلم والتقنية هي من اختصاص الإنسان وليست موجودة إلا في العالم الإنساني وكان تكوينها نتيجة لتطور الإنسانية والعقل والعلم خلال حقبات طويلة من الزمن وعبر عدد كبير من البيئات والشعوب.

غير أنه لا بد لنا من الاعتراف ببعض الأبعاد السلبية للعلم والتقنية والحضارة في عصرنا هذا، إذ أمسى المرء عبدا للآلة يعيش على حركتها ويتبع نظامها وسيرها بدل أن تتبع هي حياته وحاجاته.

ولقد كشف لنا العلم عن أخطار عديدة لم يعرفها القدماء في العصور الغابرة، كأخطار التلوث الصناعي والذري وأخطار الرش بالمبيدات وأخطار الإنشطار النووي والخوف على الجنس البشري والكرة الأرضية من الزوال والتدمير نتيجة

(٢٠) المرجع السّابق ص٨٤ ـ ٨٥.

لتفجر القنابل الذرية والهيدروجينية الموجودة بوفرة في معظم الدول المتطورة تقنيا وصناعيا. كما أن علوم الفلك والمركبات الفضائية والتلسكوبات المتطورة، قد كشفت عن أخطار عديدة مصدرها الفضاء الخارجي والنجوم والكواكب والمذنبات الموجودة داخل أو حول المجموعة الشمسية، لأن تساقط النيازك واصطدام بعض المذنبات بالكواكب عامة وبالأرض خاصة، وإصابة مناطق عديدة من بقاع الدنيا بشظايا هاوية من أذناب بعض المذنبات، أصبحت من الأمور المقبولة والثابتة علميا في نهاية هذا القرن.

فهل يكون العلم أساسا للتشاؤم واليأس والقلق، أم أنه يطرح آمالا جديدة ويفتح آفاقا غير معروفة حول إمكانية حياة الجنس البشري خارج الأرض؟

المصادر والمراجع

ـ ابن خلدون: **«المقدّمة»** (العبر) ـ المطبعة الادبيّة ـ غزة ط. ثانية ١٨٨٦م.

ـ شيخ الأرض تيسير: **«إرادة الحضارة»** ـ دار الفاضل ـ دمشق ١٩٩١.

ـ طعمه جورج: **«إيكولوجيّة لبنان وقائع وشواهد»** ـ منشورات الجامعة اللبنانية بيروت ١٨٨٥م.

ـ مؤنس حسين: **«الحضارة»** ـ عالم المعرفة ـ العدد ٢٥ الكويت ١٩٧٨.

ـ بدران شارل: **«أطلس العالم»** دكتور نبيه كنعان ود. دعد أبو ملهب. د.ت.

ـ كلوز فرانك: **«النهاية (الكوارث الكونية)»** تعريب مصطفى إبراهيم فهمي ـ عالم المعرفة ـ العدد ١٩١ ـ الكويت تشرين الثاني ١٩٩٤.

ـ كارتسيف فلاديمير: **«آلاف السّنين من الطاقة»** (تعريب محمد الزّيّات) عالم المعرفة ـ العدد ١٨٧ ـ الكويت ـ تموز ١٩٩٤.

ـ حتي فيليب: **«تاريخ العرب المطوّل»** ترجمة جرجي وعبد النور ـ دار غندور ـ الطبعة الثامنة بيروت ١٩٩٠.

ـ دبس محمد: **«بدائل الطاقة»** ـ معهد الإنماء العربي بيروت ١٩٧٨.

- TOYNBEE Arnold: **«A Study of History»** (Abrigement).

~ ARISTOTE: **«La Politique»** trad: Tricot-Paris 1982.

~ COUSTEAU (j-y), **«Le Spectre de la Pollution»**, dans Encyclopédie Cousteau, Robert Laffont 1975.

~ R.G. COLLINGWOOD: **«The Idea of History»** Oxford University PRESS-LONDON -Oxford- New York Printer to the University 1970.

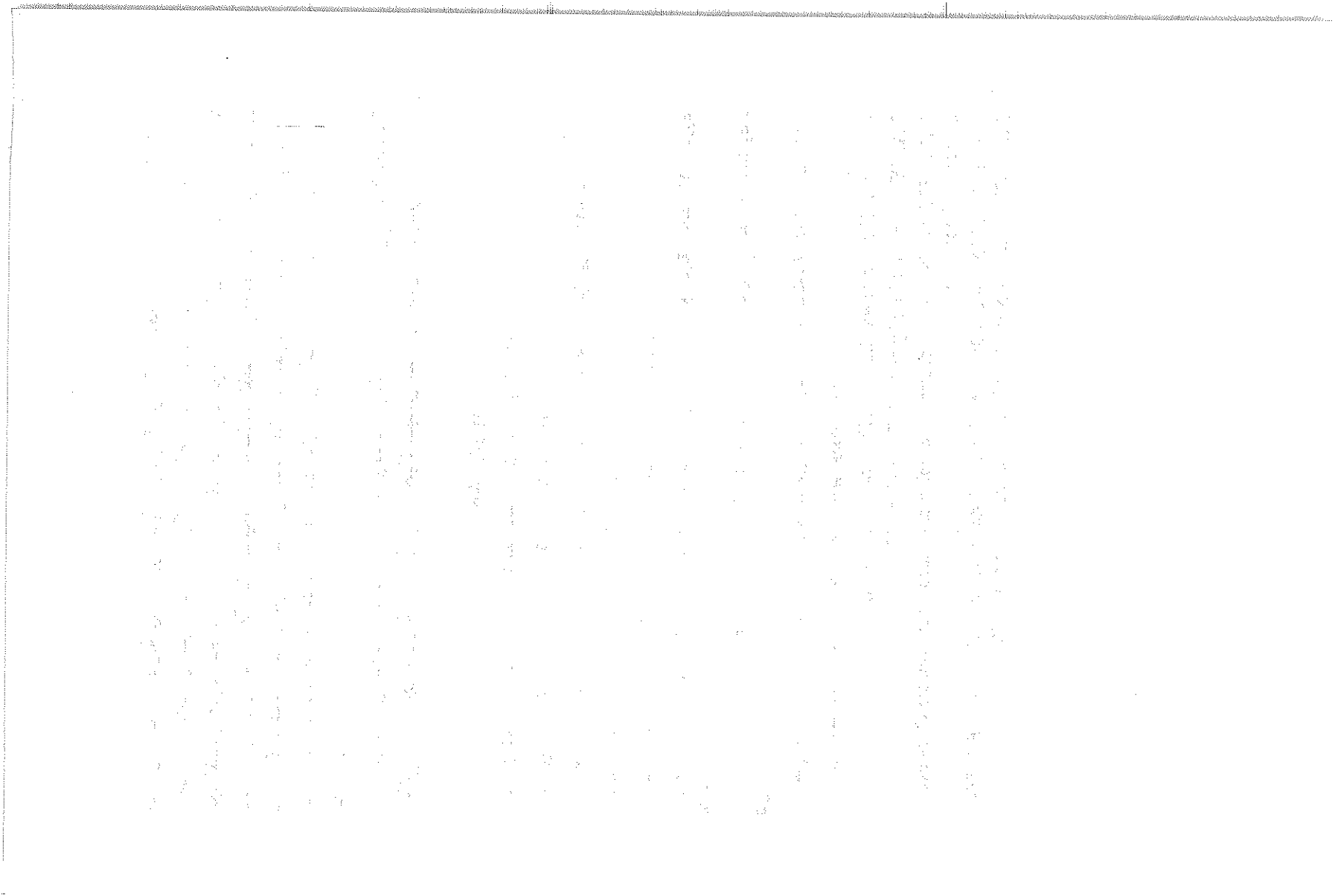

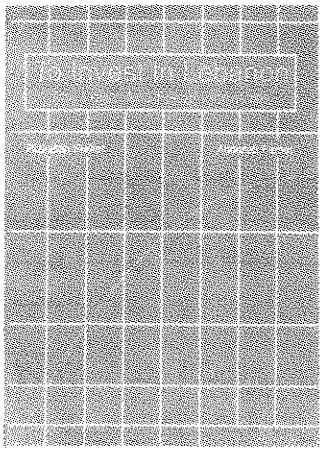

قراءة كتب

للاستثمار في لبنان
الحوافز الضريبية والتشريعية

يبحث المستثمرون، بشكل عام، عن الوضوح في شروط استثمارهم قبل الشروع بأي عمل تجاري، صناعي زراعي أو اقتصادي. ولعل أهمية هذا الكتاب تكمن في توضيح الإطار العام للاستثمارات على أنواعها. فالوقوف على تفاصيل التشريعات، يشجع المستثمر على دخول الأسواق اللبنانية ويطمئنه في خياراته التجارية. الكتاب جاء بشكل دراسة شاملة، وافية عن الحوافز التي لحظها التشريع اللبناني في إطار الاستثمارات. فوضع لبنان الجغرافي، من حيث كونه صلة وصل بين القارات الثلاث آسيا أفريقيا وأوروبا، انعكس تشريعاً مشجعاً لتنقل الأموال والرساميل وبالتالي المواد والسلع. ومن اللافت أن القانون اللبناني، رغم قلة التعديلات الطارئة عليه، يبقى من القوانين الأكثر تطوراً ان من حيث تنظيمه للشركات التجارية ولأعمال الوساطة والتمثيل التجاري أو من حيث تسهيلاته الضريبية أو تقنياته المصرفية.

يتوجه الكتاب إلى كل من اهتم بالشأن التجاري العام، المصرفي الخدماتي الصناعي، الزراعي، النقل البحري، العقاري:

- مديري المؤسسات والقيمين عليها الراغبين في ولوج الأسواق اللبنانية، والعاملين فيها الراغبين في تطوير نشاطهم أو تنويعه.

- رجال الأعمال العرب والأجانب الراغبين في اتخاذ لبنان مركزاً لأعمالهم.

- المحامين أو المستشارين القانونيين والاقتصاديين.

ومن حسنات الكتاب انه جامع للأحكام القانونية اللبنانية في مجال الاستثمار وموجه للمستثمر في معرض اتخاذه لقراراته، ينطوي على تحليل عملي للتشريعات اللبنانية

وتفسير لها بما يتوافق ومتطلبات رجال الأعمال.

لعل الحوافز التجارية استحوذت على حيز كبير من اهتمام المؤلفين لأنها بدون شك عصب الحياة الاقتصادية.

أولاً: الاستثمار التجاري

إن للهيكلية التجارية لكل استثمار الاثر الأكبر في توجيه الاستثمارات وتأمين الزخم اللازم لها لتحقيق النتائج المتوخاة.

فقد انطوى المؤلف على كيفية ضمان الاستثمارات، ودراسة لوظائف الأجهزة الخاصة المؤتمنة عليها، والإطار القانوني الواجب اتباعه. فكان عرضاً وافياً لمجمل الشركات الملحوظة في قانون التجارة اللبناني:

شركات الأشخاص

- شركات التضامن
- شركات التوصية البسيطة
- شركات المحاصة

شركات الأموال

- الشركات المغفلة
- شركات التوصية بالأسهم

الشركات الخاصة

- الشركة المحدودة المسؤولية
- شركات الهولدنغ
- شركات الاوف شور

وقد توقف المؤلفان عند الحوافز التي لحظها التشريع خاصة في مجال التمثيل التجاري حسب المرسوم رقم ٣٤ تاريخ ١٩٦٧/٨/٥ والمنفذ بالمرسوم رقم ٩٦٣٩ تاريخ ١٩٧٥/٢/٦ وما يؤمن من ضمانات لصاحب تمثيل تجاري حصري في لبنان كما في الوكالة والوساطة والسمسرة التجارية. إنما التسهيلات تلك يحدها تنظيم حام للمنتجات اللبنانية كمكافحة الاحتكار والاغراق.

ثانياً: الاستثمار المصرفي

توسع المؤلفان في عرض أصول إنشاء المصارف في لبنان من حيث اكتسابها للجنسية اللبنانية، والتسجيل على لائحة المصارف، والتبادل بأسهم المصارف، والأوجه القانونية للعمليات المصرفية بشكل عام، ومنح القروض وضمانها بشكل خاص. وقد تمحور الحيز الأكبر من هذا الفصل حول الحوافز والأنظمة الراعية للتكليف الضريبي إذ تعفى الودائع وسائر الالتزامات المصرفية بالعملات الأجنبية العائدة لغير المقيمين في المراكز الرئيسية للمصارف:

- من ضريبة الدخل المفروضة على الفوائد، بموجب المرسوم الاشتراعي رقم ١٤٤ تاريخ ١٩٥٩/٦/١٢.
- من الاحتياطي المفروض بموجب الفقرة/(د) من المادة ٧٦ من قانون النقد والتسليف.

ـ من رسم ضمان الودائع المنصوص عليه في المادة ١٥ وتعديلاتها من القانون رقم ٦٧/٢٨ تاريخ ١٩٦٧/٥/٩. بالإضافة إلى الضمانات التي توفرها رقابة وتدخل مصرف لبنان عند الحاجة. مع عرض مسهب لمهام المؤسسة الوطنية لضمان الودائع.

هذا ولم يغب عن الكتاب شروط عمل فروع المصارف الأجنبية في لبنان، والمحظور من عمليات المصارف عليها وعلى المصارف بشكل عام.

ثالثاً: الاستثمار الصناعي

استعرض الكتاب الشروط العامة للاستثمار الصناعي قبل ولوج الحوافز التي وضعها القانون اللبناني لمثل هذا التوظيف. إذ حدد الأصول الواجب اتباعها في طلبات إنشاء المصانع الجديدة أو توسيع المصانع القائمة، من حيث تحديد العقار المخصص للمصنع (مساحة الأرض ومساحة البناء) أو قيمة الإيجار.

ـ تحديد العمال ومقدار أجورهم وعدد العمال الأجانب

ـ الوقوف على مقدار الطاقة الانتاجية وكلفة الانتاج

ـ تحديد نوع الوقود المستعمل وكمية الاستهلاك

ـ امكانية التصدير إلى الخارج

ـ تحديد قيمة رأسمال الاجمالي للمشروع

ـ إمكانية انتاج السلع ببراءة أجنبية.

أما للحوافز التشريعية فلها آثار على مختلف الصعد الانتاجية: من حيث نشر الصناعات في كافة المناطق ومنح المساعدات لتحديث المعدات والامكانات ومن حيث اعطاء التراخيص والامتيازات للتنقيب عن المعادن واستثمارها. هذا وقد سعت الدولة اللبنانية لتوثيق روابط التعاون الصناعي على الصعيد الدولي.

أ ـ الحوافز التشريعية لنشر الصناعات في كافة المناطق اللبنانية

أولاً: وضعت حوافز لانعاش الريف ونشر الصناعات في كافة المناطق، إذ يعفى من ضريبة الدخل لمدة ست سنوات كل أول مصنع يقام في كل قرية.

وتعفى أيضاً من ضريبة الدخل لمدة مماثلة، المصانع القائمة في المناطق الصناعية والساحلية إذا انتقلت إلى منطقة ريفية. وتحدد هذه المناطق الريفية بمراسيم تتخذ في مجلس الوزراء بناء على اقتراح الوزراء المختصين على أن لا يقل ارتفاعها عن ٣٠٠ متر عن سطح البحر أو لا يقل ابتعادها عن الشاطىء مسافة كيلومتر[١].

ثانياً: وضعت حوافز لنقل المصانع من المدن إلى الأرياف

اجيز للحكومة أن تمنح مساعدات

(١) المرسوم الإشتراعي رقم ١٢٧، الصادر بتاريخ ١٦ أيلول ١٩٨٣.

للصناعيين الذين يرغبون في نقل مصانعهم من المدن إلى الأرياف. وتكون المساعدات بشكل مشاركة الدولة في تحمل جزء من الفوائد المحتسبة على القروض الصناعية الممنوحة لهذا الغرض من قبل مصارف عاملة في لبنان[٢].

ب ـ الحوافز التقنية لتحسين انتاجية الصناعة[٣].

من حيث تنمية الانتاج الصناعي اللبناني، لحظ المشترع بعض الشروط والحوافز لمنح المساعدات لتحسين انتاجية الصناعة عن طريق شراء معدات وآلات جديدة، إذ اعتبر مصنعاً، للاستفادة من هذه الحوافز، كل مؤسسة تستعمل قوة آلية محركة، ويعمل فيها خمسة اجراء فما فوق، وتتجاوز قيمة الآلات والمعدات فيها مبلغاً محدداً رسمياً، وتكون معدة لتحويل الخامات إلى منتوجات نصف مصنوعة أو منتوجات كاملة الصنع أو تصليح السلع المصنوعة أو أجزائها أو توضيب المواد أو تعبئتها أو تغليفها أو حفظها. وهذه المساعدات تمنح لأية مؤسسة صناعية جديدة، ولأية مؤسسة صناعية قائمة تنوي زيادة انتاجيتها عن طريق شراء معدات وآلات جديدة، وللحصول على الموافقة المبدئية عليها، تقدم المؤسسات الصناعية عن طريق مصارفها طلبا إلى مصرف لبنان تُبيِّن فيه:

١ ـ وضعها المالي الراهن.

٢ ـ موافقة على تمويل شراء الآلات أو المعدات مع تحديد شروط هذا التمويل.

٣ ـ دراسة حول الآلات والمعدات الجديدة وعن مساهمتها في زيادة الانتاجية، مرفقة بالكتالوغات والمطبوعات الصادرة عن الشركة الصانعة والتي تبين المواصفات الفنية.

٤ ـ إفادة تثبت تسجيل المؤسسة الصناعية لدى المديرية العامة للصناعة.

٥ ـ رخصة الاستيراد الصادرة عن المديرية العامة للصناعة.

٦ ـ إفادة تثبت انتساب المؤسسة الصناعية إلى جمعية الصناعيين اللبنانيين.

وترفع المصارف الطلبات إلى مصرف لبنان بعد دراستها، كما تتبنى المصارف التي ستمول المشروع الطلب على مسؤوليتها.

كذلك تتحمل الخزينة جزءاً من الفوائد التي ستدفعها المؤسسات للمصارف التي ستقوم بتمويل المشاريع.

---

(٢) المرسوم الإشتراعي رقم ١٢٤، الصادر بتاريخ ١٦ أيلول ١٩٨٣.
(٣) مرسوم رقم ٣٤١، تاريخ ٤ آذار ١٩٨٣ ـ ج ر عدد ١١.

رابعاً: الأحكام الخاصة بالنقل البحري

للنقل البحري الاثر الأهم في حركة استيراد وتصدير المواد من لبنان وإليه. ولعل من البديهي أن يقف المستثمر على الأصول والأحكام القانونية في هذا الإطار، خاصة وانه ميدان مواز للتعامل التجاري بشكل عام ويدخل في خانة الخدمات الضرورية.

من جهة أخرى، يشكل النقل البحري مادة استثمار مستقلة، لأن امكانيات التوظيف في السفن التجارية واسعة والأحكام القانونية وافرة في هذا المجال.

خامساً: الحوافز الضريبية

إن هذا الباب هو المحور الأهم للمؤلف، إذ يحتوي على مجمل الحوافز الضريبية، إن في إطار الشركات التجارية، أو في الدراسة الواسعة الخاصة بالضرائب على الأملاك المبنية وحقوق الانتقال العقارية. في ما خص الشركات التجارية فإن نسبة الضريبية منخفضة إلى حد ما، وهي في بعض الشركات محدودة فشركات «الهولدنغ» «والاوف شور» خاضعة لرسوم مقطوعة بهدف جذب رؤوس الأموال إلى لبنان.

وقد خصص حيز كبير من هذا الباب للشروط العائدة لاكتساب الاجانب الحقوق العينية العقارية في لبنان. فالاستثمار في القطاع العقاري، يبقى على جانب كبير من الأهمية لما يشهده لبنان من تطور ديموغرافي، وبسبب إعادة تشييد ما هدمته الحرب. ولعل الجانب الضريبي لهذا القطاع هو من الأولويات لكل من ابتغى التوظيف.

سادساً: التسهيلات الجمركية

ويبقى القطاع الجمركي الأكثر تشجيعاً للمستثمر. فلبنان اعتمد أوّلاً على الخدمات في سنين البحبوحة. وقد تماشى المشترع مع هذا الواقع، فوضع تشريعات مسهلة لاستيراد وتصدير البضائع وعمليات الترانزيت، وإنشاء سوق حرة كان لها الاثر الإيجابي في انهاض الاقتصاد الوطني. وقد عرض الكتاب الاعفاءات الجمركية الخاصة ببعض المواد التجارية الضرورية والتي اعتمد عليها القطاع الخدماتي ولمّا يزل.

سابعاً: حوافز الاستثمار في شركة «سوليدير» لإعادة اعمار وسط بيروت التجاري وخلق السوق المالية

دون اتخاذ موقف من الحوار القائم حول صوابية انشاء شركة «سوليدير»، كان لا بد من التوقف عند هذه الظاهرة الاقتصادية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الواقع الاقتصادي اللبناني، ومجالاً هائلاً للاستثمار.

فبعد وصف واضح للهيكلية العامة

للشركة وكيفية إدارتها واهم الأجهزة فيها، عرض الكتاب للتخطيط الذي أجرته الشركة وشرعت بتنفيذه، لجهة التمويل وتجهيز البنى التحتية والانماء العقاري. ولعل من أهم انجازات هذا المشروع إنشاء السوق المالية.

إن تطوير السوق المالية سيؤدي بدون شك إلى جلب الرساميل الضرورية للقطاع العام والخاص لإعادة الاعمار. إذ أن مساهمة قطاع الخدمات المالية في اجمالي الناتج القومي P I B تعتبر رئيسية.

وقد طرحت سوليدير اسهمها في السوق للاكتتاب بين تشرين الثاني ١٩٩٣ وكانون الثاني ١٩٩٤، وهذه الأسهم ستشكل النواة الأساسية في إعادة احياء سوق بيروت للأوراق المالية. ان ولوج السوق المالية بات حتميا بالنسبة لبعض الشركات المالية كالمصارف وشركات التأمين وغيرها وبعض المؤسسات الصناعية وشركات الترابة والمؤسسات الفندقية والشركات التي تتعاطى المنتوجات الغذائية...

وبالتالي، تتوقع المصادر المالية أن يزيد رأسمال البورصة الجديدة لبيروت عن ثلاثة مليارات دولار، وان يُشكل حجم الرأسمال ٥٠٪ من الناتج القومي وهي نسبة مهمة ستتزايد مع الوقت. ومن الأهمية بمكان الإدراج المتوازي في بورصة بيروت لاسهم الشركات التي يتم التعامل بها في بعض دول الخليج والمسعرة عالمياً بالدولار الأميركي. ويوازي التسعير بالدولار التسعير بالعملة الوطنية.

وتعمل حالياً المراجع المختصة في المصرف المركزي لوضع التنظيمات والتشريعات اللازمة التي ستشكل الإطار القانوني لهذا الاستثمار. ومن المحتم أن تظهر لاحقاً شركات استثمارية جديدة تؤدي دور الوساطة وتكمل شبكة الوسطاء في السوق.

وتجدر الملاحظة أن تطوير التشريعات المصرفية سوف يسهل تأمين الخدمات من قبل المصارف زيادة إلى رأسمالها لمواجهة تحديات المستقبل.

ثامناً: الحوافز السياحية

إن كان الاقتصاد اللبناني يعتمد على الخدمات المالية، فهو يعتمد أيضاً وأساساً على الخدمات السياحية. وقد أتى التشريع اللبناني مسهلاً لإنشاء المؤسسات السياحية، وفرض شروطاً سهلة للشروع في أي عمل سياحي يجتذب أموالاً نقدية وحركة في هذا القطاع. مع العلم ان النظام الضريبي اللبناني متساهل في كل ما خص القطاع السياحي ولعل المعاهدات الدولية، التي أبرمتها الدولة اللبنانية، واسعة الدلالة على الدور الهام الذي أعطى للسياحة والتشجيعات التشريعية، الجالبة للاستثمارات في هذا المضمار.

تاسعاً: الحوافز الزراعية

مما لا شك فيه أن للثروة المائية في لبنان انعكاساً إيجابياً على إمكانية الاستثمار الزراعي لذلك انطوى التشريع اللبناني على حوافز وتسهيلات لهذا القطاع وقد شملت التسهيلات جميع المهن المتعلقة باستيراد الأدوية الزراعية وبيعها وتوضيبها وتحضيرها وصنعها واستعمالها وتعهد استعمالها، كما وضع التشريع اللبناني شروطاً لتعاطي المهن الزراعية بهدف حمايتها وصونها. كذلك لحظ القانون الوضعي أحكاماً لحماية المنتجات الزراعية اللبنانية وتسهيل بيعها داخلياً وتصديرها إلى الخارج.

عاشراً: أحكام قانون العمل

إن شروط عمل الأجانب في لبنان وعمل اللبنانيين لدى أشخاص حقيقيين أو معنويين من التابيعية الأجنبية، على جانب كبير من الأهمية.

ولعل كل مستثمر بحاجة إلى الوقوف على هذه الأحكام إنْ من حيث الاستحصال على إجازة عمل أو على إمكانية الانتساب إلى الضمان الاجتماعي ومقدار الاشتراكات والتقديمات.

فقد بحث هذا الباب في فئات العمال والاجراء والأطر العامة التي وضعها قانون العمل والضمان الاجتماعي.

لكن هذه الدراسات تبقى ناقصة إذا لم يقف المستثمر على هيكلية النظام القضائي اللبناني، لأنه الضمانة الأساسية لاستثمار في حال نشوء أي خلاف. فقد استجاب الكتاب لهذه الضرورة، وعرض لإمكانية اللجوء إلى التحكيم العادي أو المطلق، ولما وضعه التشريع اللبناني من امكانيات الوصول إلى الحق بدون اللجوء إلى المراجع القضائية العدلية، توفيراً للوقت، وما أضاف من تسهيلات في معرض اعطاء الصيغة التنفيذية للأحكام الأجنبية والتحكيمية.

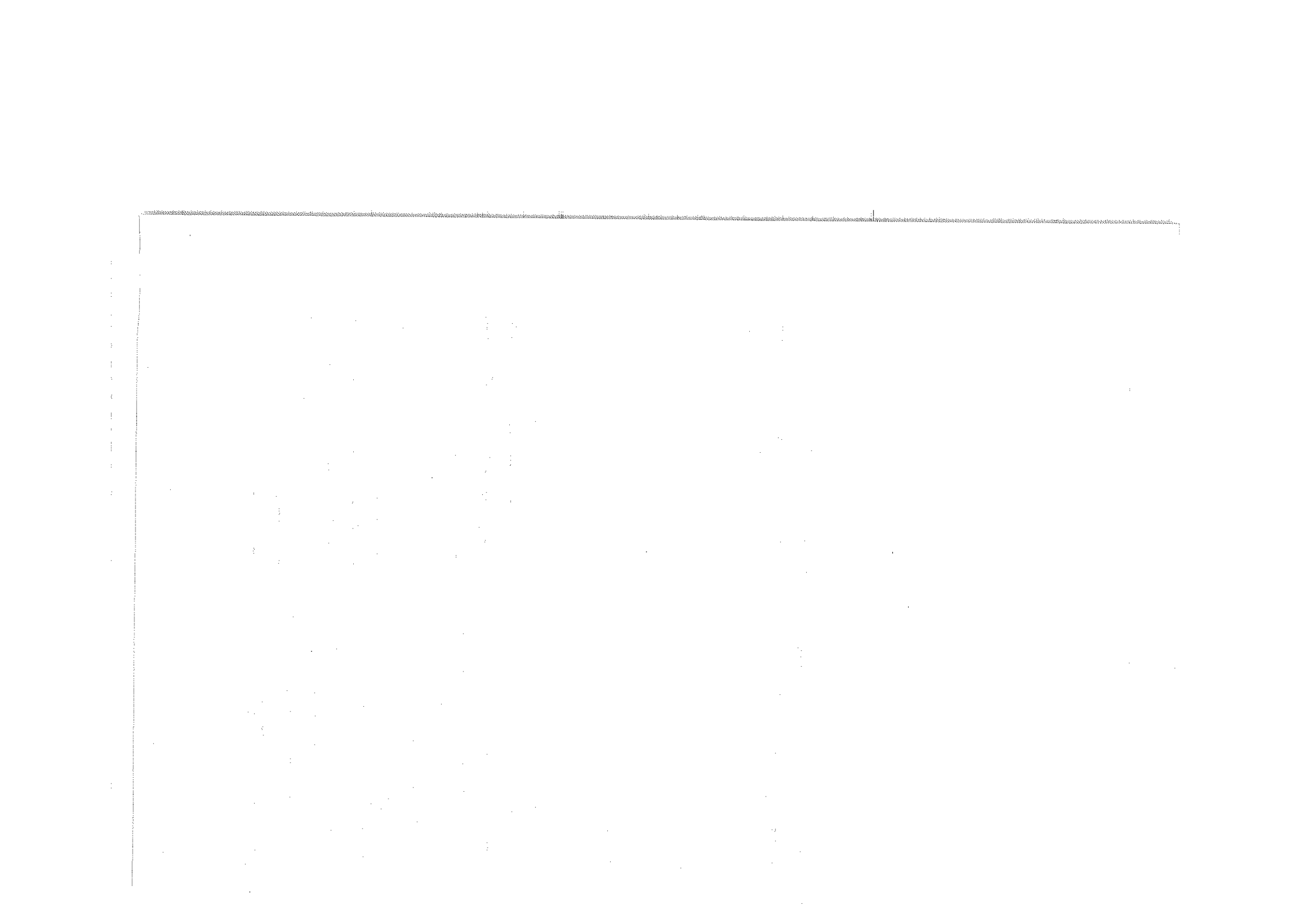

قراءة كتب

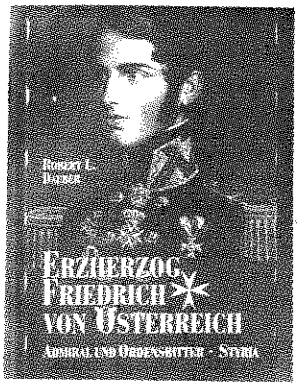

احتلال صيدا في العام ١٨٤٠

فارس عيد(*)

بتاريخ ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٣[١]، جرى في متحف تاريخ الجيش في فيينا تقديم كتاب[٢] HEERRESGESCHICHTLICHES MUSEUM ERZHERZOG[٣] FRIEDRICH VON ÖSTERREICH, ADMIRAL UND ORDENSRITTER الذي تناول فيه المؤلف روبرت. ل. دوبر Robert L Dauber[٤] سيرة الأمير النمساوي فريدريش، الأدميرال والفارس (١٨٢١ - ١٨٤٧).

ما يهمنا من هذا العرض في هذه الحقبة من أيامنا اللبنانية[٥] هو فصل من حياة الأمير كما ورد في الكتاب يتعلق باشتراكه في حملة الأساطيل البريطانية والنمساوية والعثمانية على سوريا العام ١٨٤٠[٦]، وتحديداً على بلادنا، والتي انكفأت على أثرها قوات

(*) سكرتير في السلك الخارجي - سفارة لبنان في فيينا، النمسا.

(١) اليوم التالي للذكرى الخامسة والسبعين لاعلان الجمهورية النمساوية بعد سقوط الامبراطورية النمساوية - المجرية في اعقاب الحرب العالمية.

(٢) الكتاب باللغة الالمانية من القطع المتوسط صادر عن دار ستيريا Styria النمساوي للنشر، ويقع في ٢٤٠ صفحة.

(٣) ارتسهيرتسوغ Erzherzog، لقب الأمراء في البيت القيصري هابسبورغ - لوترينغين (حكموا من ١٢٧٨ - ١٩١٨). يقابله بالفرنسية لقب ارشيدوق Archiduc.

(٤) المؤلف روبيرت ل. دوبير Robert L. Dauber من مواليد ١٩٣٦، حائز على ماجستير في القانون، مدير متقاعد لشركة تصدير التبغ النمساوي، مؤرخ مختص بالشؤون البحرية وتاريخ منظمة مالطة، محترف الابحار الشراعي، خاصة في حوض البحر الابيض المتوسط.

(٥) ذكرى اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان.

(٦) بحث هذا الموضوع الدكتور ارتور برايشا - فوبيبه، السفير النمساوي الأسبق في لبنان ١٩٦٤ - ١٩٦٨، في مقالة مطولة بالفرنسية في صحيفة الاوريون L'Orient، في عددها الصادر بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ١٩٦٧.

ابراهيم باشا المصري، وانحسر نفوذ والده محمد علي باشا عنها، وانتهى حكم حليفه الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير.

فريدريش

جده القيصر ليوبولد الثاني (حكم ١٧٩٠ ـ ١٧٩٤)، ابن الامبراطورة العظيمة ماريا تريزيا (دام حكمها من العام ١٧٤٠ حتى ١٧٨٠)، الذي خلف شقيقه القيصر يوسف الثاني (حكم من سنة ١٧٨٠ حتى ١٧٩٠). والده الأمير كارل، احد أبطال معركة آسبرن Aspern[٧] وشقيق والده القيصر فرانتس الثاني (حكم من سنة ١٧٩٢ حتى ١٨٣٥).

ولد الأمير فريدريش بتاريخ ١٥ ايار ١٨٢١ في فيينا. توفيت والدته وهو في الثامنة من عمره. التحق بالقوات المسلحة، وتخرج من الأكاديمية العسكرية برتبة ملازم العام ١٨٣٤ وهو في الثالثة عشر من عمره. مال الى سلاح البحرية، والتحق بالأسطول النمساوي، وقاعدته مدينة البندقية الايطالية التي كانت وقتذاك ضمن الامبراطورية النمساوية، واصبح في العام ١٨٣٩ قبطان السفينة غرييرا Guerriera.

الحملة على سوريا

عندما بلغت قوات محمد علي بقيادة ابنه ابراهيم باشا المصري اقصى مداها مهدّدة عاصمة السلطنة، برزت المخاوف الأوروبية من الدولة الناشئة الفتية. فألفت حكومة وزير الخارجية البريطانية بالمسترون، في ١٥ تموز ١٨٤٠ في لندن، التحالف الرباعي من بريطانيا والنمسا والروسيا والسلطنة العثمانية، وأنذر التحالف ابراهيم باشا بالتراجع عن سوريا تحت وطأة القوات البرية والبحرية.

هكذا كان الوضع العام، عندما انضمت مجموعة السفن البحرية النمساوية التي كانت تشكل اسطول المشرق، والقبطان الامير فريدريش في ٦ آب الى اسطول التحالف تحت القيادة العامة للادميرال البريطاني «سير روبيرت ستوبفورد» ونائبه قائد العمليات البرية الكولونيل «تشارلز سميث»، أما المفاوضات السياسية فكان يتولاها الادميرال كومودور[٨] «سير تشارلز نابيير».

اسطول التحالف

كان الاسطول البريطاني المشترك

---

(٧) آسبرن Aspern، ضاحية من ضواحي فيينا في الجهة الشمالية الشرقية، جرت فيها بتاريخ ٢١، و٢٢ أيار ١٨٠٩ معركة انتصر فيها النمساويون انتصاراً جزئياً على نابليون الذي تمكن بعدها من الانتصار على النمساويين بتاريخ ٥ تموز ١٨٠٩ في معركة واغرام Wagram، وهي ضاحية لفيينا على مقربة من اسبرن.

(٨) كومودور Comodore هو الضابط القائد للاسطول. لا جود لهذه الرتبة في البحرية القيصرية النمساوية.

في الحملة يتألف من: ١٤ بارجة[٩]، على رأسها سفينة القيادة «برنسيس تشارلوت» وست فرقاطات[١٠] وسفينتي[١١] كورفيت وسفينتي بريغ[١٢] و١١ باخرة حربية[١٣].

وكان اسطول المشرق النمساوي بقيادة الكونتر ـ ادميرال[١٤] البارون «فون باندييرا» على متن الفرقاطة «ميديا» مؤلفاً من الفرقاطة «غرييرا» وقبطانها الأمير فريدريش وسفينتي كورفيت «ليبتسيا وكليمنتسا» والباخرة «ماريا أنا» ومجموع محمولها ٤٠٠ رجل من مشاة الإنزال البحري.

أما الأسطول العثماني فيتألف مما بقي منه بعد المعارك البحرية التي جرت مع اسطول محمد علي، بقيادة القبطان البريطاني الأصل، الكونتر ادميرال العثماني «ووكر بك» ويتألف من سفينة قيادة وفرقاطة وكورفيت وباخرة و٢٦ سفينة شحن شراعية محمولها ٥٠٠٠ رجل من مشاة الانزال بقيادة رئيس الأركان العثماني (في ما بعد القائد العام للقوات العثمانية البرية) الجنرال «يوخموس» الالماني الأصل.

وبذلك يكون مجموع اسطول التحالف ٦٨٠٠ رجل من مشاة الانزال، إضافة الى ١٨٠٠٠ جندي عثماني ومتطوع في لبنان، لكنه لم يتجاوز ٣٣ ألف رجل. أما الجيش المصري فكان عديده ٢٢ رجلاً مقابل كل واحد، واسطول بما فيه قطع الاسطول العثماني التي استولى عليه، ومجموعه ٢١ بارجة وسفن عدة من نوع كورفيت وأخرى صغيرة وباخرتان، وأكثر الأسطول في ميناء الاسكندرية، بعكس اسطول التحالف الذي كان في عرض البحر ويتمتع بالقدرة على المناورة.

بدء العمليات الحربية

في منتصف آب ١٨٤٠، أمر الأدميرال «ستوبفورد» ان تتوجَّه الفرقاطتان النمساويتان «ميديا» بقيادة «باندييرا» و«غرييرا» بقيادة الأمير «فريدريش» نحو الاسكندرية، حيث اشتركتا مع بعض قطع الأسطول البريطاني بحصار المدينة. هناك، تلقى الأمير دعوة على العشاء من قبل محمد علي باشا، رفضها لأسباب سياسية، وربما أيضاً لأنه لم

(٩) البارجة Linienschiff، سفينة شراعية كبيرة الحجم والتجهيز تحارب مع سفن اخرى أقل حجماً، منها بطبقة واحدة أو طبقتين أو ثلاث تحمل على الأقل خمسين مدفعاً.

(١٠) الفرقاطة Fregate، سفينة شراعية تحمل من ٢٠ الى ٥٠ مدفعاً.

(١١) كورفيت Corvette، سفينة شراعية تحمل أقل من ٢٠ مدفعاً.

(١٢) بريغ Brigg، سفينة شراعية صغيرة بصاريين وعدة مدافع.

(١٣) الباخرة الحربية Schiffsdampfer، سفينة بخارية ومسلحة كانت تستعمل حتى العام ١٨٤٧ الدولاب المروحي القائم.

(١٤) الكونتر ادميرال Contre-Admiral، رتبة عسكرية بحرية تقابلها رتبة عميد في سلاح البر.

يأمن جانبه وكأنه تذكر عشاء الغدر بالمماليك.

وانطلق الادميرال البريطاني بسفينة القيادة وباخرتي نقل مع الفرقاطتين «ميديا وغريرا» في ٦ ايلول الى بيروت، حيث التقت السفن في خليج مار جرجس. ثم القيت المراسي بين جونيه ومصب نهر الكلب، أي بعد ٨ أميال بحرية من بيروت، كذلك وصلت «غريرا» في ١٠ ايلول وعدة سفن تحمل ٥ آلاف تركي و١٢ مدفعاً و١٥٠٠ انكليزي و٢٠٠ نمساوي.

الانزال في جونيه

باشرت المجموعة الانزال في اليوم نفسه، بعد الاشارة القصيرة من اعلام السفينة الادميرال «ستوبفورد» Land The Troops دون أية تعليمات مفصلة. وجرت هذه المناورة العسكرية البرمائية المعقدة بمواجهة العدو، بدون أخذ الحيطة وسط تغافل عسكري مبدئي. كانت غير مهيأة وبدون تنسيق بين الدول الثلاث، فكانت النتيجة اضطراباً على الشاطىء حيث غطت نواحيه القوات مع عدتها وكانت هدفاً مثالياً للأعداء. توقع المصريون ان انزال التحالف سيكون جنوب بيروت، وهكذا فوتوا على أنفسهم فرصة اعادة القائهم في البحر. لذا كانت المفاجأة عنصر النجاح، وكان الاضطراب كبيراً عند رأس جسر الانزال الى درجة أن الادميرال «ستوبفورد» امر بتاريخ ٢٣ أيلول القوات بالابحار مجدداً الى قبرص. لكن الكومودور «نابيير» استطاع اقناعه بالعدول عن ذلك بعد جدال حام، خاصة بعدما حل، أي «نابيير»، محل الكولونيل «سميث» الذي أصيب بمرض، فأضحى الضابط البحري والقائد الأعلى للقوات البرية، فتسلم قيادة السفن الراسية قرب جونية.

أبحر «ستوبفورد» مع القسم الأكبر من الاسطول الى مرفأ بيروت القريب، وكان الأمير «فريدريش» وفرقاطته «غرييرا» من نصيب اسطول «نابيير». أما الكونتر ادميرال «باندييرا» فكان مع الادميرال «ستوبفورد». وهكذا دخل «فريدريش» لأول مرة تحت القيادة المباشرة للكومودور سير «تشارلز نابيير» الذي يعد أحد الأشخاص المرموقين في الاسطول البريطاني ورجال الحملة على سوريا، بعكس الادميرال «ستوبفورد» العجوز المتردد. وكاد «نابيير» أن يصل خلال مراحل الحملة الى شفير المحاكمة العسكرية لكثرة مخالفاته.

أرسلت السفن التي كانت بأمرة «ستوبفورد» قبالة بيروت، دعوات عدة موجهة الى سليمان باشا (الكولونيل سيف الفرنساوي)، القائد المحلي، لتسليم بيروت. وفي ١١ ايلول، تم ضرب المدينة بمدفعية السفن، وتكرر الضرب في اليومين التاليين، لكن ذلك كان غير كاف. ولم يتحقق اي نجاح لقوات التحالف المحاصرة

رغم الألف قذيفة التي اطلقتها كل سفينة قيادة، والـ ٣٠٠ من الفرقاطة «ميديا»، وكذلك بعض القذائف الصاروخية(١٥).

في الأيام التالية، ابتدأ ابراهيم باشا بتجميع قواته بشكل حدوة الحصان حول قوات انزال التحالف المتزايدة، دون ان يصطدم معها. وباءت محاولة قواته اتخاذ موقع لها على الضفة اليسرى من نهر الكلب بالفشل، بعدما اطبق عليها الكومودور «نابيير» مع القوات العثمانية. واضطر المصريون الى الانسحاب من المنطقة حول بيروت، نتيجة تعزيز الجبهة العثمانية في الشمال باشتراك قوات التحالف وانضمام اعداد من اللبنانيين اليها.

وبناء لأوامر «نابيير»، أبحرت «غرييرا» بقيادة الأمير «فريدريش»، والقت مرساتها في موقع غير بعيد عن مصب نهر الكلب لمراقبة حركة مواصلات العدو على الشريط الساحلي، ولمنع انقضاضه على موقع انزال قوات التحالف. وفي احدى الليالي، استطاعت فرقة من «غرييرا» إنزال عدة مدافع مع قذائفها على الشاطىء. وعاد أحد مراكب النقل حاملاً جندياً يتكلم العربية طالباً قبوله مع رفاقه الذين تركوا صفوف المصريين ويودون الالتحاق بالعثمانيين.

اصدر الكومودور «نابيير» نداء الى الأهالي في سوريا يدعوهم الى الثورة، واعداً اياهم بالسلاح والعتاد. ولاقى النداء نجاحاً كبيراً فقوي التحالف وازدادت صفوف القوات العثمانية في الجبهة الشمالية، وفي ١٩ أيلول، استطاعت الباخرة «ماريا أنا» نقل ٥٠٠ من الجنود العثمانين من قبرص نحو الاسطول قبالة بيروت، وقبل اشتراك الأمير «فريدريش» شخصياً مع فريقه في عمليات التحالف بالترحاب والتقدير من قبل قائد القوات البحرية «ستوبفورد» والبرية «نابيير». وقد قام «ستوبفورد» بتقديم الشكر خطياً لكل من باندييرا والأمير على همتهما وحماسهما، ذاكراً انه لن يتردد بالاستعانة بالأمير وفرقاطته بناء لطلبه، في عملياته اللاحقة.

الاستيلاء على صيدا

بعدما تمكن التحالف من السيطرة بنجاح على النقاط الستراتيجية، ومع حلول الشتاء، كان لزاماً على القائد الأعلى العمل على الاستيلاء على مدينة على الأقل يجعلها مقراً شتوياً ثابتاً له على الشاطىء السوري، وتكون أيضاً موقعاً دفاعياً ثابتاً لا يمكن للأسطول توفيره في الطقس العاصف. واستطاعت ثلاث سفن بريطانية في ١٢ ايلول الاستيلاء على موقع جبيل الصغير، فأصدر

(١٥) القذائف الصاروخية، نوع من القذائف كانت النمسا في العام ١٨٤٠ رائدة استعمالها في أوروبا.

«ستوبفورد» امراً في ١٤ ايلول الى القبطان البريطاني «كوليير» بالاستيلاء على مدينة صور. وكالعادة، لاقى هذا الأمر امتعاضاً من «نابيير» الذي كان قد وضع خطة الاستيلاء أولاً على صيدا لكنها قوبلت بالرفض. إلاّ أن «ستوبفورد» عاد في ٢٤ ايلول وعهد بتنفيذ هذه الخطة لكل من الكومودور «نابيير» ومعه بارجة وسفينة بريغ وثلاث بواخر عليها قوات انزال، بالإضافة الى «غرييرا» بقيادة الأمير، والعثماني «ووكر بك» على سفينة كورفيت.

في ٢٦ ايلول قبل الظهر بقليل، وصلت «غرييرا» قبالة صيدا. القت «غرييرا» مرساتها وبقربها السفن الانكليزية الست والسفينة العثمانية. وفتحت المدافع نيرانها ظهراً من على ظهر «غرييرا» والسفن البريطانية، واصابت الثكنة الجديدة بأضرار جسيمة. وبعد ثلاثة أرباع الساعة، تلقت «غرييرا» الأمر باتخاذ وضع الرماية لأن فرقة الانزال العثمانية الأولى قد توجهت نحو القلعة البحرية واستولت عليها. وقامت مدفعية «غرييرا» بتنفيذ الأوامر ودك المواقع في القلعة الجنوبية (البرية). وقوبلت رشقات مدافع «غرييرا» برشقات مماثلة من مدافع المصريين ما لبثت أن توقفت بعد ساعة. في هذه الاثناء، تجمع ثلاثون من البحارة المزودين بالبنادق والسيوف فرقة جاهزة للانزال.

بعد ذلك بقليل، قدم قائد احدى السفن البريطانية الكوماندر «مانسيل» الى ظهر «غرييرا»، وابلغ الأمير أن عليه أن يكون قائد عملية الانزال عند موقع القلعة الجنوبية. في الوقت نفسه، طالب «مانسيل» تحضير فرقة انزال نمساوية ثانية. وهكذا تجمعت فرق الانزال النمساوية والبريطانية يتقدمهما العلمان النمساوي والبريطاني في صفي مراكب نحو البوابة الجنوبية للمدينة، حيث استطاعت بمساعدة مدفعية السفن ورغم اطلاق النار الكثيف عليها، الاستيلاء على البوابة. ويصف «داوبر» القتال، نقلاً عن كتاب الأمير الذي اشترك فعلياً فيه: «... كان تلميذ الضابط «شينكا» يحمل العلم النمساوي يتبعه ثلاثون بحاراً نمساوياً بقيادة «بولتر» في المقدمة. صعدوا بسرعة على مرتفعات الشاطىء وخلفهم البريطانيون يهزجون. لقد كان باستطاعتنا رؤيتهم بوضوح من على متن «غرييرا» وحتى تميز كل رجل منهم. وعند اقتحام المدينة، كثرت رشقات البنادق، وازدادت مقاومة المدافعين. لذا تم تحضير فرقة ثانية من اربعين رجلاً بقيادة «دمبوفسكي» على متن غرييرا لاكون على رأسها بمرافقة «فون ليبتسالترن». واتخذت لهذا الغرض المركب الذي أعاد الى «غرييرا» البحار «باغوتي» الذي أصيب اصابة فادحة، وكذلك مركباً من على متن الكورفيت العثمانية، وأوصيت القبطان «مارينو

فيتش» بتولي قيادة «غرييرا» في غيابي.

وبعد دقائق معدودة، استقليت المركب مع العقيد «فون ليبتسالترن» لنتبع الكومودور «نابيير». وصلنا الشاطىء، ولقيناه حيث استطاعت فرقتنا والفرقة البريطانية اتخاذ مواقعها عند مداخل الأزقة.

تمركزت الفرقة الثانية مع اخرى بريطانية في بيت كبير وحصين يخص نائب قنصلنا «كاتافاغو»[١٦] عند مدخل المدينة، واستُعمل كمركز احتياطي وللتغطية في حال التراجع القصري، عندها، هجمت على رأس الفرقة الأولى مع بعض البريطانيين باتجاه القلعة البرية التي تسلقتها. وقدمت أيضاً فرقة بريطانية اقتحمت المدينة من الناحية الشمالية. أما القوات العثمانية فكانت تتحرك في نواحي القلعة البحرية.

وفي الساعة السادسة، تمكنا من السيطرة التامة على الموقع. أما من بقي من العرب في المنازل فخرجوا واستسلموا وتم القاء القبض على بعض منهم في الأزقة. واستطعنا أسر ١٥٠٠ رجل من الألفين، كما أوعزت الى الطبيب «مينونتسيو» بأن يضمد جراح المصابين وينقلهم الى «غرييرا». أما خسائرنا، فكانت البحري درجة ثالثة «سربيكو» الذي أصابته أربع رصاصات عند اقتحامنا الأول للمدينة، والبحار الجريح «ماغوتي» الذي اصيب في صدره وهو في المركب قبل الانزال. أما خسائر البريطانيين فكانت خمسة قتلى بينهم ضابط، وستة جرحى بينهم ضابط أيضاً. ولم تعرف خسائر العثمانيين مع اني أظن انها جسيمة»..

ويتابع الكاتب سرده للتقارير والانطباعات عن اشتراك الأمير «فريدريش» في عملية الانزال، والتي نوه بها غير نمساويين كالكومودور «نابيير» والقائد الأعلى الادميرال «ستوبفورد»، مع محاولة الحفاظ على الموضوعية. لكن الاستيلاء على صيدا لم يكن بالتأكيد متوقفاً حصراً على اشتراك الأمير، انما شكّل اشتراكه دفعاً كبيراً لعزيمة المقاتلين تحت الراية النمساوية وضمن الأسطول النمساوي.

وبذلك حصلت البحرية والبيت الامبراطوري على شهرة باشتراك الأمير «فريديريش»، فمنحه ابن عمه القيصر «فرديناند الثالث» وسام «ماريا تريزيا» العسكري من رتبة فارس، وهو أرفع تكريم عسكري نمساوي، وقد ارفقه بالكلمات التالية الموجهة لوالد الأمير كارل: «... انه لشعور مفعم بالعنفوان ان يسير أحد أولادك في سن مبكرة في طريق البطولة. وهكذا نبتت في بيتنا ووطننا

(١٦) كاتافاغو Catafago، عائلة من اصل ايطالي اشتهر افرادها لعدة اجيال كنائبي القنصل النمساوي خلال القرن التاسع عشر في عكا ومن ثم صيدا.

دعامة تعرف امتشاق السلاح نحو المجد في سبيل النمسا» شونبرون[١٧] في ٢٥ تشرين الثاني ١٨٤٠.

وارسل قيصر روسيا «نقولاوس» لفريدريش وسام القديس جاورجيوس من الدرجة الرابعة مع كلمات مفعمة بالاطراء. كما حصل الأمير من ملكة بريطانيا فكتوريا على الصليب الأكبر «بات»، ومن الملك البروسي وسام الاستحقاق العسكري Pour le Merite، بالاضافة الى ١٥ وساماً. كذلك حصل المرافقون الشجعان وبينهم العقيد «فون ليبتسالترن» على الصليب الحديد من الدرجة الثانية، وقبطان الكورفيت «بولتل» على الصليب الحديد من الدرجة الثالثة، والتلميذ الضابط «دومينيك شينكا» على وسام الشجاعة الذهبي، والبحاران «مياني وبالدو» على وسام الشجاعة الفضي.

وفي بداية تشرين الأول، نُقل عشرة مدفعيين من «غريرا» مع معداتهم الحربية بأمرة الملازم «شيفتشيكس» لتقوية المواقع في البر ولتعزيز قدرة دفاع[١٨] صيدا ضد أي هجوم مضاد محتمل من قوات ابراهيم باشا.

الأمير فريدريش والأمير بشير

بعد أيام قليلة، قرر سيد جبال لبنان، الأمير بشير، عقد اتفاقية سلام مع العثمانيين بكفالة الأدميرال «ستوبفورد» الذي قبل ذلك محافظة على حقوق الأمير السابقة تجاه العثمانيين. وكان الأمير بشير قد أقام مخيمه قبالة صيدا على بعد مسافة نصف ساعة من السير، حيث زاره الأمير «فريدريش» في احدى الليالي المقمرة متخفياً ودهش للأبهة الشرقية والأجواء الرومانسية. وفي محادثته مع فريدريش، اخبره الأمير بشير أن قوات ابراهيم باشا تنسحب بعد الخسائر الفادحة التي حلت بها.

معركة بحر صاف واستسلام بيروت

في ٤ تشرين الأول، اعتقد الادميرال «ستوبفورد» ان الوقت قد حان للتفاوض، لكنه أراد محاصرة بيروت للاستيلاء عليها. لكن نابيير خالف أوامر ادميراله، وقام بتاريخ ١٠ تشرين الأول بقيادة قواته ومساعدة

---

(١٧) شونبرون Schönbrunn (عين الماء الجميلة)، القصر الصيفي لقياصرة النمسا. ابتدىء العمل ببنائه العام ١٧١٣ وانتهى في عهد القيصرة «ماريا تريزيا» العام ١٧٤٩، وهو على طراز قصر فرساي الفرنسي. نزل فيه نابليون عند احتلاله فيينا مرتين. وكان مقراً لقيادة الحلفاء عند احتلال النمسا العام ١٩٤٥، ومحط لقاء كنيدي ـ خروتشيف في اوائل الستينات من هذا القرن.

(١٨) كذكرى لهذه الأحداث، قررت البحرية النمساوية العام ١٨٥٥، اطلاق اسم «صيدا» على سفينة حربية صغيرة، ثم استبدلت بمدمرة، تبعها في الحرب العالمية الأولى العديد من القطع البحرية المهمة. وفي المقر السابق للأمير فريدريش، يمكن اليوم مشاهدة فناء القصر المسمى «فناء صيدا» (كتاب **«النمسا والمشرق العربي»** للسفير «برايشا ـ فوبييه»، دار الطباعة هيرولد، فيينا ١٩٧٢ صفحة ٢٩). كما صدرت ميدالية تحمل صورة الأمير «فريدريش» على احد وجهيها، وعلى الوجه الآخر سفينة وعملية انزال وقلعة ترمز الى الاستيلاء على صيدا.

القوات العثمانية بهجوم في بحر صاف، المنطقة الجبلية المطلة على بيروت، فأجبر القوات المصرية على التراجع من موقع الى آخر، ودعيت المنطقة قلعة الميدان. وهكذا، ولت القوات المصرية الأدبار عند ظهور القوات العثمانية بقيادة ميشال لاتاس (عمر باشا النمساوي الكرواتي المولد). وفي اليوم نفسه، استسلمت بيروت دون اطلاق نيران المدافع بـ دما غادرها القائد المصري. وعندما رجع «نابيير» الى مخيم القاعدة في جونية، وجد رسالة من الادميرال «ستوبفورد» بتاريخ ١٠ تشرين الأول يأمره فيها بوقف كافة العمليات والعودة الى المخيم في جونية. أجاب نابيير على هذه الرسالة بثلاثة تقارير فريدة من نوعها، الأول بتاريخ ١٠ تشرين الأول وفيه خبر قصير عن المعركة الدائرة وانتصاره على قوات ابراهيم باشا، والثاني بتاريخ ١١ تشرين الأول يسأل فيها بتهكم اذا كان عليه اطاعة الأمر بالتراجع، والثالث بتاريخ ١٣ تشرين الأول وفيه وصف مفصل للهجوم الناجح.

وفي ١١ تشرين الأول، صعد نابيير الى سفينة القيادة «برنس تشارلوت» لمقابلة الأدميرال «ستوبفورد» والعقيد «سميث»، وقد استعاد الأخير عافيته، ليتخلى عن قيادة العمليات البرية.

في هذه الأثناء، امضى الأمير «فريدريش» وقته بقيادة الفرقاطة «غرييرا» وأعمال التحصين في صيدا واستطلاع المناطق المحيطة بالمدينة التاريخية. واخيراً، وبناء لأوامر الكونتر ادميرال النمساوي «فون باندييرا»، ابحرت «غرييرا» في ١٢ تشرين الأول فوصلت الى مرفأ بيروت في اليوم التالي حيث التقى الأمير بالكونتر ادميرال الذي اعطاه الأوامر بالتوجه جنوباً نحو عكا.

وهنا يورد الكاتب اشتراك الأمير «فريدريش» البطولي في الاستيلاء على عكا أيضاً.

نهاية الأمير فريدريش

بعد انتهاء الحرب، رقي الأمير فريدريش في العام ١٨٤٤ الى رتبة كونتر ادميرال ومن ثم الى رتبة نائب ادميرال، بعد خدمة سبع سنوات في البحرية وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

وفي تشرين الأول ١٧٤٧، فارق الحياة وهو في السابعة والعشرين من عمره، بعد حمى نزلت به.

وبأمر من رئيس الوزراء الأمير «ميترنيخ»، جرى تشريح الجثة بعد ٣٩ ساعة من الوفاة، وأجري للأمير فريدريش مأتم عسكري بحري حاشد، ودفن في كنيسة مار يوحنا المالطية في مدينة البندقية. ويبقى السؤال الكبير: هل مات الأمير مسموماً؟ وهل لاغتياله ارتباط بالحركة الانفصالية الايطالية في البندقية التي نشطت بقصد الانفصال عن النمسا بعد شهرين من الوفاة؟

صيدا في العام ١٨٤٠.

«غرييرا» تقصف المدينة

رسمان لاقتحام صيدا، ويبدو الأمير «فريدريش» على رأس المهاجمين

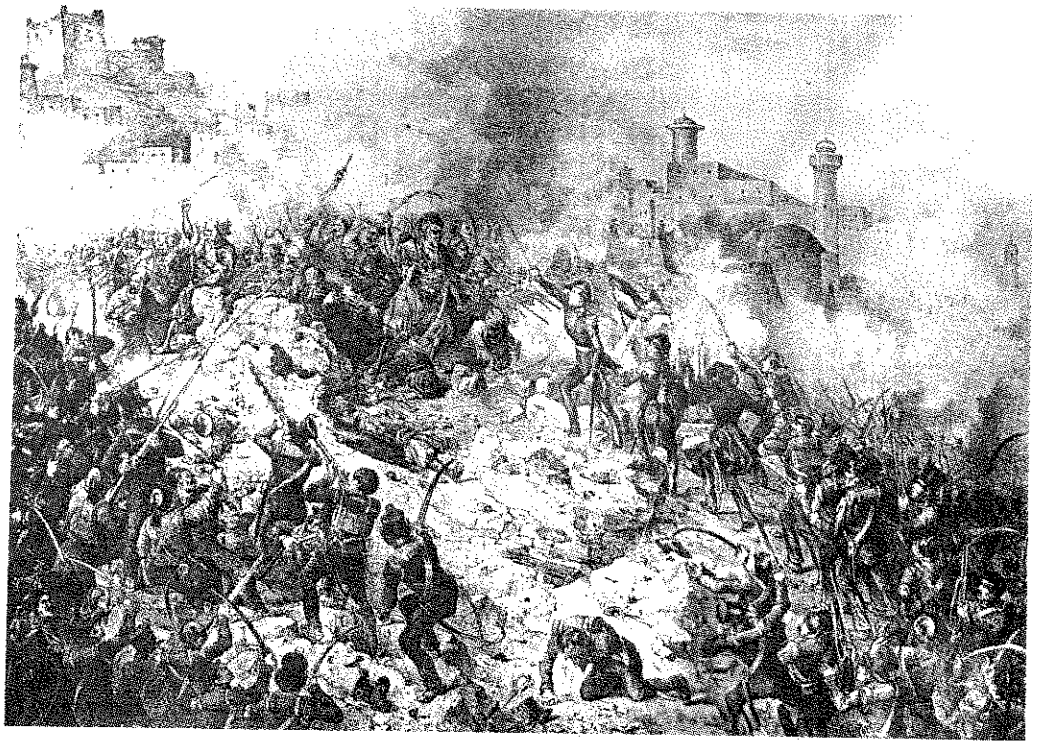

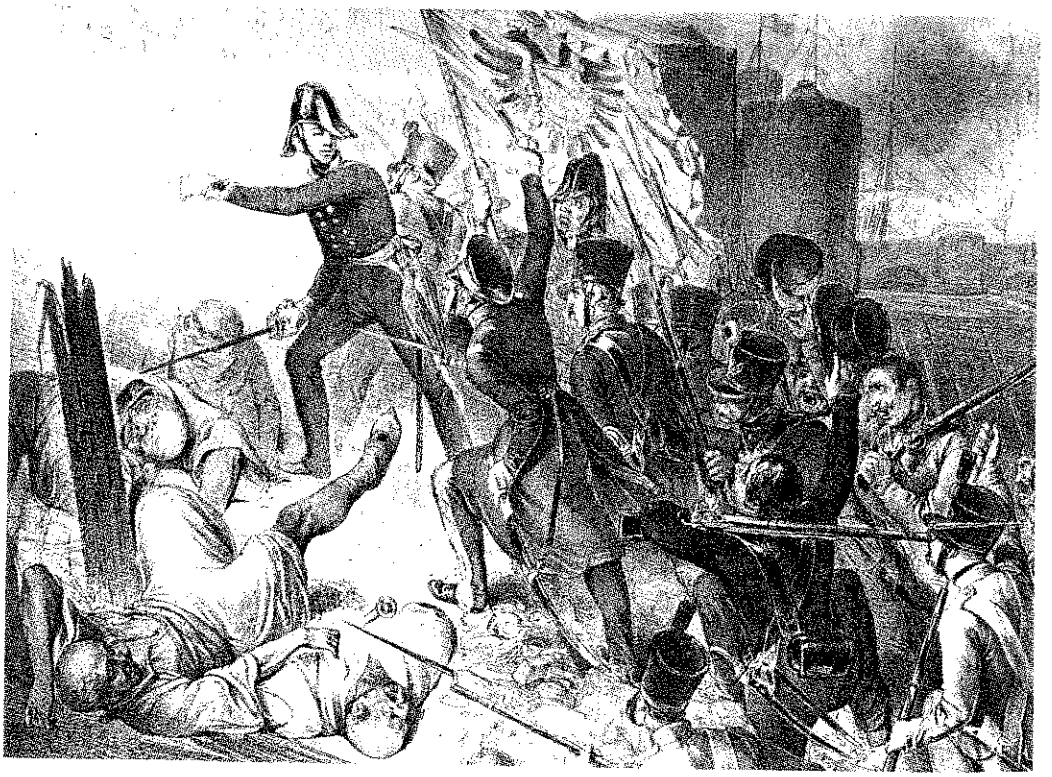

DEFENSE NATIONALE LIBANAISE

LEBAN

LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE

DEFE

NATIONAL

LEBANESE NATIONAL DEFENCE

NAT

LEBANESE NATIONAL D EFENCE LEBANESE NAT IONAL DEFENCE LEBA NESE NATIONAL DEFEN CE LEBANESE NATION AL DEFENCE LEBANES

LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE LEBANESE NATIONAL DEFENCE

L

DEFENCE

LEBANESE NA

AL DEFENC

LEBANESE

TIO